الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٨)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٤١٦هـ - ١٩٩٥

الجزء الحادي العشرون

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

— من وفيات الأعيان لابن خلكان

— من التاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي

— من التاريخ المنصوري لابن نظيف الحموي

— من التاريخ الصالحي لابن واصل الحموي

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا من قبل أن عددا كبيرا من المؤرخين العرب عاصروا بداية قيام الحروب الصليبية ، وعاشوا أحداث ذروتها في حطين وتحرير الساحل والقدس وملحمة عكا حتى وفاة صلاح الدين ، لكن بعض كتابات هؤلاء المؤرخين ماتزال بحكم المفقود، ثم ان الصراع ضد الصليبيين مرّ ـ بعد صلاح الدين ـ بمراحل متميزة انتهت بتحرير عكا من قبل الأشرف خليل، وعاش أيضا هذه الاحداث مجموعة من المؤرخين العرب الكبار لم يقتصر نشاطهم على التأريخ لما عاصروه، بل نقلوا عن كتابات الذين تقدموهم ، وعلى هذا لنتاجهم أهمية مزدوجة ، ويتصدر جيل القرن السابع من المؤرخين العرب الشاميين أربعة هم: ابن خلكان، وابن أبي الدم الحموي، وابن نظيف الحموي، وابن واصل الحموي.

وابن خلكان هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الإربلي كان يكنى أبا العباس، ولد بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١م بدأ في تحصيل العلم في بلدته ثم قصد سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م. مدينة حلب لتلقي العلم فيها، خاصة على ابن شداد، صاحب صلاح الدين والمؤرخ لحياته، وذكر ابن خلكان هذا لدى ترجمته لحياة ابن شداد في كتابه وفيات الأعيان.

غادر ابن خلكان مـدينة حلب الى دمشق، وقد اتخذهـا داراً له، فيها أكمل تحصيلـه العلمي، وفيها تسلم منصب قـاضي القضاة، وبـات في مقدمة أعيـانها لاسيما أيام السلطان الملك الظاهـر بيبرس، وفي دمشق مات سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢ م . وبالنسبة للمهتم بالتاريخ ، ان مكانة ابن خلكان وشهـرته صادرة عن تصنيفـه لكتاب «وفيات الأعيان وأنبـاء أبناء الزمـان » وهذا الكتاب مـن أهم كتب التراجم العـامة وأشهرهـا، صنف من تـرجم له حسب حـروف المعجم ألفبائيـا، ودعاه بوفيـات الأعيان ، على أسـاس أن معظم الشخصيات لاتعرف بـالتأكيد سنـوات ولادتهم، بل سنوات وفياتهـم، لأنهم يحظون بالاهتمام بعد نيلهـم الشهرة، وهكذا تضبط سنوات وفياتهم.

وفضـلا عن المعـاصـرة، عـاد ابن خلكـان الى محتـويـات المكتبـة العربية في بـلاد الشام ومصر، فهو قد عاش بالقـاهرة سبع سنوات عمل فيها بـالتدريس بـالمدرسة الفخـرية، ونـال كتاب وفيات.الأعيـان شهرة واسعة واتخذ قاعدة اما لـلاكمال أو لاستدراك بعض مافات المصنف، وقـد قمت بانتـزاع جميع التـراجم التي حـواها الكتـاب لأعلام تـاريخ الحروب الصليبية ومقدمـاتها، وهي غنية المادة كثيرة الفـوائد، فيها أمانة بالنقل ونـزاهة ، ذلك أن سلوك ابن خلكان الصـارم في القضاء انعكس ايجابيا على عمله في التاريخ.

ولدى عـرض مواد موسوعتنـا حول الدولة الايـوبية أيام صـلاح الدين رأينا أن هـذه الدولة فقـدت مركـزيتها وتحولـت الى عدة ممالـك، كان ابرزها وأطولها عمراً مملكة حماه.

وتعـد مدينـة حماه مـن أهم مـدن بلاد الشـام وأقـدمها ، وغـالبا مـا تنافسـت مع حمص لقصر المسـافة بينهما ولارتبـاطهما بنهر العـاصي،

ونظراً لموقع حمص المتميز، فقد تفوقت على حماه قبل ظهور الاسلام وبعيد نجاح حركة الفتوحات العربية، لكن الفتوحات العربية غيرت كما - هو معلوم - البنية الاستراتيجية: السياسية والعسكرية لمدن بلاد الشام، حيث سرعان ما تقدمت كل من دمشق وحلب نحو الصدارة، وتراجعت القدس وأنطاكية، ومع الأيام قام تنافس شديد بين حلب ودمشق حول السيادة في بلاد الشام، ولم يحسم هذا لصالح أي من المدينتين، وفي الوقت نفسه عانت حمص من الاهمال وتعرضت لكوارث عسكرية الأمر الذي أفاد حماه، حيث تولت دور الحاجز بين دمشق وحلب ،وبين قلاع جبال بهراء إلى الغرب منها والبادية في الشرق، وإلى حماه هاجر كثير من علماء معرة النعمان، لابل قدم إليها علماء من العراق ومن الأندلس أيضا ولدى استقرار الحكم الأيوبي فيها رعى هذا الحكم العلم والعلماء، وتوفرت اهتمامات كبيرة بعلم التاريخ حتى من قبل ملوك المدينة، فقد كتب الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، ثاني ملوك حماه [٥٦٧ ـ ٦١٧هـ/ ١١٧٢ـ ١٢٢٠م] كتاباً كبيراً في التاريخ اسمه «مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، وصلتنا قطعة منه نشرت بالقاهرة عام ١٩٦٨، وسيمر بنا أبو الفداء المؤرخ والجغرافي الكبير .

ومن أوائل المؤرخين الحمويين شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم ففي حماه ولد سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م ، وبها نشأ وتربى وتثقف ، وقد تسلم القضاء في حماه وتكلف بأكثر من مهمة رسمية مما مكنه من زيارة حلب ودمشق والقاهرة، ونال مكانة علية في حماه، وعاصر أربعة من ملوكها الأيوبيين هم: تقي الدين عمر، ثم ابنه المنصور محمد، ثم ولده الملك الناصر قليج أرسلان (٦٢٦ ـ ٦٤٢هـ/ ١٢٢٠ـ ١٢٢٩م) وأخيرا أخيه الملك المظفر الثاني محمود (٦٢٦ـ ٦٤٢ هـ/ ١٢٢٩ـ ١٢٤٤م).

وكانت علاقة ابن أبي الدم جيدة مع هذا الملك ، على عكس علاقته مع قليج أرسلان، وهذا واضح من خلال كتابه في التاريخ الذي نقدم للقسم المتعلق بالحروب الصليبية منه، وبما أن علاقات المنصور الثاني كانت جيدة مع الكامل الأيوبي ، فقد سوغ ابن أبي الدم تسليم الكامل القدس الى الصليبيين، وهذا التسويغ ضعيف يتنافى مع موقف علماء الاسلام آنذاك من هذا الحدث الجلل ويتعارض تماما .

ولعلاقات ابن أبي الدم الجيدة بالمظفر الثاني فقد أسهم في شؤون حماه السياسية وسواها، وهذا الجانب واضح بعض الشيء من خلال مادته التاريخية وكتب ابن أبي الدم بالقضاء وبالتاريخ والفقه والحديث والملل والنحل ، وأهم ما كتبه بالتاريخ: التاريخ المظفري، والتاريخ الكبير أو المقفى، ثم اختصر المظفري بكتاب عرض فيه للتاريخ الاسلامي حتى أيامه.

وكنت قد رأيت في مكتبة أياصوفيا نسخة مخطوطة من التاريخ المظفري في مجلدتين ، لكن ترجمة فارسية له، وليس النص العربي ، ووصلنا من مختصره للتاريخ الاسلامي أكثر من نسخة خطية ، اعتمدت منها نسخة مكتبة البودليان مارش ٦٠ ، وفيها / ١٨٧/ ورقة.

وكان الدكتور حامد زيان غنيم قد نشر في القاهرة عام ١٩٨٩ قطعة صغيرة من الكتاب، وأبلغني مؤخرا أن في نيته متابعة العمل في نشرته وأخبرته بدوري أنني قد أعمد الى نشر الكتاب دفعة واحدة.

وعاش ابن أبي الدم حتى سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وعلى هذا عاصر جملة احداث العصر الأيوبي ، وكان شاهد عصر لها، ومن هذا المنطلق تتأتى أهمية ما كتبه عن عصره، وإن كان مختصراً ، وانها المرة الأولى التي تنتشر بها هذه المادة في موسوعتنا.

ومن الحمويين الذين عاصروا ابن أبي الدم محمد بن علي بن نظيف ، ونحن لانعرف عن هذا المؤرخ سوى الاشارات التي أشار بها إلى نفسه في كتابه التاريخ المظفري، لانعرف متى ولد ، ولاسنة وفاته بالتأكيد ، وإن كنا نرجح أنها كانت سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، وابن نظيف لم يمض حياته في حماه بل في الجزيرة وسواها، وعاش فترة طويلة في حمص، وتوطدت علاقته بملكها المنصور ابراهيم بن المجاهد [ت: ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م]، وله أهدى كتابه « التاريخ المنصوري».

وجاء هذا الكتاب بمثابة اختصار لكتاب كبير بالتاريخ اسمه «الكشف والبيان في حوادث الزمان » ، وهو كما يبدو تاريخ عام للاسلام ، أهم ما فيه ماعاصره المؤلف.

ونعرف من كتاب « التاريخ المنصوري » نسخة خطية واحدة تحتوي على ٢٢٧ ورقة، سلف أن نشرت كما هي صورة طبق الأصل في موسكو عام ١٩٦٠، وقام فيما بعد د. أبو العيد دودو بنشر قطعة من الكتاب تتضمن ما حدث بعد وفاة صلاح الدين حتى نهاية الكتاب ، وطبعت هذه القطعة بدمشق عام ١٩٨٢، وقد اثقل المحقق نص الكتاب بحواشي لا طائل تحتها لا فائدة تذكر منها، واستعار أحد الاصدقاء مني صورة المخطوطة وأعلمني عن نيته بتحقيق نص الكتاب كله، وسيكون هذا مفيدا، والذي قمت به الآن أنني أعدت تحقيق ما نشر بدمشق عام ١٩٨٢ مضيفا إليه ما تعلق بأحدث الحروب الصليبية ومقدماتها قبل وفاة صلاح الدين.

ولدى ابن نظيف بعض الروايات قد انفرد بها،إنما حوادثه تدعم على العموم روايات المؤرخين الآخرين، وفي ذلك فائدة كبيرة.

وأشهر ممن قدمنا ذكرهما من الحمويين ابن واصل جمال الدين ، أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل، الذي ولد بحماه سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م وفيها توفي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨ م لقد زار ابن واصل مدن بلاد الشام وبغداد والقاهرة والحجاز، وأقام بالقاهرة عدة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وكان من شهود حملة الملك الفرنسي لويس التاسع ، وعاش سقوط الحكم الأيوبي في مصر ثم في الشام وتأسست له صلات متينة بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذي أرسله سفيراً إلى منفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

كان ابن واصل موسوعي المعارف، كتب بالأدب، والهندسة وعلم الهيئة والجغرافيا والطب والتاريخ، واختص بالتأريخ لبني أيوب ، ويحكى أنه أرخ لجزيرة صقيلية، وتعد جل مؤلفاته بحكم المفقود، ونظر إلى كتابه« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» على انه أهم ما صنفه بالتاريخ ، وقد شرع في نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ مايزيد على الأربعين سنة، ومايزال جزء منه لم ينشر بعد، قيل لي إنه بالمطبعة منذ أكثر من عامين.

وعلى أهمية كتاب مفرج الكروب، أرى أن أصالة ابن واصل في التدوين التاريخي تظهر في كتاب آخر له بالتاريخ اسمه « التاريخ الصالحي»، وهو كتاب في التاريخ الاسلامي العام، عرض مواده بشكل مختصر، فابن واصل في كتابه مفرج الكروب مصنف جماعة لروايات الآخرين، لكنه هنا شخص آخر ، هو فعلا مؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة بالمقاييس الاسلامية.

وعرفت من كتاب التاريخ الصالحي نسخة غير كاملة تضم بعض أول الكتاب وهي محفوظة بالمكتبة البريطانية (المتحف البريطاني

بلندن) وأخر ى كاملة موجودة في مكتبـه الفاتح باستانبول، ومن نسخة استـانبول هـذه انتـزعت ما تعلـق بموضـوع الحـروب الصليبية وحققتـه ونشرته ، ولا أعرف أنه سلف لغيري أن نشر منه شيئا.

من اللـه تعالى أرجـو التوفيق والعـون وله جـل وعلا الحمـد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين

١٣ ـ جماى ا الأولى ١٤١٦هـ

دمشق ٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

من وفيات الأعيان
لابن خلكان

أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية

هو رجل من التركمان تغلب على حلوان والجبل ثم سار إلى الشام مفارقا لفخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير،خائفا من السلطان محمد بن ملكشاه وذلك في سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة، وملك القدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما توفي أرتق في التاريخ المذكور فيه تولاه بعده ولداه سكمان وإيل غازي ابنا أرتق، ولم يزالا به حتى قصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى من مصر بالعساكر،وأخذه منهما في شوال سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وتوجها إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملكا ديار بكر، وصاحب قلعة ماردين الآن من أولاده، وملك ولده نجم الدين إيل غازي مدينة ماردين سنة إحدى وخمسمائة وكان ولاه السلطان محمد شحنكية بغداد، وتوفي سكمان بن أرتق بعلة الخوانيق في طريق الفرات بين طرابلس والقدس سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان أرتق رجلا شهما ذا عزمة وسعادة وجد واجتهاد، وتوفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى، وهو بضم الهمزة وسكون الراء، وضم التاء المثناة من فوقها بعدها قاف، وأكسب بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح السين المهملة وبعدها باء موحدة، وقيل هو كسك بالكاف بدل الباء والله أعلم.

أبـو الحارث أرسـلان بن عبـد الله البسـاسيري التركـي مقدم الأتراك ببغداد

يقال إنـه كان مملوك بهاء الدولـة بن عضد الـدولة بن بويـه والله أعلم. وهو الذي خـرج على الإمام القائم بأمـر الله ببغداد، وكان قد قـدمه على جميـع الأتـراك وقلـده الأمـور بـأسرهــا وخطـب لـه على منابـر العـراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته الملـوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد وخطب للمستنصر العبيدي صـاحب مصر، فراح الإمام القائم إلى أمير العـرب محيـــي الـديـن أبي الحارث مهـــارش بـن المجلي العقيلي صاحـب الحديثة وعانة فـآواه، وقام بجميع مايحتـاج إليه مدة سنة كـاملة حتـى جاء طغـرلبك السلجـوقي المذكـور بعـد هذا، وقـاتل البسـاسيري المذكور، وقتلـه وعاد القـائم إلى بغداد، وكـان دخولـه إليها في مثـل اليوم الذي خرج منها بعد حول كامـل، وكان ذلك من غرائب الاتفاق وقصته مشهورة وقتله عسكـر السلطان طغرلبك السلجوقي ببغـداد يوم الخيمس خامس عشر ذي الحجة.

وقال ابـن العظيمي: يوم الثلاثـاء حادي عشر ذي الحجة سنـة احدى وخمسين وأربعمائة، وطيف برأسه في بغداد، وصلب قبالة باب النوبي.

والبسـاسيري بفتح البـاء الموحدة والسين المهملـة، وبعد الألـف سين مهملة مكسورة ثـم ياء ساكنة مثنـاة من تحتها، وبعدهـا راء، هذه النسبة إلى بلـدة بفارس يقـال لها بسا، وبـالعربيـة فسـا، والنسبة إليهـا بالعـربي فسوي، ومنها الشيخ أبو علي الفارسي النحـوي صاحب الايضاح، ويقال له فسـوي أيضا وأهـل فارس يقـولون في النسبـة إليها البسـاسيري، وهي نسبـة شاذة على خـلاف الأصـل، وكان سيـد أرسـلان المذكـور من بسـا فنسب المملوك إليـه، واشتهر بالبساسيري هكذا ذكره السمعـاني نقلا عن

الأديب أبي العباس أحمد بن علي بن بابه القاساني، وفي هذه اللفظة زيادة ليست في الأصل.

ومات الأمير مهارش بن المجلي في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقد ناهز ثمانين سنة وهو مهارش بن المجلي بن عكيث بن قباث بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا، وبقية نسبه ستأتي في ترجمة المقلد بن المسيب إن شاء الله تعالى.

أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر صاحب الموصل المعروف بأتابك الملقب الملك العادل نور الدين وسيأتي ذكر جماعة من آل بيته إن شاء الله تعالى كل واحد في حرفه

ملك نور الدين المذكور الموصل بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور هناك،وكان ملكا شهما عارفا بالأمور وانتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله عنه، ولم يكن في بيته شافعي سواه، وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قل ان توجد مدرسة في حسنها،وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستمائة في شبارة بالشط ظاهر الموصل، والشبارة عندهم هي الحراقة بمصر، وكتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل ودفن في تربته التي بمدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وخلف ولدين: هما الملك القاهر عز الدين مسعود، والملك المنصور عماد الدين زنكي، وهما مذكوران في ترجمة جدهما عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فليطلبا منه إن شاء الله تعالى.

وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر، كما هو مشروح هناك، وهو أستاذ الأمير بدر الدين أبي الفضائل لؤلؤ، الذي تغلب على الموصل وملكها في سنة ثلاثين وستمائة في أواخر شهر رمضان، وكان قبل نائبا بها، ثم استقل وهو المذكور في ترجمة عماد الدين بن المشطوب.

أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، وهو والد عماد الدين زنكي بن آق سنقر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى

كان مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي هو وبزان صاحب الرها،ولما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السجوقي في مدينة حلب استناب فيها آق سنقر المذكور، واعتمد عليه لأنه مملوك أخيه فعصى عليه، فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذ فخرج لقتاله وجرى بينهما مصاف وحرب شديد، وانجلت عن قتل آق سنقر المذكور، وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ودفن بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب رحمه الله تعالى، ورأيت عند قبره خلقا كثيرا يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم على ذلك وقفا عظيما يفرق عليهم، ولاأعلم من وقفه، ثم إني وجدت الذي وقفه ولد ولده نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وسيأتي في ترجمة تاج الدولة تتش خبر آق سنقر المذكور، على خلاف هذه الواقعة والله أعلم بالصواب.

والزجاجية بناها أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب، وكان أولا مدفونا بقرنبيا، فلما ملك ولده عماد الدين زنكي حلب نقله إلى المدرسة ودلاه من سور البلد، وكان قتل آق سنقر على قرية يقال لها رويان بالقرب من سبعين من أعمال حلب، ذكرها ياقوت الحموي.

- ٩٤٧٧ -

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين

صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي، وملكها بعد اسباسلار مودود، وكان مودود بها وببلاد الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسمائة، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنة بغداد، كان ولاه إياها السلطان محمد المذكور في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بركياروق.

وفي سنة تسع وتسعين وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباذ بن هزارسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة، وحاصره إلى المحرم من سنة خمسمائة، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباذ صحبته، ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباذ، فلما وصل خبر قتل مودود تقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل.وهو من كبراء الدولة السلجوقية، وله شهرة كبيرة بينهم، قتلته الباطنية بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة.

وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن الباطنية قتلته في مقصورة الجامع بالموصل سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقال العماد: سنة عشرين وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه

وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصبة كبيرة رحمه الله تعالى.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه ثم توفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسمائة رحمه الله تعالى وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر المذكور قبله كما سيأتي في حرف الزاي إن شاء الله تعالى.

والبرسقي بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم السين المهملة وبعدها قاف ولاأعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولم يذكرها السمعاني، ثم إني وجدت نسبته بعد هذا إلى برسق، وكان من مماليك السلطان طغرلبك أبي طالب محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وتقدم في الدولة السلجوقية، وكان من الأمراء المشار إليهم فيها، المعدودين من أعيانهم.

تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي.

كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق، من جهة صاحب مصر، وكان صاحب دمشق يومئذ أتسز ابن أوق الخوارزمي التركي، سير أتسز المذكور إلى تتش، فاستنجد به، فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أتسز، فقبض عليه تتش، واستولى على مملكته، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر،وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

ورأيت في بعض التواريخ أن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين، والله أعلم.

ثم ملك حلب بعد ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم في ترجمة آق سنقر، واستولى على البلاد الشامية، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق، المقدم ذكره منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة، فتوجه إليه فتصافا بالقرب من مدينة الري، في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فانكسر تتش المذكور، وقتل في المعركة ذلك النهار.

ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وخلف ولدين- أحدهمافخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق، فاستقل رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، وتوفي رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

وتوفي دقاق في ثامن عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة،

ودفـن في مسجد بحكـر الفهاديـن بظـاهر دمشـق الذي على نهر بـردى، وكان قـد حصل له مـرض متطاول، وقيـل إن أمه سمته في عنقـود عنب، فلما مـات قام بـالملك ظهير الـدين أبـومنصور طغتكين، وكـان أتابكـه وتزوج أمه في حياة أبيه، زوجه إياها، وهو عتيق تتش، رحمهم الله تعالى.

وأولاد الملك رضوان المقيمـون بظاهر حلب هـم أولاد رضوان المذكور، ولم يزل ظهير الدين طغتكين مالـك دمشق، إلى أن توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتـولى الأمر بعده ولده تاج الملـوك أبو سعيـد بـوري إلى أن تـوفي يوم الاثنين الحادي والعشريـن مـن رجب سنـة ست وعشريـن وخمسمائة من جـراحة أصـابته مـن الباطنيـة، وتولى بعـده ولده شمـس الملوك اسماعيـل إلى أن قتل يـوم الأربعاء رابـع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشريـن وخمسمائة قتلته أمه خاتون زمرد بنت جـاولي، وأجلست أخاه شهـاب الدين أبا القـاسم محمود بـن بوري فتولى الأمر بعـده بدمشق إلى أن قتل ليلـة الجمعة الثالث والعشريـن من شوال سنـة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، قتله غـلامه البقش ويـوسف الخادم والفـراش الخركاوي، وصبيحـة قتله وصـل أخـوه جمال الديـن محمد بـن بوري مـن بعلبك، وكـان صاحبهـا فملك دمشـق، وأقام بها إلى أن تـوفي ليلة الجمعة ثـامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وتـولى بعده مملكة دمشق ولـده مجير الدين أبق بـن محمد بن بوري بـن طغتكين إلى أن نزل عليها نور الدين محمود بن زنكـي في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأخـذها منه وعرضه عـوضه عنها حمص،فأقـام بها يسيرا ثم انتقل الى بالس التي على الفرات بأمر نـور الدين وأقام بهامدة ثم توجه الى بغـداد واقبل عليـه الامام المقتفـي ولا أعلم متى مـات، ولما كـان بـدمشـق كـان مــدبـر دولتــه معيـن الـديـن انــر بـن عبـد الله مملـوك جده طغتكين، وهـو الـذي ينسب إليـه قصر معين الـدين ببـلاد الغـور مـن أعمال دمشق، وتـوفي معين الـديـن المذكـور في ليلة الثـالـث

والعشرين من شهـر ربيع الآخر سنة أربـع وأربعين وخمسمائة، وهو الذي تزوج نـور الدين محمـود ابنته، تزوجهـا من بعـده السلطان صلاح الـدين رحمهم الله اجمعين، وله بدمشق مدرسة ثـم وجدت تاريخ وفاة مجير الدين أبق فذكرتها في ترجمة نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين

وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه تاج الملوك، وهو أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان أكبر منه وكان السلطان يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، وبلغه أن باليمن انسانا يسمى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتى يملك الأرض كلها، وكان قد ملك كثيرا من بلادها، واستولى على حصونها وخطب لنفسه، وكان السلطان قد ثبتت قواعده وقوي عسكره، فجهز أخاه شمس الدولة المذكور بجيش اختاره وتوجه إليها من الديار المصرية في أثناء رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، فمضى إليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان فيها، وملك معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا، وكان كريما أريحيا، ثم إنه عاد من اليمن والسلطان على حصار حلب، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ولما رجع السلطان من الحصار وتوجه إلى الديار المصرية استخلفه بدمشق، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى مصر.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين أنه توفي يوم الخميس مستهل صفر، وقال في موضع آخر من السيرة أيضا: خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الاسكندرية المحروس، ونقلته أخته شقيقته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين، وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكانت تزوجته بعد لاجين رحمهم الله أجمعين، وكانت وفاة حسام الدين المذكور ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

وهذا حسام الدين المذكور هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله

الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق جبل قاسيون، ولهما شهرة في مكانهما وله أوقاف كثيرة ومعروف نافع في الدنيا والآخرة، وكانت وفاته في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة ودفن في تربته المجاورة لمدرسته المذكورة وسيأتي ذكر ناصر الدين محمد بن شيركوه في ترجمة أبيه في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتوفيت ست الشام المذكورة في سادس عشر ذي القعدة سنة ست عشرة وستمائة.

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت بخط بعض الفضلاء ممن له عناية بهذا الفن زيادة على ماذكرته ههنا، فتركت ماهو مذكور في هذا المكان، وأتيت بتلك الزيادة فقال: لما تمهدت بلاد اليمن لشمس الدولة، واستقامت له أمورها كره المقام بها لكونه تربية بلاد الشام وهي كثيرة الخير، واليمن بلاد مجدبة من ذلك كله، فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقيل منها ويسأله الأذن له في العود إلى الشام، ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها فأرسل إليه صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة، وأنها كثيرة الأموال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته: أحضر لنا ألف دينار فأحضرها، فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنده: أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بما فيه قطعة ثلج، فقال أستاذ الدار: يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج، فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي، فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا، فجعل يعدد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر التعجب من كلامه، وكلما قال له عن ذلك نوع يقول له: يامولانا من أين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي، فإن المال لايؤكل بعينه بل الفائدة فيه أنه يتوصل به الانسان

إلى بلوغ أغراضه، فعاد الرسول إلى صلاح الدين، وأخبره بما جرى، فأذن له في المجيء وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفائقة ويودعها شرح الأشواق، فمن ذلك أبيات مشهورة ذكرها في ضمن كتاب، وهي:

لا تضجرن مما أتيت فإنه
صدر لأسرار الصبابة ينفث
أما فراقك واللقاء فإن ذا
منه أموت وذاك منه أبعث
حلف الزمان على تفرق شملنا
فمتى يرق لنا الزمان ويحنث
كم يلبث الجسم الذي ما نفسه
فيه ولا أنفاسه كم يلبث
حول المضاجع كتبكم فكأنني
ملسوعكم وهي الرقاة النفث

ولما وصل إلى دمشق في التاريخ المقدم ذكره، ناب عن أخيه صلاح الدين بها، لما عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم انتقل إلى الديار المصرية في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وكان أخوه صلاح الدين قد سيره في سنة ثمان وستين وخمسمائة إلى بلاد النوبة ليفتحها، قبل سفره إلى اليمن، فلما وصل إليها وجدها لا تساوي المشقة فتركها، ورجع وقد غنم شيئا كثيرا من الرقيق، وكانت له من أخيه اقطاعات، ونوابه باليمن يجبون له الأموال، ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه صلاح الدين.

وحكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلي، نزيل مصر، الأديب الفاضل، قال: رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو ميت فمدحته بأبيات، وهو في القبر، فلف كفنه ورماه إلي وأنشدني:

لاتستقلن معروفنا سمحت به
ميتا فأمسيت منه عاريا بدني
ولاتظنن جودي شابه بخل
من بعد بذلي ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي
من كل ماملكت كفي سوى كفني

ولما كان في اليمن استناب في زبيد سيف الدولة أبا الميمون المبارك بن منقذ الآتي ذكره في حرف الميم، إنشاء الله تعالى.

وتوران بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو، وبعدها راء ثم بعد الألف نون، وهو لفظ أعجمي، وشاه بالشين المعجمة، هو الملك باللغة العجمية، ومعناه ملك المشرق، وإنما قيل للمشرق توران، لأنه بلاد الترك، والعجم يسمون الترك تركمان،ثم حرفوه فقالوا: توران، والله أعلم.

أبو سليمان داود الملقب الملك الزاهر مجير الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمهم الله تعالى.

كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطىء الفرات، وكان يحب العلماء وأهل الفضل ويقصدونه من البلاد، ولما ولد بالقاهرة كان السلطان صلاح الدين بالشام، وكان الثاني عشر من أولاده، فكتب إليه القاضي الفاضل رسالة يبشره بولادته من جملتها: « وهذا المولود المبارك هو الموفى لاثني عشر ولدا، بل لاثني عشر نجما متقدا فقد زاده الله تعالى في أنجمه عن أنجم يوسف عليه السلام نجما، ورآهم المولى يقظة ورأى يوسف تلك الأنجم حلما، ورآهم يوسف ساجدين له، ورأينا الخلق لهم سجودا، وهو تعالى قادر أن يزيد في جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدوداً» وقد ألم القاضي الفاضل في آخر هذا الكلام بقول البحتري في مدح الخليفة المتوكل، وقد ولد له المعتز من قصيدة:

وبقيت حتى تستضيء برأيه
وترى الكهول الشيب من أولاده

وحكى عنه جماعة أنه كان يقول من أراد أن يبصر صلاح الدين فليبصرني فأنا أشبه أولاده به، وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة، وقيل القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وهو شقيق الملك الظاهر الآتي ذكره في حرف الغين المعجمة إن شاء الله تعالى، وتوفي بالبيرة في ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب وقد وصل نعيه اليها فتوجه الملك العزيز ابن الملك الظاهر أخيه إلى القلعة المذكورة وملكها رحمه الله تعالى، والبيرة بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي قلعة بقرب سميساط من ثغور الروم على الفرات من جانب الجزيرة الفراتية. وسميساط في بر الشام بين قلعة الروم وملطية ، والفرات يفصل بين الجهتين والله أعلم.

أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري الملقب نور الدولة

ملك العرب صاحب الحلة المزيدية، كان جوادا كريما عنده معرفة بالأدب والشعر، وتمكن في خلافة الإمام المسترشد، واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير وسيأتي ذكر أبيه وأجداده في حرف الصاد إن شاء الله تعالى، ودبيس المذكور هو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: أو الأسدي دبيسّ لأنه كان معاصره كما نذكره في حرف القاف إن شاء الله تعالى، فرام التقرب إليه بذكره في مقاماته،وبجلالة قدره أيضا، وله نظم حسن، ورأيت العماد الكاتب في الخريدة وابن المستوفي في تاريخ إربل وغيرهما قد نسبوا إليه الأبيات اللامية التي من جملتها:

أسلمــــه حـــب سليمانكـــم
إلى هـــــوى أيسره القتـــــل

ورأيت ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة قد ذكرها لابن رشيق القيرواني،وقد ذكرتها في ترجمته في حرف الحاء، والظاهر أنها لابن رشيق لأن ابن بسام ذكر في الذخيرة أنه ألفها في سنة اثنتين وخمسمائة، وفي هذا التاريخ كان دبيس شابا يبعد أن يصل شعره في ذلك السن إلى الأندلس، وينسب إلى مثل ابن رشيق مع معرفة ابن بسام بأشعار أهل المغرب، وذكر ابن المستوفي في تاريخه أن بدران أخا دبيس كتب إلى أخيه المذكور وهو نازح عنه:

إلا قـــل لمنصـــور وقـــل لمسيـــب
وقـــل لـــدبيـــس إنني لغـــريـــب
هنيئـــا لكـــم مـــاء الفـــرات وطيبـــه
إذا لم يكـــن لي في الفـــرات نصيـــب

فكتب إليه دبيس:

إلا قل لبدران الذي حن نازعا
إلى أرضه والحر ليس يخيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عذار الأماني بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة
وللأرض من كأس الكرام نصيب

وذكرغير ابن المستوفي أن بدران بن صدقة المذكور لقبه تاج الملوك، ولما قتل أبوه تغرب عن بغداد ودخل الشام فأقام بها مدة، ثم توجه إلى مصر ومات بها في سنة اثنتين وخمسمائة، وكان يقول الشعر، وذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة: وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان، ومعهم الإمام المسترشد بالله لسبب سنذكره في ترجمة مسعود المذكور إن شاء الله تعالى، فهجموا خيمته أعني المسترشد بالله وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين.

وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وخاف أن تنسب القضية إليه وأراد أن تنسب إلى دبيس المذكور فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان، فسير بعض مماليكه فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقاما منه بما فعل في حق الإمام، وكان ذلك بعد قتل الإمام بشهر رحمه الله تعالى، وذكر المأموني في تاريخه أنه قتل في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة على باب خوي، وكان قد أحس بتغيير رأي السلطان فيه منذ قتل المسترشد، وعزم على الهرب مرارا وكانت المنية تثبطه.

وذكر ابن الأزرق في تاريخه أن قتله كان على باب تبريز، وأنه لما قتل

حمل إلى ماردين إلى زوجته كهار خاتون فدفن بالمشهد عند نجم الدين إلغازي صاحب ماردين، والد كهار خاتون المذكورة، ثم تزوج السلطان المذكور زبيدة بنت الوزير نظام الملك، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة فخر الدولة بن جهير إن شاء الله تعالى.

والناشري بفتح النون، وبعد الألف شين معجمة مكسورة، وبعدها راء ثم ياء، هذه النسبة إلى ناشرة بن نصر، بطن من أسد بن خزيمة.

أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب

كان صاحب الموصل، وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الهمزة، وكان من الأمراء المقدمين، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة، وكان لما قتل آق سنقر البرسقي المذكور في حرف الهمزة، وتوفي أيضا ولده مسعود حسبما ذكرناه في ترجمته ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان بتسليم الموصل إلى دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة، وقد تقدم ذكره أيضا فتجهز دبيس للمسير، وكان بالموصل أمير كبير المنزلة يعرف بالجاولي، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثته نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليغسياني لتقرير قاعدته، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر تولية دبيس، وقال: لاسبيل إلى هذا، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود في ذلك، وآخر ماوقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي المذكور، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي، ففعلا ذلك وضمنا للسلطان مالا وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار، فبطل أمر دبيس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها، ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسمائة كذا قال ابن العظيمي في تاريخه، وقد قيل إن انتقاله إلى الموصل كان في سنة اثنين وعشرين وخمسمائة، والأول أصح وسيأتي ذكر السلطان محمود في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان، وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما، فلهذا قيل له أتابك، لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك وقد تقدم ذكر ذلك في حرف الجيم

عند ذكر جقر، ثم استولى زنكي على ماوالى الموصل من البلاد، وفتح الرها يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين الأرمني، ثم توجه إلى قلعة جعبر وملكها يوم ذاك سيف الدولة أبو الحسن علي بن مالك، فحاصرها وأشرف على أخذها، فأصبح يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مقتولاً، قتله خادمه وهو نائم على فراشه ليلاً، ودفن بصفين.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الأتابكي أن زنكي المذكور لما قتل والده كان عمره تقديراً عشر سنين، وقد تقدم تاريخ قتل والده في ترجمته، فيكون مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصفين بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي أرض على شاطىء الفرات بالقرب من قلعة جعبر إلا أنها في بر الشام، وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية بينهما مقدار فرسخ وأقل وفيها مشهد في موضع الوقعة التي كانت بها المشهورة التي بين على بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعاوية بن أبي سفيان، وبهذه الأرض قبور جماعة من الصحابة رضي الله عنهم حضروا هذه الوقعة وقتلوا بها منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وتوفي القاضي بهاء الدين الشهرزوري الرسول المذكور يوم السبت سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بحلب، وحمل إلى صفين ودفن بها رحمة الله تعالى عليه.

أبو الفتح عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المذكور قبله المعروف بصاحب سنجار

قد ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح نور الدين اسماعيل بن محمود بن زنكي، وكانت وفاة الصالح المذكور في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ثم إن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب نزل على حلب وحاصرها في سنة تسع وسبعين، وآخر الأمر وقع الاتفاق على أنه عوض عماد الدين زنكي المذكور سنجار وتلك النواحي، وأخذ منه حلب، وذلك في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وانتقل زنكي إلى سنجار، ولم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى.

قد تقدم من حديثه نبذة في أخبار شاور، وكان شاور قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسمائة،وذكر بهاء الدين بن شداد أن ذلك كان في سنة ثمان وخمسين، وأنهم وصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، حكاه في سيرة صلاح الدين، فسير معه جماعة من عسكره وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه، وقدموا مصر، وغدر بهم شاور، ولم يف بما وعدهم به فغادروا إلى دمشق، وكان رحيلهم عن مصر في السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيح وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الاسكندرية، واحتمى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر، ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلبيس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له السلطان صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلبيس وملكوها وقتلوا أهلها في سنة أربع وستين سيروا إلى أسد الدين، وطلبوه ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم،وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وعزم شاور على قتله، وقتل الأمراء الكبار الذين معه فبادروه وقتلوه كما تقدم في ترجمته، وتولى أسد الدين الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين، وقال الروحي يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة بالقاهرة ، ودفن بها ثم نقل إلى مدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد مدة بوصية منه رحمه الله تعالى وتولى مكانه صلاح الدين.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: إن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في التاريخ المذكور، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب الملك القاهر، ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين حمص منهم في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة، فلما ملك صلاح الدين الشام أعطى حمص لناصر الدين المذكور ولم يزل ملكها حتى توفي يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق ظاهر البلد ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب المقدم ذكره، وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه ومولده في سنة تسع وستين وخمسمائة، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب سنةسبع وثلاثين وستمائة بحمص، ودفن في تربته داخل البلد، وكانت له أيضا الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور، وخلف جماعة من الأولاد، فقام مقامه في الملك ولده الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم، ولم يزل حتى توفي يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جهتها القبلية، وترتب مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدولة أبو الفتح موسى، وأخبرني الأشرف المذكور بدمشق في أواخر سنة إحدى وستين وستمائة أن مولده في السنة التي كسر فيها الخوارزمية بالروم وأن والده بشر به وهم راجعون من هناك، وكانت الوقعة في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة حسبما هو مشروح في ترجمة الأشرف بن العادل، وقال لي: إن والده لما بشر به قال للملك الأشرف بن العادل: ياخوند قد زاد في مماليكك واحد،فقال: سمه باسمي فسماه الأشرف مظفرالدين ابا الفتح

موسى، وكانت وفاة الأشرف بن المنصور المذكور بحمص يوم الجمعة عاشر صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، ودفن عند قبر أسد الدين شيركوه جده داخل حمص، فيكون تقدير ولادته في شوال أو ذي القعدة سنة سبع وعشرين، وشيركوه لفظ عجمي تفسيره بالعربي أسد الجبل، فشير أسد وكوه جبل، وحج شيركوه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة من دمشق على طريق تيماء وخيبر، وفي تلك السنة حج زين الدين علي بن بكتكين على طريق العراق واجتمع بالخليفة.

سيف الاسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن

كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملك الديار المصرية قد سير أخاه شمس الدولة توران شاه المقدم ذكره في حرف التاء إلى بلاد اليمن،فملكها واستولى على كثير من بلادها، ورجع عنها حسبما هو مذكور في ترجمته، ثم سير السلطان إليها بعد ذلك أخاه سيف الاسلام المذكور، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسمائة وكان رجلا شجاعا كريما مشكور السيرة، حسن السياسة، مقصودا من البلاد الشاسعة لاحسانة وبره، ورحل إليه شرف الدين أبو المحاسن بن عنين الدمشقي الآتي ذكره في حرف الميم، ومدحه بغرر القصائد فأحسن إليه وأجزل صلته، واكتسب من جهته مالا وافرا، وخرج به من اليمن، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته فعمل في ذلك:

ما كل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالها
هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وكانت وفاة سيف الاسلام في شوال التاسع عشر من سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن رحمه الله تعالى.

وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين اسماعيل، وللمعز المذكور صنف أبو الغنائم مسلم بن محمود بن نعمه بن أرسلان الشيزري كتابه الذي سماه «عجائب الأسفار وغرائب الأخبار» وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيرا، وذكر العز بن عساكر أنه مات بالحمراء من بلاد

اليمن، وذكر أبو الغنائم المذكور في كتابه الذي سماه « جمهرة الاسلام ذات النثر والنظم» أنه مات بتعز ودفن بها بالمدرسة، ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء اسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين بمكان يقال له عجبي شامي زبيد، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب.

وكان أبو الغنائم المذكور أديبا شاعرا، وكان موجودا في سنة سبع عشرة وستمائة، فقد توفي في هذه السنة أو بعدها، وكان أبوه أبو الثناء محمود نحويا متصدراً بجامع دمشق لاقراء النحو، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة، وقال: توفي بعد سنة خمس وستين وخمسمائة، وقال شرف الدين بن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة
وما هي إلا واحد غير مفترى
إذا صح كاف الكيس فالكل حاصل
لديك وكل الصيد يوجد في الفرا

وكان جده أرسلان مملوك ابن منقذ صاحب شيزر.

وطغتكين بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، وهو اسم تركي.

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر

كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلما قتل الظاهر اسماعيل صاحب مصر كما تقدم في حرف الهمزة، سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان فلما قربوا من البلد هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة أيضا، لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على مايقال، ودخل الصالح إلى القاهرة وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وكان فاضلا سمحا في العطاء، سهلا في اللقاء، محبا لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين ومن شعره قوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه
عبرا وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره
فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره أيضا:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه
ماضي اللحاظ كأنما سلت يدي
سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة
في خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما
أصداغه نفضت على خديه

الناس طوع يدي وأمري نافذ
فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فأعجب لسلطان يعم بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه
مستقبح لفررت منه إليه

وروى عنه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري الملقب زين الدين الحنبلي، المعروف بابن نجية الواعظ المشهور الدمشقي، قال أنشدني طلائع بن رزيك لنفسه بمصر:

مشيبك قد نضا صبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى
وما ناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلي نزيل حمص قد قصده من الموصل، ومدحه بقصيدته الكافية التي أولها:

أما كفاك تلافي في تلافيكا
ولست تنقم الا فرط حبيكا

وهي من نخب القصائد ومخلصها:

وفيم تغضب إن قال الوشاة سلا
وأنت تعلم أني لست أسلوكا
لا نلت وصلك إن كان الذي زعموا
ولا شفى ظمئي جود ابن رزيكا

وهي طويلة طائلة، ولولا خوف الاطالة لكتبتها.

ولما مـات الفائز وتـولى العاضد مكانـه،استمر الصـالح على وزارتـه، وزادت حرمته، وتزوج العـاضد ابنته فاغتر بطول السلامـة، وكان العاضد تحت قبضته وفي أسره، فلما طال عليـه ذلك أعمل الحيلة في قتلـه، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقـال لهم أولاد الراعي، وتقرر ذلك بينهم، وعين لهم موضعا في القصر يجلسون فيه مستخفين فـإذا مر بهم الصالح ليلا أو نهارا قتلوه، فقعدوا له ليلـة وخرج من القصر فقاموا ليخرجـوا إليه، فأراد أحدهـم أن يفتح غلـق الباب فـأغلقه ومـاعلم، فلـم يحصل مقصـودهم تلك الليلة لأمر أراده الله تعالى في تأخير الأجل، ثـم جلسوا له يوما آخر فدخـل القصر نهارا فوثبـوا عليه وجـرحوه جـراحات عـديدة بعضهـا في رأسه، ووقع الصـوت، فعاد أصحابه إليـه فقتلوا الذين جـرحوه وحمل إلى داره مجروحا ودمـه يسيل، وأقام بعض يـوم ومات يوم الاثنين تـاسع عشر رمضـان سنة سـت وخمسين وخمسمائة، رحمه الله تعالى، وكـانت ولادتـه في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وخـرجت الخلع لولـده العادل محيي الـدين رزيك المقدم ذكـره في ترجمة شاور يوم الثـلاثاء ثاني يوم وفـاة أبيه، وكنيته أبو شجـاع، ولما تولى الـوزارة لقبوه العادل النـاصر، ولما مات رثـاه الفقيه عمارة اليمني بقصيدة أولها:

أفي أهـل ذا النـادي عليـم أسـائلـه
فـإني لما بي ذاهـب اللـب ذاهلـه

سمعـت حـديثـا أحسـد الصـم عنـده
ويـذهـل واعيـه ويخرس قـائلـه

فهـل مـن جـواب يستغيـث بـه المنـى
ويعلـو على حـق المصيبـة بـاطلـه

وقـد رابنـي مـن شـاهـد الحال أننـي
أرى الـدسـت منصـوبـا ومـا فيـه كـافلـه

فهـل غـاب عنـه واستنـاب سليلـه
أم اختـار هجـرا لا يـرجـى تـواصلـه

فـــإني أرى فــــوق الـــوجـــوه كـــآبـــة
تـــدل على أن الـــوجـــوه ثـــواكلـــه

ومنها:

دعـــــوني فما هـــــذا أوان بكـــــائه
سيـــأتيكـــم طـــل البكـــاء ووابلـــه

ولا تنكـــروا حـــزني عليـــه فـــإننـــي
تقشـــع عنـــي وابـــل كنـــت آملـــه

ولم لا نبكيـــــه ونـنـــدب فقـــده
وأولادنـــــا أيتـــــامـــه وأراملـــه

فيـــا ليـــت شعـــري بعـــد حســـن فعـــالـــه
وقـــد غـــاب عنـــا مـــا بنـــا الله فـــاعلـــة

أيكـــرم مثـــوى ضيفكـــم وغـــريبكـــم
فيمكـــث أم تطـــوى ببين مـــراحلـــه

وهي طـويلة، وكان قـد دفن بالقـاهرة، ثـم نقله ولده العـادل من دار الوزارة التـي دفن فيهـا وهي المعـروفة بـانشاء الأفضـل شاهنشـاه المقدم ذكـره، وكـان نقله في تـاسـع عشر صفـر سنـة سبع وخمسين في تـابـوت، وركب خلفـه العاضـد إلى تربتـه التي بـالقرافـة الكبرى، فعمل في ذلـك الفقيـه عمارة أيضـا قصيدة طـويلـة وأجـاد فيهـا، ومن جملتهـا في صفـة التابوت:

وكـــأنـــه تـــابـــوت مـــوســـى أودعـــت
في جـــانبيـــه سكينـــة ووقـــار

وله فيـه مراث كثيرة، وهذا الصـالح هـو الذي بنى الجامـع الذي على باب زويلة بظاهـر القاهرة، وأما ولده العادل رزيـك فقد ذكرت في ترجمة شاور تاريخ هربه من القاهرة وكـان قد حمل معه من الذخائر مالا يحصى ومعـه أهلـه وحـاشيتـه، واستجـار بسليمان وقيـل بيعقـوب بـن البيـض

اللخمي، وكـان من خواص أصحابهم وحصـل من جهتهم نعمـة وافرة، فـأنزلهم عنـده وهو بـأطفيح، وسـار مـن ساعتـه إلى شاور وأعلمـه بهم، فنـدب معه جماعـة ومضـوا إلى العـادل وأخذوه أسيرا وأحضروه إلى بـاب شاور، فـوقف زمانـا طويلا، ثـم حبسه ثم قـال شاور لابن البيـض: لقد خبأك الصالـح ذخيرة صالحة لولده، وأنـا أخبوك أيضا لولـدي ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة مديدة، ثم قتله وأخرج رأسه لأمراء الدولة.

ومـن العجـائب أن الصـالح ولي الـوزارة في التـاسـع عشر، وقتـل في التاسـع عشر، ونقل تـابوتـه في التاسـع عشر، وزالت دولتهـم في التاسـع عشر، ورزيك بضـم الراء، وتشـديد الزاء المكسـورة، وسكون اليـاء المثناة من تحتها، وبعدها كاف.

وكانت ولادة زيـن الدين الواعظ المذكور سنـة ثمان وخمسمائة بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغـداد مرارا، وصاهر أبـا الحسن سعد الخير بن محمـد بن سهـل بن سعـد البلنسي الانصاري الانـدلسي على ابنته أم عبـد الكريـم فاطمة، وانتقل قبـل وفاته إلى مصر وحدث بها، وتوفي يوم الاربعـاء ثامن رمضان سنة تسـع وتسعين وخمسمائة بمصر، وهو المعروف بابـن نجية رحمه الله تعالى.

الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

كان نائبا عن أبيه في الديار المصرية، لما كان أبوه بالشام، وتوفي أبوه بدمشق، فاستقل بملكها باتفاق من الأمراء كما هو مشهور، فلا حاجة إلى شرحه وكان ملكا مباركا كثير الخير، واسع الكرم محسنا إلى الناس، معتقدا في أرباب الخير والصلاح، وسمع بالاسكندرية الحديث من الحافظ السلفي، ويقال إن والده كان يؤثره على بقية أولاده، ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد، كان والده بالشام، والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهنئه: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشده وإرشاده وزاد سعده وإسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده، واشتد باعضاده فيهم اعضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك، وهذه أولاده، وينهى أن الله تعالى، وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سريا برا زكيا نقيا من ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، ومماليكه ملوكا في الأرض».

وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد توجه إلى الفيوم، فطرد فرسه وراء صيد، فتقنطر به فأصابته الحمى من ذلك، وحمل إلى القاهرة فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

نقلت من خط القاضي الفاضل فصلا يتعلق بالملك العزيز بن صلاح الدين رحمه الله تعالى، مامثاله: «لما كان يوم السبت تاسع عشر المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة اشتد المرض بالملك العزيز، وخيف عليه، وأدركه في ليله فواق وأخذ نبضه في الضعف، وأصبح الطبيب على ياس

منه، ثم لما كـان وقت الظهر وقعت البشرى أنه أفـاق وحضر ذهنه، وكلم من حوله، وحضر إليه الأمراء والخواص» ثـم قال بعد ذلك:« إلى أن كان وقت العتمـة من ليلـة الأحد فبـدت قوتـه تصغر، والفـواق يشتد، وبغتـه الأمر، وعظمت الحمى، وصغر النبض، وكثر عليه الغشي وكانت وفاته في الساعة السابعـة من ليلة الأحد، ولما كان في آخر الليل خـرج فخر الدين جهاركس، وأسـد الدين سراسنقر وجماعـة من المماليك واستدعـوا الأمراء فأحضرت، وأعلمـت بوفـاته، وقـال المذكورون: إنـا قد اجتمعـت كلمتنا على أن يكون ولد العـزيز الأكبر، وتقدير عمـره عشر سنين واسمه محمد، ولقبه ناصر الدين المنتصب في السلطنة، والقـائم بالأمر، وأن يكون أتابكه بهاء الـديـن قراقـوش، وقـالـوا قد كـان السلطـان استنـاب هذا الـولـد، واستخلف على تـربيته قـراقوش، ونريـد أن نجمع الأمـراء ونخرج الخدام يبلغونهم رسـالة عن السلطـان، وأنه حي ومعنى الـرسالة: إن هـذا ولدي سلطانكم من بعدي، فاحلفوا له واحفظوني فيه، فقلت لهم: فإن طالبكم الأمراء بسماع هذه المقـالة من السلطان مـاالذي تقولون لهم؟ فـرجعوا إلى أن يخاطبوا الأمـراء إذا حضروا بأن السلطان وصـى بهذه الوصية، وأنـه قد قضى ويدخلون عليهـم من جانب الموافاة لجد هذا الصبـي وأبيه، فقلت لهم: لاتنتظروا اجتماع الأمراءفـإنهم إن حضروا جملة فلا تأمنـوا أن يتمنعوا جملة، بل كـل من حضر من الأمراء تقولـون له قد اتفقنا فكـن معنا، وقد حلفنا، فـاحلف كما حلفنا، وقدمـوا المصحف وأسرعوا في تلقينـه، فجرى الأمر على هذا، فلما تكـامل الحلف أو أكثره أحضروا الولـد، فبكى الناس لما رأوه وصاحـوا وقامـوا إليه ووقفوا بين يـديه، جميـع ذلك قبـل أن يسفر صباح الأحد، ثـم صليت فريضة الفجـر، وشرعوا في تجهيز الملك العـزيز إلى قبره، وغسـل في مكان مـوته، واجتمـع الناس فيما بين الظهـر والعصر للصلاة عليـه، وكثر الـزحام وقـامت الـواعية، فلـم يخلص مـن دفنه إلى قـريـب المغرب، وخـوطـب ولـده بـالملـك الناصر بلقـب جـده في هـذا اليـوم»،ولما مات كتـب القاضي الفـاضل إلى عمـه الملك العـادل رسالـة

يعزيه مـن جملتها:« فنقول في توديع النعمـة بالملك العزيـز لاحول ولاقوة إلا بالله قول الصابرين، ونقول في استبقـائها بالملك العادل الحمد لله رب العالمين قول الشاكرين ، وقد كان مـن أمر هذه الحادثة ماقطع كل قلب، وجلـب كل كـرب، ومثل وقـوع هذه الـواقعة لكـل أحد ولاسيما لأمثـال المملوك، ومواعظ الموت بليغة وأبلغها مـاكان في شباب الملوك، فرحم الله ذلك الوجه ونضره ثم السبيل إلى الجنة يسره.

وإذامحاسـن أوجـه بليـت

فعفـا الثـرى عـن وجهـه الحسـن

والمملـوك في حـال تسطير هـذه الخدمـة جـامـع بين مـرضي قلـب وجسد،ووجع أطـراف وغليل كبد، فقد فجـع المملوك بهذا المولى، والعهد بوالده غير بعيد، والأسـى في كل يوم جديد، وماكان لينـدمل ذلك القرح حتـى أعقبه هـذا الجرح، فالله تعـالى لايعـدم المسلمين بسلطانهم الملـك العادل السلوة،كما لم يعـدمهم بنبيهم صلى الله عليه وسلـم الأسوه» ودفن في القرافـة الصغرى في قبـة الإمام الشـافعي رضي الله عنـه، وقبره معروف هناك.

أبو هاشم علي الملقب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم ابن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله صاحب مصر.

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته.كانت ولايته بعد فقد أبيه بمدة،لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى، وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر من السنة المذكورة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد الشام، فقصد صالح بن مرداس الكلابي مدينة حلب وحاصرها، وفيها مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن شريف بن سيف الدولة الحمداني، نيابة عن الظاهر المذكور، فانتزعها منه واستولى على مايليها، وتغلب حسان بن مفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام، وتضعضعت دولة الظاهر وجرت أمور وأسباب يطول شرحها، واستوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، وكان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم والد الظاهر في شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة على باب القصر البحري بالقاهرة المحروسة، وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين، فظهرت عليه خيانة قطع بسببها، ثم بعد ذلك ولي ديوان النفقات سنة تسع وأربعمائة، ثم وزر للظاهر سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وهذا كله بعد ان تنقل في الخدم بالأرياف والصعيد، ولما استوزر كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي صاحب كتاب الشهاب، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكانت علامته:« الحمد لله شكرا لنعمته» واستعمل في وزارته العفاف والأمانة الزائدة والاحتراز والتحفظ، وفي ذلك يقول جاسوس الفلك:

يا أحمقا اسمع وقل
ودع الرقاعة والتحامق

أأقمـــــــت نفســـــك في الثقـــــا
ت وهبـــــك فيما قلـــــت صـــــادق

فمـــن الأمـــــانـــــة والتقـــــى
قطعـــــت يـــــداك مـــــن المرافـــق

وهــو منسوب إلى جـرجرايـا بفتح الجيمين، بينهما راء سـاكنة، ثـم راء مفتوحـة، وبين الألفين ياء مثناة من تحتهـا، وهي قرية مـن أرض العراق، وكـانت ولادة الظـاهـر في يوم الأربعـاء عـاشر شهـر رمضان سنـة خمس وتسعين وثلاثمائة بـالقاهرة، وتـوفي آخر ليلـة الأحد منتصف شعبـان سنة سبـع وعشريـن وأربعمائة، رحمه الله تعـالى، وسمعـــت أنـه تـوفي ببستـان الدكة، وكان بـالمقس في الموضع المعروف بالدكـة، وتوفي وزيره الجرجرائي سنة ســت وثلاثين وأربعمائة في سابع شهـر رمضان، وكانت مـدة وزارته للظاهر وولده المستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما.

أبو القاسم عيسى الملقب الفائز بن الظافر بن الحافظ ابن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي.

وقد تقدم ذكر والده، وجماعة من أهل بيته وكيف قتل نصر بن عباس أباه حسبما شرح هناك، وهذا نصر ابن عباس هو الذي قتل العادل بن السلار، وقد رفعت هناك نسبه، فمن أراد معرفته، فلينظر هناك، ولما كان صبيحة ليلة قتل فيها الظافر أقبل عباس إلى القصر على جاري عادته في الخدمة، وأظهر عدم الاطلاع على قضيته، وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله بعد، فإنه خرج من عندهم في خفية كما ذكر ثم، وما علم أحد بخروجه، فدخل الخدم إلى موضعه ليستأذنوا العباس، فلم يجدوه فدخلوا إلى قاعة الحرم فقيل إنه لم يبت ههنا، وحاصل الأمر أنهم تطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر، فتحققوا عدمه فأخرج عباس المذكور أخوي الظافر وهما جبريل ويوسف، وهو أبو العاضد المقدم ذكره في جملة من اسمه عبد الله وقال لهما: أنتما قتلتما إما منا ومانعرف حاله إلا منكما، فأصرا على الإنكار، وكانا صادقين في ذلك فقتلهما في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ثم استدعى ولده الفائز المذكور، وتقدير عمره خمس سنين وقيل سنتان، فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وأمر أن تدخل الأمراء، فدخلوا فقال لهم: هذا ولد مولاكم، وقد قتل عماه أباه، وقد قتلتهما به كما ترون، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس، وسموه الفائز وسيروه إلى أمه واختل من تلك الصيحة، فصار يصرع في كل وقت ويختلج، وخرج عباس إلى داره ودبر الأمور، وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده، يد، وأما أهل القصر فإنهم اطلعوا على باطن الأمر وأخذوا في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، وكاتبوا الصالح بن رزيك الأرمني المذكور في حرف الطاء، وكان اذ ذاك والي منية ابن خصيب

بـالصعيد، وسـألوه الانتصـار لهم ولمولاهـم، والخروج على عباس وقطعـوا شعورهـم وسيروها في طي الكتاب، وسـودوا الكتاب، فلما وقف الصـالح عليه أطلـع من حـوله من الأجنـاد وتحدث معهم في المعنـى فأجـابوا إلى الخروج معه، واستمال جمعـا من العـرب، وساروا قـاصديـن القاهـرة، وقد لبسوا السواد فلما قـاربوها خرج إليهـم جميع من بها من الأمـراء والاجناد والسودان، وتـركوا عبـاسا وحـده، فخرج عبـاس في ساعتـه من القـاهرة هاربا ومعه شيء من ماله، وخرج معه ولـده نصر قاتل الظافر وأسامة بن منقـذ المذكور في حـرف الهمـزة، فقد قيـل أنـه الـذي أشار عليهما بقتـل الظافـر، وشرح ذلك يطول ، وقد تقـدم في ترجمة العادل بن السـلار ذكره ايضا وأنـه الذي أشـار بقتله، والله العـالم بالخفيـات، وكان معهـم جماعة يسيرة من أتبـاعهم، وقصدوا طريـق الشام على إيلة وذلـك في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

أما الصالح بن رزيك فإنه دخـل القاهرة بغير قتال، وماقدم شيئاً على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون بـن البطائحي، وهي اليوم مدرسة للطائفة الحنفيـة،وتعرف بالسيوفيـة، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعـة قتله، وسأله عن الموضع الذي دفن فيـه فعرفه به، وقلع البلاطـة التي كانت عليـه وأخرج الظافـر ومن معه من المقتـولين، وحملوا وقطعـت لهم الشعور وانتشر البكـاء والنـواح في البلـد، ومشى الصـالـح والخلق قـدام الجنازة إلى موضع الـدفن، وهو تـربة آبائه، وهي معـروفة في قصرهم، وتكفل الصالح بالصغير، ودبر أحواله.

وأما عباس فـإن أخت الظافر كـاتبت فرنج عسقـلان بسببه، وشرطت لهم مـالا جزيـلا إذا أمسكـوه فخرجـوا عليـه وصادفـوه فتـواقعوا وقتلـوا عباسـا، وأخذوا مالـه وولده وانهزم بعض اصحـابه، إلى الشام وفيهـم ابن منقذ، فسلموا، وسيرت الفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة في قفص حـديد، فلما وصل تسلـم رسولهم مـاشرطوا لهم من المال، فـأخذوا

نصرا المذكور وضربوه بالسياط، ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة، ثم أنزلوه يوم عاشوراء من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وأحرقوه. هذه خلاصة الواقعة وإن كان فيها طول.

وكان دخول نصر بن عباس إلى القصر بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج من القصر يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وكان قد قطعت يده اليمنى، وقرضوا جسمه بالمقاريض، والله أعلم، وقيل كان ذلك اليوم يوم الجمعة ثامن الشهر المذكور، ولم تطل مدة الفائز في ولايته، وكانت ولادته يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وتولى في تاريخ وفاة والده وهو مذكور في ترجمته في حرف الهمزة، واسمه اسماعيل وتوفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده العاضد، وقد سبق ذكره وهو آخرهم.

الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق.

كان عالي الهمة، حازما شجاعا مهيبا فاضلا جامعا شمل أرباب الفضائل، محبا لهم، وكان حنفي المذهب متعصبا لمذهبه، وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفي سواه، وتبعه.أولاده، وكان قد حج إلى بيت الله الحرام في سنة إحدى عشرة وستمائة، سار من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة في جماعة من خواصه، وسلك طريق العلا وتبوك، وفي هذه السنة أخذ المعظم صرخد من ابن قراجا، وأعطاها مملوكه عز الدين أيبك المعروف بصاحب صرخد، ولم يزل بها إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل في سنة أربع وأربعين وستمائة، وحمله إلى القاهرة واعتقله بدار الطواشي صواب.

وكان المعظم يحب الأدب كثيرا، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب، وسمعت أشعارا منسوبة إليه ولم اتثبتها فلم أثبت منها شيئا، وقيل إنه كان قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون إنه كان سبب حفظهم له هذا، وقيل إنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره، وبعضهم إلى أثنائه وهم على قدر أوقات شروعهم فيه، ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره، وكانت مملكته متسعة من حدود بلاد حمص إلى العريش، يدخل في ذلك بلاد الساحل الاسلامية منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد وغير ذلك، وكانت ولادته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

وذكر أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان أن المعظم ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وولد أخوه الأشرف

موسى قبله بليلة واحدة، وتوفي المعظم ليلة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة، والله أعلم بالصواب.

وقال غيره: بل توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى جبل الصالحية ودفن في مدرسة هناك بها قبور جماعة من أخوته، وأهل بيته تعرف بالمعظمية، وكان نقله ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين، وكان كثيرا ماينشد هذا المقطوع:

ومورد الوجنات أغيد خاله
بالحسن من فرط الملاحة عمه
كحل العيون وكان في أجفانه
كحل فقلت سقى الحسام وسمه

وهذا ينظر إلى قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي المقدم ذكره:

زادت على كحل العيون تكحلا
وبسم نصل السيف وهو قتول

رحمه الله تعالى، فلقد كان من النجباء الأذكياء، أخبرني جماعة عن شرف الدين بن عنين بأمور كانت تجري بينهما، تدل على حسن الإدراك وإصابة القصد، منها أنه كان ابن عنين قد مرض فكتب إليه:

انظر إلي بعين مولى لم يزل
يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي أحتاج مايحتاجه
فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار فقال: هذه الصلة، وأنا العائد، وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته

طول عمره لاستعظم منه لاسيما مثل هذا الملك، وأشياء كثيرة غير هذه يطول شرحها، وكان المقصود ذكر نموذج منها ليستدل به على الباقي.

وتولى موضعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وتوفي في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة في قرية يقال لها البويضا على باب دمشق ودفن عند والده، وكانت ولادته يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة بدمشق، وتوفي عز الدين أيبك صاحب صرخد المذكور في أوائل جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وستمائة، في موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر في مدرسة شمس الدولة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه ثم نقل إلى تربته في مدرسته التي أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.

الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف ابن القاسم بن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له الهكاري الملقب ضياء الدين.كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين المقدم ذكره، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه الأمير أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة بها كما سبق شرحه، كان في صحبته.

ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا في الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول، فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الادلال عليه يخاطبه بمالا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس،نفع بجاهه خلقا كثيرا، ولم يزل على مكانته وتوفر حرمته إلى أن توفي يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس التاسع من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالمخيم بمنزلة الخروبة، ثم نقل إلى القدس ودفن بظاهرها رحمه الله تعالى، وكان يلبس زي الأجناد، ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين، ورأيت أخاه الأمير مجد الدين أبا حفص عمر أيضا على هذه الصفة، والخروبة بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء وضمها وسكون الواو وفتح الباء الموحدة، وبعدها هاء ساكنة، موضع بالقرب من عكا.

وكـانت ولادة أخيـه مجد الديـن عمـر في رجب سنـة ستين وخمسمائة، وتـوفي في الثالـث والعشرين مـن ذي الحجة سنـة ست وثـلاثين وستمائة بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم وحضرت الصلاة عليه رحمه الله تعالى.

- ٩٥١٦ -

سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الزاء وأنه قتل على حصار قلعة جعبر، فلما قتل وكان معه ألب أرسلان ابن السلطان محمود المعروف بالخفاجي السلجوقي المذكور في ترجمة عماد الدين زنكي، اجتمع أكابر الدولة وفيهم الوزير جمال الدين محمد الأصبهاني المعروف بالجواد، والقاضي كمال الدين أبو الفضل محمد الشهرزوري، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى، وقصدوا خيمة ألب أرسلان المذكور، وقالوا له: كان عماد الدين زنكي غلامك ونحن غلمانك، والبلاد لك وصمتوا الناس بهذا الكلام، ثم إن العسكر افترق فرقتين، فطائفة منهم توجهت صحبة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى إلى الشام، والطائفة الثانية سارت مع ألب أرسلان وعساكر الموصل وديار ربيعة إلى الموصل، فلما انتهوا إلى سنجار تخيل ألب أرسلان منهم الغدر فتركهم، وهرب فلحقه بعض العسكر وردوه، فلما وصلوا إلى الموصل وصلهم سيف الدين غازي المذكور، وكان مقيما بشهرزور لأنها كانت إقطاعة من جهة السلطان مسعود السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فلما استقر بالموصل قبض على ألب أرسلان المذكور، وسيره إلى بعض القلاع وملك الموصل، وماكان لأبيه من ديار ربيعة، وترتبت أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى حلب وماوالاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذ لهم، وكان غازي المذكور منطويا على خير وصلاح، يحب العلم وأهله وبنى بالموصل مدرسته المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في المملكة حتى توفي آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقد قارب من العمر أربعين سنة، ودفن في مدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه قطب الدين مودود، وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وهو ابن أخي المذكور قبله، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر، ولما توفي والده في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته بلغ الخبر نور الدين وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل، فوصل إلى الرقة في المحرم سنة ست وستين وخمسمئة، وملكها، وسار منها إلى نصيبين فملكها في بقية الشهر، وأخذ سنجار في شهر ربيع الآخر منها، ثم قصد الموصل، وقصد أن لايقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وهي بلدة بقرب الموصل، وسار حتى خيم قبالة الموصل، وراسل ابن أخيه سيف الدين المذكور وعرفه صحة قصده فصالحه، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر صاحبها فيها، وزوجه ابنته وأعطى أخاه عماد الدين زنكي المذكور في ترجمة جده عماد الدين زنكي سنجار، وخرج من الموصل، وعاد إلى الشام ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، ولما مات نور الدين، وملك صلاح الدين دمشق ونزل على حلب يحاصرها، سير سيف الدين المذكور جيشا مقدمه أخوه عز الدين مسعود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى،والتقوا عند قرون حماة، وسيأتي تفصيل ذلك هناك، فلما انكسرعز الدين مسعود تجهز سيف الدين بنفسه، وخرج إلى لقائه، وتصافا على تل السلطان وهي قرية بين حلب وحماة، وذلك في بكرة الخميس عاشر شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

قال العماد الأصبهاني في البرق الشامي، وابن شداد في سيرة صلاح الدين إنه انكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين فإنه كان في ميمنة سيف الدين، ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ومظفر الدين المذكور هو صاحب إربل، وترجمته في حرف الكاف وأقام غازي في المملكة عشر

-٩٥١٨-

سنين وشهورا، وأصـابه مـرض مزمـن وتوفي يـوم الأحد ثـالث صفـر سنة ست وسبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتـولى بعده عـز الـدين مسعـود، وسيـأتي ذكره إن شـاء الله تعـالى، وكان مـرضه السـل، وطـال به وعـاش مقدار ثلاثين سنة.

أبو الفتح غازي ويكنى أبا منصور أيضا ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب.

كان ملكا مهيبا حازما متيقظا،كثير الاطلاع على أحوال رعيته، وأخبار الملوك، عالي الهمة حسن التدبير والسياسة باسط العدل،محبا للعلماء مجيزا للشعراء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، بعد أن كانت لعمه الملك العادل، فنزل عنها وتعوض غيرها كما قد شهر، ويحكى عن سرعة ادراكه أشياء حسنة، منها أنه جلس يوما لعرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، وكان كلما حضر أحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه لينزلوه حتى حضر واحد فسألوه عن اسمه، فقبل الأرض فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فعاودوا سؤاله، فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأدب الجندي أن يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده، وله من هذا الجنس شيء كثير لاحاجة إلى التطويل فيه، وكانت ولادته بالقاهرة في منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة، وهي السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية، وتوفي بقلعة حلب ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة، ودفن بالقلعة، ثم بنى الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتابك ولده الملك العزيز مدرسته تحت القلعة، وعمر فيها تربة، ونقله إليها رحمه الله تعالى، والعجب أنه دخل حلب مالكا لها في الشهر بعينه، واليوم من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، ورثاه شاعره الشرف راجح بن اسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي، وكنيته أبو الوفاء بهذه القصيدة، ومدح ولديه السلطان الملك العزيز محمدا وأخاه الملك الصالح صاحب عين تاب، وماقصر فيها وهي:

مضى من أقام الناس في ظل عدله
وآمن من خطب تدب عقاربه
فكم من حمى صعب أباحت سيوفه
ومن مستباح قد حمته كتائبه
أرى اليوم دست الملك أصبح خاليا
أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فمن سائل عن سائل الدمع لم جرى
لعل فؤادي بالوجيب يجاوبه
فكم من ندوب في قلوب نضيجة
بنار كروب أججتها نوادبه
أسلم ولم يحطم صدور رماحه
بذب ولم يثلم بضرب قواضبه
ولا اصطدمت عند الحتوف كماته
ولا ازدحمت بين الصفوف جنائبه
ولا سيم أخذ الثار يوم كريهه
يشق مثار النقع فيها سلاهبه
فيا ملبسي ثوبا من الحزن مسبلا
أيحسن بي أن التسلي سالبه
خدمتك روض المجد تصفو ظلاله
علي وحوض الجود تصفو مشاربه
وقد كنت تدنيني وترفع مجلسي
لمفروض مدح ما تعداك واجبه
فما بال اذني قد تمادى ولم يكن
إذا جئت يثنين عن الباب حاجبه
أرى الشمس أخفت يوم فقدك نورها
فلا كان يوما كاشف الوجه شاحبه
فكيف نبا سيف اعتزامك أو كبا
جواد من الحزم الذي أنت راكبه

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه
بمن علقت أنيابه ومخالبه
نشد تك عاتبه على نائباته
وإن كان ينأى السمع عمن يعاتبه
لي الله كم أرمي بطرفي ضلالة
إلى أفق مجد قد تهاوت كواكبه
فمالي أرى الشهباء قد حال صبحها
على دجى لا تستنير غياهبه
أحقا حمى الغازي الغياث بن يوسف
أبيح وعادت خائبات مواكبه
نعم كورت شمس المدائح وانطوت
سماء العلا والنجح ضاقت مذاهبه
فمن مخبري عن ذلك الطود هل وهت
قواعده أم لان للخطب جانبه
أجل ضعضعت بعد الثبات زعزعت
بريح المنايا العاصفات مناكبه
وغيض ذاك البحر من بعد ما طمت
وطمت لغيبان البلاد غواربه
فشلت يمين الخطب أي مهند
برغم العلا سلت وفلت مضاربه
لئن حبس الغيث الغياثي قطره
فقد سحبت في كل قطر سحائبه
فأنى يلذ العيش بعد ابن يوسف
أخو أمل أكدت عليه مطالبه
فلا أدركت نيل المنى طالباته
ولا بركت في أرض يمن ركائبه
ولا انتجعت إلا بعيس حقيبة
من الجدب لا تثني عليه حقائبه

فمـــن لليتـــامـــى يـــاغيـــاث يغيثهـــم
إذا الغيــث لم ينفــع صــدى العــام ساكبــه

ومـــن للمـــلوك كنـــت ظـــلا عليهـــم
ظليـــلا إذا مـــا الـــدهـــر نـــابـــت نـــوائبـــه

أيـــا تـــاركـــي ألقـــى العـــدو مســـالما
متـــى ســـاءني بـــالجد قمـــت ألاعبـــه

سقـــت قبرك الغـــر الغـــوادي وجـــاده
مـــن الغيـــث ســـاريـــه الملـــث وســـاربـــه

فـــإن يـــك نـــور مـــن شهـــابـــك قـــد خبـــا
فيـــاطـــا لما جلى دجـــى الليـــل ثـــاقبـــه

فقـــد لاح بـــا لملـــك العـــزيـــز محمـــد
صبـــاح هـــدى كنـــا زمـــانـــا نـــراقبـــه

فتـــى لم يفتـــه مـــــن أبيـــه وجـــده
إبـــاء وجـــد غـــالبـــا مـــن يغـــالبـــه

ومـــن كـــان في المسعـــى أبـــوه دليلـــه
تـــدانـــى لـــه الشـــأو الـــذي هـــو طـــالبـــه

وبـــالصـــالـــح استعلى صلاح الـــديـــن رعيـــة
لها منـــه رعـــي ليـــس يقلـــع راتبـــه

فحســـب الـــورى مـــن أحمد ومحمـــد
مليكـــان مـــن عـــاداهما ذل جـــانبـــه

هما احـــرزا عليـــاء غـــازي بـــن يـــوســـف
ومـــا ضيعـــا المجـــد الـــذي هـــو كـــاسبـــه

فـــافـــق الـــورى لـــولاهما كـــان أظلمـــت
مشـــارقـــه مـــن بعـــده ومغـــاربـــه

ستحمـــي على رغـــم الليـــالي حماهما
عـــوالي قنـــا تـــردي الاســـود ثعـــالبـــه

فكـــم مـــن ملـــم جـــل مـــوقـــع خطبـــه
فســـاءت مبـــاديـــه وسرت عـــواقبـــه

فيا قمري سعد أطلا على الدجى
فولى وما ألوى على الأرض هاربه

أيمكث في الشهباء عبد أبيكما
وما دحه أم تستقل نجائبه
فإن شئتما بعد الغياث أغثتما
مصاب سهام فوقتها مصائبه
كأن لم أقف أجلو التهاني أمامه
وتضحك في وجه الأماني مواهبه
فهنئتما ما نلتما وبقيتما
لاعلاء ملك ساميات مراتبه

وهذه القصيدة مع جودتها فيها مواضع مأخوذة من مرثية الفقيه عمارة اليمني في الصالح بن رزيك، وبعضها مذكور في ترجمة الصالح، وكأنه قد نسخ على منوالها فإنها على وزنها، وإن كان حرف الروي مختلفا، فقد استعمل بها الوصل كما استعمله عمارة، والظاهر أنه كان قد وقف عليها، فقصد مضاهاتها.

وقام بالأمر في مملكة حلب من بعده ولده الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد بن الملك الظاهر، ومولده يوم الخميس خامس ذي الحجة سنة عشر وستمائة بحلب، وتوفي بها يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة، وكنت بحلب في ذلك الوقت، ودفن بالقلعة، وترتب مكانه ولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن الملك العزيز، واتسعت مملكته فإنه ملك عدة بلاد من الجزيرة الفراتية لما كسر الخوارزمية، وكان مقدم جيشه الملك المنصور صاحب حمص، وذلك في أواخر سنة إحدى وأربعين وأوائل سنة اثنتين وأربعين، ملك دمشق والبلاد الشامية يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة، ومولده بقلعة حلب في تاسع عشر رمضان

سنة سبع وعشرين وستمائة، وقصده التتر وملكوا الشام، فخرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين وقتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين بالقرب من المراغة من أعمال أذربيجان على مانقل الناقل، والله أعلم، وقصته مشهورة.

وتوفي عمه الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر صاحب عين تاب في شهر شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة،وكانت ولادته في صفر سنة ستمائة بحلب، ومات بعين تاب رحمهم الله تعالى أجمعين، وإنما قدموا العزيز، وهو الأصغر على أخيه الصالح، لأن أمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموه في الملك لأجل جده وأخواله أولاد العادل وأما الصالح فإن أمه جارية، وتوفي الشرف الحلي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شعبان سنة سبع وعشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، ودفن بظاهرها بجوار مسجد النارنج شرقي مصلى العيد، ومولده في منتصف ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بالحلة، وهو من مشاهير شعراء عصره.

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين

كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، وقد تقدم ذكره في ترجمة الفقيه عيسى الهكاري، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلا مسعوداً، وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر ومابينهما، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمر بالمقس رباطا على باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لايعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيرا في أيديهم ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار.

وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين أنه انفك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية، ففرح به فرحا شديدا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصل مال القطيعة، فأذن له في ذلك، وكان على ماذكر ثلاثين ألفا، والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبةفي ولايته، حتى أن الأسعد بن مماتي المقدم ذكره له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته مافوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم رحمه الله تعالى بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق.

-٩٥٢٦-

وقراقـوش بفتح القاف والـراء، وبعد الألف قاف ثـانية ثم واو بعـدها شين معجمة، وهـو لفظ تركي تفسيره بـالعربي العقاب الطـائر المعروف، وبه سمى الانسان.

أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل.

كان والده زين الدين علي المعروف بكجك صاحب إربل، رزق أولادا كثيرة، وكان قصيرا ولهذا قيل له كجك، وهو لفظ عجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر، وأصله من التركمان وملك إربل وبلادا كثيرة في تلك النواحي، وفرقها على أولاد أتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ولم يبق له سوى إربل، والشرح يطول وعمر طويلا، يقال إنه جاوز مائة سنة، وعمي في آخر عمره، وانقطع بإربل إلى أن توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسمائة.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: مات في ذي الحجة من السنة، ودفن في تربته المعروفة به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد رحمه الله تعالى، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة، وله بالموصل أوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير، الذي عمله لبني أتابك ملوك الموصل: إن زين الدين المذكور سار عن الموصل إلى إربل سنة ثلاث وستين وخمسمائة، وسلم جميع ماكان بيده من البلاد والقلاع إلى أتابك قطب الدين، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية، وقلاع الهكارية جميعها، وتكريت وشهرزور وغير ذلك، وماترك لنفسه سوى إربل، وكان قد حج هو وأسد الدين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

ولما توفي ولي موضعه ولده مظفر الدين المذكور، وعمره أربع عشرة سنة، وكان أتابكه مجاهد الدين قايماز المذكور في حرف القاف، فأقام

أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف، وكان أصغر منه، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد فتوجه إلى بغداد، فلم يحصل له بها مقصود، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود المقدم ذكره في حرف العين، فاتصل بخدمته وأقطعه مدينة حران فانتقل إليها، وأقام بها مدة.

ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده، وتمكن منه وزاده في الإقطاع الرهافي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأخذ صلاح الدين الرها من ابن الزعفراني وأعطاها مظفر الدين مع حران، وأخذ الرقة من ابن حسان وأعطاها ابن الزعفراني، والشرح في ذلك يطول، ثم أعطاه سميساط وزوجه أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجه سعد الدين مسعود بن معين الدين صاحب قصر معين الدين الذي بالغور، وتوفي سعد الدين المذكور سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره، على ماتضمنته تواريخ العماد الأصبهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهما وشهرة ذلك تغنى عن الإطالة فيه، ولو لم يكن إلا وقعة حطين لكفته، فإنه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة المقدم ذكره، وانكسر العسكر بأسره ثم لما سمعوا بوقوفهما تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم، ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازلا عكا بعد استيلاء الفرنج عليها، وردت عليه ملوك الشرق تنجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين الدين يوسف أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل فأقام قليلا ثم مرض وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة بالناصرة، وهي قرية بالقرب من عكا، يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام ولد بها على الاختلاف الذي في ذلك، فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن ينزل عن حران والرها وسميساط ويعوضه إربل فأجابه إلى ذلك وضم إليه شهرزور، فتوجه

إليها ودخل إربل في ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة، هذه خلاصة أمره.

وأما سيرته فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك مافعله، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويج في عدة مواضع من البلد، يجتمع في كل موضع خلق كثير يفرق عليهم في أول النهار، وكان إذ نزل من الركوب يكون قد اجتمع عند الدار جمع كثير فيدخلهم إليه ويدفع لكل واحد كسوة على قدر الفصل من الشتاء والصيف أو غير ذلك، ومع الكسوة شيء من الذهب من الدينار والاثنين والثلاثة، وأقل وأكثر وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملأها من هذين الصنفين، وقرر لهم مايحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس، ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته ويتفقده بشيء من النفقة ويسأله عن حاله، وينتقل إلى الآخر وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يباسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى دارا للنساء الأرامل، ودارا للصغار الأيتام، ودار للملاقيط، رتب بها جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه وأجرى على أهل كل دار مايحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقد أحوالهن ويعطيهن النفقات زيادة على المقرر لهن، وكان يدخل إلى البيمارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله ومايشتهيه، وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها ولهم الراتب في الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الانسان على السفر أعطوه نفقة على مايليق بمثله.

وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه ويعمل السماط بها ويبيت بها، ويعمل السماع،

وإذا طاب خلع شيئا من ثيابه وسير للجماعة بكرة شيئا من الإنعام، ولم يكن له لذة سوى السماع، فإنه كان لايتعاطى المنكر، ولايمكن من إدخاله إلى البلد، وبنى للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق مايعجب الانسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع مايحتاج إليه ذلك الخلق، ولابد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان ينزل بنفسه إليهم ويعمل عندهم السماعات في كثير من الأوقات وكان يسير في كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل، ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئا وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصيةمنه في ذلك، وكان يقيم في كل سنة سبيلا للحاج، ويسير معه جميع ماتدعو حا جة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى آثار جميلة، وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف، وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبنى له تربة أيضا هناك.

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه، وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقادة فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل مثل بغداد، والموصل، والجزيرة، وسنجار، ونصيبين،وبلاد العجم وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولايزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة، أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة، وأكثر منها قبة له والباقي للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني وجوق من

أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، ومايبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم ومايفعلونه في القباب، ويبيت في الخانقاة ويعمل السماع فيها، ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، وكان يعمله سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيرا زائدا عن الوصف، وزفها بجميع ماعنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يسرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة، فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات، بعد أن يصلى المغرب في القلعة، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع أشك في ذلك، من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهى إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة ، وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لاأتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس، والكرسي وشبابيك أخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند، وتارة إلى الناس والوعاظ، ولايزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان للصعاليك، ويكون

سماطا عـاما فيـه من الطعـام والخبز شيء كثير لايحد ولايـوصف، ويمـد سماطا ثانيـا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكـرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الأعيـان والرؤساء والوافدين لأجل هـذا الموسم ممـن قدمنـا ذكره مـن الفقهـاء والوعـاظ والقراء والشعـراء، ويخلع على كـل واحد منهم، ثـم يعود إلى مكانه، فـإذا تكامل ذلـك كله حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمـل إلى داره، ولايزالون على ذلـك إلى العصر أو بعدهـا، ثـم يبيت تلـك الليلـة هناك، ويعمـل السماعات إلى بكرة،هكذا دأبه في كل سنـة، وقد لخصت صورة الحال فإن الاستقصاء يطول، فـإذا فرغوا من هـذا الموسم تجهز كل إنسـان للعود إلى بلده، فيدفـع لكل شخص شيئاً مـن النفقة، وقد ذكرت في تـرجمة الحافظ أبي الخطـاب بـن دحيـة، في حـرف العين وصـولـه إلى إربـل وعملـه لكتاب«التنوير في مولد السراج المنير» لما رأى مـن اهتمام مظفر الدين به، وأنه أعطاه ألف دينـار غير ماغرم عليه مدة إقامته من الإقـامات الوافرة، وكان رحمه الله متى أكل شيئـا واستطابه لايختص به بل كـان إذا أكل من زبديـة لقمة طيبـة قال لبعـض من بين يـديه مـن أجناده: احمل هـذا إلى الشيخ فلان أو فـلانة ممن هم عنـده مشهورون بالصلاح، وكـذلك يعمل في الحلوى والفـاكهة وغير ذلـك من المطاعـم والمشارب والكسـاء، وكان كريم الأخـلاق كثير التواضع حسن العقيـدة، سالم البطانة، شـديد الميل إلى أهل السنـة والجماعة، لاينفـق عنده من أربـاب العلوم سـوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهما لايعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لايقول بهم ولايعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصـدهم ولايخيب أمل من يطلب بره، وكان يميل إلى علم التاريـخ وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، ولم يزل رحمه الله تعالى مؤيـدا في مواقفه ومصافاته مـع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب وفي شهرة معروفـة غنية عن الإطالـة، وليعذر الواقف على هـذه الترجمة، ففيها تطويل، ولم يكن سببـه إلا ماله علينا من الحقوق التـي لانقدر على القيام

بشكر بعضها، ولو عملنا مهما عملناه، وشكر المنعم واجب فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فكم له علينا من الأيادي ولأسلافه على أسلافنا من الإنعام، والانسان صنيعه الإحسان، ومع الإعتراف بجميله فلم أذكر عنه شيئا على سبيل المبالغة بل كل ماذكرته عن مشاهدة وعيان، وربما حذفت بعضه طلبا للايجاز، وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي وقت الظهر يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلدة التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراجا فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة شرفها الله تعالى وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، وقد سبق ذكرها، فلما توجه الركب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة ولم يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد رحمه الله تعالى، وعوضه خيرا وتقبل مباره، وأحسن منقلبه.

وأما زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق، وأدركت من محارمها من الملوك من أخوتها وأولادهم أكثر من خمسين رجلا، غير محارمها من غير الملوك ولولا خوف الإطالة لذكرتهم مفصلا، فإن إربل كانت لزوجها المذكور، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط وتلك الناحية لابن أخيها، وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد أخوتها، والديار المصرية والحجاز واليمن لأخوتها وأولادهم ، ومن تأمل ذلك عرف الجميع.

وكوكبوري بضم الكافين بينهما واوا ساكنه، ثم باء موحدة مضمومة، ثم

واوا ساكنة، وبعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق، وبكتيكين بضم الباء الموحدة وسكون الكاف، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، هو اسم تركي أيضا، ولينة بكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، منزلة في طريق الحجازمن جهة العراق، وكان الركب في تلك السنة قد رجع منها لعدم الماء، وقاسوا مشقة عظيمة.

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين في حرف الياء إن شاء الله تعالى،وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره، وكان يقول لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى جرمدان(١) فطلبته من والدي فأعطاني، وقال: ياأبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملأه ذهبا، فلما جاء إلى مصر قال: يا أبا بكر أين الجرمدان؟ فرحت وملأته من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئا من الذهب وأحضرته إليه، فلما رآه اعتقده ذهبا فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت زغل المصريين.

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام، ويستدعي منه الأموال للانفاق في الجند وغيرهم، ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك، فكتب القاضي الفاضل جوابه وفي جملته:« وأما ماذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ماالمقصود بها من الملك النجعة وإنما المقصود بها من الكاتب السجعة، وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة حيرت عي الأقلام، وفسدت خلل الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة، وكان المملوك حاضرا وقد جرت قوارع الاستحثاث، وصرصر البازي، وقوت نفس العماد قوة نفس البغاث والسلام».

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي أعطاها لولده الملك الظاهر غازي، ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل، فانتقل إليها وقصد قلعتها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم نزل عنهما للملك الظاهر غازي ابن السلطان المقدم ذكره لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين وخرج منها في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك، وتنقل في الممالك في حياة السلطان وبعد وفاته وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك الظاهر، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها، وآخر الأمر أنه استقل بمملكة الديار المصرية، وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، واستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري مامثاله: «وجدت بخطه خطب للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وسير إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميافارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية، واتسعت مملكته وذلك في سنة أربع وستمائة، ولما تمهدت البلاد له قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية، والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد المشرقية، والأوحد في البلاد التي ذكرناها، وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة

قد حنكته التجارب، حسن السيرة، وجميل الطوية، واف العقل، حازما في الأمور،صالحا محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لأرباب السنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازي كتاب«تأسيس التقديس» وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان، وبالجملة فإنه كان رجلا مسعودا، ومن سعادته أنه خلف أولادا لم يخلف أحدا من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد، وملكوا أخيار البلاد، ولما مدح ابن عنين المقدم ذكره الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله:

وله البنون بكل أرض منهم
ملك يقود إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله
بدرا وإن شهد الوغى فغضنفرا
متقدم حتى إذا النقع انجلى
بالبيض عن سبي الحريم تأخرا
قوم زكوا أصلا وطابوا محتدا
وتدفقوا جودا وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهل
ما لم يكن بدم الوقائع أحمرا
يعشوا إلى نار الوغى شغفاً بها
ويجل أن يعشو إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ومن جملة هذه القصيدة مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه:

العادل الملك الذي اسماؤه
في كل ناحية تشرف منبرا

وبكل أرض جنة من عدله الـ
ـضافي أسال نداه فيها كوثرا
عدل يبيت الذئب منه على الطوى
غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
ما في أبي بكر لمعتقد الهدى
شك مريب أنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص متنه
وأبان طيب الأصل منه الجوهرا
ما مدحه بالمستعار له ولا
آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك اذا خفت حلوم ذوي النهى
في الروع زاد رصانة وتوقرا
ثبت الجنان تراع من وثباته
وثباته يوم الوغى اسد الشرى
يقظ يكاد يقول عما في غد
ببديهة اغنته أن يتفكرا
حلم تخف له الحلوم وراءه
رأي وعزم يحقر الاسكندرا
يعفو عن الذنب العظيم تكرما
ويصد عن قول الخنى متكبرا
لا تسعمن حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا(٢)

وبالجملة فإنها من القصائد المختارة، ولما قسم البلاد بين أولاده، كان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى، وكان بالغالب يصيف

بالشام لأجل الفواكة والثلج والمياة الباردة، ويشتي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد حتى يقال إنه يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا في دنياه، وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين، وقيل ثمان وثلاثين وخمسمائة، وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالقين ونقل إلى دمشق، ودفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به.

ودفن في التربة التي بها، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك رحمه الله تعالى.

وعالقين بفتح العين المهملة، وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضا وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون، وهي قرية بظاهر دمشق، وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام،وقصدوا أولا لقاء الملك العادل فتوجه قدامه إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب إلى لقائهم، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن الشام وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيي بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء، وأطسيس بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها، ثم سين ثانية، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم، ويقال إنها سمي بذلك لأن الملك الكامل ماكان يعيش له ولد، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك: في بلادنا إذا كان الرجل لايعيش له ولد سماه أطسيس، فسماه أطسيس، والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء كذا قالوا والله أعلم، ثم ظفرت بتاريخ تسلم حلب محررا وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور، والله أعلم.

أبو المعالي محمد ابن الملك العادل المذكور الملقب بالملك الكامل ناصر الدين

قد سبق في ترجمة والده طرف من خبره، ولما وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدم ذكره كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين ابراهيم ابن الملك العادل، وانضموا إليه وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل واشتهر ذلك بين الناس، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو، ولايمكنه المناظرة والمنافرة وطول روحه معهم ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق المذكور في حرف العين يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستمائة، فأطلعه الملك الكامل في الباطن على صورة الحال وأن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه يوما على غفلة إلى خيمته واستدعاه فخرج إليه، فقال له: أريد أن أتحدث معك سرا في خلوة، فركب فرسه وصار معه وهو جريدة وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيءإلى شيء حتى أبعد عن المخيم، ثم قال له: ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئا من النفقة وقال لأولئك المجردين: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل،فلم يسعه ، إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال، ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ماجرى، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لاحضار النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار، وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لاطوعا، وجرى في قضية دمياط ماهو مشهور، فلا حاجة

إلى الإطالة بـذكره، ولما ملك الفرنـج دمياط وصارت في قبضتهم خـرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر، ونـزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعـروفة بالمنصورة، والبحر حائل بينهم وهو بحـر أشموم،ونصر الله سبحـانه وتعـالى بمنه وجميـل لطفه المسلمين عليهم كما هـو مشهود،وجلا الفـرنج عن منزلهم ليلـة الجمعة سابـع شهر رجـب سنـة ثمان عشرة وستمائة، وتـم الصلـح بينهـم وبين المسلمين في حـادي عشر الشهر المذكـور، ورحل الفـرنـج عن البـلاد في شعبان مـن السنة المذكورة، وكانت مدة إقامتهـم في بلاد الاسلام مابين الشام والديار المصرية أربعين شهرا وأربعـة عشر يوما، وكفى الله شرهـم والحمد لله على ذلك، وقـد فصلت ذلـك في ترجمة يحيي بن جـراح فيكشف هنـاك، فلما استراح خاطـر الملك الكامـل من جهة هـذا العدو تفـرغ للأمراء الـذين كانوا متحـاملين عليه فنفاهم عـن البلاد وبدد شملهم وشردهـم، ودخل إلى القاهـرة وشرع في عمارة البلاد واستخـراج الأموال مـن جهاتها، وكـان سلطانـا عظيم القـدر جميل الذكـر محبا للعلماء، متمسكا بـالسنة النبـوية حسن الاعتقـاد معاشرا لأرباب الفضـائل حازما في أمـوره لايضع الشيء إلا في موضعـه من غير اسراف ولااقتار، وكان يبيـت عنده كل ليلـة جمعة جماعـة من الفضـلاء ويشاركهـم في مبـاحثاتهم، ويسـألهم عن المواضـع المشكلة من كل فـن وهو معهم كواحد منهـم، وكـان يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيرا وهما:

مـــاكنـــت مـــن قبـــل ملـــك قلبـــي
تصـــد عـــن مـــدنـــف حـــزيـــن
وإنما قـــــــــد طمعـــــــــت لما
حللـــــت في مـــــوضـــــع حصين

وبنى بالقـاهرة دار حديث، ورتـب لها وقفا جيدا، وكان قـد بنى على ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه قبـة عظيمة، ودفن أمه عنده وأجرى إليها الماء من النيـل ومدده بعيدا، وأنفق على ذلـك مالا عظيما، ولما مات

أخوه الملك المعظم صاحب الشام في التاريخ المذكور في ترجمته، وقام الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصريةقاصدا أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى، فاجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول جرت يطول شرحها، وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف وأخذ عوضها من بلاد الشرق: حران، والرها، وسروج، والرقة، ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة، واجتزت بحران في شوال سنة ست وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيم بها بعسكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر خلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية ثم تجهز في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود ابن الملك الصالح أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان، ويقال سكمان بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدهم أرتق.

أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسلمها الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور، ودخلها الكامل في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة، ولما مات الملك الأشرف في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، فقصده الملك الكامل وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد، ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب،

واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية وقد تقدم في ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجها إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستمائة، ودخل مكةشرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة، وخطب له بها وحج ودخل زبيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة، ثم ملك مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستمائة أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني، واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال:« مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين» وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، ولقد رأيته بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ابن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها، في خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا منهم أخوه الملك الأشرف، ولم يزل في علو شأنه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان ينشد في مرضه كثيرا:

يا خليلي خبراني بصدق
كيف طعم الكرى فإني نسيت

ولم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن في القلعة بدمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين

وستمائة، وكنت بدمشق يومئذ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنت حاضرا في ذلك الموضع فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا بذلك، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم، وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق، ثم بني له تربة مجاورة للجامع ولها شباك إلى الجامع ونقل إليها وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسمائة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ، والله أعلم.

وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة، ومولده في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح، من أكراد بلد إربل، وكان من كبار الصالحين، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لايجهز بشيء من ماله بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه، فلما مات تولى الشيخ صديق أمره وكفنه في إزار كان يحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة،وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته، وكان أوصى أنه لايبنى عليه قبة بل يدفن في جانب المعلى جبانه مكة شرفها الله تعالى، ويكتب على قبره هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى أطسيس بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، ففعل به ذلك ثم أن عتيقه الصارم قايماز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة.

ولما بلغ الملك الكامل مافعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره، فقال:

مافعلت ماأستحق به الشكر، فإن هذا رجل سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من مواررارة الميت، فقيل له: تكتب جواب الملك الكامل فقال: ليس لي إليه حاجة، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها فما رد له جوابا، أخبرني بذلك كله من كان حاضرا ويعرف مايقول، والله أعلم.

وأماولده الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنةتسع وثلاثين وستمائة، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق، وعوضه عنها سنجار وعانه، وقدم الصالح دمشق متملكا لها في مستهل جمادى الآخرة سنةست وثلاثين وستمائة، ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتيالا، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، فهجما دمشق بعساكرهما وأخذاها وهي قضية مشهورة، فلما أخذا دمشق رجعت العساكر التي كانت مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيدا في نفر قليل من غلمانه وأتباعه، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول، واجتمع هو والملك الناصر على نابلس، فلما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور، طلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة في

الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت إذ ذاك بالقاهرة، وأدخل أخاه الملك العادل في محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه، وحمله من خارج البلد إلى القلعة واعتقله عنده في داخل الدار السلطانية، وبسط العدل في الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات ورمم ماتهدم من المساجد، وسيرته طويلة، ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وأبقى عليه بعلبك، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة، وسير العساكر لحصار حمص، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض، وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت، وملكوا دمياط يوم الجمعة ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها، وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ونزل بها وهو في غاية المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة، وترك بها في مسجد هناك، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر والخطبة باسمه إلى أن وصل ولده الملك توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورةفعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدارسه تربة ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة هكذا وجدته بخط ابنه مكتوبا، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وفي

مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستمائة، والله تعالى أعلم، وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستمائة بالمنصورة، ووالده في قبالة العدو على دمياط،وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستمائة بقلعة القاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

هذه الفصول ذكرت خلاصتها، ولو فصلتها لطال الشرح، والمقصود الاختصار، وطلب الايجاز مع أني كنت حاضرا أكثر وقائعها.

وكان للملك العادل ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيما بالقلعة، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سيره من هناك، ونقله إلى قلعة الشوبك، فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي، وهو الآن ملكها، ولم يزل مالكها إلى سنة إحدى وستين وستمائة، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب الذخائر بالغور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بدلا وحلف له، ويقال إنه ورى في اليمين ولم يستقض فيها فنزل إليه إلى منزله بالطور من الغور فقبض عليه ساعة وصوله وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر، واعتقله بها، وكان للمغيث ولد ينعت بالعزيز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمره الملك الظاهر ولم يزل في خدمته أميرا إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستمائة، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة، وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي المجلي أيضا، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يبالغ في تحصين القلعة المذكورة، ويملؤها بالذخائر ووجدها عونا له على زمانه، ولما توفي

الملك السعيد ابـن الملك الظاهر في الكرك كما ذكـرنا في الترجمة المذكورة ملكها بعـده أخوه الملك المسعـود نجم الديـن خضر ابن الملك الظـاهر باتفـاق ممن كـان بها من ممـاليك أبيـه، ومن أمـرائه، وهو الآن متملكهـا مقيم بها، ثـم نزل بالأمـان بعد حصاره فيهـا في مدة الأمير حسام الـدين طربطـر المنصوري كـان نائب المملكة، وتقـدم العساكـر ونزل معـه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه الملك السعيد، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي المذكور في تـرجمة القـاضي مجلي في أوائل هـذا الحرف، فـأحسـن السلطـان إليهما، وجعـل الملـك خضرا وأخـاه سـلامـش أميريـن، وأقطعهما الاقطـاعـات الجيـدة، وأسكنهما بقلعـة الجبـل المنصورة واستمـر الأمـر على ذلـك وهما مختلطان بـه في جملة أهلـه ملازمـان للركـوب مع ولـديه السلطـان الملك الصالح علاء الـدين والملك الأشرف صلاح الدين خليـل، ولم يزل الأمر كـذلك إلى سنـة ثمان وثمانين وستمائة فجرى مـن الأمـر مااقتضـى الحال معـه القبض على الأميريـن: نجم الـدين خضر وبـدر الديـن سلامـش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل، والملك الصالح الملك المنصور المذكور فإنه كان ولي عهـد أبيه وكان حازما شديد الـرأي وتوفي في حياة والده في شهر شعبـان سنة سبع وثمانين وستمائة، ثـم إن والده جعل ولايـة العهد إلى ولده الملـك الأشرف المذكور، وقلـده الملك في شهـر شوال سنـة سبع وثمانين المذكورة، وهو من الملوك المشهـورين بعلو الهمة والسعادة والحزم، وتوفي الملـك المنصور قـلاوون في يوم السبـت من شهـر ذي القعدة سنـة تسـع وثمانين وستمائة في دهليزه بمسجـد التين، وكان قـد خرج على نيـة الغزاة إلى عكـا فعرض لـه مرض فقضـى به نحبـه، وعادت العسـاكر إلى مستقرهـا واستقر ولـده السلطان الملـك الأشرف بالمملكـة يجمع المعـاقل والبلاد، ولم يـر في الملوك أكثـر سعادة منـه ولا أعلى همة، ولاأكرم نفسـا، ولاأكثر وفاء لمن خدمه ولاذ به.

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشـام يوم الثلاثاء تاسع ربيع

الآخر سنة ثمان وثمانين وستمائة، وكان نازلها بنفسه وعساكره، وفتحها قهرا بالسيف، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها، وملك ماجاورها من قلعة جبيل والبترون وغير ذلك.

ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه، وجمع عساكره وتوجه إلى عكا فنازلها في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر، وكان خروجه من مصر في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول واجتمع على عكا جميع الناس الجند والمتطوعة وغيرهم من سائر البلاد، ويسر الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنةتسعين وستمائة في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من المسلمين إلا أن الشهر كان الأولى، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف ابن أيوب في الآخرة سنة ثمان وخمسين، وإن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعا بالسيف، وكذلك عمل الفرنج بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة، كما أخذت من صلاح الدين ملكها صلاح الدين ، وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها، وأخذت من المسلمين ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى فسبحان مقدر الأمور، ثم أخوت عزائم الفرنج بأخذ عكا، فهرب من كان ببيروت وعثليت وهما حصنان عظيمان لاتطرق الأوهام إليهما، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع، وملكوا أيضا بيروت وحيفا، فلم يبق للفرنج من الساحل قلعة ولابلد ولاقرية ولاجزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه.

وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة والله تعالى أعلم.

أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي الملقب مغيث الدين أحد الملوك السلجوقية المشاهير

وقد تقدم ذكر والده وجماعة من أهل بيته، وسيأتي ذكر جده وغيره منهم إن شاء الله تعالى، وتقدم طرف من خبره في ترجمة العزيز أبي نصر أحمد بن حامد الأصبهاني عم العماد الكاتب، تولى أبو القاسم المذكور السلطنة بعد وفاة والده، وخطب له بمدينة بغداد على جاري عادة الملوك السلجوقية يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنتي عشرة وخمسمائة في خلافة المستظهر بالله، وهو يومئذ في سن الحلم، وكان متوقدا ذكاء قوي المعرفة بالعربية، حافظا للأشعار والأمثال، عارفا بالتواريخ والسير، شديد الميل إلى أهل العلم والخير، وكان حيص بيص الشاعر المقدم ذكره قد قصده من العراق ومدحه بقصيدته الدالية المشهورة التي أولها:

ألق الحدائج ترعى الضمر القود
طال السرى وتشكت وخدك البيد
ياساري الليل لاجدب ولافرق
فالنبت أغيد والسلطان محمود
قيل تألفت الاضداد خيفته
فالمورد الضنك فيه الشاء والسيد

وهي طويلة من غرر القصائد، وأجازه عليها جائزة سنية، وقد كان تزوج بنتي عمه سنجر المقدم ذكره حسبما شرحناه في ترجمة العزيز الأصبهاني، واحدة بعد الأخرى، وكانت السلطنة في أواخر أيامه قد ضعفت وقلت أموالها حتى عجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعي، فدفعوا له يوما بعض صناديق الخزانة حتى باعها، وصرف ثمنها في حاجته، وكان في آخر مدته قد دخل بغداد ثم خرج منها، فمرض في الطريق واشتد به

المرض وتوفي يوم الخميس خامس شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

وذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أنه مات خامس عشر شوال سنة أربع وعشرين بباب أصبهان، ودفن بها، وولي السلطنة أخوه طغرلبك، ومات سنة سبع وعشرين، وتولى أخوه مسعود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى، وابنه محمد شاه بن محمود بن محمد هو الذي حاصر بغداد ومعه زين الدين أبو الحسن علي بن بكتكين صاحب إربل في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.

وقال شيخنا ابن الاثير في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة، قال ذلك في تاريخه الصغير المعروف بالأتابكي: ومات محمد شاه المذكور في ذي الحجة سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وتاريخ وفاة زين الدين المذكور مذكور في ترجمة ولده مظفر الدين صاحب إربل في حرف الكاف، ومات محمد شاه بباب همذان، ومولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر الملقب الملك العادل نور الدين

قد تقدم ذكر أبيه في حرف الزاي، ولما حاصر أبوه قلعة جعبر حسبما تقدم ذكره في ترجمته، كان ولده نور الدين المذكور في خدمته، فلما قتل أبوه سار نور الدين وفي خدمته صلاح الدين محمد بن أيوب اليغسياني وعساكر الشام إلى مدينة حلب فملكها في ذلك التاريخ، وملك أخوه سيف الدين غازي المذكور في حرف الغين مدينة الموصل وماوالاها من تلك النواحي، ثم إنه نزل على دمشق محاصرا لها وصاحبها يومئذ مجير الدين أبو سعيد أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين طغتكين، وهو أتابك الملك دقاق بن تتش المقدم ذكره في ترجمة تتش في حرف التاء، وكان نزوله عليها ثالث صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور وعوض مجير الدين أبق عوضا عن دمشق حمص، ثم أخذها وعوضه عنها بالس فانتقل إليها وأقام بها مدة، ثم قصد بغداد في أيام الإمام المقتفي، وكان أتابكه معين الدين بن عبد الله عتيق جد أبيه ظهير الدين طغتكين هناك أيضا،
ثم استولى نور الدين محمود على بقية بلاد الشام من حماة وبعلبك،وهو الذي بنى سورها ومابين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدة حصون منها مرعش وبهسنا وتلك الأطراف، وكان فتحه مرعش في ذي القعدة من سنة ثمان وستين وخمسمائة والبهسنا في ذي الحجة من السنة، وافتتح أيضا من بلاد الفرنج حارم، وكان فتحها في أواخر شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وفتح عزاز وبانياس وغير ذلك مما تزيد عدته على خمسين حصنا، ثم سير الأمير أسد الدين شيركوه المقدم ذكره إلى مصر ثلاث دفعات، وملكها السلطان صلاح الدين في الدفعة الثالثة نيابة عنه، وضرب باسمه السكة والخطبة، وهي قضية مشهورة فلا حاجة إلى الإطالة في شرحها، وسيأتي ذلك في ترجمة صلاح الدين إن شاء الله تعالى، وكان ملكا عادلا زاهدا عابدا ورعا مستمسكا بالشريعة مائلا إلى

أهل الخير مجاهدا في سبيل الله تعالى، كثير الصدقات بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة، وقد تقدم ذلك في ترجمة الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وبنى بمدينة الموصل الجامع الجامع النوري، ورتب له مايكفيه وبحماة الجامع الذي على ظهر العاصي، وجامع الرها، وجامع منبج، وبيمارستان دمشق، ودار الحديث بها أيضا، وله من المناقب والمآثر والمفاخر مايستغرق الوصف، وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام، وإليه تنسب الطائفة السنانية مكاتبات ومحاورات بسبب المجاورة، فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتابا يتهدده فيه ويتوعده لسبب اقتضى ذلك، فشق على سنان فكتب جوابه أبياتا ورسالة وهما:

ياذا الذي بقراع السيف هددنا
لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده
واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى باصبعه
يكفيه ماقد تلاقي منه أصبعه

وقفنا على تفاصيله وجمله، وعلمنا ماهددنا به من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل، وبعوضة تعد في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وماكان لهم من ناصرين، أو للحق يدحضون، وللباطل تنصرون(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وأما ماصدر من قولك في قطع رأسي، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي، فتلك أماني كاذبة، وخيالات غير صائبة، فإن الجواهر لاتزول بالاعراض، كما أن الأرواح لاتضمحل بالأمراض، كم بين قوي وضعيف، ودني وشريف، وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن

والمعقولات، فلنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «ما أوذي نبي ما أوذيت» ولقد علمتم ماجرى على عترته، وأهل بيته وشيعته، والحال ماحال، والأمر مازال ولله الحمد في الأولى والآخرة إذ نحن مظلومون لاظالمون، ومغصوبون لاغاصبون، وإذا جاء الحق (زهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ولقد علمتم ظاهر حالنا، وكيفية رجالنا، ومايتمنونه من الفوت، ويتقربون به إلى حياض الموت قل (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين• ولن يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وفي أمثال العامة السائرة: أو للبط تهددون بالشط، فهيء للبلايا جلبابا، وتدرع للرزايا أثوابا، فلأظهرن عليك منك، ولأغنينهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفه، «وماذلك على الله بعزيز» وهذه الرسالة نقلت من خط القاضي الفاضل على هذه الصورة، ورأيت في نسخة زيادة على هذا وهي: «فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد، ومن حالك على اقتصاد، وأقرأ أول النحل، وآخر صاد» والصحيح أنه كتبها إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والله أعلم، ورأيت في بعض النسخ زيادة بيت في أول الأبيات الثلاثة وهو:

يا للرجال لأمر هال مفظعه
ما مر قط على سمعي توقعه

وكتب سنان المذكور مرة أخرى إليه وقد جرت بينهما وحشة:

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت
بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى
مغارسها منا وفينا حديدها

وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة، وكانت ولادته يوم الأحد عند طلوع الشمس سابع عشر شوال سنة احدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة بقلعة دمشق بعلة

الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع، ودفن في بيت بالقلعة كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضا، ثم نقل إلى تربته بمدرسته التي أنشأها عند باب سوق الخواصين، وسمعت من جماعة من أهل دمشق يقولون ان الدعاء عند قبره مستجاب ولقد جربت ذلك فصح رحمه الله تعالى.

وكان أسمر اللون، طويل القامة، حسن الصورة، وليس بوجهه شعر سوى ذقنه، وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح عماد الدين اسماعيل وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة، فقام بالأمر من بعده وانتقل من دمشق إلى حلب، ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ولم يبق عليه سوى مدينة حلب، ولم يزل الصالح بها إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة والله أعلم .

وكان مبدأ مرضه في تاسع شهر رجب من السنة المذكوة، وحدث له قولنج في مستهل جمادى الأولى، وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسنا محمود السيرة ودفن في المقام الذي في القلعة، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة، وهو مشهور هناك، رحمه الله تعالى.

وتوفي مجير الدين أبق المذكور في سنة أربع وستين وخمسمائة ببغداد، ودفن في داره، كذا وجدته في بعض المسودات التي بخطي ، والله أعلم ، ومولده يوم الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ببعلبك، والله تعالى أعلم.

أبو الفتح وأبو المظفر مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر أتابك صاحب الموصل الملقب عز الدين

قد تقدم خبر جده وجد أبيه وخبر ولده نور الدين أرسلان شاه وغيرهم من أهل بيته، وسيأتي ذكر أبيه في هذا الحرف إن شاء الله تعالى، ولما توفي والده قام بالملك ولده سيف الدين غازي المقدم ذكره لأنه كان أكبر الأخوة، وكان قد خلف هذين الولدين وعماد الدين زنكي صاحب سنجار المذكور عقيب ترجمة جده عماد الدين زنكي، وكان عز الدين المذكور مقدم الجيوش في أيام أخيه غازي، ولما خرج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود المقدم ذكره، وأخذ دمشق، وتقدم إلى حلب وحاصرها فخاف غازي منه، وعلم أنه قد استفحل أمره، وعظم شأنه، واستشعر أنه متى استحوذ على الشام تعدى الأمر إليه، فجهز جيشا عظيما، وقدم عز الدين مسعود المذكور، وسار يريد لقاء السلطان وضرب المصاف معه ليرده عن البلاد، فلما بلغ السلطان خروجه رحل عن حلب وذلك في مستهل رجب الفرد سنة سبعين وخمسمائة، وسار إلى حمص وأخذ قلعتها، وكان قد أخذ البلاد في جمادى الأولى من السنة المذكورة بعد خروجه من دمشق قاصدا حلب، ووصل عز الدين مسعود إلى حلب لينجد ابن عمه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب هذا ماكان في الصورة الظاهرة، وفي الباطن كان غرضهم ماذكرناه من خوفهم على بلادهم، فانضم إلى عز الدين مسعود عسكر حلب، وخرج في جمع كثير، ولما عرف السلطان مسيرهم سار حتى وافاهم على قرون حماة وراسلهم وراسلوه واجتهد في أن يصالحوه فلم يفعلوا، ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجر إلى أمور لايشعرون بها. فقام المصاف بين العسكرين، وقضى الله تعالى أن انكسر جيش عز الدين وأسر السلطان جماعة من أمرائه، ثم أطلقهم وذلك يوم الأحد التاسع

عشر من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة، ثم سار السلطان عقيب الكسرة إلى حلب ونزل عليها وهي الدفعة الثانية، فصالحه الملك الصالح اسماعيل على أخذ المعرة وكفر طاب وبارين، ثم رحل عنها، وشرح ذلك يطول، وتتمة هذه القضية مذكورة في ترجمة أخيه سيف الدين غازي.

ولما توفي أخوه سيف الدين في التاريخ المذكور في ترجمته استقل عز الدين المذكور بالملك من بعده، ولم يزل إلى أن حضرت الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الوفاة في التاريخ المذكور في ترجمة أبيه نور الدين، فأوصى بمملكة حلب وما معها لابن عمه عز الدين مسعود المذكور، واستحلف له الأمراء والأجناد، فلما توفي وبلغ الخبر عز الدين مسعود بادر متوجها إليها خوفا من صلاح الدين أن يسبقه فيأخذها، وكان وصوله إليها في العشرين من شعبان سنة سبع وسبعين وخمسمائة، وصعد القلعة واستولى على مابها من الخزائن والحواصل، وتزوج أم الملك الصالح في خامس شوال من السنة وأقام إلى سادس عشر شوال، ثم علم إنه لايمكنه حفظ الشام والموصل، وخاف من جانب صلاح الدين، وألح عليه الأمراء في طلب الزيادات وتبسطوا عليه في المطالب، وضاق عنهم عطنه، وكان المستولي على أمره مجاهد الدين قايمازالزيني المقدم ذكره في حرف القاف، فرحل عن حلب وخلف بها مظفر الدين ولده، ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل المذكور في حرف الكاف، ولما وصل إلى الرقة لقيه بها أخوه عماد الدين زنكي صاحب سنجار فقرر معه مقايضة حلب بسنجار، وتحالفا على ذلك وسير عماد الدين من يتسلم حلب، وسير عز الدين من يتسلم سنجار، وفي ثالث عشر المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسمائة صعد عماد الدين إلى قلعة حلب، وكان قد تقرر الصلح بين عزالدين المذكور وابن عمه الملك الصالح وبين صلاح الدين على يد قليج أرسلان صاحب الروم، وصعد السلطان صلاح الدين إلى الديار المصرية واستناب بدمشق ابن أخيه عز

الـدين فـروخ شـاه بن شـاهنشـاه بن أيـوب، فلما بلغـه خبر وفاة الملـك الصالح وهذه الأمور المتجددة عـاد إلى الشام، وكان وصوله إلى دمشق في سـابـع عشر صفـر سنـة ثمان وسبعين، وبلغه بها أن رسـول عـز الـديـن مسعود وصل إلى الفـرنج يحثهم على قتال السلطـان ويبعثهم على قصده، فعلم أنـه قد غـدر به ونكـث اليمين، فعزم على قصـد حلب والموصـل، وأخذ في التـأهب للحرب، فبلـغ عماد الديـن صاحب حلـب ذلك فسير إلى أخيه صـاحب الموصـل يعلمه ذلك ويستـدعي منـه العساكـر، فسار السلطان صـلاح الدين مـن دمشق ونزل على حلـب في ثاني عشر جمادى الأولى سنـة ثمان وسبعين وخمسمائة، وأقام عليهـا ثلاثـة أيـام ثم رحـل في الحادي والعشريـن من الشهـر، ثـم جاء مظفـر الـدين بـن زيـن الديـن صاحب إربل، وكـان يوم ذلك في خدمة صاحب الموصـل وهو صاحب حـران، وكان قـد استوحـش مـن عز الـديـن مسعود صـاحب الموصـل، وخاف من مجاهـد الدين قايماز الـزيني المذكور في حرف القـاف، فالتجأ إلى السلطـان صلاح الـدين، وقطـع الفـرات وعبر إليه وقـوى عزمـه على قصـد بلاد الجزيـرة وسهـل أمـرها عليـه، فعبر السلطـان صـلاح الديـن الفرات، وأخذ الـرها والرقة ونصيبين وسروج، ثم أشحـن على بلاد الخابور وأقطعهـا، فـأقـام أيـامـا وعلـم أنـه بلـد عظيـم لايتحصـل منـه شيء بالمحـاصرة، وأن طريـق أخذه أخـذ قلاعـه وبلاده وإضعـاف أهله على طول الـزمان، فرحل عنهـا ونزل على سنجار في سادس عشر شعبـان من السنة وأخذها في شهر رمضان المعظم، وأعطـاها لابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر المقدم ذكره، وشرح ذلك يطول، وخلاصة الأمر أنه رجع إلى الشام، فكان وصـوله إلى حران في أول ذي القعدة، ثم عـاد إلى منازلة الموصل وكان وصـوله إليها في أول شهر ربيـع الأول سنة إحدى وثمانين، ونزلت إليـه والدة عز الدين ومعها جماعـة من نساء بني أتابـك وابنة نور الدين أرسـلان شاه بن مسعود، وقـد سبق ذكره في حرف الهمـزة، وطلبت منه المصـالحة فردها خـائبة ظنا منـه إلى أن عز الـدين أرسلها عجـزا عن

حفظ الموصل، واعتذر بأعذار ندم عليها بعد ذلك، وبذل أهل الموصل نفوسهم في القتال لكونه رد النساء والولد بالخيبة، فأقام عليها إلى أن أتاه خبر وفاة شاه أرمن ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن سكمان القطبي صاحب خلاط وقيام مملوكه بكتمر بالأمر من بعده، وطمع فيه من جاوره من الملوك وعزموا على قصده فسير إلى السلطان وأطمعه في خلاط، وقرر معه تسليمها إليه وأن يعوضه عنها مايرضيه، وكانت وفاة شاه أرمن يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، فرحل السلطان صلاح الدين عن الموصل لهذا السبب في العشرين من الشهر المذكور، وتوجه نحو خلاط في مقدمته مظفر الدين، فنزلوا بالطوابة البليدة التي هي بالقرب من خلاط، وسير الرسل إلى بكتمر لتقرير القاعدة فوصلت الرسل إليه وشمس الدين بهلوان بن ألدكز صاحب أذربيجان وأران وعراق العجم قد قرب من خلاط ليحاصرها، فبعث إليه بكتمر يعرفه أنه إن لم يرجع عنه وإلا سلم البلاد إلى السلطان صلاح الدين فصالحه وزوجه ابنته ورجع عنه، وسير بكتمر إلى السلطان صلاح الدين يعتذر عما قاله من تسليم خلاط، وكان السلطان قد نزل على ميافارقين يحاصرها فقاتلها قتالا شديدا، ثم أخذها عن صلح بالخديعة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة، وكان صاحبها قطب الدين غازي بن ألبي بن تمرتاش بن غازي بن أرتق، فمات وتركها لولده حسام الدين يولق أرسلان وهو طفل صغير فطمع في أخذها من واليها، فأخذها ولما أيس السلطان من خلاط عاد إلى الموصل وهي الدفعة الثالثة، ونزل بعيدا عنها، بموضع يقال له كفر زمار، فأقام به مدة، وكان الحر شديدا فمرض السلطان مرضا شديدا أشفى على الموت، فرحل طالبا حران في مستهل شوال من السنة، ولما علم عز الدين مسعود المذكور بمرض السلطان وأنه رقيق القلب انتهز الفرصة وسير القاضي بهاء الدين بن شداد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الياء، ومعه بهاء الدين الربيب فوصلا إلى حران في الرسالة والتماس الصلح،

فأجـاب إلى ذلك، وحلـف يوم عـرفة مـن السنة، وقـد تماثل الصحـة ولم يتغير عـن تلك اليمين إلى أن مـات رحمه الله تعـالى، ثـم رحل إلى الشـام فأمن حينئـذ عز الدين مسعـود، وطابت نفسه، ولم يـزل على ذلك إلى أن توفي في السـابع والعشريـن من شعبـان سنة تسـع وثمانين وخمسمائة بعلة الاسهـال، وكـان قـد بنـى بـالموصـل مـدرسـة كبيرة وقفهـا على الفقهـاء الشافعية والحنفية فدفن بهذه المدرسـة في تربة هي داخلها رحمه الله تعالى، ورأيت المدرسة والتربـة وهي من أحسن المدارس والترب، ومـدرسة ولده نور الـدين أرسلان شاه في قبـالتها وبينهما ساحة كبيرة، ولما مـات خلف ولده نـور الدين المذكـور، وقد تقدم ذكـره في حرف الهمزة، ولما مـات نور الدين في التاريـخ المذكور في ترجمته خلف ولدين: أحـدهما الملك القاهر عز الدين مسعـود، والآخر المنصور عماد الدين زنكي، ولما حضرتـه الوفاة قسـم البلاد بينهما فـأعطى الملـك القاهـر، وهو الأكبر الموصـل وأعمالها، وأعطى عماد الـدين العمادية والعقـر وتلك النواحي، فـأما الملك القـاهر، فكـانت ولادتـه في سنـة تسعين وخمسمائة بالموصـل، وتـوفي بها فجأة يـوم الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيـع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة، وكان قد بنـى مدرسـة أيضا فدفـن بها، وأما عماد الـدين فإنـه أخذ بعـد موت أخيه الملك القاهر قلعة العمادية، ثـم أخذت منه وهي من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل، وكذلـك عدة قلاع مما يجاورها، وانتقل إلى إربل، وكان زوج ابنة مظفر الدين صاحـب إربل، فأقام بها زمانا وكنا في جواره، وكـان من أحسن النـاس صورة، ثم قبـض عليه مظفر الـدين لأمر يطول شرحه، وسيره إلى سنجار إلى الملـك الأشرف ابن الملك العادل الآتي ذكره إن شـاء الله تعالى، فـأفرج عنـه الملك الأشرف، وعـاد إلى إربل وقايضه مظفر الـدين عن العقر بشهرزور وأعمالها، فانتقـل إليها وأقام بها إلى أن توفي في حـدود سنة ثلاثين وستمائة، وخلـف ولدا أقام بعـده قليلا ثم مـات رحمهما الله تعالى، ولما مات عـز الديـن مسعود بن أرسـلان شاه خلف ولـدين: نور الـدين أرسلان شاه، وكـان سمي عليا في حيـاة جده

أرسلان شـاه، فلما مات جـده نور الـدين سمـوه باسمـه، وناصر الـدين محمـود فتولى بعـده نـور الديـن المذكور وكـان تقـدير عمـره عشر سنين، وبقي بعد أبيه قليـلا، وتوفي في بقية السنة، وتولى أخوه بعـده ناصر الدين محمود، والمدبر لأمر المملكـة بدر الـدين لـؤلؤ الـذي ملك الموصـل فيما بعد، وتـوفي بهلوان بـن ألدكـز المذكور في سلـخ ذي الحجة سنـة إحدى وثمانين وخمسمائة رحمه الله تعـالى، وتـوفي والـده شمـس الـديـن ألـدكـز الأتابك في أواخـر شهر ربيع الآخر سنـة سبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتوفي والده شمس الدين ألدكز الأتـابك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بنقجـوان، ودفـن بها رحمه الله تعـالى، وكـان أتـابـك السلطـان أرسلان شـاه بـن طغـرلبك بـن محمـد بـن ملكشاه بـن محمـد السلجوقي، وبعد ألـدكز بمقدار شهر توفي أرسلان شـاه المذكور بهمذان رحمه الله تعالى، وقتـل قزل بـن ألدكز المذكـور في أوائل شعبان سـة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان ملكـا كبيرا وهو ابـن ألدكـز المذكور، رحمهـم الله تعالى أجمعين، والله تعالى أعلم بالصواب.

أبو علي المنصور الملقب الآمر بأحكام الله بن المستعلي ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي المذكور قبله

وقد تقدم بقية نسبه، وذكر والده في الأحمدين في حرف الهمزة، وبويع الآمر بالولاية يوم مات أبوه في التاريخ المذكور في ترجمته، وأقام بتدبير دولته الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش المذكور في حرف الشين، وكان وزير والده، وقد ذكرنا في ترجمته طرفا من أخبار الأمير المذكور، ولما اشتد الآمر وفطن لنفسه قتل الأفضل حسبما تقدم شرحه، واستوزر المأمون أبا عبد الله محمد بن أبي شجاع فاتك البطائحي، فاستولى هذا الوزير عليه وقبح سمعته وأساء سيرته، ولما كثر ذلك منه قبض عليه الآمر أيضا ليلة السبت رابع شهر رمضان سنة تسع عشرة وخمسمائة، واستصفى جميع أمواله، ثم قتله في رجب سنة إحدى وعشرين وصلب بظاهر القاهرة وقتل معه خمسة من أخوته أحدهم يقال له المؤمن، وكان متكبرا متجبرا خارجا عن طرره وله أخبار مشهورة، وكان الآمر سيء الرأي جائر السيرة مستهتراً متظاهرا باللهو واللعب.

وفي أيامه أخذ الفرنج مدينة عكا في شعبان سنة سبع وتسعين وأربعمائة، وأخذوا طرابلس الشام بالسيف يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسمائة، وكان أخذهم لها بالسيف ونهبوا مافيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها وكتب دار علمها وماكان في خزائن أربابها مالايحد ولايحصى، وعوقب من بقي من أهلها واستصفيت أموالهم، ثم وصلتها نجدة المصريين بعد فوات الأمر فيها، وفي هذه السنة ملكوا عرقة، وكان نزولهم عليها أول شعبان من السنة المذكورة، وفيها ملكوا بانياس وفيها تسلموا جبلة بالأمان وتسلموا قلعة تبنين يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة، ثم تسلموا مدينة صور يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وخمسمائة، وكان الوالي بها

من جهة الأتابك ظهير الدين طغتكين المذكور في حرف التاء في ترجمة تتش بن ألب أرسلان، وكان يومئذ صاحب دمشق وماوالاها، ولما ملكوا صور ضربوا السكة باسم الآمر المذكور مدة ثلاث سنين، ثم قطعوا ذلك، وأخذوا بيروت يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ثلاث وخمسمائة بالسيف، وأخذوا صيدا لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسمائة.

وفي أيام الآمر أيضا سنة أربع وخمسمائة وقيل سنة إحدى عشرة والله أعلم قصد بردويل الفرنجي الديار المصرية ليأخذها، وانتهى إلى الفرما ودخلها وأحرقها وأحرق جامعها ومساجدها، ورحل عنها وهو مريض، فهلك في الطريق قبل وصوله إلى العريش، فشق أصحابه بطنه، ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم، ورحلوا بجثته فدفنوها بقمامة، وسبخة بردويل التي في وسط الرمل على طريق الشام منسوبة الى بردويل المذكور والحجارة الملقاة هناك والناس يقولون هذا قبر بردويل إنما هي هذه الحشوة، وكان بردويل صاحب بيت المقدس وعكا ويافا وعدة بلاد من ساحل الشام، وهو الذي أخذ هذه البلاد المذكورة من المسلمين.

وفي هذه السنة أيضا خرج المهدي محمد بن تومرت المقدم ذكره من مصر، وصاحبها الآمر المذكور إلى بلاد المغرب في زي الفقهاء، وجرى له هناك ماسبق شرحه في ترجمته.

وكانت ولادة الآمر يوم الثلاثاء ثالث عشر محرم سنة تسعين وأربعمائة بالقاهرة، وتولى وعمره خمس سنين، ولما انقضت أيامه خرج من القاهرة صبيحة يوم الثلاثاء ثالث ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، ونزل إلى مصر وعدى على جسر الجزيرة التي قبالة مصر، فكمن له قوم بالأسلحة وتواعدوا على قتله في السكة التي يمر فيها إلى فرن هناك، فلما مر بهم وثبوا عليه فلعبوا عليه بأسيافهم، وكان قد جاوز الجسر وحده مع عدة

قليلة من غلمانه وبطانته وخاصته وشيعته، فحمل في النيل في زورق، ولم يمت وأدخل القاهرة وهو حي وجيء به إلى القصر فمات من ليلته، ولم يعقب، وهو العاشر من أولاد المهدي عبيد الله القائم بسجلماسه المقدم ذكره، وانتقل الأمر إلى ابن عمه الحافظ عبد المجيد المقدم ذكره رحمهم الله تعالى.

وكان قبيح السيرة ظالما للناس يأخذ أموالهم ويسفك دمائهم، وارتكب المحظورات، واستحسن القبائح فابتهج الناس بقتله، وكان ربعة شديد الأدمة جاحظ العينين حسن الخط والمعرفة والعقل، وأما المأمون ابن البطائحي الوزير المذكور فهو الذي بنى الجامع الأقمر بالقاهرة سنة خمس عشرة وخمسمائة، وكان الأفضل ابن أمير الجيوش قد شرع في عمارة جامع النيل بظاهر مصر عند الرصد المطل على بركة الحبش في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة، ولم يكمله فأكمله المأمون بعده في مدة وزارته والله أعلم.

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر طرف من خبره في ترجمة أخيه نور الدين محمود صاحب الشام، وذكر أولاده الثلاثة وهم سيف الدين غازي الذي تولى السلطنة بعده، وعز الدين مسعودوعمادالدين زنكي صاحب سنجار، واستوعبت في ترجمة غازي ماجرى من نور الدين عقيب موت قطب الدين، وأنه قصد الموصل، ثم قرر أمر غازي المذكور فيها ورتب أحوال أولاد أخيه كلهم، وفي تلك السفرة بنى نور الدين الجامع النوري داخل الموصل، وهو مشهور هناك تقام فيه الجمعة، وكان سبب عمارته ماحكاه العماد الأصبهاني في البرق الشامي عند ذكره لوصول نور الدين إلى الموصل أنه كان بالموصل خربة متوسطة البلد واسعة، وقد أشاعوا عنها ما ينفر القلوب منها وقالوا: ماشرع في عمارتها إلا من ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره فأشار عليه الشيخ الزاهد معين الدولة عمرالملاء وكان من كبار الصالحين بابتناء الخربة، وبنى بها جامعا وأنفق فيها أموالا جزيلة، ووقف على الجامع ضيعة من ضياع الموصل، وكان قطب الدين قد تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد عقيب موت أخيه سيف الدين غازي الأكبر المقدم ذكره أيضا، وكان حسن السيرة عادلاً في حكمه، وفي دولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الأصبهاني المعروف بالجواد المقدم ذكره، وهو الذي قبض عليه حسبما سبق شرحه، وكان مدبر دولته وصاحب رأيه الأمير زين الدين علي كجك، والد مظفر الدين صاحب إربل، وكان نعم المدبر والمشير لصلاحه وخيره وحسن مقاصده، مع شجاعة تامة وفروسية مشهورة، وقد تقدم أيضا ذكره في ترجمة ولده مظفر الدين في حرف الكاف، ولم يزل قطب الدين المذكور على سلطنته ونفاذ كلمته إلى أن توفي في شوال سنة خمس وستين وخمسمائة وقيل في الثاني والعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة.

وذكر أسامـة بن منقذ في كتاب لـه صغير ذكر فيه من أدركـه في عمره من ملـوك البلاد أن قطـب الدين المذكـور توفي سلـخ شهر ربيـع الآخر، سنـة ست وستين وخمسمائة، وليـس بصحيح فـإن أخـاه نور الـدين كـان بـالموصـل في شهر ربيـع الآخـر، وجـاءتـه رسـل الخليفة وهـو مخيـم على الموصل في الشهر المذكـور، ولم يتوجه نور الـدين إليها إلا بعد وفـاة أخيه قطب الـدين، وكانـت وفاته بـالموصل ومـدة عمره أكثر مـن أربعين سنة بقليـل، وخلف عـدة أولادة وأكثرهـم ملك البـلاد، وقد تقـدم ذكر أبيـه وجده وجماعة من أهل بيته رحمهم الله كلهم.

أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن أيوب الملقب الملك الأشرف مظفر الدين

أول شيء ملكه من البلاد مدينة الرها سيره إليها والده من الديار المصرية في سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، ثم أضيفت إليه حران، وكان محبوباً إلى الناس مسعوداً مؤيداً في الحروب من يومه لقي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل المذكور في حرف الهمزة، وكان يوم ذاك من الملوك المشاهير الكبار وتواقعا في مصاف فكسره، وذلك في سنة ستمائة وهي وقعة مشهورة، فلا حاجة إلى تفصيلها، ولما توفي أخوه الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميا فارقين وتلك النواحي، أخذ الملك الأشرف مملكته مضافة إلى ملكه، وذلك في سنة تسع وستمائة، وكان الملك الأوحد قد ملك خلاط في سنة أربع وستمائة، فاتسعت حينئذ مملكته وبسط العدل على الناس وأحسن إليهم إحسانا لم يعهدوه ممن كان قبله، وعظم وقعه في قلوب الناس وبعد صيته، وكان قد ملك نصيبين الشرق في سنة ست وستمائة، وأخذ سنجار سنة سبع، وكذلك الخابور، وملك معظم بلاد الجزيرة، وكان يتنقل فيها، وأكثر إقامته بالرقة لكونها على الفرات.

ولما مات ابن عمه الملك الظاهر صاحب حلب في التاريخ المذكور في ترجمته في حرف الغين عزم عز الدين كيكاوس صاحب الروم على حلب، فسير أرباب الأمر بحلب إلى الملك الأشرف وسألوه الوصول إليهم لحفظ البلد فأجابهم إلى سؤالهم وتوجه إليهم ، وأقام بالياروقيه بظاهر حلب مدة ثلاث سنين، وجرت له مع صاحب الروم وابن عمه الملك الأفضل صاحب سميساط وقائع مشهورة لاحاجة إلى الإطالة في شرحها، ولما أخذت الفرنج دمياط في سنة ست عشرة وستمائة حسبما شرحناه في ترجمة الملك الكامل توجهت جماعة من ملوك الشام إلى الديار المصرية لانجاد الملك الكامل، وتأخر عنه الملك الأشرف لمنافرة كانت بينهما، فجاءه

أخوه الملك المعظم المقدم ذكره في حرف العين بنفسه وأرضاه، ولم يزل يلاطفه حتى استصحبه معه فصادف عقيب وصوله إليها انتصار المسلمين على الفرنج وانتزاع دمياط من أيديهم، وكانوا يرون ذلك بسبب من غرته.

ولما مات الملك المعظم في التاريخ المذكور في ترجمته، قام بالأمر من بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، فقصده عمه الملك الكامل من الديار المصرية ليأخذ دمشق منه، فاستنجد بعمه الملك الأشرف، وكان يومئذ ببلاد المشرق، فوصل إليه واجتمع به بدمشق، ثم خرج منها متوجها إلى أخيه الملك الكامل واجتمع به، وجرى الاتفاق بينهما على أخذ دمشق من الملك الناصر وتسليمها إلى الملك الأشرف، ويبقى للملك الناصر الكرك والشوبك ونابلس وبيسان وتلك النواحي، وينزل الملك الأشرف عن حران والرها وسروج والرقة ورأس عين ويسلمها إلى الملك الكامل، فاستتب الحال على ذلك ، وتسلم الملك الأشرف دمشق لاستقبال رجب سنة ست وعشرين وستمائة، وانتقل الملك الكامل إلى بلاده التي تسلمها بالشرق ليكشف أحوالها ويرتب أمورها، واجتزت في التاريخ المذكور بحران وهو بها، وانتقل الأشرف إلى دمشق واتخذها دار إقامة وأعرض عن بقية البلاد، ونزل جلال الدين خوارزم شاه على خلاط وحاصرها وضايقها أشد مضايقة وأخذها في سنة ست وعشرين من نواب الملك الأشرف، وهو مقيم بدمشق، ولم يمكنه في ذلك الوقت قصدها للدفع عنها لاعذار كانت له، ثم عقيب ذلك دخل إلى بلاد الروم بالاتفاق مع سلطانها علاء الدين كيقباذ أخي عز الدين كيكاوس المذكور، وتظافرا على قصد خوارزم شاه، وضرب المصاف معه، فإن صاحب الروم أيضاً كان يخاف على بلاده منه لكونه مجاوره، فتوجها نحوه في جيش عظيم من جهة الشام والشرق في خدمة الملك الأشرف وعسكر صاحب الروم، والتقوا بين خلاط وأرزنكان بموضع يقال له باسى حمارة في يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة،

وانكسر خوارزم شاه وهي وقعة مشهورة، وعادت خلاط إلى الملك الأشرف وقد خربت، ثم رجع إلى الشام وتوجه إلى الديار المصرية وأقام عند أخيه الملك الكامل مدة، ثم خرج في خدمته قاصدين آمد، ونزلوا عليها وفتحوها في مدة يسيرة ، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة، وأضافها الملك الكامل إلى مملكته ببلاد الشرق، ورتب فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور في ترجمة والده، وفي خدمته الطواشي شمس الدين رضوان الخادم العادلي ثم عاد كل واحد إلى بلاده، ثم كانت واقعة ببلاد الروم وهي مشهورة، ورجع الكامل والأشرف ومن معهما من الملوك بغير حصول مقصود، ولما رجعا خرج عسكر صاحب الروم على بلاد الكامل بالشرق فأخذها وأخربها، ثم عاد الكامل والأشرف وأتباعهما ومن معهما من الملوك إلى بلاد الشرق واستنقذوها من نواب صاحب الروم، ثم رجعوا إلى دمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكنت يومئذ بدمشق في تلك السفرة، ورأيت الكامل والأشرف وكانا يركبان معا ويلعبان بالكرة بالميدان الأخضر الكبير كل يوم، وكان شهر رمضان، وكانا يقصدان بذلك تعبير النهار لأجل الصوم، ولقد كنت أرى من تأدب كل واحد منهما مع الآخر شيئاً كثيراً، ثم وقعت بينهما وحشة، وخرج الأشرف عن طاعة الكامل، ووافقته الملوك بأسرها، وتعاهد هو وصاحب الروم وصاحب حلب وصاحب حماه وصاحب حمص وأصحاب الشرق على الخروج على الملك الكامل، ولم يبق مع الملك الكامل سوى ابن أخيه الملك الناصر صاحب الكرك فإنه توجه إلى خدمته بالديار المصرية، فلما تحالفوا وتحزبوا و اتفقوا على الخروج على الملك الكامل، مرض الملك الأشرف مرضا شديداً وتوفي يوم الخميس رابع المحرم سنة خمس وثلاثين وستمائة بدمشق ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى التربة التي أنشئت له بالكلاسة في الجانب الشمالي من جامع دمشق.

وكانت ولادته سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالديار المصرية بالقاهرة، وقيل بقلعة الكرك رحمه الله تعالى، هذه خلاصة أحواله، وكان سلطاناً

كريما حليما واسع الصدر كريم الاخلاق، كثير العطاء لايوجد في خزائنه شيء من المال مع اتساع مملكته، ولا تزال عليه الديون للتجار وغيرهم، ولقد رأى يوماً في دواة كاتبه وشاعره الكمال أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن النبيه المصري قلما واحداً فأنكر عليه ذلك، فأنشده في الحال دوبيت

قال الملك الأشرف قولا رشدا
أقلامك يا كمال قلت عددا
جاوبت لعظم كتب ما تطلقه
تحفى فتقط فهي تفنى أبدا

وطرب ليلة في مجلس أنسه على بعض الملاهي، فقال لصاحب الملهى: تمن علي، فقال تمنيت مدينة خلاط فأعطاها، وكان نائبه بها الأمير حسام الدين المعروف بالحاجب علي بن حماد الموصلي، فتوجه ذلك الشخص إليه ليتسلمها منه فعوضه الحاجب عنها جملة كثيرة من المال وصالحه عنها، وكان له في ذلك غرائب، وكان يميل إلى أهل الخير والصلاح، ويحسن الاعتقاد فيهم، وبنى بدمشق دار حديث فوّض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين عثمان المعروف بابن الصلاح المقدم ذكره.

وكان بالعقيقة ظاهر دمشق خان يعرف بابن الزنجاري قد جمع أنواع أسباب الملاذ، ويجرى فيه من الفسوق والفجور ومالاً يحدّ ولا يوصف، فقيل له عنه إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين فهدمه وعمره مسجداً جامعا غرم عليه جملة مستكثرة، وسماه الناس جامع التوبة، كأنه تاب إلي الله تعالى وأناب مما كان فيه، وجرت في خطابته نكتة لطيفة أحببت ذكرها وهي أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد إمام يعرف بالجمال البستي،أعرفه شيخا حسناً، ويقال كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى الجغانة، ولما كبر حسنت طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح حتى صار معدوداً في الاخيار، فلما

احتاج الجامع المذكور إلى خطيب ذكر للملك الأشرف جماعة وشكر الجمال المذكور، فتولى خطابته، فلما توفي تولى موضعه العماد الواسطي الواعظ، وكان يتهم باستعمال الشراب، وكان صاحب دمشق يومئذ الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب، فكتب إليه الجمال عبد الرحيم المعروف بابن زوتينية الرحبي أبياتاً وهي:

يا مليكاً أوضح الحـ ... ـق لدينا وأبانه
جامع التوبة قد ... قلدني منه أمانه
قال قل للملك الصا ... لح أعلى الله شانه
يا عماد الدين يا من ... حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ... ضر وبؤس وإهانه
لي خطيب واسطي ... يعشق الشرب ديانه
والذي قد كان من قبـ ... ـل يغني بجغانه
فكما نحن فما زا ... لنا ولا أبرح حانه
ردني للنمط الأ ... ول واستبق ضمانه

وهذه الأبيات في بابها في غاية الظرف، وكان الرحبي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية في رسالة من عند صاحب حمص، وأنشدني هذه الأبيات وحكى السبب الحامل عليها، وذلك في بعض شهور سنة سبع وأربعين وستمائة.

ومدح الملك الأشرف أعيان شعراء عصره وخلدوا مدائحه في دواوينهم، فمنهم شرف الدين محمد بن عنين وقد سبق ذكره، والبهاء أحمد النجار وقد سبق ذكره أيضاً والشرف راجح الحلي، وقد ذكرته في ترجمة الملك الظاهر، والكمال بن النبيه المذكور، وكانت وفاته سنة تسع عشرة وستمائة بمدينة نصيبين الشرق، وعمره تقديراً مقدار ستين سنة، كذا أخبرني صهره بالقاهرة، والمهذب محمد بن أبي الحسين بن يمن بن علي بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الحميد الأنصاري، المعروف بابن الاردخل الموصلي الشاعر المشهور، ومولده سنة سبع وسبعين وخمسمائة بالموصل، وتوفي في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وستمائة بميافارقين رحمه الله تعالى.

ياروق بن أرسلان التركماني

كان متقدما جليل القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطىء قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية وسكنها هو ومن معه وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهلة يتردد إليها أهل حلب في أيام الربيع، ويتنزهون هناك في الخضرة على قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس، وتوفي ياروق المذكور في المحرم عام أربع وستين وخمسمائة رحمه الله تعالى، هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في سيرة السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وياروق بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة، ثم واوساكنة، وفي الآخر قاف، وقويق بضم القاف وفتح الواو.وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قاف، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع، وينقطع في الصيف وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً خصوصاً أبا عبادة البحتري فإنه كرر ذكره في عدة قصائد فمن ذلك قوله في جملة قصيدة:

يا برق أسفر عن قويق فطرتي
حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغة
في كل ناحية ومجنى الآس
أرض إذا استوحشت ثم أتيتها
حشدت عليّ فأكثرت ايناسي (٤)

وبطياس بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف سين مهملة، وهي قرية كانت بظاهر حلب،

ودثرت، ولم يبق لها اليوم أثر، وكان صالـح بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلـب رضي الله عنهم قد بنى بها قصراً، وسكنه هـو وبنوه وهو بين النيرب والصـالحيـة وهما قـريتـان في شرق حلـب، وكـان القصر على الرابية المشرفـة على النيرب، ولم يبق منه في هذا الزمان سـوى آثار دارسة، هكذا وجدتـه مضبوطا بخط بعـض الفضلاء من أهل حلـب، والله تعالى أعلم .

أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد ابن عتاب الأسدي قاضي حلب المعروف بابن شداد الملقب ببهاء الدين الفقيه الشافعي

توفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم، وكان شداد جده لأمه، وكان يكنى أولا أبا العز، ثم غير كنيته وجعلها أبا المحاسن كما ذكرته، ولد بالموصل ليلة العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وحفظ بها القرآن الكريم في صغره، ثم قدم الشيخ أبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي المقدم ذكره إلى الموصل فلازمه، وقرأ عليه بالطرق السبع، وأتقن عليه القراءات

قال أبو المحاسن المذكور في بعض تواليفه، أول من أخذت عنه شيخي الحافظ ضياء الدين أبو بكر يحيي بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي، رحمه الله تعالى، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة، فقرأت عليه معظم مارواه من كتب القراءات وقراءة القرآن العظيم ورواية الحديث وشروحه والتفسير، حتى كتب لي خطه بذلك وشهد لي بأنه ماقرأ عليه أحد أكثر مما قرأت، وعندي خطه بجميع ما قرأته عليه في قريب من كراسين، وفهرست مارواه جميعه عندي، وأنا أرويه عنه ومما يشتمل عليه الفهرست البخاري، ومسلم من عدة طرق، وغالب كتب الحديث وغالب كتب الأدب وغيره، وآخر روايتي عنه شرح الغريب لأبي عبيد القاسم بن سلام قرأته عليه في مجالس آخرها في العشر الأخير من شعبان سنة سبع وستين وخمسمائة، قلت: وهي السنة التي مات فيها الشيخ القرطبي حسبما ذكرته في ترجمته.

ثم قال: ومنهم الشيخ أبو البركات عبد الله بن الخضر بن الحسين المعروف بابن الشيرجي، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي، وأجازني أن

أروي عنه جميع ماوراه على اختلاف أنواع الروايات، وكتب لي خطه بذلك في فهرست سماعي مؤرخاً بخامس جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسمائة، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه، ولي قضاء البصرة ودرس بالأتابكية القديمةيعني بالموصل.

ومنهم الشيخ مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي الخطيب بالموصل، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق، وعاش نيفاً وتسعين سنة، قلت: وكانت ولادة أبي الفضل /ابن الطوسي الخطيب المذكور في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد بباب المراتب، وتوفي ليلة الثلاثاء رابع عشر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بمقبرة باب الميدان رحمه الله تعالى.

رجعنا إلى تتمة كلام أبي المحاسن بن شداد: وسمعت عليه يعني على الخطيب المذكور كثيرا من مسموعاته وأجاز لي جميع ماوراه في السادس والعشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ومنهم القاضي فخر الدين أبو الرضا سعيد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه، ومسند أبي عوانة ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن أبي داود، وكتب لي خطه بذلك وهو في فهرستي، وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية ماوراه، وكتب لي خطه بذلك في شوّال سنة سبع وستين وخمسمائة، ومنهم الحافظ مجد الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، وأجاز لي جميع ما يرويه على اختلاف أنواعه، وفي فهرستي خطه بذلك مؤرخاً بشهر رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وفهرسته عندي بذلك.

قلت: توفي أبو محمد عبد الله الأشيري المذكور في شوّال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام، ودفن ببعلبك ظاهر باب حمص شمالي البلد.

ومنهم الحافظ سراج الدين أبو بكر محمد بن علي الجياني قرأت عليه صحيح مسلم من أوله إلى آخره بالموصل، والوسيط للواحدي وأجاز لي رواية ما يرويه في تاريخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة، فهذه أسماء من حضر في خاطري، وقد سمعت من جماعة لم تحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب كشهدة الكاتبة في بغداد وأبي الغيث في الحربية، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية، وجماعة شذت عني طرقهم، فلم أذكرهم إذ كان في هؤلاء غنية.

هذا آخر ما ذكره عن نفسه وقال غيره: إنه قرأ الفقه على أبي البركات عبد الله بن الشيرجي المذكور، فقيه الموصل، وكان عالماً زاهداً متقشفاً وتوفي في جمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمسمائة بالموصل، ودفن بظاهرها، ثم اشتغل بالخلاف على الضياء بن أبي حازم صاحب محمد ابن يحيى الشهيد النيسابوري، ثم باحث في الخلاف متفنني أصحابه كالفخر النوقاتي والبروي والعماد النوقاتي والسيف الخواري والعماد المنابجي، ثم انحدر إلى بغداد بعد التأهل التام، ونزل بالمدرسة النظامية وترتب فيها معيدا بعد وصوله إليها بقليل، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يوم ذاك أبو نصر أحمد بن عبيد الله بن محمد الشاشي، وكانت ولاية ابن الشاشي المذكور التدريس بالنظامية في شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة، وعزل عنها في سلخ شهر رجب سنة تسع وستين وتولاها بعده رضي الله عنه أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني في التاريخ المذكور، وأبو المحاسن المذكور مستمر بها على الإعادة، وكان رفيقه في الاعادة السيدمحمدالسلماسي،وقد تقدم ذكره، ثم أصعد إلى الموصل في سنة تسع وتسعين، فترتب مدرسا في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري المقدم ذكره، ولازم الاشتغال، وانتفع به جماعة، وله كتاب في الأقضية سماه ملجأ الحكام عند التباس الأحكام، ذكر في أوائله أنه حج في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام بعد الحج

والزيارة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه فظن أنه يسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين المقدم ذكره، فإنه كان أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين، وقتل على جبل عرفات لأمر يطول شرحه وليس هذا موضع ذكره، فلما دخل عليه ذكر أنه قابله بالاكرام التام، ووما زاد على السؤال عن الطريق، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري وأنه قرأه عليه بنفسه، فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الأصبهاني وقال له: السلطان يقول لك إذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرفنا بذلك فلنا إليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة، فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له في تلك المدّة كتابا يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوي على مقدار ثلاثين كراسة، فخرج إليه واجتمع به بقلعة حصن الأكراد وقدم له الكتاب الذي جمعه وقال إنه كان عزم على الانقطاع في مشهد بظاهر الموصل إذا وصل إليها.

ثم إنه اتصل بخدمة صلاح الدين في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، ولما كنت متولي الحكم بدمشق المحروسة جاءني في بعض شهور سنة ست وستين وستمائة اسجال قد ثبت مضمونه عند القاضي أبي المحاسن المذكور، وهو يومئذ قاضي العسكر الصلاحي، وقد انقطع ثبوته بموت شهوده فتعذر إثباته عندي لذلك وتأملته إلى آخره لأنني استغربته، فقد كان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته.

عدنا إلى بقية ما ذكره أبو المحاسن المذكور فقال : إنه كان قد حضر إلى خدمة صلاح الدين في صحبة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل، والقاضي محيي الدين بن الشهرزوري لما وصلا إليه

في رسالة، واتفق في تلك الدفعة وفاة البهاء الدمشقي المدرس ، كان بمصر في مدرسة منازل العز، وخطيب مصر، وأن صلاح الدين عرض عليه تدريس المدرسة المذكورة فلم يفعل، وأنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على حران، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ، وذكر أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين، وتحليف بعضهم لبعض، وأن الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب كتب إلى أخيه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه، فأجابه إلى ذلك، فأرسله الظاهر إلى مصر لاستحلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين بن صلاح الدين، وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك، فلما عاد من هذه الرسالة، كان القاضي بحلب قد مات فعرض عليه فأجاب، هكذا ذكره في كتاب ملجأ الحكام.

وذكر القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم في تاريخه الصغير الذي سماه زبدة الحلب من تاريخ حلب ما مثاله، وفي سنة إحدى وتسعين يعني وخمسمائة اتصل القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بخدمة الملك الظاهر، وقدم إليه إلى حلب، وولاه قضاءها ووقوفها وعزل عن قضائها زين الدين أبا البيان نبأ بن البانياسي نائب محيي الدين بن الزكي، وحل عنده بهاء الدين في رتبة الوزارة والمشاورة. انتهى كلامه.

قلت: وهذا القاضي نبأ هو ابن الفضل بن سليمان الحميري يعرف بيتهم بدمشق ببيت البانياسي، وكان السلطان صلاح الدين قد ولى القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن الزكي الدمشقي المقدم ذكره القضاء بحلب، فاستناب فيها زين الدين نبأ بن البانياسي المذكور، واستمر بها إلى التاريخ المذكور، وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة

المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر قد قرر له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرج كثير فإنه لم يولد له، ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى للشافعية، ورأيت تاريخ عمارتها مكتوبا على سقف مسجده وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس، وذلك في سنة احدى وستمائة، ثم عمر في جوارها داراً للحديث النبوي ، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان باب إلى المدرسة، وباب إلى دار الحديث وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث أن الذي يقف في أحد المكانين يرى من يكون في المكان الآخر، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة، وكثر الجمع بها، وكان بين والدي رحمه الله تعالى وبين القاضي أبي المحاسن المذكور موانسة كثيرة وصحبة صحيحة المودة من زمن الاشتغال بالموصل، فجئت إليه وكان أخي قد سبقني بمدة قليلة، وكتب سلطان بلدنا الملك المعظم مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري بن علي بن بكتكين رحمه الله تعالى، المقدم ذكره في حرف الكاف كتابا بليغاً في حقنا يقول فيه: أنت تعلم ما يلزم من أمر هذين الولدين، وإنهما ولدا أخي، وولدا أخيك ولاحاجة مع هذا إلى تأكيد وصية ، وأطال القول في ذلك، فتفضل القاضي أبو المحاسن وتلقانا بالقبول والإكرام، وأحسن حسب الامكان، وعمل ما يليق بمثله وأنزلنا في مدرسته، ورتب لنا أعلى الوظائف، وألحقنا بالكبار مع الشبيبة في السن والابتداء في الاشتغال،وقد تقدم في ترجمة الشيخ موفق الدين ابن يعيش النحوي تاريخ دخوله إلى حلب فأغنى عن الاعادة، ولم نزل عنده إلى أن توفي في التاريخ الآتي ذكره، ولم يكن في مدرسته في ذلك الزمان درس عام لأنه كان المدرس بنفسه، وكان قد طعن في السن وضعف عن الحركة وحفظ الدروس والقائها، فرتب أربعة من الفقهاء الفضلاء برسم الإعادة، والجماعة

يشتغلون عليهم وكنت أنا وأخي نقرأ على الشيخ جمال الدين أبي بكر الماهاني لأنه كان من بلدنا، ورفيق والدنا في الاشتغال عند الشيخ عماد الدين أبي حامد محمدبن يونس المقدم ذكره،فمات في ثالث شوّال سنة سبع وعشرين وستمائة وقد نيف على ثمانين سنة، فترددت إلى الشيخ نجم الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي المعروف بابن الخباز الموصلي الفقيه الإمام، وهو إذ ذاك مدرس المدرسة السيفية، فقرأت عليه من أول كتاب الوجيز للغزالي إلى الاقرار، وعلى الجملة فقد خرجنا عما نحن بصدده لسبب اتصال الكلام.

وكان القاضي أبو المحاسن المذكور بيده حل الأمور وعقدها، لم يكن لأحد معه في الدولة كلام، وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر محمد إبن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه ومتولي أمور الدولة باشارة القاضي أبي المحاسن لايخرج عنهما شيء من الأمور، وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة، خصوصاً جماعة مدرسته، فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه، وكنا نسمع عليه الحديث ونتردد إليه في داره، وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية لايجلس في الصيف والشتاء إلا فيها لأن الهرم كان قد أثر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف لايقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة، وكانت النزلات تعتريه في دماغه فلا يفارق تلك القبة، وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير، ومع هذا كله لا يزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاسي والثياب الكثيرة وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة بحيث كنا نجد عنده الحر والكرب، وهو لايشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لايخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ وإذا قام إلى الصلاة بعد التجهد يكاد يسقط، ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما، وكان عقيب صلاة الجمعة

يسمع المصلون عنده الحديث عليه، وكان يعجبه ذلك، وكان حسن المحاضرة جميل المذاكرة، والأدب غالب عليه، وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه:

إن السلامة من ليلى وجارتها
أن لا تمر على حال بناديها

وكان يتمثل أيضاً كثيرا بقول صردر الشاعر المقدم ذكره في حرف العين، وهذا البيت من جملة قصيدة طويلة وهو:

وعهودهم بالرمل قد نقضت
وكذاك ما يبنى على الرمل

فأنشده في بعض الأيام فقال له بعض الحاضرين: يا مولانا قد استعمل ابن المعلم العراقي هذا المعنى استعمالا مليحا فقال: ابن المعلم هو أبو الغنائم؟ فقال: نعم فقال: صاحبنا كان، فكيف قال فأنشده:

نقضوا العهود وحق ما يبنى على
رمل اللوى بيد الهوى أن ينقضا

فقال: ما أقصر، ولقد تلطف في قوله: «بيد الهوى» فقال له: يا مولانا، وقد استعمله في قصيدة أخرى، فقال: هات، فأنشده

ولم يبن على الرمل
فكيف انتقض العهد

فاستحسنه.

وكان كثيراً ما ينشد أبيات أبي الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص المقدم ذكره، وكان يقول إنه سمعها منه ويرويها عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة الحيص بيص فأغنى عن الإعادة وأولها:

لا تضع من عظيم قدر وإن كنـ
ـت مشاراً إليه بالتعظيم

وكان يقول: أنشدني القاضي الفاضل لبعضهم ونحن نزول على قلعة صفد:

قلـــــت للنــــــــزلـــــة لما
أن ألمت بلهــــــــــــــــــاتي
بحيـــــاتي خــــل حلقـــــي
نهر دهليـــــــز حيـــــاتي

قلت: هذان البيتان منسوبان إلى ابن الهبارية المقدم ذكره والله أعلم

وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحالة من الضعف والعجز عن القيام والقعود والصلاة وسائر الحركات ينشد:

مــــن يتمـــن العمـــر فليـــدرع
صبرا على فقـــــد احبــــــائه
ومــــن يعمـــريـــر في نفســـه
مـــــا يتمنـــــاه لأعـــــدائه

ثم وجدت هذين البيتين للظهير أبي اسحق ابراهيم بن نصر بن عسكر قاضي السلامية المقدم ذكره في هذا الكتاب، والله أعلم.ذكر ذلك صاحبنا الكمال بن الشعار الموصلي في كتابه عقود الجمان في ترجمة الظهير المذكور، وهذا ينظر إلى قول أبي العلاء المعري

تــدعـــو بطـــول العمـــر أفـــواهنـــا
لمن تنـــــاهــــى القلـــــب في وده
يسر إن مـــــدبقـــــاء لـــــه
وكـــل مـــا يكــــره في مـــده

والأصل في هذا قول الآخر:

كـــانـــت قنـــاتي لا تلين لغـــامــــز
فـــألانها الإصبــــاح والامســـــاء

ودعـــوت ربي بـــالســـلامـــة جـــاهـــداً
ليصحنـــي فـــإذا الســـلامـــة داء

ودخل عليه يوماً رجل من أهل المغـرب يقال له: أبو الحجاج يوسف، وكـان قريـب العهد ببـلاده، ورد حلب في تلـك الأيام وكـان فاضـلا في الأدب والحكمة، فلما رآه على تلك الهيئة من الهزال والنحافة أنشده:

لـــو يعلـــم النـــاس مـــا في أن تعيـــش لهم
بكـــوا لأنـــك مـــن ثـــوب الصبـــا عـــاري
ولـــو أطـــاقـــوا انتقـــاصـــا مـــن حيـــاتهم
لما فـــــــــــــدوك بشيء غير أعمار

فأعجبه ذلك ودمعت عيناه، وشكر له.

وقال لي بعض أصحـابنا: سمعته يوما وهو يحكـي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنـا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعـة أو خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجـل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعـوا ببعض الأطبـاء وسألوه عـن مقدار مـا يستعمل الانسـان منه، وكيف يستعمله، ثم اشتروا القدر الـذي قال لهم الطبيب الجاهل وشربوه في موضـع خارج عـن المدرسة، فحصل لهم الجنـون، وتفرقـوا وتشتتوا ولم يعلم مـا جرى عليهـم، وبعد أيـام جاء إلى المدرسـة واحد منهـم، وكان طويلاً وهو عريان ليس عليـه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقبار كبير له عذبة طويلة خارجة عن العـادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه وهو ساكـت ساكن عليـه السكينة والوقار لا يتكلـم ولا يعبث، فقام إليـه من كان حـاضراً من الفقهـاء وسألـوه عن الحال فقـال لهم: كنا قـد اجتمعنا وشربنا حـب البلاذر، فـأما أصحابي فـانهم جنوا ومـا سلم منهـم إلا أنا وحدي وصار يظهـر العقل العظيم والسكون وهم يضحكـون منه وهو لا يشعر بهم ويعتقد أنـه سالم مما أصاب أصحابه، وهـو على تلك الحالة لا يفكر فيهم، ولا يلتفت إليهم.

وأخبرني جماعة ممن كانوا عنده قبل وصولنا إليه أنه قدم عليه الأديب نظام الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف بن مسعود القيسي القرطبي المعروف بابن خروف الشاعر المشهور، فكتب إليه رسالة، وفي أولها أبيات يستجديه فروة قرظ(٥) وهي:

بهاء الــدين والـدنيـا
ونـور المجـد والحسـب

طلبـت مخافـة الأنـوا
ء مـن نعماك جلـد أبي
وفضلـك عـالم أني
خـروف بـارع الأدب
حلبـت الـدهـر أشطـره
وفي حلـب صفـا حلبـي

ذو الحسب الباهر، والنسب الزاهر، يسحب ذيول سير السرى، ويحب النجاة من أجل الفرا، ويمن على الخروف النبيه بجلد أبيه، قاني الصباغ، قريب عهد بالدباغ، ماضل طالب قرظة ولا ضاع، بل ذاع ثناء صانعه وضاع، أثيث خمائل الصوف، يهزأ من الرياح بكل هو جاء عصوف، إذا ظهر إهابه يخافه البرد ويهابه، مافي الثياب له ضريب، إذا نزل الجليد والضريب، ولا في اللباس له نظير إذا عري من ورقه الغصن النضير، لا كطيلسان ابن حرب، ولا جلد عمرو الممزق بالضرب، كأنه من جلد حمل الحرباء، الذي يراعي البدر والنجم، لا من جلد السخلة الجرباء، التي ترعى الشجر والنجم، فرجي النوع، أرجي الضوع لتكون تارة لحافا، وتارة بردا وهو في الحالين يحيي حراً، ويميت بردا، لا يزال مهديه سعيداً، ينجز للأولياء ، وعداً، وللأعداء وعيدا، إن شاء الله تعالى والسلام.

قلت: وقد ذكرت في ترجمة أبي الفتح محمد سبط ابن التعاويذي رسالة كتبها إلى عماد الدين الكاتب الأصبهاني المقدم ذكره يطلب فروة قرظ أيضاً، وكل واحدة من الرسالتين بديعة في بابها، وفي هذه الرسالة كلام يحتاج إلى ايضاح، وهو قوله: لا كطيلسان ابن حرب، وهو أن أحمد بن حرب ابن أخي يزيد المهلبي أعطى أبا علي اسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه البصري الحمدوي الشاعر الأديب طيلسانا خليقاً، فعمل فيه الحمدوي مقاطيع عديدة طريفه، سارت عنه وتناقلتها الرواة، فمن ذلك قوله من أبيات:

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
مل من صحبة الزمان فصدّا
طال تردده إلى الرفو حتى
لو بعثناه وحده لتهدا

وقوله أيضاً من أبيات
لقد حالف الرفاء حتى كأنه
يحاول منه أن يعلمه الرفوا

وقوله أيضاً:
يا ابن حرب كسوتني طيلسانا
أنحلته الأزمان وهو سقيم
فإذا ما رفوته قال سبحا
نك محيي العظام وهي رميم

وقوله أيضاً:
يا ابن حرب أطلت وتري برفوي
طيلسانا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر
ض على النار بكرة وعشيا

وله أيضاً:

رأينا طيلسانك يابن حرب
يزيد المرء للضعة اتضاعا
إذا الرفاء أصلح منه بعضاً
تداعى بعضه الباقي انصداعا
يسلم صاحبي فيقد شبرا
به وأقد في ردي ذراعا
أجيل الطرف في طرفيه طولا
وعرضا ما أرى إلا رقاعا
فلست أشك أن قد كان دهرا
لنوح في سفينته شراعا
وقد غنيت إن أبصرت منه
بقاياه على كتفي تداعى
ففي قبل التفرق يا ضباعا
ولا يك موقف منك الوداعا

وله فيه أيضاً:
يابن حرب كسوتني طيلسانا
يزرع الرفو فيه وهو سباخ
مات رفاؤه ومات بنوه
وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا

وقال فيه أيضاً، وكتبها إلى بعض الرؤساء:
دعني أبكي كسوتي إذ ودّعت
فلأزمعن على البكاء إذا أزمعت
يابن الحسين أما ترى دراعتي
سملا تردت بالبلى وتدرعت

فيها من التمزيق ما لو أنه
مرت بها ريح الصبا لتقشعت
يحكي تخرق طيلساني أنها
منه تعلمت البلى فتضعضعت
لا فرج الرحمن عنه إنه
أعدى ثيابي كلها فتقطعت
فلتحمد الله الجبال فإنها
لو قارنته لخشعت وتصدعت

وقال فيه أيضاً:

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما
شك خلق في أنه بهتان
فهو كالطور إذ تجلى له الـ
ـله فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى
بقي الرفو وانقضى الطيلسان

وله فيه أيضاً:
يا ابن حرب إني أرى في زوايا
بيتنا مثل ما كسوت جماعة
طيلساناً رفوته ورفوت الر
فو منه وقد رقعت رقاعه
فأطاع البلى فصار خليعاً
ليس يعطي الرفاء في الرفو طاعه
فإذا سائل رآني فيه
ظن أني فتى من أهل الصناعة

وله في ذلك أيضاً:

قــل لابــن حــرب طيلســا
نــك قــوم نــوح منــه أحــدث
هــو طيلســان لم يــزل
عمــن مضــى مــن قبــل يــورث
فــإذا العيــون لحظنــه
فكــأنــه بــاللحــظ يحرث
يــودي إذا لم أرفــه
فــإذا رفــوت فليــس يلبــث
كــالكلــب أن تحمــل عليــ
ــيه الــدهــر أو تتركــه يلهــث

ويقال إنه عمـل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كـل مقطوع معنى بديـع ، وأما قـوله ولا جلـد عمرو الممـزق بالضرب، فيريـد قول النحـاة ضرب زيـد عمـرا فـإنهم أبـدا يستعملـون هـذا المثـال ولا يمثلـون غيره، فكأنهم يمزقـون جلده لكثرة الضرب، وكان الأصـل الذي حمل الحمدوي المذكور على عمـل هذه المقـاطيع أنه وقـف على أبيات عملهـا أبو حمران السلي ـ بضـم الحاء المهمله ـ في طيلسانـه، وكان قـد أخلق حتـى بلي فقال فيه:

يــا طيلســان أبي حمران قــد بــرمــت
منــك الحيــاة فما تلتــذ بــالعمــر
في كــل يــومين رفــاء تجدده
هيهــات ينفــع تجديــد مــع الكبر
إذا ارتــداه لعيــد أو لجمعتــه
تنكــب النــاس أن يبلى مــن النظــر

وهذا البيت الثالث أخذه من قول النظـام ـ بفتح النون وتشديد الظاء المعجعة ـ أ بي اسحق ابراهيم بن سيـار البلخي المتكلـم المعتز لي ، في وصف غلام رقيق البشرة:

رق فلو بزت سرابيله
عقله الجو من اللطف
تجرحه الناس بألحاظهم
ويشتكي الايماء بالكف

وأنشدني بعض الأدباء بمدينة الموصل في شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة في هذا المعنى لبعض الشعراء:

توهمها طرفي فأصبح خدها
وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها قلبي فأدمى بنانها
فمن لمس قلبي في اناملها عقر

وأنشدني الشيخ أيدمر الصوفي السلمي ابراهيم لنفسه دو بيت في هذا المعنى:

كلفت صبا العراق لما خطرت
أن تحمل لي تحية ما قدرت
قالت لي خيفتي على وجنته
إن جرت بها جرحتها فاعتذرت

ولبعض الادباء الفقراء من جملة أبيات شكا فيها رقة حاله، ورثاثة ثيابه مايقرب من هذا المعنى، وهو قوله:

ولي ثياب رثاث لست أغسلها
أخاف أعصرها تجري مع الماء

وقد قيل في هذا المعنى شيء كثير، والاختصار أولى والله أعلم

عدنا إلى ما كنا فيه، وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم، حتى أنه كان يلبس ملبوسهم، والرؤساء يترددون إليه، وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد

منهم مكان معين لا يتعداه، ثم أنه تجهـز إلى الديار المصرية لاحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العـزيز صاحب حلب، وكان قد عقـد نكاحـه عليها، فسـار في أول سنـة تسع وعشريـن أواخر سنـة ثمان وعشرين وستمائة، وعاد وقد جاء بها في شهر رمضان من السنة، ولماوصل كان قـد استقل الملـك العزيز بنفســه، ورفعوا عنه الحـجـر، ونزل الأتـابك طغرل من القلعـة إلى داره تحت القلعة واستولى على الملك العـزيز جماعة مـن الشباب الـذيـن كانـوا يعـاشرونه ويجالسـونـه، واشتغل بهم، ولم يـر القاضي أبو المحاسـن وجها يرتضيه، فلازم داره إلى حين وفاتـه، وهو باق على الحكم واقطاعه جـار عليه غاية ما في الباب أنه لم يبـق له حديث في الدولة، ولا كانوا يراجعونه في الأمـر، فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين، وظهـر عليه الخوف بحيث أنه صـار إذا جاءه الانسان لا يعرفـه، وإذا قام سأل عنه ولا يعـرفه، واستمر على هذا الحال مـديدة، ثم مـرض أيامـا قلائل، وتـوفي يوم الأربعـاء رابع عشر صفـر سنة اثنتين وثـلاثين وستمائة رحمه الله تعالى بحلـب،ودفـن في التربـة المقدم ذكـرهـا، وحضرت الصلاة عليه، ودفنه وما جرى بعد ذلك.

وصنف كتاب ملجـأ الحكام عند التباس الأحكام يتعلـق بالأقضية في مجلديـن، وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيـه على الأحاديث المستنبـط منها الأحكام في مجلـدين، وكتـاب الموجز الباهـر في الفقه وغير ذلـك، وكتاب سيرة صلاح الديـن بن أيوب رحمه الله تعالى وجعل داره خانقـاه للصوفية لأنه لم يكن له وارث، ولازم الفقهاء والقراء تربتـه مدة طويلة يقرأون عند قبره، وكان قد قرر قدام كل واحد مـن الشباكين المذكورين اللذين للتربة سبعة قـراء، وكان غرضه أن يقـرأ عنده كل ليلـة ختمة كاملة، فكـان كل واحد من القراء الأربعة عشر يقرأ نصـف سبع بعد صلاة العشاء الآخرة، وفـارقت حلـب متوجهـا إلى الديـار المصريـة في الثالـث والعشرين مـن جمادى الآخـرة سنـة خمس وثـلاثين وستمائة والأمـور جـاريـة على هـذه

الأوضاع، ثـم بعد ذلـك تغيرت تلك الأمور وانتقضـت قواعـدها، وزال جميع ذلك على ما بلغني.

وتوفي الشيخ نجم الـدين بن الخباز المذكور في السابـع من ذي الحجة سنـة إحـدى وثـلاثين وستمائة بحلـب، ودفـن بظـاهـرهـا خـارج بـاب الأربعين، وحضرت الصـلاة عليه ودفنـه رحمه الله تعالى، وكـان مولـده في التـاسـع والعشريـن من شهـر ربيـع الأول سنـة سبـع وخمسين وخمسمائة بالموصل، وتوفي الأتابك شهاب الدين طغرل المذكور ليلة الاثنين الحادي عشر مـن محرم سنـة إحـدى وثـلاثين وستمائة بحلـب، ودفـن بمـدرسـة الحنفية خـارج باب الأربعين، وكـان خادمـاً أرمني الجنـس أبيض حسـن السيرة محمود الطريقة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه رحمه الله تعالى، وتوفى أبو الحسن بن خروف الأديب المذكور بحلب في سنة أربع وستمائة متردياً في جب، رحمه الله تعالى.

أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والعراقية واليمنية

قد تقدم في هذا الكتاب ذكر أبيه أيوب، وجماعة من أولاده، وعمه أسد الدين شيركوه، وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد وجماعة من أولاده وغيرهم من أهل بيته، وصلاح الدين كان واسطة العقد، وشهرته أكثر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه.إتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دُوين —بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون —وهي بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج، وأنهم أكراد روادية، بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مشددة وبعدها هاء - والروادية بطن من الهذانية، بفتح الهاء والذال المعجمة وبعد الألف :ون مكسورة ثم ياء مشددة مثناة من تحتها وبعدها هاء - وهي قبيلة كبيرة من الأكراد، وقال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين أن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان - بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف، وبعد الألف الثانية نون أخرى - وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها وشادي أخذ ولديه منها:أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها وعلى قبره قبة داخل البلد، ولقد تتبعت نسبهم كثيراً فلم أجد أحداً ذكر بعد شادي أبا آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم أرفيها سوى شيركوه بن شادي وأيوب بن شادي لاغيره.

وقال لي بعض كبراء بيتهم: هو شادي بن مروان، وقد ذكرت ذلك في ترجمة أيوب وشيركوه، ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن غريب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن

عنترة بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نهش بن حارثة - صاحب الحمالة - بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث ابن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب حتى انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن علي بن عبد العزيز يقال إنه ممدوح المتنبي، ويعرف بالخراساني وفيه يقول من جملة قصيدته

شرف الجوّ بالغبار إذا سا
ر علي بن أحمد القمقام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل الدماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم ابن سنان، وفيهما قال زهير بن أبي سلمى المزني قصائد منها قوله:

على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل
وهل ينبت الخطي إلاّ وشيجة
وتغرس إلاّ في منابتها النخل

هذا آخر ماذكره في المدرج، وكان قد قدمه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود ابن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة، والله أعلم. انتهى ما نقلته من المدرج.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك

اليمن إدعى نسباً في بني أمية وإدعى الخلافة، وسمعت شيخنا القاضي بهاء الدين ـ عرف بابن شداد ـ يحكي عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال: ليس لهذا أصل أصلاً

قلت: ذكر شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد، المعروف بابن الاثير الجزري صاحب التاريخ الكبير في تاريخه الصغير الذي صنفه للدولة الأتابكية ملوك الموصل في فصل يتعلق بأسد الدين شيركوه ومسيره إلى الديار المصرية فقال: كان أسد الدين شيركوه، ونجم الدين أيوب وهو الأكبر ابنا شادي من بلدوين، وأصلهما من الأكراد الروادية، قدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز بن عبد الله الغياثي شحنة العراق.

قلت: وهذا مجاهد الدين كان خادما روميا أبيض اللون تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدّم ذكره، وذكر والده وجماعة من أهل بيته، وكان صاحب همة في عمل المصالح الجليلة، وعمارة البلاد واسع الصدر والصبر في البذل والانفاقات والمطاولة والمراجعة إذا امتنع عليه الغرض، وكانت تكريت إقطاعاً له، وكان خادم السلطان محمد والد مسعود المذكور وبنى في بغداد رباطا وقف عليه وقفاً جيداً، ومات يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة أربعين وخمسمائة ـ وبهروز بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي ـ وهو لفظ عجمي معناه يوم جيد علي التقديم والتأخير على عادة كلام العجم ـ قال شيخنا ابن الاثير: فرأى مجاهد الدين في نجم الدين أيوب عقلاً ورأيا حسنا وحسن سيرة فجعله دز دار تكريت إذ هي له ـ قلت: دز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة، وبعد الألف راء، وهو لفظ عجمي، معناه حافظ القلعة وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ ـ فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين شيركوه فلما انهزم

أتابك الشهيد عماد الدين زنكي بالعراق من قراجا - قلت: وهي قصة مشهورة - وخلاصتها أن مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي المقدم ذكره، وعماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في أيام الامام المسترشد فأرسل إلى قراجا الساقي واسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان يستنجد به، فأتاه وكبس عسكرهما، وانهزموا ما بين يديه وانكسروا، وذكر في تاريخ الدولة السلجوقية أنها كانت في شهر ربيع الآخر يوم الخميس ثاني عشر الشهر المذكور من سنة ست وعشرين وخمسمائة على تكريت.

وقال أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها الذين كانوا في زمانه: أنه حضر هذه الوقعة مع زنكي في التاريخ المذكور، وذكر ذلك في موضعين أحدهما في ترجمة إربل والثاني في ترجمة تكريت.

رجعنا إلى ما كنا فيه: فوصل زنكي إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيرهم، وبلغ ذلك بهروز فسير إليه وأنكر عليه وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته، ثم إن أسد الدين شيركوه قتل إنسانا بتكريت لكلام جرى بينهما فأرسل مجاهد الدين إليهما فأخرجهما من تكريت فقصدا عماد الدين زنكي.

قلت: وكان إذ ذاك صاحب الموصل، قال: فأحسن عماد الدين إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطع لهما إقطاعا حسناً، وصارا من جملة جنده، فلما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، فلما قتل زنكي — قلت: وقد سبق ذكر ذلك في ترجمته — قال: فحصره عسكر دمشق - قلت: وكان صاحب دمشق يومئذ مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ابن الاتابك ظهير الدين طغتكين وهو الذي حاصره نور الدين

محمود بن زنكي في دمشق وأخذها منه ـ قال شيخنا ابن الاثير: فأرسل نجم الدين أيوب إلى سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، وقد قام بالملك بعد والده ينهي إليه الحال، ويطلب منه عسكراً ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول بإصلاح ملوك الأطراف المجاورين له فلم يتفرغ له، وضاق الأمر على من في بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال، وخاف أن تؤخذ قهراً أرسل في تسليم القلعة، وطلب اقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه وسلم له القلعة، ووفى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الأقطاع والتقدم، وصار عنده من أكبر الأمراء، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل أبيه زنكي.

قلت: هو نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وكان يخدمه في أيام والده، فقربه نور الدين، وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجراءته، فصارت له حمص، والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره .

قلت: ثم خرج شيخنا ابن الاثير بعد هذا إلى حديث سفر أسد الدين إلى الديار المصرية، وما تجدد لهم هناك وليس هذا موضع هذا الفصل، بل نتم حديث صلاح الدين صاحب هذه الترجمة من مبدأ أمره حتى نصير إلى آخره إن شاء الله تعالى، ويندرج فيه حديث المملكة وما صار حالهم إليه، وإن كان قد سبق في ترجمة أسد الدين شيركوه طرف من أخبارهم، لكن ما استوفيته هناك اعتماداً على استيفائه ههنا إن شاء الله تعالى.

قلت: اتفق أرباب التواريخ أن صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها، والظاهر أنهم ما

أقاموا بها بعد ولادة صلاح الدين إلا مدة يسيرة لأنه قد سبق القول أن نجم الدين وأسد الدين لما خرجا من تكريت كما شرحناه وصلا إلى عماد الدين زنكي فأكرمهما وأقبل عليهما، ثم إن عماد الدين زنكي قصد حصار دمشق فلم تحصل له فرجع إلى بعلبك فحاصرها أشهراً وملكها في رابع عشر صفر سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، كما ذكر أسامة بن منقذ المقدم ذكره في كتابه الذي ذكر فيه البلاد وملوكها.

وذكر أبو يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي الدمشقي في تاريخه الذي جعله ذيلا على تاريخ أبي الحسين هلال ابن الصابىء أن عماد الدين حاصر بعلبك يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين، ثم ذكر في مستهل سنة أربع وثلاثين ومائة وورود الخبر بفراغ عماد الدين من ترتيب بعلبك وقلعتها وترميم ما تشعث منها والله أعلم، وإذا كان كذلك فيكونون قد خرجوا من تكريت في بقية سنة اثنتين وثلاثين التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة سنة ثلاث وثلاثين لأنهما أقاما عند عماد الدين بالموصل، ثم لما حاصر دمشق وبعدها بعلبك وأخذها رتب فيها نجم الدين أيوب وذلك في أوائل سنة أربع وثلاثين كما شرحته فيتعين أن يكون خروجهم من تكريت في المدة المذكورة تقريبا والله أعلم.

قلت: ثم أخبرني بعض أهل بيتهم وقد سألته: هل تعرف متى خرجوا من تكريت؟ فقال: سمعت جماعة من أهلنا يقولون إنهم خرجوا منها في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وما تعلمون، فكان كما قال والله أعلم، ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ المذكور في ترجمته لازم نجم الدين أيوب خدمته، وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ونور الدين يرى له ويؤثره،

ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير، وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية، كما سنشرحه إن شاء الله تعالى.

ووجدت في بعض تواريخ المصريين أن شاور المقدم ذكره هرب من الديار المصرية من الملك المنصور أبي الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار الملقب فارس المسلمين اللخمي المنذري، لما استولى على الديار المصرية، وقهره وأخذ مكانه في الوزارة لعادتهم في ذلك وقتل ولده الأكبر طي بن شاور، فتوجه شاور إلى الشام مستغيثا بالملك العادل نور الدين أبي القاسم محمود بن زنكي، وذلك في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، ودخل دمشق في الثالث والعشرين من ذي القعدة من السنة فوجه معه نور الدين الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي في جماعة من عسكره، كان صلاح الدين في جملتهم في خدمة عمه، وهو كاره للسفر معهم، وكان لنور الدين في إرسال هذا الجيش غرضان أحدهما قضاء حق شاور لكونه قصده ودخل عليه مستصرخا، والثاني أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة في جهة الجند، وأحوالها في غاية الاختلال، فقصد الكشف عن حقيقة ذلك، وكان كثير الاعتماد على شيركوه لشجاعته ومعرفته وأمانته، فانتدبه لذلك وجعل أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين مقدم عسكره، وشاور معهم فخرجوا من دمشق في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين، فدخلوا مصر، واستولوا على الأمر في رجب من السنة.

وقال شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد المقدم ذكره في كتابه الذي وسمه بسيرة صلاح الدين : إنهم دخلوا مصر في ثاني جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، والقول الأول أصح لأن الحافظ أبا طاهر السلفي ذكر في معجم السفر أن الضرغام بن سوار قتل في سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وزاد غيره فقال يوم الجمعة

الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من السنة عند مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها، فيما بين القاهرة ومصر واحتز رأسه وطيف به على رمح وبقيت جثته هناك ثلاثة أيام تأكل منها الكلاب، ثم دفن عند بركة الفيل، وعمرت عليه قبة.

قلت: والقبة باقية إلى الآن في موضعها تحت الكبش المستحدث بناؤه ورأيت فيها جماعة من الفقراء الجوالقية مقيمين بها، وقد قيل إن الضرغام قتل في رجب سنة تسع وخمسين، وقد اتفقوا أن الضرغام إنما قتل عند وصول أسد الدين شيركوه وشاور إلى مصر فما يمكن أن يكون دخولهم في سنة ثمان وخمسين لأن الضرغام لاخلاف في قتله سنة تسع وخمسين، وأنه كان في أول وصولهم، والحافظ السلفي أخبر بذلك لأنه كان مقيما بالبلاد أول وصولهم، وهو أضبط لهذه الأمور من غيره لأن هذا فنه، وهو من أقعد الناس به، ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام، وحصل الشاور مقصوده وعاد إلى منصبه وتمهدت قواعده، واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه، وحصروه في بلبيس، وكان أسد الدين قد شاهد البلاد وعرف أحوالها وأنها مملكة بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام، والمحال، فطمع فيها، وعاد إلى الشام في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وخمسين.

وقال شيخنا ابن شداد: في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين بناء على ما قرره أولا أن دخولهم البلاد كان في سنة ثمان وخمسين وأقام أسد الدين بالشام مدة مفكراً في تدبير عوده إلى مصر محدثا نفسه بالملك لها، مقرراً قواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها، وعلم أن أسد الدين لا بدله من قصدها، فكاتب الفرنج، وقرر معهم أنهم يجيؤون إلى البلاد، ويمكنهم منها تمكينا كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه، وبلغ

نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم، فخافا على الديار المصرية أن يملكوها، ويملكوا بطريقها جميع البلاد، فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر، وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين شيركوه، وكان توجههم من الشام في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وكان وصول أسد الدين إلى البلاد مقارنا لوصول الفرنج إليها ، واتفق شاور والمصريون بأسرهم والفرنج على أسد الدين وجرت حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن البلاد، وانفصل أسد الدين راجعاً إلى الشام، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين جرد العساكر إلى بلادهم وأخذ المنيطرة منهم في رجب من هذه السنة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، فعادوا إليها، وكان سبب عود أسد الدين إلى الشام ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عاينوه من الشدائد، وعانوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضاف إلى قوة الطمع في الديار المصرية شدة الخوف عليها من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوها، كما قد كشفها، وعرفوها كما عرفها، فأقام بالشام على مضض وقلبه قلق، والقضاء يقوده إلى شيء قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك، وكان عوده في ذي القعدة من السنة المذكورة إلى الشام وقيل إنه عاد في ثامن عشر شوّال من السنة والله أعلم.

ورأيت في بعض المسودّات التي بخطي، ولا أعلم من أين نقلته، أن أسد الدين لما طمع في الديار المصرية توجه إليها في سنة اثنتين وستين وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيح، فكانت فيها وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه صلاح الدين إلى الاسكندرية، فاحتمي بها وحاصره شاور في جمادى الآخرة من السنة، ثم عاد أسد الدين من جهة الصعيد إلى بلبيس، وتم الصلح بينه وبين المصريين، وسيروا له صلاح الدين فساروا إلى الشام، ثم إن أسد الدين عاد إلى مصر مرة ثالثة.

قال: شيخنا ابن شداد وكان سبب ذلك أن الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين طمعا في البلاد ، فلما بلغ ذلك أسد الدين ونور الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد، وأما نور الدين فبالمال والرجال، ولم يمكنه المسير بنفسه خوفا على البلاد من الفرنج، ولأنه كان قد حدث له نظر إلى جانب الموصل بسبب وفاة علي بن بكتكين.

قلت: هو زين الدين والد السلطان مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل، وقد تقدم ذكره في ترجمة ولده كوكبوري، قال:فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وسلم ما كان في يده من الحصون لقطب الدين أتابك ما عدا إربل فإنها كانت له من أتابك زنكي.

وأما أسد الدين فسار بنفسه وماله وأخوته وأهله ورجاله، ولقد قال لي السلطان صلاح الدين قدس الله روحه:كنت أكره الناس للخروج في هذه الوقعة وما خرجت مع عمي باختياري، وهذا معنى قوله تعالى: (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ، وكان شاور لما أحس بخروج الفرنج إلى مصر على تلك القاعدة سير إلى أسد الدين شيركوه يستصرخه ويستنجده فخرج مسرعا، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة، ولما علم الفرنج بوصول أسد الدين إلى مصر على اتفاق بينه وبين أهلها، رحلوا راجعين على أعقابهم ناكسين، وأقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخالب أسد الدين في البلاد، وعلم أنه متى وجد الفرنج فرصة أخذوا البلاد، وأن شاور يلعب به تارة، وبالفرنج أخرى، وملاكها وقد كانوا على البدعة المشهورة، وتحقق اسد الدين أنه لاسبيل لاستيلائه على البلاد مع بقاء شاور فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه، وكان الأمراء الواصلين مع أسد

الـدين يترددون إلى خـدمة شـاور، وهو يخرج في بعـض الأحيان إلى أسـد الدين يجتمع بـه، وكان يركب على عادة وزرائهم بـالطبل والبوق والعلم، ولم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعـة إلا السلطان بنفسه، وذلك أنه لما سار إليـه تلقاه راكبـا وسار إلى جنبـه،وأخذ بتـلابيبه، وأمـر العسكر بـأن يقصدوا أصحابه ففروا ونهبهم العسكـر فأنزل شاور إلى خيمة مفردة، وفي الحال ورد توقيع على يد خادم خاص مـن جهة المصريين يقول: لابد من رأسه جريـا على عادتهم في وزرائهم فحز رأسـه، وأرسل إليهم وسيروا إلى أسـد الديـن خلـع الوزارة فلبسهـا، وسـار ودخـل القصر ورتب وزيـرا، وذلـك في سابـع عشر ربيع الأول سنـة أربع وستين وخمسمائة، ودام آمـراً وناهيـاً، والسلطان صـلاح الديـن رحمه الله تعالى يبـاشر الأمور مقـرراً لها لمكـان كفايتـه ودرايته وحسـن رأيه وسيـاسته، إلى الثـاني والعشرين مـن جمادى الآخرة من السنة المذكورة فمات أسد الدين.

قلـت: وقد تقـدم حديـث أسد الـديـن وصورة مـوته فـلا حاجـة إلى شرحها ههنـا، وكذلك وفـاة شاور، وهذا كله نقلتـه من كلام شيخنـا ابن شداد في سيرة صـلاح الديـن، لكنني أتيت بـالمقصود، وحـذفت البـاقي ورأيت بخطي في جملة مسوداتي أن أسد الديـن دخل القاهرة يوم الأربعاء سـابع شهـر ربيـع الآخرة مـن سنـة أربـع وستين وخمسمائة، وخرج إليـه العاضـد عبد الله العبيـدي آخر ملـوك مصر المقدم ذكـره، وتلقاه وحضر يوم الجمعـة التاسـع من الشهـر إلى الإيوان وجلـس إلى جانـب العاضـد وخلع عليه، وأظهر لـه شاور ودا كثيرا فطلب أسد الدين منـه مالاً ينفقه في عسكره فدافعه، فأرسل إليـه إن الجند تغيرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقـة فإذا خـرجت فكـن على حذر منهـم، فلم يكترث شـاور بكلامـه وعزم على أن يعمـل دعوة يستدعـي إليها أسد الديـن والعساكر الشـامية ويقبض عليهـم فأحـس أسد الديـن بذلـك، فاتفق صـلاح الديـن وعز الـدين جـورديك النـوري وغيرهما على قتل شـاور، وأعلموا أسـد الديـن فنهاهم عنه، وخـرج شاور إلى أسد الدين، وكانت خيـامهم على شاطىء

النيل بالمقس، فلم يجده في خيمته، وكان قد راح إلى زيارة قبر الامام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة، فقال شاور: نمضي إليه فالتقوه فساروا جميعاً فاكتنفه صلاح الدين وجورديك فأنزلاه عن فرسه وكتفوه، فهرب أصحابه فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير إذن، وجعلوه في خيمة ورسموا عليه جماعة، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه، وسيروا رأسه على رمح إلى العاضد، وذلك يوم السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وقيل إن أسد الدين لم يحضر ذلك بل لما قصد شاور جهة أسد الدين لقيه صلاح الدين وجورديك ومعهما بعض العسكر، فسلم بعضهم على بعض، وساروا ثم فعلا به هذه الفعلة، والله أعلم.

ثم إن العاضد استدعى أسد الدين عقيب قتل شاور، وكان في المخيم، فدخل القاهرة فرأى جمعا كثيراً من العامة فخافهم فقال لهم إن مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور فتفرقوا ومضوا لنهبها، ودخل على العاضد فتلقاه وأفاض عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش، ثم إنه مات يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بعلة الخوانيق، وقيل إنه سم في حلل الوزارة لما خلع عليه، وكانت وفاته بالقاهرة ودفن بدار الوزارة، ثم نقل إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة السلام، فكانت مدة وزارته شهرين وخمسة أيام، وقيل إن أسد الدين دخل على العاضد يوم الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الآخرة من السنة المذكورة والله أعلم.

قلت: قد تقدم في ترجمة كل واحد من شاور وأسد الدين ذكر شيء من هذه الأمور التي ذكرتها ههنا، وإنما أعدت الكلام فيها لأني استوفيتها ههنا أكثر من هناك، وأيضاً فإن المقصود في هذا كله ذكر سيرة صلاح الدين وتنقلاته وما جرى له من أول أمره إلى آخره، فأحببت ذكر ذلك على سياقة واحدة كي لا ينقطع الكلام فيبقى أبتر فأقول: ذكر

المؤرخون أن أسـد الدين لما مات استقـرت الأمور بعده للسلطـان صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وتمهـدت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضـاع وبذل الأمـوال وملـك قلوب الـرجـال، وهانـت عنـده الدنيـا فملكهـا، وشكـر نعمة الله تعـالى عليـه فتـاب عـن الخمر وأعـرض عـن أسباب اللهـو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، ومـا زال على قدم الخير وفعل ما يقربه إلى الله تعالى إلى أن مات.

قال شيخنا ابن شداد: سمعتـه يقول رحمه الله تعالى: لما يسر الله تعالى لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتـح الساحل لأنه وقع ذلك في نفسي، ومن حين استتـب له الأمر ما زال يشـن الغارات على الفرنـج إلى الكرك والشـوبـك وغيرهما مـن البـلاد، وغشي النـاس مـن سحـائب الافضـال والانعام مالم يؤرخ عن غير تلك الايام، وهـذا كله وهو وزير متابع القوم، لكنـه يقول بمـذهـب أهـل السنة، مـارس في البـلاد أهـل الفقه والعلـم والتصوف والديـن والناس يهرعون إليه مـن كل صوب ويفدون عليـه من كل جـانب وهـو لايخيب قـاصدا، ولا يعـدم وافداً إلى سنـة خمس وستين وخمسمائة، ولما عرف نـور الديـن استقرار السلطـان صلاح الـدين بمصر، أخـذ حمص من نـوّاب أسد الـدين شيركـوه، وذلك في رجـب سنة أربـع وستين.

ولما علـم الفرنـج ما جرى من المسلمين وعسـاكرهم، وما تـم للسلطان مـن استقامـة الأمر بـالديـار المصرية علمـوا أنه يملـك بلادهـم ويخرب ديارهـم، ويقلع آثـارهم لما حدث لـه من القوة والملـك، واجتمع الفـرنج والـروم جميعاً، وقصـدوا الـديار المصريـة، فقصـدوا دمياط، ومعهـم آلات الحصار ومـا يحتاجون إليـه من العدد، ولما سمع فـرنج الشام ذلـك اشتد أمرهـم فسرقوا حصـن عكار مـن المسلمين وأسروا صاحبـه، وكان مملـوكاً لنور الـدين يقـال له خطلخ العلـم دار، وذلك في شهـر ربيع الآخـر من سنة خمس وستين، ولما رأى نـور الدين ظهـور الفرنج ونـزولهم على دمياط

قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية، وكانت وفاته بحلب في شهر رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي اخربت كثيرا من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوّال منها، فسار يطلب حلب، فبلغه خبر موت أخيه قطب الدين بالموصل.

قلت: وقد ذكرت ذلك في ترجمته واسمه مودود.

قال: وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل، ولما بلغ صلاح الدين قصد الفرنج دمياط استعد له بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالامداد بالرجال إن نزلوا عليهم وبالغ في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً، لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج والعسكر يقاتلهم من داخل ونصر الله تعالى المسلمين به وبحسن تدبيره فرحلوا عنها خائبين فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل من رجالهم خلق كثير،واستقرت قواعد صلاح الدين، وسير يطلب والده نجم الدين أيوب ليتم له السرور، وتكون قصتة مشاكله لقصة يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده إليه في جمادى الآخرة من سنة خمس وستين.

قلت: هكذا ذكر ابن شداد في تاريخ وصوله إلى مصر، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته، وسلك معه من الأدب ما جرت به عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له، ولا ينبغي أن تغير موضع السعادة فحكمه في الخزائن كلها، ولم يزل وزيراً حتى مات العاضد في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: أكثر ماذكـرته في هذا الفصل منقول من كـلام شيخنا ابن شداد في سيرة صـلاح الـديـن، وفيـه زوائد من غير هـا، والـذي ذكـره شيخنـا الحافظ عز الدين بن الأثير المذكور قبل هذا في تاريخه الأتابكي أن كيفية ولاية صـلاح الديـن: أن جماعة مـن الأمراء النـورية الـذين كـانوا بمصر طلبوا التقدم على العسـاكر وولاية الوزارة، يعنـي بعد موت أسد الـدين، منهم الأمير عين الـدولة الياروقـي، وقطب الـدين خسرو بن بليـل، وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل.

قلت: وهـو صاحـب المدرسة القطبيـة التي بـالقاهـرة، ومنهم سيـف الدين علي بن أحمد الهكاري،جده كان صاحب القلاع الهكارية.

قلت: هـو المعروف بـالمشطوب والد عماد الـدين أحمد بـن المشطوب، وتقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: ومنهـم شهاب الدين محمود الحارمي، وهـو خال صـلاح الديـن ، وكل واحـد مـن هؤلاء يخطبهـا لنفسه، وقـد جمعها ليغالـب عليها، فأرسل العـاضد صاحب مصر إلى ضـلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الـوزارة ويوليه الأمر بعد عمه، وكان الذي حمل العـاضد على ذلك ضعف صـلاح الدين، فإنـه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكـر ولا رجال كان في ولايته مستضعفا يحكم عليه ولا يجسر على المخـالفة، وأنه يضع على العسكر الشـامي من يستميلهم إليـه، فإذا صار معه البعـض أخرج الباقين وتعود البـلاد إليه وعنده مـن العساكر الشاميـة من يحميها من الفـرنج ونور الديـن والقصة مشهورة،أردت عمرا وأراد الله خارجة(٦).

قلت: هـذا المثل مشهـور بين العلماء وسيأتي الكـلام عليه بعـد الفراغ من هذه الترجمة إن شاء الله تعالى.

عدنـا إلى تمام الكلام الأول فامتنـع صلاح الـدين وضعفت نفســه عن

هذا المقام فلزمه وأخذه كارهاً، إن الله تعالى يعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، فلما حضر في القصر خلع عليه خلع الوزارة الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب الملك الناصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه .

قلت: وقد سبق ذكره في ترجمة مفردة، وقال ابن الاثير: فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له فلا تكن أول من يسعى في اخراجه عنه ولم يصل إليك، فلم يزل به حتى أحضره أيضا عنده وحلفه، ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس، ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين، وعدل أيضا إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فلم ينفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبدا، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقة، وقد فات الأمر (ليقضي الله أمراً كان مفعولا) وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير إلا سفهسلار، ويكتب علامته في الكتب تعظيما أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا، واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال

الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد فكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

قال ابن الأثير في تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ، ورأيت كثيراً من التواريخ الاسلامية، فرأيت كثيراً ممن يبتديء الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم في أول الاسلام معاوية بن أبي سفيان أول من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك عن اعقابه إلى بني مروان من بني عمه، ثم من بعده السفاح أول من ملك من بني العباس انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه المنصور، ثم السامانية أول من استبد فيهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه، ثم يعقوب الصفار، وهو أول من ملك من أهل بيته وانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو، وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهل بيته، ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه معز الدولة وركن الدولة، ثم السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك، ثمم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ، ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى ولد أخيه نجم الدين أيوب، ولو لا خوف الاطالة لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنه السبب في ذلك أن الذي يكون أول دولته يكثر القتل فيأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به، لهذا يحرم الله أعقابه ويفعل ذلك لاجلهم عقوبة له.

نعود إلى ذكر صلاح الدين: وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسير نور الدين العساكر، وفيهم أخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب.

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمة مستقلة، قال: وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له نور الدين:إن كنت تسير إلى مصر وتنظر

إلى أخيك أنـه يوسـف الذي كان يقـوم في خدمتك، وأنـت قاعـد ، فلا تسر فـإنك تفسـد البـلاد، وأحضرك حينئـذ وأعاقبـك بما تستحقـه، وإن كنـت تنظر إليـه أنه صـاحب مصر، وقـائم مقامـي، وتخدمه بنفسـك كما تخدمني فسر إليه، واشـدد أزره وساعده على ما هو بصـدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطـاعة ما يتصل بك إن شاء الله تعـالى، فكان معه كما قال.

ثم قال شيخنـا ابن الأثير بعد هذا بأوراق، في فصل يتعلـق بانقراض الـدولة المصريـة وإقامـة الدولـة العباسيـة، فقال: في المحـرم سنة سبـع وستين وخمسمائة قطعـت خطبة العـاضـد صـاحب مصر، وخطـب فيهـا للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وكـان السبب في ذلك أن صلاح الـدين يـوسـف بـن أيوب لما ثبـت قـدمـه في مصر، وأزال المخالفين لـه وضعف أمر العاضد، ولم يبق من العسـاكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نـور الدين محمود يـأمره بقطع الخطبة العـاضدية، وإقامـة الخطبة العباسية، فاعتـذر صلاح الدين بالخوف من وثـوب أهل مصر، وامتناعهم من الاجـابة إلى ذلك لميلهـم إلى دولة المصرين، فلـم يصغ نور الـدين إلى قوله، وأرسـل إليه يلزمه بذلك إلـزاماً لافسحة له فيه، واتفـق أن العاضد مرض، وكـان صلاح الـدين قد عـزم على قطع الخطبـة، فاستشـار أمراءه كيف الابتـداء بالخطبة العبـاسية، فمنهم مـن أقدم على المساعـدة وأشار بها، ومنهم مـن خاف ذلك إلا أنـه لم يمكنه إلا امتثـال أمر نور الـدين، وكان قـد دخل إلى مصر رجـل عجمي يعرف بـالأمير العالم، وقـد رأيناه بالموصـل كثيراً، فلما رأى ما هـم فيه من الاحجـام قال: أنـا أبتدىء بها، فلما كان أول جمعة مـن المحرم صعد المنبر قبل الخطيـب ودعا للمستضيء بأمـر الله تعالى فلم ينكـر أحد ذلك، فلما كان الجمعـة الثالثة أمـر صلاح الـدين الخطبـاء بمصر والقـاهرة بقطـع خطبـة العاضـد وإقـامة الخطبـة للمستضيء بأمـر الله ففعلوا ذلـك، ولم ينتطح فيها عنـزان، وكتب بـذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قـد اشتد مرضه، فلم يعلمه أهله

وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وجميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصي يحفظه،

قلت: وقد تقدم ذكره في ترجمته أيضاً ، قال: وجعله كأستاذ دار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في إيوان بالقصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء فأعتق البعض، ووهب البعض ، وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور، ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين فظن أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

وكان ابتداء الدولة العبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين، وأول من ظهر منهم المهدي أبو محمد عبيد الله، وبنى المهدية وملك إفريقية كلها —قلت: هكذا ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخ استيلاء المهدي عبيد الله على إفريقية، والصواب فيه هو الذي ذكرته في ترجمته فيكشف منه— ثم إنه قال: ولما مات المهدي عبيد الله قام بالأمر بعده ولده القائم أبو القاسم محمد، ثم ذكرهم واحداً واحداً حتى انتهى إلى العاضد المذكور فقال: وانقرضت دولتهم، فكانت مدة دولتهم مائتي سنة وستا وستين سنة وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثماني سنين، وملك منهم أربعة عشر، وهم المهدي، والقائم، والمنصور والمعز، والعزيز والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد آخرهم.

قلت: وقد ذكرت كل واحد من هؤلاء في ترجمة مستقلة في هذا الكتاب فمن اختار الوقوف على أحوالهم فليطلبه في اسمه ولاحاجة إلى ذكره ههنا، قال: شيخنا ابن الأثير: وقد أتينا على ذكر ما أجملنا مستقصى في التاريخ الكبير، يعني كتابه الذي سماه الكامل، وهو مشهور، ومن أنفع الكتب في بابه، قال: ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله ما أراد، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين، وممر الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة، والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد، ولما خطب للمستضيء بأمر الله بمصر أرسل نور الدين إليه يعرفه ذلك فحل عنده أعظم محل وسير إليه الخلع الكاملة مع عماد الدين صندل المقتفوي إكراما له ، لأن عماد الدين كان كبير المحل في الدولة العباسية، وكذلك أيضاً سير خلعا لصلاح الدين إلاّ أنها أقل من خلع نور الدين، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر وكانت هذه أول أهبة عباسية قد دخلت مصر بعد استيلاء العبيديين عليها، انتهى ما قاله شيخنا ابن الأثير.

قلت: ولما وصل الخبر إلى الامام المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن ابن الامام المستنجد، وهو والد الامام الناصر لدين الله بما تجدد من أمر مصر، وعود الخطبة والسكة بهاباسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدة الطويلة، نظم أبو الفتح محمد سبط ابن التعاويذي المقدم ذكره قصيدة طنانة، مدح بها الامام المستضيء، وذكر هذه الفتوح المتجددة، وفتوح بلاد اليمن أيضا، وهلاك الخارجي بها الذي سمى نفسه المهدي، وذلك في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وكان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر وأسلاب المصريين شيئاً كثيراً وأولها:

قـــــل للسحـــــاب إذا مرتــــــــــــ
ـــــه يـــــدا الجنـــائب فـــــارحجـــن

عج باللوى فاسمح بدمـــــــــــــــــــ
ـــــعك للمعـــــاهـــــدوالـــــدمـــن

يـــــا منـــــزل الانـــــس الجميـــــــ
ــــع وملعــــــب الحي الاغـــــن

سكنـــــــت بـــــــك الآرام مــــــن
بعـــــــد الاحبـــــــة والسكـــــن

أيـــــــن استقلــــــت بالحبيـــــــ
ـــب ركـــــابـــــه ومتـــــى ظعـــن

شـــــوقـــــي إلى زمـــــن الحمـــــى
سقـــــى الغـــــوادي مـــــن زمـــــن

شـــــوقـــــي المغـــــرّب شرد تـــــه
العبـــــادعـــــن الـــــوطـــــن

ولقـــــد عهـــــدتـــــك والـــــزمـــــا
ن يشملنـــــابـــــك مـــــا قطـــــن

وتـــــراك مـــــا اغبرت مســـــا
رحـــــه ومـــــاؤك مـــــا أجـــــن

وظبـــــــاؤك الاتـــــــراب لي
وطـــــر وتـــــربـــــك لي وطـــــن

لام العــــــــذول ومـــــــــادرى
وجـــــدي وبلبـــــالي بمـــــن

وجـــــدي بمـــــن فضـــــح القضيــــ
ـــب وأخجـــل الـــرشـــا الأغـــن

مـــــاضر مـــــن هـــــو فتننـــــي
لـــــو كـــــان يـــــرحـــــم مـــــافتـــن

دمعـــــــــي طليـــــــق في محبـــــ
ـــــته وقلبـــــي مـــــرتهن

يـــا محنشـــي أودى الصـــدو
دلعـــاشـــق بـــك ممتحـــن
غـــادرتـــه وقفـــا على الـــ
ـــعبرات بعـــــدك والحزن
كـــان الفـــؤاد معـــذبـــا
بين الاقـــامـــة والظعـــن
عطفـــا على قـــرح الجفـــو
ن بعيـــد عهـــد بـــالـــوسـن
لا تبخلي فـــالبخـــل يـــذ
هـــب بهجـــة الـــوجـــه الحسـن
ولـــرب ليـــل ببـــث فيـــ
ـــه صريـــع بـــاطيـــة ودن
لكننـــي كفـــرت لـــ
ـــيلة زرتـــه عنـــي وعـــن
بمـــدائحـــي للمستضيء
أبي محمـــد الحســـن
المستقـــر مـــن الخلا
فـــة في الشـــواهـــق والقنـــن
يـــا جـــار يـــا في العـــدل مـــن
سنـــن النبـــي على سنـــن
يـــا جـــامعـــا خلـــق النبـــوّ
ة والخلافـــة في قـــرن
دانـــت لهيبتـــك المـا
لـــك والمعـــاقـــل والمدن
بـــا لمشرفيـــات الصـــوا
رم والمثقفـــة اللـــدن
وأتتـــك أســـلاب الملـــو
ك مـــن الصعيـــد إلى عـــدن
سلـــب الـــدعـــي بـــأرض مصـــ
ـــر والمضلـــل في اليمـــن

مما اقتناه ذو رعين في القديم وذو يزن
وشفيت منهم بالظبا تلك الضغائن والأحن
لم تغن عنهم حين رعتهم الحصون ولا الجنن
أمست سبايا هم تقاد أذلة قود البدن
غادرت عرض بلادهم عرض النوائب والمحن
في كل يوم من جيوشك غارة فيها تشن
وأعدت سر الأولياء المؤمنين بها علن
ورحضت ما أبقته آثار الخوارج من درن
فكأن دعوتهم على تلك المنابر لم تكن (٧)

وهي طويلة فنقتصر منها على هذا القدر ففيه كفاية، ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى أشار فيها إلى هذا المعنى وليس على خاطري من هذه القصيدة سوى غزلها فأحببت ذكره لكونه في غاية الحسن واللطافة وهو قوله:

أهلا بطلعة غادة فضح الدجى بضيائها
سمح الزمان بوصلها فدنت على عدوائها
باتت تعاطيني المدام وكنت من أكفائها

فسكـــــــرت مـــــــن ألحاظهـــــــا
وغنيـــــت مـــــن صهبـــــائهـــــا
بيضـــــــــــــــاء قتلي دأبها
في نــــــأيها وثــــــوائهـــــا
فـــــإذا رنــــــت بجفــــونها
وإذا نــــــأت بجفــــائهـــــا
لا تلتقـــــــي أبـــــــدا مـــــوا
عـــــدهـــــا بيــــوم وفـــــائهـــــا
الشمـــــــــس مـــــــن ضراتها
والبـــــدر مـــــن رقبـــــائهـــــا
والصبـــــح فـــــوق لثـــــامهـــــا
والليـــــــل تحت ردائهـــــــــا
مضريـــــــة تتمســـــــى إذا انـــــــ
ــــــتسبت إلى حمرائهـــــــا
بـــــاتـــــت وأطـــــراف الـــــرمـــــا
ح تجول حـــــول خبـــــائهـــــا
فـــــالموت دون فـــــراقهـــــا
والموت دون لقـــــــــائهـــــــــا
ولقـــــد مـــــررت بـــــربعهـــــا
بعـــــد النـــــوى وفنـــــائهـــــا
والعين في الأطـــــــلال ســـــا
كبـــــــة على أطـــــــلالها
فـــــوقفـــــت أنشـــــد في مطـــــا
لعهـــــا بـــــدور سمائهـــــا
وبكيـــــت حتـــــى كـــــدت أعـــــ
ـــــطف بـــــانتـــــي جـــــرعـــــائها
يـــــا مـــــوحـــــش العين التـــــي
أنســـــت بطـــــول بكـــــائهـــــا

غـــــادرت بين جـــــوانحـــــي
نفســـــا تموت بـــــدائهـــــا
تشتـــــاق عينـــــي أن تـــــرا
ك وأنـــــت مـــــن ســـــودائهـــــا
وإذا بخلـــــت بنظـــــرة
سمحـــــت بجمـــــة مـــــائهـــــا
فسكـــــانها كـــــف الخليـــــ
ـــــفة أسبلـــــت بعطـــــائهـــــا (٨)

وبعد هـذا شرع في المديح وأبدع فيها جميعهـا، وسأذكر بعد هـذا عند أواخر هذه الترجمة شيئـاً من مدائحه في صلاح الديـن إن شاء الله تعالى، فقد كـان يسير قصائده إليه من بغـداد فتصل أولا إلى القاضي الفـاضل، ومعها مـديح للفـاضل، وهـو الذي يعـرض قصائده على صـلاح الديـن رحمه الله تعالى.

ثم ذكر شيخنا ابن الأثير بعد هـذا فصلا يتضمن حصول الوحشة بين نور الدين وصـلاح الدين باطناً فقال: وفي سنـة سبع وستين أيضاً حدث ما أوجب نفرة نور الدين عن صـلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الـدين يأمره بجمع العساكـر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنـج والنزول على الكـرك ومحاصرته ليجمـع أيضاً هـو عساكـره ويسير إليـه، ويجتمعان هنـاك على حرب الفـرنج والاستيـلاء على بلادهـم، فبرز صلاح الديـن من القاهرة في العشريـن من المحرم، وكتب إلى نـور الدين يعرفه أن رحيلـه لا يتأخر، وكان نور الـدين قد جمع عساكـره وتجهز، وأقام ينتظـر ورود الخبر من صـلاح الدين بـرحيله ليرحـل هو، فلما أتـاه الخبر بذلك رحـل من دمشق عازما على قصـد الكرك، فوصل إليـه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليـه، فأرسل كتابه يعتذر فيه عن الـوصول باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعـض شيعة العلويين، وأنهم عازمون على الـوثوب بها، وأنـه يخاف عليها مـع البعـد عنها أن يقـوم أهلها على من

تخلف بهاء فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه، وتغير عليه، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين —قلت: وقد تقدم ذكره أيضاً في ترجمة مستقلة —وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل وقال لتقي الدين: اقعد وسبه وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فكيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه، ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب إليه كتاباً وتقول: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا ، يرسل المولى نجابا يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك فما ههنا من يمتنع عليك، وقال لجماعته كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريده فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر، ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على سرك وما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه، وأولا ها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً

مـن هــذا العسـكر، وكـانوا أسلمـوك إليه، وأمـا الآن بعد هـذا المجلس فسيكتبون إليه، ويعـرفونه قولي، وتكتـب أنت إليه وترسـل إليه في المعنى، وتقـول: أي حـاجة إلى قصـدي يجيء نجـاب يـأخذني بحبـل يضعـه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصـدك، واستعمل ما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كـل وقت في شأن، والله لو أراد نور الديـن قصبة من قصب سكرنا لقـاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل، ففعـل صلاح الدين ما أشـار به والـده، فلما رأى نور الـدين الأمـر هكذا عـدل عن قصـده، وكان الأمـر كما قال نجـم الديـن أيوب، وتـوفي نور الـدين ولم يقصـده، وملـك صلاح الـديـن البلاد، وهـذا كان مـن أحسـن الآراء، وأجودهـا. انتهى ماذكره ابن الاثير.

وقال شيخنا ابـن شداد في السيرة: لم يزل صلاح الديـن على قدم بسط العـدل ونشر الاحسان وإفـاضة الإنعـام على الناس إلى سنـة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلـك خرج بالعسكـر يريـد بلاد الكرك والشـوبك وإنما بدأ بها لأنها كانـت أقرب إليه وكانت في الطـريق تمنع من يقصـد الديار المصريـة، وكان لايمكـن أن تعبر قـافلة حتـى يخرج هـو بنفسه يعبرهـا، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها فحـاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنـج وقعات وعـاد ولم يظفر منها بشيء، فلما عـاد بلغه خبروفـاة والده نجم الدين أيوب قبل وصوله إليه.

قلت: وقـد ذكرت تاريخ وفـاته في ترجمتـه، قال: ولما كانت سنـة تسع وستين رأى قـوّة عسكـره، وكثرة عـدده، وكـان بلغـه أن بـاليمن إنسـانـا استولى عليهـا وملك حصـونها يسمى عبد النبـي بن مهـدي، فسير أخاه توران شـاه إليه فقتلـه وأخذ البـلاد منه، وقـد بسطت القـول في ذلك في ترجمتـه، ثم توفي نـور الدين في سنـة تسع وستين حسبما شرحته في تـرجمته فلا حـاجة إلى إعادته.

وبلغ صلاح الدين أن إنسانا يقال له الكنز جمع بأسوان خلقا كثيراً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة المصرية، وكان أهل مصر يؤثرون عودهم فإنضافوا إلى الكنز المذكور، فجهز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً، وجعل مقدمه أخاه الملك العادل وساروا فالتقوا وكسروهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة، واستقرت له قواعد الملك، وكان نور الدين رحمه الله قد خلف ولده الملك الصالح اسماعيل المذكور في ترجمة أبيه، وكان بدمشق عند وفاة أبيه، وكان بقلعة حلب شمس الدين علي بن الداية وشاذبخت، وكان ابن الداية قد حدّث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم من سنة سبعين ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن المذكور، وأودع الثلاثة في السجن وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل ابن الخشاب لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل قبض أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي لايستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك، واختلت الأحوال بالشام، وكاتب شمس الدين المقدم ذكره صلاح الدين، فتجهز من مصر في جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح، فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلم قلعتها، وكان أول دخوله دار أبيه، قلت:وهي الدار المعروفة بالشريف العقيقي، وهي اليوم في قبالة المدرسة العادلية مشهورة هناك بالعقيقي، قال: واجتمع الناس إليه وفرحوا به وأنفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين، وصعد القلعة وسار إلى حلب، فنازل حمص وأخذ مدينتها في جمادى الأولى من السنة ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى، ثم إن سيف الدين غازي بن قطب

الديـن مودود بن عماد الـدين زنكي صـاحب الموصل لما أحـس بما جرى علـم أن الرجـل قـد استفحل أمـره وعظـم شأنـه، وخـاف إن غفل عنـه استحوذ على البـلاد واستقرت قـدمه في الملـك وتعدى الأمـر إليه فـأنفذ عسكراً وافراً وجيشـاً عظيماً وقدم عليه أخاه عـز الدين مسعود بـن قطب الديـن مودود، وسـاروا يريـدون لقاءه ليردوه عـن البلاد، فلما بلـغ صلاح الدين ذلـك رحل عن حلب في مستهل رجب مـن السنة عائداً إلى حماه، ورجع إلى حمص فأخـذ قلعتها ووصل عز الدين مسعـود إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح بن نـور الدين صاحب حلب يومئذ، وخـرجوا في جمع عظيـم، فلما عرف صـلاح الـدين بمسيرهـم سار حتـى وافاهم على قرون حماه، وراسلـوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن ضرب المصاف معه ربما نـالوا به غرضهم، والقضـاء يجر إلى أمور وهم بها لايشعرون، فتـلاقوا فقضـى الله تعالى أن انكسروا بين يـديه، وأسر جماعـة منهم فمـنّ عليهم، وذلـك في تاسع شهـر رمضان مـن السنة عنـد قرون حماه، ثـم سـار عقيب كسرتهم، ونـزل على حلـب وهـي الـوقعة الثـانيـة فصالحوه على أخذ المعرة وكفر طاب وماردين، ولما جرت هذه الوقعة كان سيف الدين غازي يحاصر أخاه عماد الديـن زنكي صاحب سنجار وعزم على أخذهـا منه لأنه كـان قد انتمى إلى صلاح الـدين، وكان قـد قارب أخذها، فلما بلغه الخبر أن عسكره انكسر خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمـره ويقوى جـأشه فراسلـه وصالحه، ثـم سار مـن وقته إلى نصيبين واهتـم بجمـع العسـاكر والانفـاق فيهـا، وسـاروا إلى البيرة وعبر الفرات وخيم على الجانب الشـامي، وراسل ابن عمه الصالـح نور الدين صاحـب حلب حتـى تستقر لـه قاعـدة يصل عليهـا، ثم إنـه وصل إلى حلـب، وخرج الملـك الصالـح إلى لقـائه وأقام على حلـب مدة، وصعـد قاعتها جريـدة، ثم نزل وسار إلى تـل السلطان —قلت: وهي منـزلة بين حماه وحلـب ـ قـال: ومعه جمع كبير، وراسـل صـلاح الـديـن إلى مصر يطلب عسكرها فـوصل إليه، وسار به حتى نزل إلى قـرون حماه ثم تصافوا

بكرة الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى وسبعين، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين — قلت: هو صاحب إربل المقدم ذكره — قال: فإنه كان على ميمنة سيف الدين، فحمل صلاح الدين بنفسه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء، فمنّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزائنه، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وانهزموا، ففرق صلاح الدين الاصطبلات، ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه ـ قلت: هو ابن شاهان شاه ابن أيوب وهو أخو تقي الدين عمر صاحب حماه وفرخشاه صاحب بعلبك وهو والد الملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك ـ قال: وسار إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز يحاصرها، وذلك في رابع ذي القعدة من سنة إحدى وسبعين.

وفيها وثب جماعة من الاسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله سبحانه منهم وظفره بهم، وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر ذي الحجة من السنة، ثم سار حتى نزل على حلب في سادس عشر الشهر المذكور وأقام عليها مدة، ثم رحل عنها، وكانوا قد أخرجوا إليه ابنة صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها.

ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين، وكان أخوه شمس الدولة توران شاه قد وصل إليه من اليمن، فاستخلفه بدمشق، ثم تأهب للغزاة، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك اليوم ـ قلت: وذلك الأمر يطول شرحه ـ قال: فلما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق

وتبددوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى الهكاري، وكان ذلك وهناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

وأما الملك الصالح صاحب حلب فإنه تخبط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله، فلما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم طمعاً فيها وذلك في جمادى الأخرى من السنة، فلما رأى أهل قلعتها الخطر من جهة الفرنج سلموها إلى الملك الصالح في العشر الأخير من شهر رمضان من السنة، فرحل الفرنج عنها، وأقام صلاح الدين بمصر حتى لم شعثها وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة، ثم بلغه تخبط الشام فعزم على العودة إليه واهتم بالغزاة، فوصله رسول قليج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون ـ قلت: وهي بلاد سيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل —قال: لينصر قليج أرسلان عليه، فتوجه إليه واستدعى عسكر حلب لأنه كان في الصلح انه متى استدعاه حضر إليه، ودخل بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخربه ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم، ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم فأجاب إلي ذلك، وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة، وعاد بعد تمام الصلح إلى دمشق، ثم منها إلى مصر، ثم توفي الملك الصالح بن نور الدين في التاريخ المذكور في ترجمة والده، وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ـ قلت: وقد تقدم ذكره وهو ابن عم قطب الدين مودود ـ فلما بلغ عز الدين خبر موت الملك الصالح، وأنه أوصى له بحلب بادر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين فيأخذها، وكان أول قادم إليها مظفر الدين ابن زين الدين ـ قلت: هو صاحب إربل وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى المواصلة لأن تلك البلاد كانت لهم ـ قال: فوصلها مظفر

الدين في ثالث شعبان سنة سبع وسبعين، وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود، وصعد إلى القلعة فاستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوّج أم الملك الصالح في خامس شوّال من السنة.

قلت: ثم إن شيخنا ابن شداد ذكر بعد هذا أموراً ذكرتها في ترجمة عز الدين مسعود بن مودود، وترجمة أخيه عماد الدين زنكي، وترجمة تاج الملوك بوري أخي صلاح الدين فلا حاجة إلى إعادتها ههنا، فمن أراد الوقوف عليها يكشفها في هذه التراجم.

قلت: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعود قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين عن حلب، ودخلها عماد الدين زنكي، فجاءه صلاح الدين وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة.

وقال ابن شداد: نزل عليها في سادس عشر المحرم والله أعلم فتحدّث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه بأن يطلب منه بلاداً، وينزل له عن حلب بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال، فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي، ثم اجتمع حسام الدين طمان بصلاح الدين في السر على تقرير القاعدة في ذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب، ودفع له سنجار، والخابور، ونصيبين، وسروج، ودفع لطمان الرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة، وكان صلاح الدين قد نزل على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر، فلما جرى الصلح على هذه الصورة أعطاها عماد الدين، وتسلم صلاح الدين قلعة حلب، وصعد إليها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين

وخمسمائة، وأقام بها حتى رتب أمورها، ثـم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهـر ربيع الآخر مـن السنة، وجعل فيها ولـده الملك الظاهـر المقدم ذكـره في ترجمة مستقلـة، وكان صبياً وولى القلعة سيـف الديـن يازكـوج الأسدي، وجعله يـرتب مصالح ولـده، ثم سار صلاح الـدين إلى دمشق في التاريخ المذكور.

قال ابن شداد: وتوجه من دمشـق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجـب مـن السنـة المذكورة، وسير إلى أخيـه الملـك العـادل وهـو بمصر يستدعيـه ليجتمع بـه على الكرك، فسار إليـه بجمع كثير وجيـش عظيم واجتمع بـه على الكرك في رابع شعبان مـن السنة، فلما بلغ الفـرنج الخبر حشدوا خلقا كثيراً، وجـاؤوا إلى الكرك ليكونوا في قبـالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر، ورحل عـن الكرك في سادس عشر شعبان مـن السنة، واستصحب أخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة وأعطـاه حلب ودخلهـا في يوم الجمعـة الثاني والعشريـن من شهـر رمضان من السنة، وخـرج الملك الظاهر ويازكوج ودخـلا دمشق في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوّال من السنـة، وكان الملك الظاهر أحب أولاده إليه لما فيـه من الخلال الحميـدة، ولم يأخـذ منه حلـب إلا لمصلحة رآها في ذلـك الوقـت، وقيل إن العـادل أعطاه على أخـذ حلب ثـلاثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد والله أعلم.

ثم إن صـلاح الديـن رأى عود الملـك العادل إلى مصر، وعـود الملك الظـاهر إلى حلـب أصلح، قيـل كان سبـب ذلك أن الأمير علـم الديـن سليمان بن جند ر قال لصلاح الديـن وكان بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايـره يوما، وكان من أمراء حلـب، والملك العادل لا ينصفه ويقدم عليـه غيره، وكان صـلاح الديـن قد مـرض على حصار الموصـل، وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، فلما عوفي رجـع إلى الشام واجتمعا في

المسير،قال له وكان صلاح الديـن قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد:بـأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنـت خارجاً إلى الصيد وتعود فـلا يخالفونك،أما تستحي أن يكون الطـائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال: وكيف ذاك وهو يضحك؟ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصـد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنـت سلمت الحصون إلى أهلـك وجعلت أولادك على الأرض، هـذه حلب وهـي أم البلاد بيـد أخيـك، وحماة بيـد ابـن أخيـك، وحمص بيد ابـن أسـد الـديـن، وابنـك الأفضل مع تقي الـدين بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخـر مع أخيك في خيمة يفعـل به ما أراد، فقال لـه: صدقت فـاكتم هذا الأمر، ثـم أخذ حلب من أخيـه وأعطاها ولده الملـك الظاهر، وأعطى الملـك العادل بعد ذلـك حران والـرهاوميـا فارقين ليخـرجه مـن الشام، ويتـوفر الشـام على أولاده فكان ما كان.

قلت: وقـد تقدّم في تـرجمة عز الديـن مسعود بن قطـب الديـن مودود صاحب الموصل فصل يتعلق بنزول صـلاح الدين على الموصل وحصارها ثلاث مـرات، ولم يقدر عليها. قال شيخنـا ابن الأثير في تاريخه: إنـه نزل عليها في الدفعة الثـالثة، وكان زمن الشتاء، وعزم على المقـام واقطاع جميع الموصل وكـان نزولـه في شعبان من سنـة إحدى وثمانين وخمسمائة، فـأقام شعبـان وشهر رمضـان، وتـرددت الرسـل بينـه وبين صـاحبها فبينما هـو كذلك مرض صـلاح الدين فعاد إلى حران ولحقته الرسل بـالإجابة إلى ما طلب، ثم الصلح على أن يسلم إليـه صاحب الموصل شهر زور و أعمالها وولاية قـالي قلا ومـاوراء الزاب من الأعمال، وأن يخطـب له على المنابر وينقش اسمـه غلى السكة فلما حلف أرسـل صلاح الـدين نوّابـه وتسلم البـلاد التي استقـرت القـاعـدة على تسليمها، وطـال المرض على صـلاح الديـن بحران، واشتد بـه حتى يئسـوا منه، فحلف النـاس لأولاده، وكان عنده منهم الملـك العزيز عماد الديــــن عثمان وأخوه العادل جـاءه من حلب وهو ملكها يـومئذ وجعل لكل واحد شيئاً مـن البلاد وجعل الملك

العادل وصياً على الجميع، ثـم إنه عـوفي وعاد إلى دمشـق في المحرم مـن سنة اثنين وثمانين، ولما كـان مريضاً بحران كـان عنده ناصر الديـن محمد ابـن عمه، ولـه من الاقطـاع حمص والـرحبة، فسـار من عنـده إلى حمص واجتاز بحلب وأحضر جماعـة من الأحداث ووعدهم وأعطـاهم مالاً على تسليم دمشـق إليه إذا مـات صلاح الـدين فعـوفي فلم يمـض إلا قليل حتى مـات ناصر الـدين ليلـة عيد النحـر من السنـة، فإنـه شرب الخمر فأكثر منه فـأصبح ميتاً، وقيل إن صلاح الدين وضـع عليه إنساناً فحضر عنده ونـادمه وسقـاه سما، فلما أصبحوا من الغـد لم يروا ذلـك الشخص، وكان يقال له الناصح بن العميد، فسألوا عنه فقالوا : إنه سار من ليلته، وكـان هذا ممـا قـوّى الظن والله أعلـم، فلما تـوفي أعطى اقطـاعـه لولـده شيركوه، وعمـره اثنتا عشرة سنـة، وخلف مـن الأموال والـدواب والأثاث شيئـاً كثيراً، فحضر صلاح الـديـن إلى حمص، واستعـرض تركتـه، وأخـذ أكثرها، ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه.

ثم قـال شيخنا بعـد هذا كله: وبلغنـي أن شيركوه حضر عنـد صلاح الدين بعد مـوت أبيه بسنة، فقال له: إلى أين بلغـت في القرآن؟ فقال له: إلى (إن الـذين يـأكلون أمـوال اليتامـى ظلما إنما يأكلـون في بطونهم نـاراً وسيصلون سعيراً) فعجـب الجماعة وصلاح الـدين من ذكـائه، والله أعلم بصحة ذلك.

قـال ابن شـداد: ولما وصـل صلاح الـدين إلى دمشـق عقيـب مرضـه وابلالـه، سير طلب أخـاه الملك العـادل فخرج مـن حلب جـريدة يـوم السبـت الرابـع والعشرين مـن شهر ربيـع الأول من سنـة اثنتين وثمانين، ومضى إلى دمشق فـأقام في خدمة السلطان صلاح الـدين، وجرت بينهما أحاديث ومراجعـات وقواعد تتقرر إلى جمادى الآخرى من السنـة، فاستقر الأمر على عـود الملك العادل إلى مصر، وأخـذت حلب منه، وسـار الملك الظاهر إليها ودخل قلعتها يوم السبت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

وقد ذكرت في ترجمة الملك الظاهر أنـه دخل حلب مالكاً لها في مثل يوم وفـاته، وعينت هنـاك التاريخ واسم اليـوم، هكذا وجدتـه، وما أدري مـن أين نقلته وسلـم السلطان ولـده الملك العـزيـز إلى العادل وجعلـه أتابكه.

قـال ابـن شداد: قـال لي الملـك العـادل لما استقـرت هذه القـاعـدة: اجتمعت بخـدمة الملك العـزيز والملـك الظاهر، وجلسـت بينهما، وقلت للملك العـزيز: اعلم يـا مولانـا أن السلطان أمرني أن أسير في خـدمتك إلى مصر، وأنا أعلـم أن المقدمين كثير ومـا يخلو أن يقـال عني مـالا يجوز ويخوفونك مني فـإن كان لك عزم أن تسمع منهم فقـل لي حتى لا أجيء؟ فقال: كيف يتهيـأ لي أن أسمع منهم أو أرجع إلى رأيهم، ثـم التفت إلى الملك الظاهـر، وقلت له:أنا أعرف أن أخاك ربما سمـع فيّ أقوال المقدمين وأنا فمالي إلاّ أنت وقد قنعـت منك بمنبج متى ضاق صدري مـن جانبه فقـال: مبـارك، وذكر لي كـل خير، وزوّج السلطـان ولـده الملك الظـاهـر غازيـة خاتون ابنـة أخيه الملك العـادل ودخل بها يوم الأربعـاء السادس والعشرين من رمضان من السنة.

ثم كـانت وقعـة حطين المباركـة على المسلمين، قال: وكـانت في يـوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخـر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العـدوّ في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بـدعاء المسلمين والخطباء على المنـابر، فسـار في ذلك الوقـت بمن اجتمع لـه من العساكـر الاسلاميـة وكانت عـدّة تجوز العدّ والحصر على تعبية حسنة وهيئـة جميلة، وكان قد بلغـه عن العدو أنه اجتمـع في عـدّة كثيرة بمـرج صفـوريـة بـأرض عكـا، عنـدمـا بلغهـم اجتماع العسـاكـر الاسلاميـة، فسار ونـزل على بحيرة طبرية على سطـح الجبل ينتظـر قصد الفرنج لـه إذا بلغهم نزوله بالموضـع المذكور، فلم يتحركـوا ولم يخرجوا من منزلتهـم، وكان نـزولهم بالموضع المذكـور يوم الأربعـاء الحادي والعشرين

من شهر ربيع الآخر، فلما رآهم لا يتحركون عن منزلتهم نزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة العدوّ، ونازل طبرية وهجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما بها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة محتمية بمن فيها، ولما بلغ العدوّ ما جرى على طبرية قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان ذلك، فترك على طبرية من يحاصرها، ولحق بالعسكر فالتقى بالعدوّ على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، وحال الليل بين العسكرين فباتا على مصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال، واشتد الأمر، وذلك بأرض قرية تعرف بلوبيا، وضاق الخناق بالعدوّ وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون، وقد أيقنوا بالويل والثبور، وأحست نفوسهم أنهم في غد يومهم ذلك من زوّار القبور، ولم تزل الحرب تضطرم والفارس مع قرنه يصطدم، ولم يبق إلاّ الظفر ووقع الوبال على من كفر، فحال بينهم الليل بظلامه، وبات كل واحد من الفريقين بمقامه، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدوّ، وأنهم لاينجيهم إلاّ الاجتهاد في القتال، فحملت أطلاب المسلمين من كل جانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، فألقى الله تعالى الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقا عليه نصر المؤمنين، ولما أحس القومس بالخذلان هرب منهم في أوائل الأمر وقصد جهة صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا منهم وكفى الله شره، وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحكموا فيهم السيوف، وسقوهم كأس الحمام، وانهزمت طائفة منهم فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها أحد، واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام فضايقهم المسلمون، وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كادوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل لما مر بهم، فأسر مقدميهم،

وقتل الباقون، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك كي وجفري أخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنفري وابن صاحب طبرية ومقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار.

قال ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن القومس الذي هرب في أول الأمر وصل إلى طرابلس، فأصابه ذات الجنب فهلك منها، وأما مقدما الاسبتارية والديوية فإن السلطان قتلهما، وقتل من بقي من صنفهما حياً وأما البرنس أرناط، فإن السلطان كان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك لأنه كان قد عبر به عند الشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ، صلى الله عليه وسلم، وبلغ ذلك السلطان فحملته حميته ودينه على أن يهدر دمه، ولما فتح الله عليه بنصره جلس في دهليز الخيمة لأنها لم تكن نصبت بعد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بمن في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله تعالى على يديه للمسلمين، ونصبت له الخيمة فجلس فيها شاكراً لله تعالى على ما أنعم به عليه واستحضر الملك كي وأخاه والبرنس أرناط وناول السلطان كي شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناولها البرنس وقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته، وأما أنا فما سقيته، وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن، فقصد السلطان بقوله ذلك، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عينه لهم، فمضوا بهم إليه، فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم فاستحضرهم، وأقعد الملك في دهليز الخيمة، واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه بين يديه وقال له: ها أنا

أنتصر لمحمد منك ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل فسل النمشاة، فضربه بها فحل كتفه، وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته ورميت على باب الخيمة، فلما رآه الملك كي على تلك الحالة لم يشك في أنه يلحقه به فاستحضره وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فقد تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء.

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور ترتفع أصواتهم بحمد الله تعالى وشكره وتهليله وتكبيره حتى طلع الفجر، ثم نزل السلطان على طبرية يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، وتسلم قلعتها في ذلك النهار، وأقام عليها إلى يوم الثلاثاء، ثم رحل طالباً عكا، فكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين فأخذها، واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس، وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة، وكان ذلك لخلوها من الرجال لأن القتل والأسر أفنى كثيراً منهم، ولما استقرت قواعد عكا وقسم أموالها وأساراها سار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فنصب عليها المناجيق، وضيق بالزحف خناق من فيها، وكان فيها أبطال معدودون، وفي دينهم متشددون، فقاتلوا قتالاً شديداً، ونصره الله سبحانه وتعالى عليهم، فتسلمها منهم يوم الأحد ثامن عشر عنوة وأسر من بقي فيها بعد القتل، ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها عند نزوله عليها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرين من جمادى الأولى، وأقام عليها ريثما قرر قواعدها، وسار حتى أتى بيروت ، فنزل عليها ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق وداوم الزحف والقتال حتى أخذها في يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر

المذكور، وتسلم أصحابه جبيل وهو على بيروت، ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها، ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وذهب كل واحد يحصل لنفسه، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور من بقي في الساحل من الفرنج، فرأى أن قصده عسقلان أولى لأنها أيسر من صور، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة من السنة، وتسلم في طريقة إليها مواضع كثيرة كالرملة والدارون، وأقام على عسقلان المناجيق وقاتلها قتالاً شديداً وتسلمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة من السنة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة فإنهم كانوا أخذوها من المسلمين في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة، هكذا ذكر شيخنا ابن شداد في السيرة، وذكر الشهاب ياقوت الحموي في كتابه الذي سماه المشترك وضعاوالمختلف صقعاً أنهم أخذوها من المسلمين في رابع عشر جمادى الآخرة من السنة.

قال ابن شداد: لما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار نحوه معتمدا على الله تعالى مفوّضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم: من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه، وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان نزوله بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة ، وحزر أهل الخبرة ممن كان معه من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المناجيق، وضيق البلد بالزحف والقتال

حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لامدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة، وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخريب والهدم، وتحققوا أنهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه فاستكانوا وأخذوا في طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسليمه يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب العجيب ، كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمن الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتحه عظيما شهده من أهل العلم خلق ومن أرباب الحذق والزهد عالم، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسره الله تعالى على يده من فتح الساحل، وقصد القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف أحد منهم، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وخطب الخطيب.

قلت: وقد تقدم في ترجمة القاضي محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي ذكر الخطبة التي خطب بها ذلك اليوم، فيكشف منه، ورأيت في رسالة القاضي الفاضل المعروفة بالقدسية أن الخطبة أقيمت يوم الجمعة رابع شعبان، وإذ قد ذكرنا فتوح القدس، وقد تقدم ذكر الخطبة التي خطب يوم الجمعة بها يليق أن نذكر الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل إلى الامام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن الامام المستضيء بأمر الله تتضمن الفتوح فإنها بديعة بليغة في بابها ولم أذكرها بكمالها بل اخترت منها أحسنها، وتركت الباقي لأنها طويلة، وهي : «أدام الله تعالى أيام الديوان العزيز النبوي ولازال مظفر الجد بكل جاحد، غنيا بالتوفيق عن رأي كل زائد، موقوف المساعي عن اقتناء مطلقات المحامد، مستيقظ النصر والنصل في جفنه راقد وارد الجود

والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يلفى إلا بشكر واحد، ماضي حكم العدل بعزم لا يمضي إلا بنيل غوي ورئيس راشد، لازالت غيوث فضله إلى الاولياء أنواء إلى المراتع وأنوار إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الاعداء خيلاً إلى المراقب، وخيالاً إلى المراتب، قد كتب الخادم هذه الخدمة تلوما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير لصبح هذه العزمه، والعنوان لكتاب وصف النعمه، فإنها بحر للاقلام فيه سبح طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في اظهارها مشارب، ولله تعالى في إعادة شكره رضاء وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى، ولقد صارت أمور الاسلام إلى أحسن مصائرها وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه، والفوز معروضا قد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر الحق وكان مستضعفا وأهل ربعه، وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عند حسان الجبين، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بمالم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا، واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة، قلوبهم كما يشفي الماء عللهم، ولما قدم الدين عليها عرق منها سويداء قلبه، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلاّ لهذه العظمى، ولا يقاسي تلك البؤسى إلاّ رجاء هذه النعمى، ولا يناجز من يستملكه في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتفادى في عتبه إلا لتكون الكلمة مجموعة، فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسن ربما

سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفاها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رابحة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر، وإلا فإن العقود تلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها، ويضعف في أيديها مهز القوائم فيفضها هذا إلى كون القعود لا يقضى به فرض الجهاد، ولا يراعى به حقه في العباد، ولا يوفى به واجب التقليد الذي يطوّقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وكانوا يعدلون، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم يتساءلون لا جرم أنهم أورثوا اسرهم وسريرهم، خلفهم الأطهر، ونجلهم الأكبر، وبقيتهم الشريفة، وطليعتهم المنيفة، وعنوان صحيفة فضلهم لاعدم سواد القلم وبياض الصحيفة، فما غابوا لما حضر، ولا غضوا لما نظر، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً، ومنه مقبولاً، وخلص إليهم إلى المضاجع فاطمأنت به جنوبها، وإلى الصحائف ماعبقت به جيوبها، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا، والنهار به بصيرا، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأنواره فإنه نور لا تكنه اغساق السدف، وذكر لاتوازيه أو راق الصحف، وكتب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدوّ الذي تشظت قناته، وطارت من فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصا، وصدعت حصاته، وكان الأكثر عددا وحصا، وكلت حملاته، وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان، وعقوبة من الله ليس لصاحب بيتها يدان، وعثرت قدمه، وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطق الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو زاعقة بالمنون، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة، وكانت الطامث والرب الفرد الواحد، وكان عندهم الثالث، وبيوت الكفر مهدومه، ونيوب الشرك مهتومة، وطوائفه المحامية مجمعة على تسليم القلاع الحامية، وشجعانه المتوافية مذعنة لبذل القطائع الوافية، لا يرون في الحديد لهم عصر، ولا في

نار الألفة لهم نصر، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة، إلى أيدي أصحاب الميمنة، وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى، فأمده الله بمداركته وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرة ما بعد هاجبر، وصرعهم صرعة لاينتعش بعدها بمشيئة الله كفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من قتلت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار، وعن المصاف بخيل فالة قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الاكسار، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار، فكم أهلة سيوف تقاوض الضراب بها حتى عادت كالعراجين وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القران على بعد المسافة وافترسه، فكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخاً، وكان الاسلام مولودا، وكانت ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلاّ وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنهم يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلاله خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عهد وأوثقه، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقه، وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دهاتهم، ولم يفلت منهم معروف إلا القومس،وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال، مليا يوم الخذلان بالاختبال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعدتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطوا ها بها نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغاً البيضاء صنعا، الخافقة هي وقلوب أعدائها الغالبة هي

وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارهـا، إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فافتتح بلاد كذا وكذا وهذه كلها أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفـدن، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجـوامع ومنابر، وجموع وعساكر، يتجـاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه، بعـد أن ينتهزها، ويحصد منها كفـراً، ويزرع ايماناً، ويحط من جوامعهـا صلبا، ويرفع أذانـا، ويبدل المذابح منابـر، والكنائس مساجـد، ويبوىء أهـل القرآن بعـد أهل الصلبـان، للقتال عـن دين الله مقاعـد، ويقر عينه وعين أهل الاسـلام أن يعلق النصر منه ومـن عسكره بجار ومجرور، وأن يظفر بكل سور مـا كان يخاف زلزلة ولا زايله عسراً إلى يوم النفـخ في الصور، ولما لم يبـق إلا القدس وقد اجتمـع إليه كـل شريد منهم وطريـد، واعتصم بمنعته كل قـريب منهم وبعيد، وظنـوا أنها من الله مانعتهم، وأن كنيستها إلى الله سبحانه شافعتهم، فلما نزلها الخادم رأى بلـدا كبلاد، وجمعـا كيـوم التنـاد، وعزائم قـد تـألبـت على الموت فنزلـت بعرصتـه، وهان عليهـا مورد السيـف وأن تموت بغصته، فـزاول البلد مـن جانـب فإذا أودية عميقـة، ولجج وعر غريقـه، وسور قد انعطـف عطف السوار، وأبـرجة قد نزلـت مكان الواسطـة من عقر الدار، فعـدل إلى جهة أخـرى كان للمطـالـع عليها معـرج، وللخـيل فيهـا مفـرج، فنزل عليهـا وأحـاط بها، وقرب منهـا وضرب خيمته بحيـث ينالـه السلاح بـأطرافـه، ويزاحمه السور بأ كنافـه وقابلها ثم قاتلها ونزلها ، ثم نـازلها وحاجزها، ثم ناجـزها وضمهـا ضمة ارتقب بعـدها الفتح، وصـدع جمعها فـإذا هم لا يبصرون على عبـودية الحد عـن عنـق الصفح، فـراسلـوه ببذل قطيعـة إلى مدة، وقصـدوا نظرة مـن شدة، وانتظـار النجدة، فعـرفهم الخادم في لحن القول، وأجـابهم بلسان الطـول، وقدم المنجنيقـات التي تتـولى عقوبـات الحصون عصيها وحبالها، وأوتـر لهم فيها التي ترمي ولا تفارقهـا سهامها، ولكن تفـارق سهامهـا نصالها، فصـافحت السـور فإذا سهمهـا في ثنايـا شرفـاتها سواك، وقـدم النصر شرا مـن المنجنيـق يخلد خـلاده إلى الأرض

ويعلو علـوه إلى السماك فشبح مرادع أبـراجها، واسمع صـوت عجيجها صم أعـلاجها، ورفع منـار عجاجهـا فأخلى السور مـن السياره، والحرب من النظـاره، وأمكن النقاب أن يسفـر للحرب النقاب، وأن يعيـد الحجر إلى سيرتـه الأولى من التراب، فتقـدم إلى الصخـر فمضـغ سربه بـأنيـاب معمولـه، وحل عقده بضربـه الأخرق الـدال على لطافة الأنملـة، وأسمع الصخرة الشريفـة أنينه بـاستغاثتـه إلى أن كادت تـرق لمقلته وتبرأ بعـض الحجارة مـن بعض، وأخذ الخراب عليهـا موثقاً فلـن يبرح الأرض، وفتح من السور باباً سد من نجاتهم أبـواباً، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده (الكافر باليتنـى كنت تراباً) فحينئذ يأس الكفـار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمـر الله وغرهم بالله الغرور ، وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمام أمرهـم ابن بارزان سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلام لا بالعنوه، وبالأمان لا بـالسطوة، وألقى بيده إلى التهلكه، وعلاه ذل الهلكـة بعـد عــز المملكـة، وطـرح جنبـه على التراب، وكـان جنبـا لايتعاطاه طـارح، وبذل مبلغا من القطيعـة لا يطمح إليها أهل طـامح، وقال: ههنـا أسارى مسلمون يتجاوزون الالـوف، وقد تعاقد الفـرنج على أنهم إن هجمـت عليهـم الـدار، وحملـت الحرب على ظهـورهـم الأوزار بدأبهم فعجلوا وثني بنسـاء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ثم استقتلـوا فلا يقتل خصم إلا بعـد أن ينتصف، ولا يفك سيـف من يد إلا بعـد أن تقطع أو ينقصف، فـأشار الأمراء بـأخذ الميسور مـن البلد المأسـور، فإنه لـو أخذ حربـا فلا بد أن يقتحـم الرجال الأنجـاد وتبذل نفـوسها في آخر أمـر قد نيل مـن أوله المراد، وكانـت الجراح في العساكر قـد تقدم منها مـا اعتقل الفلكات، وأثقـل الحركات، فقبل منهـم المبذول عـن يد وهم صـاغرون، وانصرف أهل الحرب عـن قدرة وهم ظاهـرون، وملك الاسلام خطـة كان عهده بها دمنـة سكان ، فخـدمها الكفـر إلى أن صارت روضـة جنان لا جرم أن الله تعالى أخـرجهم منها وأهبطهم، وأرضـى أهل الحق وأسخطهم فـإنهم خذلهم الله حموهـا بـالأسل والصفـاح، وبنوهـا بـالعمد والصفـاح

وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوبة والاسبتارية فيها بكل غريبة من الرخام الذي لا يطر دماؤه، ولا يتطرد لألاؤه، قد لطف الحديد في تجزيعه وتفنن في توشيعة إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد كالذهب الذي فيه نعيم عتيد،فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق، وأوعز الخادم بردّ الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات يتفطرن للنجوم لا للوجوم، والكواكب منها تنتشر للطرب لا للرجوم، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها وجهرت الألسنة بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بربمن بر، وخفق علما في حفافيه فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور، واستشراح ماضاق بتمادي الحرب من الصدور، فإن قوى العساكر قد استنفدت مواردها، وأيام الشقاء قد أوردت مواردها، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرها، وأكلت غلالها فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد، ينفق عليها ولا ينفق منها، وتجهز الأساطيل لبحرها وتقام المرابط بساحلها، وبدأ في عمارة أسوارها، ومر مات معاقلها، وكل مشقة بالاضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولامعتزله، فإن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لا تسمع ، ولن يفكوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع، وهذه البشائر الزبد، لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بها سوى المشافهة تتخلص، فلذلك نفذ الخادم لسانا شارحاً، ومبشرا صادحاً يطالع بالخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته، وهو فلان والله الموفق». هذا آخر الرسالة الفاضلية وكان في عزمي اختصارها،

والاقتصار على محاسنها، فلما شرعت فيها قلت في نفسي : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها فأكملتها، ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس، وكانت النسخة التي نقلتها سقيمة، ولقد اجتهدت في تحريرها حتى صحت هذه الصورة حسب الا مكان وقد عمل عماد الدين الاصبهاني الكاتب رسالة في فتح القدس أيضاً، فلم أر التطويل بكتابتها، فتركتها، وجمع كتابا سماه « الفيح القيسي في الفتح القدسي» وهو في مجلدين ذكر فيه جميع ما جرى في هذه الواقعة، ورأيت منذ زمان رسالة مليحة أنشأها ضياء الدين أبو الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الجزري رحمه الله تعالى المقدم ذكره في حرف النون، تتضمن فتح القدس أيضاً، وكل واحد من أرباب صناعة الإنشاء كان يريد أن يمتحن خاطره بما يعمل في ذلك.والقاضي الفاضل رئيس هذا الفن،وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يجاريه ولا يباريه، فلهذا أتيت برسالته، ورفضت غيرها خوف الإطالة.

وكان قد حضر الرشيد أبو محمد عبد الرحمن بن بدر بن الحسن بن مفرج النابلسي الشاعر المشهور هذا الفتح فأنشد السلطان صلاح الدين قصيدته المشهورة التي أولها:

هذا الذي كانت الأيام تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا

وهي طويلة تزيد على مائة بيت يمدحه ويهنيه بالفتح، وإذ قد نجز المطلوب من هذا الأمر فلنرجع إلى تتمة ما ذكره شيخنا بهاء الدين بن شداد في السيرة الصلاحية قال: ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيما، ونصر الله الاسلام على يده نصراً عزيزاً.

قلت: وقد تقدم في ترجمة أرتق طرف من أخبار القدس، وأن الأفضل أمير الجيوش بمصر أخذه من ولديه سقمان وايل غازي، ثم أن الفرنج

استولوا عليه يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين رأربعمائة، وقبل في ثاني شعبان، وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه صلاح الدين في التاريخ المذكور.

نعود إلى كلام ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل ذكر صغيراً وأنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه، وإلا أخذ أسيراً وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما، وأقام به يجمع الأموال، ويفرقها على الأمراء والرجال، ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه، وتقدم بايصال من أقام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة صور، ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جبي له شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وكان رحيله عنه يوم الجم ة الخامس والعشرين من شعبان من السنة.

ولما فتح القدس حسن عنده فتح صور، وعلم أنه إن أخر أمرها ربما عسر عليه، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها، ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة خامس شهر رمضان من السنة، فنزل قريبا منها، وأرسل لإحضار آلات القتال، ولما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتلها وضايقها قتالاً عظيما ، واستدعى اسطول مصر فكان يقاتلها في البر والبحر، ثم سير من حاصر هونين، فسلمت في الثالث والعشرين من شوّال من السنة، ثم خرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقا كثيراً من رجال المسلمين، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور، وعظم ذلك السلطان، وضاق صدره، وكان الشتاء قد هجم، وتراكمت الأمطار، واستشارهم فيما

يفعلون فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، ويجتمعوا للقتال، فرحل عنها وحملوا من آلات الحصار ما أمكن وحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله لكثرة الوحل والمطر، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة من السنة، وتفرقت العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستورا، وسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو مع جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة، ثم نزلوا على كوكب في أوائل المحرم من السنة، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل، وكان حصناً حصيناً، وفيه الرجال والأقوات، فعلم أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد، فرجع إلى دمشق ودخله في سادس شهر ربيع الأول من السنة.

قال ابن شداد: ولما كان على كوكب وصلت إلى خدمته، ثم فارقته ومضيت إلى زيارة القدس والخليل عليه السلام، ودخلت دمشق يوم دخول السلطان إليها —قلت: وقد ذكرت هذا في ترجمته— وأقام بدمشق خمسة أيام، ثم بلغه أن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها فخرج مسرعا وكان قد سير يستدعي العساكر من جميع المواضع، وسار يطلب جبيل ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه فسار نحو حصن الأكراد.

قال ابن شداد في السيرة إنه اتصل بخدمة السلطان في مستهل جمادى الأولى من سنة أربع وثمانين، وجميع ما ذكرته بروايتي عمن أثق به، ومن ههنا ما أسطر إلا ما شاهدته، وأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، قال: لما كان يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبية حسنة، ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخير ومقدمها مظفر الدين فوصل إلى أنطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جمادى الأولى فوقف قبالتها ينظر إليها لأن قصده كان جبلة فاستهان أمرها فسير من

رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين فركبوا وقاربوا البلد، وزحفوا واشتد القتال وباغتوها فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخذوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها وما بها، وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه، واجتمع به ولده الملك الظاهر لأنه كان قد طلبه فجاءه في عسكر عظيم، ثم سار يريد جبلة وكان وصوله إليها في ثاني عشر جمادى الأولى،فما ستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً، ثم سار عنها إلى اللاذقية، وكان نزوله عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، وهو بلد خفيف على القلب غير مسوّر وله مينا مشهور وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، واشتد القتال إلى آخر النهار وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار، وجدّوا في أمر القلعتين بالقتال والنقوب حتى بلغ طول النقب ستين ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لا ذوا يطلبون الأمان وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ماخلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب فأجابهم إلى ذلك، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم السبت، وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر، فرحل عنها إلى صهيون فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من الشهر، واجتهد في القتال، فأخذ البلد يوم الجمعة ثاني جمادى الأخرى، ثم تقدموا إلى القلعة وصدقوا القتال فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان، فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران الذكر والانثى سواء، وأقام السلطان بهذه الجهة حتى أخذ عدة

قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المنيعة المتعلقة بصهيون، ثم رحل عنها وأتى بكاّس، وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها يوم الثلاثاء سادس جمادى الأخرى، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر، ثم يسر الله فتحها عنوة، فقتل أكثر من بها، وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها، ولها قلعة تسمى الشغر وهي في غاية المنعة يعبر إليها منها بجسر وليس عليها طريق فسلطت المناجيق عليها من جميع الجوانب، ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر، ثم سألوا المهلة ثلاثة فأمهلوا، وكان تمام فتحها وصعود ا لعلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشر الشهر، ثم سار إلى برزية وهي من الحصون المنيعة في غاية القوّة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج، يحيط بها أودية من جميع جوانبها وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً، وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه، ثم سار إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة، وقاتلها قتالاً شديداً، ورفع العلم الاسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب وأعطاها الأمير علم الدين سليمان ابن جندر، وسار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين من الشهر، ونزل على بغراس وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، قاتلها مقاتلة شديدة وصعد العلم الاسلامي عليها في ثاني شعبان، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر من البيكار، وكان الصلح معهم لا غير على أن يطلقوا كل أسير عندهم، والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد، ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك فوصل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام، وسار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً وأحضر له سماعا من

جنس ما تعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية، وسار على طريق بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد فنزل عليها، ولم يزل القتال حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوّال، وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها وخلصوه بذلك فإنه كان أسيراً من نوبة حطين.

قلت: هكذا ذكره، وهذا لا ينتظم مع ما قبله، فقد تقدم قبل هذا أن البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك أسر في وقعة حطين، ثم قتله السلطان بيده فيكشف عن هذا في مكان آخر ليتحقق.

قال: ثم سار إلى كوكب وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة، والأمطار متوالية والوحول والرياح عاصفة، والعدو متسلط لعلوّ مكانة، فلما تيقنوا أنهم مأخوذون طلبوا الأمان فأجابهم اليه وتسلمها منهم في منتصف ذي القعدة من السنة، ثم نزل الغور وأقام بالمخيم بقية الشهر وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه لأنه كان متوجهاً إلى مصر، ودخل القدس في ثامن ذي الحجة وصلى بها العيد، وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر إلى أمورها، وأخذ ها من أخيه العادل، وعوّضه عنها الكرك، ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها، ثم دخل عكا، فأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين، وأصلح أمورها، ورتب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة سورها.

وسار إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر من السنة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين، فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع عشر شهر ربيع

الأول، وأقام أياماً يباشر قتاله كل يـوم، والعساكر تتواصل إليه، فلما تحقق صاحـب الشقيف أنه طاقـة له به نزل إليـه بنفسه فلم يشعر بـه إلا وهو قائم على باب خيمته، فـأذن له في دخوله إليه وأكرمـه واحترمه، وكان من أكبر الفرنج وعقلائهـم، وكان يعرف بالعربية وعنـده اطلاع على شيء من التـواريخ والاحـاديـث، وكان حسـن التـأتي لما حضر بين يدي السلطـان وأكل معـه الطعام،ثم خلا بـه وذكر أنه مملـوكه وتحت طاعته وأنـه يسلم إليه المكان من غير تعب،واشترط أن يعطى موضعـا يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لايقدر على مسـاكنة الفرنج، واقطاعا يقوم بـه وبأهله، وشروطا غير ذلـك، فـأجابـه إلى ذلـك، وفي أثنـاء شهر ربيـع الأول وصلـه الخبر بتسليم الشوبـك، وكان السلطان قد أقـام عليه جمعاً يحاصرونه مـدة سنة كاملة إلى ان نفـد زاد من كان فيه فسلموه بالأمـان ثم ظهر للسلطان بعـد ذلـك أن جميع مـا قـالـه صـاحـب الشقيـف كـان خـديعـة فرسم عليـه، ثم ظهر له أن الفرنـج قصدوا عكا ونزلـوا عليها يوم الاثنين ثـالـث عشر رجـب سنـة خمس وثمانين، وفي ذلـك اليـوم سير صـاحـب الشقيف إلى دمشق بعد الإهـانة الشديدة، وأتى عكا ودخلهـا بغتة ليقوي قلوب مـن بها، وسير استدعـى العساكـر من كـل ناحيـة فجاءتـه، وكان العـدوّ بمقدار ألفـي فـارس وثـلاثين ألف راجـل، ثـم تكـاثر الفـرنـج، واستفحل أمـرهـم، وأحاطـوا بعكا، ومنعوا مـن يدخل ويخرج، وذلـك يوم الخميس سلـخ رجب، فضاق صدر السلطـان لذلك، ثم اجتهـد في فتح الطريق إليها لتستمـر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمـراء فاتفقوا على مضـايقة العـدوّ لينفتح الطـريق ففعلـوا ذلـك وانفتح الطـريق، وسلكـه المسلمـون، ودخـل السلطـان عكـا فـأشرف على أمـورهـا ثـم جـرى بين الفريقين منـاوشات في عـدة أيام، وتأخـر النـاس إلى تـل العياضيـة، وهو مشرف على عكا، وفي هـذه المنزلة تـوفي الأمير حسام الديـن طمان المقدم ذكـره في هـذه الترجمة، وذلـك ليلـة نصـف شعبـان سنـة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان.

ثــم إن شيخنا ابــن شــداد ذكر بعــد هذا وقعــات ليــس لنا غـرض في ذكرهــا، وتطول هذه الترجمة باستيفــاء الكلام فيها إذ ليس الغـرض سوى المقاصد لا غير، وإنما ذكرت فتوحات هــذه الحصون لأن الحاجة قد تدعو إلى الوقوف على تــواريخها، مع أني لم أذكر إلاّ ما يكثر التطلــع إلى الوقوف عليه، وأضربت عن الباقي. قال ابــن شداد: سمعت السلطان ينشد وقد قيل له أن الوخم قد عظم بمرج عكا، وأن الموت قد فشا في الطائفتين

اقتلــــــــوني ومــــــــــالكــــــــا
واقتلــــــواممــــــالكــــــــامعــــــــي

يريد بذلك أنه قد رضي أن يتلف كما أتلف الله أعداءه

قلــت: وهذا البيــت لــه سبب يحتــاج إلى شرح، وذلــك أن مــالك بــن الحارث المعروف بــالأشتر النخعي كــان من الأبطــال المشهورة، وهــو من خواص أصحــاب علي بن أبي طالــب رضي الله عنه، تماسك في يــوم وقعة الجمــل المشهورة هــو وعبــد الله بــن الزبير بــن العــوّام، وكــان أيضاً مــن الأبطال، وابــن الزبير يومئذ مــع خالته عائشــة أم المؤمنين رضي الله عنها، وطلحة والــزبير رضي الله عنهم، وكــانوا يحار بــون عليا رضي الله عنــه فلما تماسكــا صار كــل واحد منهما إذا قــوي على صــاحبه جعلــه تحته وركــب صدره، وفعلا ذلك مراراً، وابن الزبير ينشد:

اقتلــــــــوني ومــــــــــالكــــــــا
واقتلــــــواممــــــالكــــــــامعــــــــي

يريد الاشتر النخعي، هذه خلاصــة القول في ذلك وإن كانت القصة طويلــة، وهي في التــواريخ مبســوطة، وقــال عبد الله بــن الزبير: لاقيــت الاشتر النخعي يوم الجمل، فما ضربته ضربــة حتى ضربني ستا أو سبعاً، ثم أخذ برجلي وألقاني في الخندق، وقــال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضــو إلى عضو أبداً، وقال أبو بكر ابــن أبي شيبة: أعطــت عائشــة رضي الله عنها الــذي بشرها بســلامة ابــن

الـزبير لما لاقى الاشتر النخعي عشرة آلاف درهـم،وقيل أيضاً إن الاشتر دخـل على عائشـة رضي الله عنها بعـد وقعة الجمـل، فقالـت له:يـا أشتر أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة، فأنشدها:

أعـائش لـو لا أنني كنت طاويـا
ثـلاثـا لألفيت ابـن أختـك هـالكـا
غـداة ينـادي والـرمـاح تنـوشـه
بـآخـر صـف اقتلـوني ومـالكـا
فنجـاه منـي أكلـه وشبـابـه
وخلـوة جـوف لم يكـن متماسكـا

وقـال زهير بن قيـس: دخلت مـع عبد الله بـن الزبير الحمام، فـإذا في رأسـه ضربة لـو صب فيهـا قارورة دهـن لاستقر، فقـال لي: أتدري مـن ضربني هذه الضربة؟ قلت: لا،قال ابن عمك الأشتر النخعي.

رجعنا إلى مـا كنا فيه، قـال ابن شداد: ثم إن الفـرنج جاءهـم الأمداد من داخـل البحر، واستظهـروا على الجماعة الإسـلامية بعكـا، وكان فيهـم الأمير سيـف الديـن علي بن أحمد المعروف بـا لمشطوب الهكـاري والأمير بهاء الدين قـراقوش الخادم الصلاحي، وضـايقوهم أشد المضـايقة إلى أن غلبوا على حفـظ البلد، فلما كان يـوم الجمعة سابـع عشر جمادى الأخرى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، خرج من عكا رجل عوام ومعه كتب من المسلمين يـذكـرون حالهم ومـا هـم فيـه، وأنهم قد تيقنـوا الهلاك، ومتـى أخـذوا البلد عنـوة ضربت رقـابهم، وأنهم صـالحوا على أن يسلموا البلـد وجميـع مـا فيـه مـن الآلات والأسلحة والمراكـب، ومـائتـي ألـف دينـار وخمسمائة أسير مجاهيـل، ومـائة أسير معينين مـن جهتهـم، وصليـب الصلبـوت ، على أن يخرجوا بـأنفسهـم سالمين، ومـا معهـم من الأمـوال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم، وضمنـوا للمركيس لأنه كان الواسطة في هـذا الأمر أربعة آلاف دينار، ولما وقـف السلطان على الكتب المشار إليهـا أنكر ذلك انكاراً عظيماً، وعظـم عليه هذا الأمـر، وجمع أهل

الرأي من أكابر دولته وشاورهم فيما يصنع، واضطربت آراؤه، وتقسم فكره، وتشوّش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو يتردد في هذا، فلم يشعر إلاّ وقد ارتفعت أعلام العدوّ وصلبانه وناره وشعاره على أسوار البلد، وذلك في ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة من السنة، وصاح الفرنج صيحة عظيمة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد أمرهم وحزنهم، ووقع فيهم الصياح والعويل والبكاء والنحيب.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الفرنج خرجوا من عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها، وساروا على الساحل والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف وكان بينهما قتال عظيم ونال المسلمين منه وهن شديد، ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشرة منازل من مسيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة وأتاه من أخبره بأن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أر باب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أم إبقاؤها فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل قبالة العدوّ، ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفا من أن يصل العدو إليها ويستولى عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا، ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة، ، فسار إليها سحرة الأربعاء ثامن عشر الشهر.

قال ابن شداد: وتحدث معي في معنى خرابها بعد أن تحدث مع ولده الملك الأفضل في أمرها أيضاً، ثم قال: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة للمسلمين فما الحيلة في ذلك، قال: ولما اتفق الرأي على خرابها

أوقـع الله تعالى في نفسـه ذلـك، وأن المصلحـة فيه لعجـز المسلمين عـن حفظها، وشرع في خرابها سحرة يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة وقسـم السور على المسلمين، وجعـل لكل أمير مـن العسكر بـدنة معلومة وبرجـا معينا يخر برنه، ودخل الناس البلـد، ووقع فيهم الضجيج والبكاء، وكان بلداً خفيفـا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مـرغوباً في سكنـه، فلحق النـاس على خـرابـه حزن عظيـم، وعظـم عـويل أهـل البلد عليه لفراقهم أوطانهم وشرعوا في بيـع مالا يقدرون على حمله، فباعوا مـا يساوي عشرة آلاف بـدرهم، وبـاعـوا اثني عشر طير دجـاج بدرهـم واحد، واختبط البلـد وخرج الناس بأهلهم وأولادهـم إلى المخيم وتشتتوا، فذهب قـوم منهم إلى مصر، وقوم إلى الشام، وجرت عليهـم أمور عظيمة، واجتهـد السلطـان وأولاده في خـرابها كـي لايسمـع العـدو فيسرع إليـه، ولايمكـن من خـرابها، وبات النـاس على أصعـب حال وأشـد تعب ممـا قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلـة وصل من جناب الملـك العادل من أخبر أن الفـرنج تحدثوا معه في الصلـح، وطلبوا جميع البلاد الساحليـة، فرأى السلطان أن في ذلك مصلحة لما علم من نفوس النـاس من الضجر من القتال، وكثرة ما عليهـم من الـديون، وكتـب إليه يـأذن له في ذلـك، وفوض الأمـر إلى رأيه، وأصبح يـوم الجمعة العشرين من شعبـان، وهو مصر على الخراب، واستعمـل الناس عليـه وحثهـم على العجلة فيـه وأبـاحهم مـا في الهري الذي كان على الميرة مذخـوراً خوفاً من هجوم الفرنـج والعجز عن نقله ، وأمر باحراق البلد فأضرمت النيران في بيـوته، وكان سورها عظيماً، ولم يزل الخراب يعمل في البلـد إلى سلخ شعبـان من السنـة، وأصبح يـوم الاثنين مستهـل شهر رمضـان أمر ولـده الملـك الأفضل أن يبـاشر ذلك بنفسـه وخـواصـه، ولقد رأيتـه يحمـل الخشـب بنفسـه لأجل الاحـراق، وفي يـوم الأربعاء ثـالث شهر رمضـان أتى الرملـة ثم خرج إلى لـد، وأشرف عليها وأمر باخـرابها وإخراب قلعة الرملـة، ففعل ذلك، وفي يوم السبـت ثالث

عشر رمضان تأخر السلطان بالعسكـر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لاحضار مـا يحتاجـون إليه ، ودار السلطـان حول النطـرون وهي قلعة منيعة، فأمر باخرابها، وشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد بعد هذا أن الانكتار، وهـو من أكابر ملوك الافرنج، سير رسـولـه إلى الملك العـادل يطلـب الاجتماع بـه، فـأجابـه إلى ذلـك، واجتمعـا يوم الجمعـة ثامـن عشر شوال مـن السنة وتحادثـا معظم ذلـك النهار، وانفصلا عـن مودة أكيدة، والتمس الانكتار مـن العادل أن يسأل السلطان أن يجتمع به فـذكر ذلك العادل للسلطان فاستشـار أكابر دولته في ذلك، ووقع الاتفاق على أنه إذا جـرى الصلح بيننا يكون الاجتماع بعد ذلك، ثم وصـل رسول الانكتار وقال إن الملك يقول إني أحـب صداقتك ومودّتك وأنـت تذكر أنك أعطيت هـذه البلاد الساحلية لأخيـك، فأريد أن تكـون حكما بيني وبينـه، ولابد أن يكـون لنـا علقة بـالقدس، وأطـال الحديـث في ذلك فـأجـابـه السلطان بـوعـد جميـل، وأذن له في العـود في الحال، وتأثر لذلك تأثراً عظيماً.

قـال ابـن شـداد: وبعـد انفصـال الـرسول قـال لي السلطـان: متـى صالحناهم، لم نأمن غائلتهم ولـو حدث بي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العسـاكر، وتقـوى الفرنـج، والمصلحة أن لا نـزول عن الجهـاد حتى نخرجهـم من الساحـل أو يأتينـا الموت، هذا كان رأيـه، وإنما غلب على الصلح.

قال ابن شـداد: ثم ترددت الرسل بينهم في الصلـح، وأطال القول في ذلك، فتركتـه إذ لا حاجـة إليه، وجـرت بعد ذلـك وقعات أضربـت عن ذكرهـا لطول الكـلام فيها، وحـاصل الأمـر أنه تـم الصلح بينهـم، وكان الانجـاز يـوم الأربعـاء الثـاني والعشريـن مـن شعبـان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ونادى المنادي بانتظام الصلـح وأن البلاد الإسلامية والنصرانية

واحـدة في الأمن والمسـالمة، فمن شـاء مـن كل طـائفة أن يتردد إلى بـلاد الطـائفـة الأخـرى مـن غير خوف ولا محذور، وكـان يـومـاً مشهـوداً نـال الطائفتين فيـه من المسرة مالا يعلمـه إلاّ الله تعالى، وقد علـم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاته وايثـاره، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكـر ومظاهـرتهم بالمخـالفة، وكـان مصلحـة في علم الله تعـالى فإنـه اتفقت وفاتـه بعد الصلح، فلو اتفـق ذلك في أثناء وقعاتـه، كان الاسلام على خطر.

ثـم أعطى العسـاكر الـواردة عليه مـن البـلاد البعيدة بـرسم النجـدة دستوراً، فسـاروا عنه وعزم على الحج لما فـرغ بالـه من هذه الجهـة، وتردد المسلمـون إلى بلادهـم وجاؤوا هـم إلى بـلاد المسلمين، وحملت البضـائع والمتـاجـر إلى البلاد، وحضر منهـم خلـق كثير لـزيـارة القدس، وتـوجـه السلطـان إلى القدس ليتفقـد أحوالها، وأخـوه الملـك العادل إلى الكـرك، وابنه الملـك الظاهر إلى حلب، وابنـه الأفضل إلى دمشق، وأقـام السلطان بـالقدس يقطـع الناس ويعطيهـم دستـوراً، ويتأهـب للمسير إلى الديـار المصرية، وانقطع شـوقه عن الحج، ولم يزل كذلـك إلى أن صح عنده سير مـركب الانكتـار متوجهـاً إلى بلاده في مستهـل شوّال، فعنـد ذلك قـوي عزمه على أن يـدخل الساحل جريـدة يتفقد القلاع البحريـة إلى بانياس، ويدخل دمشق ويقيم بها أياما قلائل، ويعود إلى القدس، ومنه إلى الديار المصرية.

قال شيخنا ابـن شداد: وأمرني بالمقـام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشـأه به، وتكميل المدرسة التي أنشـأها فيه، وسار منـه ضاحي نهار الخميس السادس من شـوّال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ولما فرغ من افتقاد أحوال القـلاع وإزاحة خللها، دخل دمشق بكـرة الأربعاء سادس عشر شوّال، وفيهـا أولاده: الملك الأفضل، والملك الظـاهر والملك الظـافر مظفر الـدين الخضر المعروف بـالمشمر، وأولاده الصغار، وكـان يحب البلد

ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع عشر منه وحضروا عنده وبلوا شوقهم منه، وأنشده الشعراء ولم يتخلف أحد منهم عنه من الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله، ويهطل سحاب انعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا، فلما كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر لأنه لما وصل إلى دمشق، وبلغه حركة السلطان أقام بها ليتملى بالنظر إليه ثانيا، وكأن نفسه كانت قد أحست بدنوّ أجله، فودعه في تلك الدفعة مرارا متعددة، ولما عمل الملك الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى بلده وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة، وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني، ولما تصفح الملك العادل أحوال الكرك، وأصلح ما قصد اصلاحه سار قاصداً إلى البلاد الفراتية، فوصل إلى دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه، وأقام يتصيد حوالي غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد حادي عشر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرجون في أراضي دمشق، ومواطن الصبا وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل وكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم.

قال ابن شداد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، وكان شتاء عظيماً، ووحلا شديداً، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين، وكان الوصول إلى دمشق في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة، وركب السلطان لتلقي الحاج يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه، ولما كان ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما تنصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت

في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت متكسلاً عليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو قلقه في الليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف، ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ السماط، وابنه الملك الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كانت لي قوّة في الجلوس استيحاشاً له وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرض يتزايد من جسده، ونحن نلازم التردد طرفي النهار، وندخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضرا ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع، فاشتد مرضه، وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس، ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل المرض يتزايد ويغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت له غشية، وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن مالا يمكن حكايته، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن بعض الراحة، وفرح الناس بذلك، ثم اشتد مرضه وأيس منه الأطباء، ثم شرع الملك الأفضل في تحليف الناس، ثم إنه توفي بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان يوم موته يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله، منذ فقد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وغشي القلعة والبلاد والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوّز

والترخص إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء، وغسله الدولعي.

قلت: الدولعي المذكور هو ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن يزيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل الثعلبي الأرقمي الدولعي الشافعي خطيب جامع دمشق، توفي ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسئل عن مولده فقال: في سنة سبع وخمسمائة، ثم ذكر غير هذا، والله أعلم ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير.

قال: وأخرج بعد صلاة الظهر رحمه الله تعالى على تابوت مسجى بثوب فوطة، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته وأخذ الناس في البكاء والعويل وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم أطال ابن شداد القول في ذلك فحذفته خوفاً من الملالة، وأنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي وهو:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام

رحمه الله تعالى وقدس روحه، فلقد كان من محاسن الدنيا وغرائبها.

وذكر سبط ابن الجوزي في تاريخه في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما مثاله: وفي خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر، فنزل البركة قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتا في الوداع فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيمة:

تمتــــع مــــــن شميــــــم عــــرار نجــــد
فما بعــــد العشيــــة مــــن عــــرار

فطلب القائل فلم يوجد ، فوجم السلطان وتطير الحاضرون، فكان كما قال: فإنه اشتغل ببلاد الشرق، والفرنج ولم يعد بعدها إلى مصر.

قلت: وهذا البيت من جملة أبيات في الحماسة في باب النسب.

وذكر شيخنا عز الدين ابن الأثير في تاريخه الكبير هذه القضية على صورة أخرى فقال: ومن عجيب ما يحكى من التطير أنه لما برز عن القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر، وعنده أعيان دولته، والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودع له وسائر معه وكل واحد منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وفي الحاضرين معلم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد هذا البيت، فانقبض صلاح الدين وتطير بعد انبساطه، وتنكر المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة.

وذكر ابن شداد أيضاً في أوائل السيرة أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلاّ سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرماً واحداً ذهبا صوريا، ولم يخلف ملكا لاداراً ولا عقاراً ولابستانا ولاقرية ولا مزرعة.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: «(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد

قبلت وجهه عنـي وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلـوب الحيلة، ضعيف القوة راضيـاً عن الله عـز وجل ولا حـول ولا قوّة إلاّ بـالله العلي العظيم، وبـالباب مـن الجنود المجنـدة والأسلحة المغمـدة مالا يـدفع البـلاء، ولا ملك يـرد القضاء، وتـدمع العين ويخشع القلـب، ولا نقول إلا مـا يرضي الرب، وإنـا عليك يـايوسـف لمحزونـون، وأما الـوصايـا مما يحتـاج إليها، والآراء فقد شغلنـي المصاب عنها ، وأما لائح الأمـر فإنه إن وقـع اتفاق فما عدمتم إلاّ شخصـه الكريم، وإن كان غير ذلك فـالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام».

قلت: لله دره فلقد أبـدع في هذه الرسالـة الوجيزة مع مـا تضمنته من المقاصد السديدة في مثل تلك الحالة التي يذهل فيها الإنسان عن نفسه.

قلـت: وقد ذكـرت كـل واحد مـن أولاده المذكـوريـن، وهم الأفضـل والظاهـر، والعزيز في تـرجمة مستقلة، وعينت تـاريخ مـولده وموتـه سوى الملك الظافر المشهـور بالمشمر فإنى لم أذكر له ترجمة مستقلـة، وقد ذكرته ههنا فيحتـاج إلى ذكر شيء من أحـواله فأقول: لقبـه مظفر الديـن وكنيته أبـو الدوام وأبـو العباس الخضر، وإنما قيـل لـه المشمر لأن أبـاه رحمه الله تعالى لما قسم البـلاد بين أولاده الكبار، قال: وأنا مشمر، فغلـب عليه هذا اللقب، وكـان مولـده بالقـاهرة في سنـة ثمان وستين وخمسمائة في خامـس شعبـان، وهو شقيـق الملك الأفضـل، وتـوفي في جمادى الأولى سنة سبـع وعشرين وستمائة بحران عنـد ابن عمه الملك الأشرف ابـن الملك العادل، ولم يكن الأشرف يومئـذ ملكا، وإنما كان مجتازا بها عند دخولـه بلاد الروم لأجل الخوارزمية.

قال غير ابن شـداد: ثم إن السلطان صلاح الديـن رحمه الله تعالى بقي مدفـونا بقلعة دمشـق إلى أن بنيت له قبـة في شمالي الكلاسة، التـي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحـدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قلت: ولقد دخلت هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضر لي القيم ومتولي القبة بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير، ورأس كميه باسود فتبركت به.

قال: ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء، وكان الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، ورتب عنده القراء ومن يخدم المكان، ثم إن ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان المقدم ذكره لما أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بني إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية، ووقف عليها وقفا جيداً، وللقبة المذكورة شباك إلى هذه المدرسة، وهي من أعيان مدارس دمشق، وزرت قبره في أول ساعة من رمضان سنة ثمانين وستمائة، فقرأت على صندوق قبره بعد تاريخ وفاته ما مثاله« اللهم فارض عن تلك الروح وافتح له أبواب الجنة فهي آخر ما كان يرجو ه من الفتوح» وذكر قيم المكان أن هذا من كلام القاضي الفاضل.

قلت: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية، لم يكن بها شيء من المدارس فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء،فعمر في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقد تقدم ذكرها في ترجمة نجم الدين الخبوشاني، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، وجعل عليها وقفاً كبيراً، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاه، ووقف عليها وقفاً طويلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل ابن السلار مدرسة للحنفية، وعليها وقف جيد كبير أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفا على الشافعية، وقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستانا، وله وقف جيد، وله مدرسة بالقدس أيضاً ووقفها كثير

وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية، ولقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس فيها شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي بالقرافة ما تسميها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون أيضا إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون أيضاً إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضا لا يقولون إلا مدرسة المالكية، وهذه صدقة السر على الحقيقة، والعجب أن له بدمشق في جوار البيمارستان النوري مدرسة يقال لها أيضاً الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة للمالكية أيضاً ولا تعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى به، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحن إليهم، وكان يميل إلى الفضائل ويستحسن الاشعار الجيدة، ويرددها في مجالسه، حتى قيل إنه كان كثيرا ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن اسحق الحميرى، وقيل إنها لأبي محمد أحمد بن علي بن خيران العامري، كان أميرا بالمرية من بلاد الاندلس وكان جده خيران من سبي المنصور بن أبي عامر، فنسبت إليه والله أعلم وهي هذه:

وزارني طيف من أهوى على حذر
من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحا
وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي
نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج

المعروف بابن المنجم المعري الأصل، المصري الدار والوفاة، وهو في خضاب الشيب، ولقد أحسن فيه وهو:

وما خضب الناس البياض لقبحه
وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت
على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان إذا قال مات الشباب يمسك كريمته، وينظر إليها، ويقول أي والله مات الشباب

وذكر العماد الكاتب الاصبهاني في كتاب الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه، كتب إلى بعض أصحابه بدمشق هذين البيتين:
أيها الغائبون عنا وإن كنـ
ـتم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم
بعيون الضمير عندي عيانا

وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط ابن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد ، فإن إحداهما وازن بها قصيدة صردر المقدم ذكره، وقد ذكرت منها أبياتا في ترجمة الوزير الكندري وأولها:
«أكذا يجازي ودكل قرين»

وقصيدة سبط ابن التعاويذي أولها

إن كان دينك في الصبابة ديني
فقف المطي برملتي يبرين

والثـــم ثـــرى لـــو شـــارفـــت بي هضبـــه
أيـــــدي المطـــــي لثمتـــــه بجفـــــوني
وأنشـــد فـــؤادي في الظبـــاء معـــرضـــا
فبغير غـــــزلان الصريـــــم جنـــــون
ونشيـــــــدتي بين الخيـــــــام وإنما
غـــــالطـــت عنهـــا بـــالظبـــاء العين
لـــو لا العـــدا لم أكـــن عـــن ألحاظهـــا
وقـــدودهـــا بجـــوازيء وغصـــون
لله مـــــا اشتملـــــت عليـــــه قبـــابهم
يـــوم النـــوى مـــن لـــؤلـــؤ مكنـــون
مـــن كـــل تـــائهـــة على أتـــرابها
في الحســـن غـــانيـــة عـــن التحسين
خـــود تـــرى قمـــر السماء إذا بـــدت
مـــا بين ســـالفـــة لها وجبين
غـــاديـــن مـــا لمعـــت بـــروق ثغـــورهـــم
إلا استهلـــت بـــالـــدمـــوع شـــؤوني
إن تنكـــروا نفـــس الصبـــا فـــلأنها
مـــرت بـــزفـــرة قلبـــي المحـــزون
وإذا الـــركـــائب في الجبـــال تلفتـــت
فحنينهـــا التلفتـــي وحنينـــي
يـــا سلـــم أن ضـــاعـــت عهـــودي عنـــدكـــم
فـــأنـــا الـــذي استـــودعـــت غير أمين
أو عـــدت مغبـــونـــاً فما أنـــا في الهوى
لكـــم بـــأول عـــاشـــق مغبـــون
رفقـــا فقـــد عســـف الفـــراق بمطلـــق الـــ
ـــعبرات في أسر الغـــرام رهين
مـــالي ووصـــل الغـــانيـــات أرومـــه
ولقـــد بخلـــن علي بـــالماعـــون

وعلام أشكو والدماء مطاحة
بلحاظهن إذا الوين ديوني
هيهات للبيض في ودامرىء
أرب وقد أربى على الخمسين
ومن البلية أن تكون مطلبي
جدوى بخيل أو وفاء خؤون
ليت الضنين على المحب بوصله
لقن السماحة عن صلاح الدين (٩)

وأما القصيدة الثانية فهي قوله
حتام أرضى في هواك وتغضب
وإلى متى تجني عليّ وتعتب
ما كان لي لولا ملالك زلة
لما مللت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإن لي
قلبا على العلات لا يتقلب
أتظنني أضمرت بعدك سلوة
هيهات عطفك من سلوي أقرب
لي فيك نار جوانح ما تنطفي
حرقا وماء مدامع ما تنضب
أنسيت أياما لنا ولياليا
للهو فيها والبطالة ملعب
أيام لا الواشي يعد ضلالة
ولهي عليك لا العذول يؤنب
قد كنت تنصفني المودة راكبا
في الحب من اخطاره ما اركب
واليوم أقنع أن يمر بمضجعي
في النوم طيف خيالك المتأوّب

مـــا خلـــت أن جــديـــد أيـــام الصبـــا
يبلى ولا ثـــــوب الشبيبـــــة يسلـــــب
حتـــى انجلى ليـــل الغـــوايــة واهتـــدى
ســـاري الـــدجـى وانجـاب ذاك الغيهـب
وتنـــافـــر البيـــض الحسان فـــأعـــرضـــت
عنـــي سعـــاد وأنكـــــرتنـــي زينـــب
قـــالـــت وريعـــت مـــن بيـــاض مفـــارقـــي
ونحـــول جسمـــي بـــان منـــك الأطيـــب
إن تنقمـــي سقمـــي فخصرك نـــاحـــل
أو تنكـــري شيبـــي فثغـــرك أشنـــب (١٠)

قلت: لله دره فلقد أجاد في هذ القصيدة كـل الإجادة، غير أنه قد ظن أن الشنب بياض الثغر وعليـه بنى هذا المعنى حتى تم لـه مقصوده فإنها لما عيرته بالسقـم قابلها بنحول الخصر فقـال لها إن كنت نحيلا فخصرك أيضا نحيـل، فلما أنكرت شيبه قـابلها بأن ثغرهـا أشنب، فكأنـه قال لها بياض شيبي في مقابلة ثغرك الأشنـب، وليس الأمر كما ظن، فإن الشنب في اللغـة ليس هـو البيـاض، وإنما هـو حـدة الاسنـان، ويقـال بـردهـا وعذوبتهـا والصحيح أنه حـدتها، وهو دليل على الحداثـة لأن الاسنان في أوّل طلـوعها تكـون حـادة، فإذا مـرت عليهـا السنـون احتكت وذهبـت حـدتها، وهذا المعنـى ينظـر إلى قول النـابغـة الذبيـاني في جملـة قصيدتـه المشهورة وهو:

ولا عيـــب فيهـــم غير أن سيـــوفهـــم
بهن فلـــول مـــن قـــراع الكتـــائب (١١)

وقد تقـدم ذكر هـذا البيت في تـرجمة عروة بـن الزبير فيكشـف هناك، ومثله أيضـا ما أنشدني بهاء الـدين زهير بن محمـد الكاتب المقـدم ذكره لنفسه من جملة أبيات وهو قوله:

مـــا فيـــه مـــن عيـــب ســـوى
فتـــور عينيـــه فقـــط (١٢)

رجع وقوله:

يـا طـالـب بعـد المشيـب غضـارة
مـن عيشـه ذهـب الـزمـان المذهـب

أتـروم بعـد الأربعين وعـدهـا
وصـل الـدمـى هيهـات عـز المطلـب

لـولا الهوى العـذري يـا دار الهوى
مـا هـاج لي طـربـاً وميـض خلـب

كـلا ولا استجـديـت أخـلاق الحيـا
ونـدى صـلاح الـديـن هـام صيـب (١٣)

وقد مدحه جميع شعراء عصره وانتجعوه من البلاد فمنهم العلم الشاتاني واسمه الحسن، وقد تقدم ذكر مدحه بقصيدته الرائية التي أوّلها:

أرى النصر مقـرونـا بـرايتـك الصفـرا
فسروا ملـك الـدنيـا فـأنـت بها أحـرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أوّلها:

سـلام مشـوق قـد بـراه التشـوّق
على جيرة الحي الـذيـن تفـرقـوا

وعدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران أحدهما:

وإني امـرؤ أحببتكـم لمكـارم
سمعـت بها والأذن كـالعين تعشـق

وقد أخذه من قول بشار بن برد المقدم ذكره وهو:

يـا قـوم أذني لبعـض الحي عـاشقـة
والأذن تعشـق قبـل العين أحيـانـا (١٤)

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشحنة قوله:

وقـــالـــت لي الآمـــال إن كنـــت لاحقـــا
بـــأبنـــاء أيـــوب فـــأنـــت الموفـــق

ومما قيل فيه لبعض أهل المشرق:

الله أكبر جـــاء القـــوس بـــاريها
ورام أسهـــم ديـــن الله راميهـــا
فكـــم لمصر على الأمصـــار مـــن شرف
بـــاليـــوسفين فهـــل أرض تـــدانيهـــا
فبـــابـــن يعقـــوب هـــزت جيـــدهـــا طـــربـــا
وبـــابـــن أيـــوب هـــزت عطفهـــا تيهـــا
قـــل للملـــوك تخلي عـــن ممـــالكهـــا
فقـــد أتـــى آخـــذ الـــدنيـــا ومعطيهـــا

فلما أنشدها إياه أعطاه ألف دينار، ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي، وابن المنجم ، وابن سناء الملك، وابن الساعاتي وابـن البحراني الإربلي، وابن دهن الخصى الموصلي، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان الخيراني، وغير هؤلاء وقد ذكرت أكثر هؤلاء الجماعة في هذا التاريخ، وعذري في تطويل هذه الترجمة قول المتنبي:

وقـــد أطـــال ثنـــائي طـــول لابســـه
إن الثنـــاء على التنبـــال تنبـــال(١٥)

التنبال الرجل القصير، وهو بكسر التاء المثناة من فوقها، وبعدها نون ساكنة، وباء موحدة، وبعد الألف لام.

قلت: وقد تقدم في هذه الترجمة عند ذكر إرسال العاضد إلى صلاح الدين، وطلبه إياه ليخلع عليه ويوليه الوزارة ذكر المثل المشهور، وهو أردت عمراً و أراد الله خارجة، وقد يقف عليه من لا يعرف سبب هذا المثل ولا المراد منه، فأحببت أن أشرحه كيلا يحتاج من يقف عليه إلى

كشفه من مكان آخرة أقول: عمراً المذكور هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعد بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي، كنتيه أبو عبد الله، وقيل أبو محمد أحد الصحابة رضي الله عنهم، أسلم سنة ثمان من الهجرة قبل فتح مكة، ومكة فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان من هذه السنة ، وقيل بل أسلم بين الحديبية وخيبر، والأوّل أصح، وقدم هو وخالد بن الوليد المخزومي، وعثمان بن طلحة القرشي العبدري على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلمين ، فلما دخلوا عليه ونظر إليهم قال للصحابة: قد رمتكم مكة بأفلاذ كبدها، وقال الواقدي: قدم عمرو بن العاص سلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلم عند النجاشي ملك الحبشة، وقدم معه عثمان بن طلحة، وخالد بن الوليد فقدموا المدينة في صفر سنة ثمان من الهجرة، وقيل إنه لم يأت من أرض الحبشة إلا معتقداً الاسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو كيف يعزب عنك أمر ابن عمك، فوالله إنه لرسول الله حقا، قال: أمتحقق ذلك؟ قال: أي والله فأطعني، فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على سرية إلى الشام يدعو أخوال أبيه إلى الاسلام فبلغ السلاسل من بلاد قضاعة، وهو ماء بأرض جذام، وبذلك سميت تلك الغزوة ذات السلاسل، وكان معه مائة رجل، فخاف عمرو فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده، فأمده بجيش مائتي فارس من المهاجرين والأنصار وأهل الشرف منهم : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم وإنما أنتم مددي، فقال أبو عبيدة بل أنت أمير من معك، وأنا أمير من معي فأبى عمرو فقال أبو عبيدة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ إذا قدمت على عمرو فتطاوعاً ولا تختلفا فإن خالفتني أطعتك،قال عمرو،فإني أخالفك فسلم إليه أبو

عبيدة وصلى خلفه في الجيش كله، وكانوا خمسمائة، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص على عثمان، وفي سنة إثنتي عشرة بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان الأموي، وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة إلى الشام وسار إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق، وأوّل شيء فتحه من الشام بصرى صلحاً، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه، واستخلف عمر رضي الله عنه أبا عبيدة فولي الجيش، وفتح الله تعالى عليه الشام، وولى يزيد بن أبي سفيان على فلسطين وهي كورة قصبتها الرملة، ولما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، ومات معاذ فاستخلف يزيد بن أبي سفيان، ومات يزيد، فاستخلف أخاه معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه عمر رضي الله عنه بعهده على ما كان عليه أخوه يزيد وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس في سنة ثمان عشرة من الهجرة، وعمواس بفتح العين المهملة والميم، وفي آخرها سين مهملة وهي قرية بالشام بين نابلس والرملة، وكان الطاعون بها في العام المذكور، وقيل بل مات يزيد بن أبي سفيان في ذي الحجة من سنة تسع عشرة بدمشق ، والله أعلم وذلك بعد فتح قيسارية، وكان عمر رضي الله عنه قد ولى عمرو بن العاص بعد موت يزيد بن أبي سفيان فلسطين والأردن، وولى معاوية دمشق وبعلبك والبلقاء، وولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص ، ثم جمع الشام كلها لمعاوية، وكتب إلى عمرو فسار إلى مصر فافتتحها في سنة عشرين للهجرة، فلم يزل عليها والياً حتى مات عمر رضي الله عنه، فأقره عثمان رضي الله عنه أربع سنين أو نحوها، ثم عزله وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان أخا عثمان من الرضاعة فاعتزل عمرو بن العاص في ناحية فلسطين، وكان يأتي المدينة أحيانا، فلما قتل عثمان رضي الله عنه سار إلى معاوية باستجلاب معاوية إياه، وشهد صفين مع معاوية، وكان منه في صفين و قضية التحكيم ما هو مشهور عند أهل العلم بهذا الفن، وكان قد طلب من معاوية أنه إذا تم له الأمر يوليه

مصر، وكتب إليه في بعض الأيام يطلبها من معاوية:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

فإن تعطني مصرا فاربح بصفقة ... أخذت بها شيخا يضر وينفع

ثم ولاه معاوية مصر، ولم يزل بها أميرا إلى مات يوم عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة، وقيل سنة اثنتين وأربعين، وقيل سنة ثمان وأربعين، وقبل سنة إحدى وخمسين، والأول أصح ، وعمره تسعون سنة، ودفن بسفح المقطم، وصلى عليه ابنه عبد الله ، ولما رجع صلى بالناس العيد، ثم عزل معاوية عبد الله بن عمرو بن العاص، وولى أخاه عتبة بن أبي سفيان، فمات عتبة بعد سنة أو نحوها، فولى معاوية مسلمة بن مخلد، وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية، وكان من الدهاة في أمور الدنيا المقدمين في الرأي، وكان عمر رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه، قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد الأضداد.

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب الكامل أن عمرو بن العاص لما حضرته الوفاة دخل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا أبا عبد الله كنت أسمعك كثيراً تقول: وددت لو رأيت رجلاً عاقلاً حضرته الوفاة حتى أسأله عما يجد، فكيف تجد؟ فقال: أجد كأن السماء مطبقة على الأرض، وكأني بينهما، وكأنما أتنفس من خرم إبرة، ثم قال: اللهم خذ مني حتى ترضى، فدخل عليه ولده عبد الله فقال له: يا ولدي خذ لك الصندوق، قال: لاحاجة لي به فقال إنه مملوء مالاً، فقال: لاحاجة لي به، فقال: ليته مملوء بعراً، ثم رفع يديه وقال اللهم إنك أمرت فعصينا، ونهيت فارتكبنا، فلابريء فاعتذر، ولا قوي فانتصر، ولكن لا إله إلاّ أنت، ثم فاض.

قلت: يقال فاض وفاظ بالضاد والظاء أي مات، قال الشاعر:
لا يـــدفنـــون منهـــم مـــن فـــاضـــا

فأما خارجة المذكـور في هذا المثل فإنه خارجة بن حذافـة بن غانم بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويـج بن عدي بن كعب القرشي العدوي، شهد فتح مصر، وكـان أمير ربع المدد الذين أمد بهم عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه عمرو بـن العاص في فتـح مصر، واختط بمصر، وكـان على شرطة مصر في إمرة عمرو بن العاص لمعـاوية بن أبي سفيان الأموي، قتله خارجـي بمصر سنة أربعين للهجرة، وهو يحسـب أنه عمرو بـن العاص، وهكذا قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وذكـره في كتـاب الاستيعـاب لابـن عبـد البر وسـاق نسبـه على هـذه الصورة ثـم قال: يقال إنـه كان يعد بـألف فـارس، ثم ذكر بعـض أهل النسب والأخبـارأن عمرو بـن العاص كتـب إلى عمر رضي الله تعـالى عنه يستمـده بثلاثـة آلاف فارس، فـأمـده بخارجـة بـن حذافـة، والزبير بـن العوام، والمقـداد بن الأسود الكندي، وشهـد خارجة فتح مصر، وقيـل إنه كان قـاضيا لعمر و بـن العاص بها، وقيل إنـه كان على شرطة عمـرو بن العاص، ولم يـزل بها إلى أن قتل قتلـه أحد الخوارج الثـلاثة الـذين كـانوا انتدبـوا لقتل علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه ومعـاوية بـن أبي سفيان وعمرو بن العاص فأراد الخارجي قتل عمـرو فقتل خارجة هذا وهو يظنه عمراً، وذلـك أنه كان قد استخلفـه عمرو بن العاص على صـلاة الصبح ذلك اليوم، فلما قتلـه أخذ وأدخل على عمرو بن العاص، فقـال: من هذا الذي أدخلتمـوني عليه؟ فقالـوا: عمرو بـن العاص، فقال: ومـَن قتلت؟ فقالـوا :خارجـة، فقال: أردت عمراً وأراد الله خـارجة، وقيـل إن الخارجي الـذي قتلـه لما أدخـل على عمـرو قـال لـه عمـرو: أردت عمـراً وأراد الله خارجـة، والله أعلم بمـن قال ذلـك منهما، والذي قتـل خارجـة هذا هـو رجل مـن بني العنبر ابن عمـرو بن تميم يقال لـه دادويه، وقيل إنـه مولى

لبني العنبر، وقد قيل إن خارجة الـذي قتله الخارجي بمصر على أنه عمرو ابن العـاص رجل يسمى خـارجة من بني سهـم رهط عمرو بـن العاص، وليس بشيء انتهى ما قاله صاحب الاستيعاب.

وقال غيره إن عمرو بـن العاص أصابه شيء في بطنه فتخلـف في منزله تلـك الليلة، وكـان خارجـة يعشي النـاس فضربه الخارجـي فقتله، وكـان عمرو يقول: ما نفعني بطني قط إلا تلك الليلة.

قلت: فهـذا أصل المثـل في قولهم: أردت عمـراً وأراد الله خارجـة وإلى هذا أشار أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الأندلسي في قصيدته التي رثى بها بني الأفطس ملوك بطليوس التي أولها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر بقوله:
وليتهـــا إذ فـــدت عمـــراً بخـــارجـــة
فـــدت عليـــا بمـــن شـــاءت مـــن البشر (١٦)

وهي من غرر القصائد جمعت تـاريخاً كبيراً، وشرحها الأديب أبو مروان عبد الملك بـن عبد الله بن بدرون الحضرمي الاشبيلي شرحا مستـوفيا، وهذا البيـت يحتاج إلى شرح أيضـا وهـو من تتمـة الكـلام على المثل المذكـور لكنني أذكره مختصراً فـإنه طـويل ، ذكـر أهل التـاريخ، أن علي بـن أبي طالـب رضي الله عنه لما بويـع بالخلافة في اليـوم الذي قتل فيـه عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج عليه من قاتلـه في وقعة الجمل، وقد ذكرت طرفا من هذه الـوقعة في ترجمة يموت بـن المزرع ساقها الكلام هنـاك، فذكرت المقصود منـه، ثم كانـت وقعة صفين عند خـروج معاوية بـن أبي سفيان الأمـو ،عمـرو بـن العاص على عليّ بـن أبي طـالـب رضي الله عنهـم، فتـوجه . هـم مـن العراق وجـاؤوه مـن الشـام والتقوا على صفين، وهـو موضـع على شاطـىء الفرات بـالقرب مـن الرحبـة، وهي وقعـة مشهورة، وكانت في سنة سبـع وثلاثين من الهجرة، ولما غلب أهل الشـام طلبوا من

علي بن أبي طالـب رضي الله عنه التحكيم، فأجـابهم بعد معاودات كثيرة فخرج على عليّ جماعـة من أصحابـه، وقالوا : حكمـت في دين الله، و لا حكم إلاّ لله، ورحلوا إلى النهروان، فمضى إليهم وقاتلهـم، واستأصلهـم إلاّ اليسير منهم، وهي أيضا وقعة مشهـورة بقتال الخوارج، ولما طال الأمر في ذلك اجتمعوا وقالوا: إن عليا ومعاويـة وعمرو بن العاص قد أفسدوا أمر هذه الأمة، فلو قتلناهـم لعاد الأمر على حقه، فقال عبد الرحمن بن ملجم المرادي أنـا أقتل عليـا، قالـوا، فكيف لـك بذلك؟ قال: أغتـاله، وقـال الحجاج بـن عبد الله الصيرمي:أنـا أقتل معـاوية، ويعرف هـذا الصيرمي بالبرك، وقال دادويـه وقيل زادويه، وقد تقدم الكـلام عليه في الكلام على خارجـة بن حذافـة: أنا أقتل عمراً واجمعـوا أمرهم على أن يكـون ذلك في ليلة واحـدة، فدخـل ابن ملجـم الكوفـة وعلي رضي الله عنه بها، واشترى سيفا بألـف درهم فسقاه السم حتى لفظه، فلما خـرج عليّ لصلاة الصبح كان ابن ملجم قـد كمن له فضربه به على رأسه، وقـال: الحكم لله يا علي لا لك، وقيل إنه ضربه في صلاة الصبح، وذلك في صبيحة الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت مـن شهر رمضان في سنة أربعين مـن الهجرة، وقيل غير هذا التـاريخ، وقدم البرك الصيرمـي على معاويـة بدمشق فضربـه فجرح إليته، وهـو في الصلاة، ويقال إنـه قطع عـرق النسل، فما أحبل بعـدها، وأما عمـرو فقد سبـق الكلام عليه عنـد قتل خـارجة، وهـذا تفسير المثل والبيت الشعر على سبيل الاختصار والله أعلم.

من تاريخ ابن أبي الدم

ودخلت سنة تسعين وأربعمائة

فيها: فتح قوام الدولة الرحبة وفيها فتحت الفرنج أنطاكية وسميساط. وفيها فتح الأفضل أمير الجيوش دمشق، وفيها ولد الآمر بن المستعلي، وفيها كان الغلاء العظيم المعروف بعام الجماجم. وفيها استولى بركيارق ابن ملكشاه على خراسان ورتب بها أخاه سنجر، وفيها قتل برسق الكبير، قتله ديلمي باطني، كان متمرضاً في مطبخه.

ودخلت سنة إحدى وتسعين

فيها : ملكت الفرنج الرها والحديثة، ومرعش، وكيسون، وقتلوا من المسلمين خلقاً عظيماً، واستنفر المسلمون لهم، واجتمعت ملوك الشام: دقاق بن تتش ، وأتابكه طغتكين، وحسين صاحب حمص، وصاحب الموصل في عدد عظيم، وحصروا أنطاكية، وكان الفرنج فيها في قل فسألوا الأمان على نفوسهم ليخرجوا فلم يجيبوهم، فخرجوا إليهم محاربين فانكسر المسلمون من غير قتال، وفيها فتح الفرنج المعرة بعد حصار شديد، وأقاموا بها ستا وثلاثين سنة، إلى سنة سبع وعشرين وخمسمائة، ففتحها المسلمون ، وسنذكره إن شاء الله تعالى، وضربوا الجزية على أهلها ، وأظهروا فيها عدلاً كثيراً طمعاً في بقائها في أيديهم وفتح غيرها[١] وجلا من أهلها خلق عظيم.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها : فتحت الفرنج بيت المقدس، ويقال أنهم قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس.

١ - كذا بالأصل وهو وهم ذلك أن الفرنجة أبادوا سكان المعرة، وهدموا المدينة.

ودخلت سنة ثلاث وتسعين

فيها: مات ابن جزلة الطبيب صاحب المنهاج، وكان من العلم والفضل بمكانٍ عالٍ.

ودخلت سنة أربع وتسعين

فيها: ملك الفرنج سروج من المسلمين.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها: توفي المستعلي صاحب مصر، وقام بالأمر بعده ابنه الآمر بأحكام الله وكنيته أبو علي، وسنه يومئذ سبع سنين.

ودخلت سنة ست وتسعين

فيها: توفي الملك دقاق، وقيل بل مات في سنة ثمان وتسعين، وفيها توفي عماد الدولة أبو المظفر إبراهيم طغماج خان بن نصر إيليك. وفيها جرت حروب بين بركيارق وبين أخيه محمد، وكان الأمر قد استقر أن يكون : بركيارق السلطان، ومحمد الملك، ويكون لمحمد كنجة وأزرنكان، وديار بكر، وديار مضر، وربيعة، ثم غدر محمد وحارب أخاه بركيارق بالقرب من الري، فكسر محمد وجاء إلى أصفهان ملك كاشغر وكيش وما يتصل بهما إلى بلا سفون، وكان متديناً ورعاً لايأخذ من أحدٍ مالاً حتى يستفتي الفقهاء، وورد عليه أبو شجاع العلوي الزاهد فوعظه وعنفه، وقال له: أنت لاتصلح لما أنت فيه، فغلق بابه قاصداً العزلة، فاجتمع الناس بسمرقند وقالوا: أخطأ هذا الزاهد، وأنت صالح ولاتسمع بما أشار به عليك، ففتح بابه، وفتح فرغانة، وأقام مالكاً

لسمرقند وأعمالها والأماكن المذكورة تسعاً وعشرين سنة وولي ابنه أحمد أرسلان خان.

وفيها ظهر في السماء بالمغرب كوكب أبيض له ذؤابة، مقدارها في العين مائة وخمسون ذراعاً. وفيها قتلت الاسماعيلية جناح الدولة بجامع حمص.

ودخلت سنة تسع وتسعين

فيها: استولى الملك رضوان على أفامية، واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

ودخلت سنة خمسمائة

فيها: فتح السلطان محمد قلعةً للباطنية منيعة، واستنزل منها رئيس الباطنية أحمد بن عبد الملك بن عطاش، وقتله وسلخه، وقتل ابنه ، وألقت زوجته نفسها من أعلى القلعة فهلكت، وكان لابن عطاش فيه اثنتي عشرة سنة، وصار كل من في نفسه ضغن على صاحبه ادعى عليه هذا المذهب فيقتل. وفيها تسلم سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس قلعة تكريت ووقع بين السلطان أبي شجاع محمد وبين صدقة حروب ومكاتبات حتى قتل صدقة، وحمل قسيم الدولة ، آق سنقر البرسقي شحنة بغداد إلى السلطان محمد قاتل صدقة بزعش الأشل وسعيدا بن صدقة ، وكان عمر صدقة تسعا وخمسين سنة ومدّة إمارته إحدى وعشرين سنة، وكان صدقة تاريخ الأماجد الكرماء في العرب له حلم ووفاء بالعهد، ومحافظة، وكانت داره ببغداد حرماً لكل خائف وملاذا لكل ملهوف.

ودخلت سنة إحدى وخمسمائة

فيها تسلم ينال بانياس.

ودخلت سنة ثلاث وخمسمائة

وفيها: سلمت الموصل إلى مودود، وفيها مات الخطيب أبو زكريا يحيى ابن بري النحوي، الإمام في علم النحو واللغة وغيرهما، صاحب أبي العلاء بن سليمان وتلميذه، وفيها مات ابن الخازن الخطاط واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

ودخلت سنة خمس وخمسمائة

فيها توفي الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله، مولده سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، تفقه على أستاذه إمام الحرمين ولازمه إلى أن مات إمامه ، وقد علت درجته في العلم ثم تجول، وولي التدريس بالنظامية ببغداد وكان تزهد وأقام بدمشق وبيت المقدس وبمكة مدة طويلة سالكاً طريق الزهد والعبادة، وصنف في مدة زهده كتباً جمةً في علوم الورع والزهد، كإحياء علوم الدين، وجواهر القرآن، وكيمياء السعادة،ثم طلب من بغداد وولي التدريس بالنظامية . وصنف في علم المذهب والأصولين ثم توجه إلى بلده طوس فبني له خانكاه، وأقبل على علم الحديث وسماعه إلى أن مات ودرس بنيسابور، وبطوس مدةً، وكان رضي الله عنه عالماً زاهداً عاملاً، جمع بين العلم والعمل، وأنجب من أصحابه خلق، وأسعد في تصانيفه، ودفن بطوس.

وفيها تسلم الفرنج طرابلس الشام من القاضي ابن عمار بعد محاربة سبع سنين، وفيها أو في التي قبلها تسلم الفرنج جبلة من المسلمين، وفيها تسلم الفرنج بيروت وصيدا، وفيها كان بدء أمر المهدي أبي عبد

الله محمد بن تومرت وقيل إن نسبه يصل إلى الحسين عليه السلام. وكان فقيهاً في ابتداء أمره، ورافق الغزالي والكيا ، والطرطوشي، وكان رأى في منامه كأنه يشرب ماء البحر، وروي أنه ظفر بكتاب الجفر من بعض الخزائن، ورأى فيه صفة عبد المؤمن بن علي، وأنه يملك فحج ومضى إلى المهدية وسلطانها يومئذ يحيى بن تميم، ونزل في مسجد، وليس معه إلاّ ركوة وعصا، فبلغ يحيى خبره وأحضره وسأله الدعاء، فدعا له ، وتسامع أهل البلد وقرأ عليه العلم، ثم انتقل إلى المنستير، فنزل بالقصر، ثم انتقل إلى قريةٍ من قرى بجاية يقال لها ملالة، فلقيه أبو محمد عبد المؤمن بن علي فصحبه فأخبره المهدي عن اسمه وقبيلته فأخبره باسمه، وأنه من قيس من سليم من شعب بني الشريد،فقال له المهدي أنت الذي بشر بك النبي « صلى الله عليه وسلم» في قوله: « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمن برجل من قيس، فقيل له من قيس يارسول الله؟ فقال: من سليم»فاستبشر عبد المؤمن بذلك، وعلم أنه مقيم دعوته، فلم يزل المهدي مصاحباً له حتى توفي المهدي.

ودخلت سنة سبع وخمسمائة

فيها توفي الملك رضوان ملك حلب، وفيها ملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان، وفيها قتل مودود بجامع دمشق، وفيها تسلم أتابك طغتكين صور من المصريين، وفيها قتل الآمر بأحكام الله صاحب مصر، في الجزيرة بمصر، قتله الاسماعيلية، وفيها مات أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين الشاشي صاحب المستظهري، الفقيه الشافعي مولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، أخذ العلم عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي، وكان إماماً عالماً، وولي التدريس بنظامية بغداد، وفيها مات وزير المستظهر بالله، أبو القاسم علي بن محمد بن جهير.

ودخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها : زلزلت الأثارب وخسف بمرعش وسميساط. وفيها كانت وقعة في الشام بين آق سنقر البرسقي وبين إيلغازي بن أرتق واتفق إيلغازي، وأخذ ابنة طغتكين صاحب دمشق، وخالفا السلطان فأفرج عن إيلغازي وأخذ ابنه اياز وحبسه، ونفذ السلطان العساكر إلى الشام مقدمها برسق، وتقدم إليهم أن كل بلد يفتحونه يسلمونه إلى بركات بن قراجة، ويعقد له إمارة الشام، فكان ذلك مما أوجب مخامرة العساكر، وقالوا: أي حظ لنا في فتح البلاد وتسليمها إلى هذا، فخرج عليهم بروجيل الفرنجي صاحب أنطاكية، في خمس مائة فارس، وألفي راجل، فتخاذلوا وانهزموا على كثرة جمعهم، وقتل الفرنج من المسلمين جماعة وأحرقوا الأسارى.

ودخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: فتح برسق حماه.

ودخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واستقرت السلطنة لولده محمود. وفيها قتل لؤلؤ االخادم صاحب حلب، قتله قوم من الأتراك وهو متوجه إلى قلعة جعبر.

ولما دخلت سنة اثنتا عشرة وخمسمائة

توفي المستظهر بالله بها لسبع بقين من ربيع الآخر ، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهراً، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبامنصور الفضل ، المسترشد

بالله، وولي الخلافة بعد أبيه، وأبا عبد الله محمد، المقتفي لأمر الله، وأبا الحسن، وأبا طالب، وإبراهيم، واسماعيل وعيسى، وابنتين.

خلافة المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في رابع ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، تدعى طرفة ، بويع بالخلافة يوم موت أبيه في سابع عشرين ربيع الآخر، سنة اثنتي عشرة وخمسمائة ، وفيها فتحت الفرنج أعزاز والرها، وتسلم إيلغازي حلب.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: ورد سنجر بن ملكشاه من خراسان إلى الري فملكها وتسمى بالسلطنة. وفيها عبر نجم الدين صاحب ماردين الفرات، فكسر فرنج أنطاكية، وقتل ملكهم روجال، وأسر منهم على تل عفرين على ما قيل عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم بعد ستة أيام وقعت حرب بين المسلمين والفرنج على دانيث من أرض سرمين. فكسر المسلمون نصف الفرنج، وكسر الفرنج نصف المسلمين، وهلك من الفريقين خلق عظيم، ثم بعد ذلك نصر الله المسلمين، وأخذوا قلعة الآبار.

ودخلت سنة أربع عشرة

فيها: تسلم أتابك طغتكين تدمر، والشقيف، وفيها كسر إيلغازي الفرنج على البلاط من أعمال حلب،وأخذ صاحب أنطاكية أسيراً، وفيها أطلق نجم الدين بن أرتق لأهل حلب جميع ماكان جدده عليهم الملك رضوان من الكلف، فكان مقداره في كل سنة اثني عشر ألف دينار، وزاد الكيل والذراع.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها قتل الأفضل أمير الجيوش بمصر، وفيها تسلم الفرنج أعزاز من المسلمين.

ودخلت سنة ست عشرة

فيها: مات الحريري، صاحب المقامات، وهو أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان، ولد في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان السبب في عمله المقامات أنه كان يوماً جالساً بمسجده بالبصرة، ويعرف بمسجد بني حرام، فدخل عليه شيخ، عليه أهبة السفر، رث الحالة، فصيح اللهجة، فسأله من أين هو فقال من سروج، وكنيتي أبو زيد، فعمل الحريري المقامة الحرامية، فبلغ أنو شروان بن خالد، وزير المسترشد بالله، وزير السلطان محمد ذلك، وطالع المقامة فأمره أن يضم إليها غيرها، فامتثل أمره وعمل المقامات المشهورة به، وفيها في صفر قتل السلطان محمد وزيره خواجا بزرك.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها: برز المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة، فخرج لابساً قباء أسود ، وعمامة وبردة النبي - صلى لله عليه وسلم - وعلى رأسه طرحة، وتهيأ، دبيس للقتال وهو بالحلة ، وكان في عساكر دبيس البغايا والمخانيث، والملاهي يضرب بها، ولايسمع في عسكر المسترشد إلاّ قراءة القرآن والتسبيح،فهزم دبيس أقبح هزيمة، بعد أن قتل منهم خلق عظيم، ونصر الله المسترشد وأصحابه، ونهبوا الحلة، وكان سبب ذلك عصيان دبيس وسفكه الدماء، وقطعه الطريق، حتى بطل الحجيج في سنة ست عشرة خوفاً، وبعث المسترشد إليه يخوفه ويعظه ويحذره فلم ينته فأوقع به النهب والقتل، ولما كسر دبيس انهزم إلى الملك طغرلبك

ابن أخي السلطان محمود، لما علم من طغر لبك من طلبه الملك، فسار طغر لبك ودبيس معه بعسكرهما نحو بغداد. وفيها تسلم الفرنج قلعة الأثارب، وأقامت في أيديهم إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وفيها حاصر بلك حلباً وتسلمها.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها: وصل طغر لبك ودبيس إلى القرب من بغداد، ولم يشعر المسترشد بذلك، فمرت جمال عليها أمتعة ومال للمسترشد فأخذها دبيس، وكان المسترشد مبرزاً على الدسكرة ، فلما بلغه ذلك سار حتى أشرف على دبيس وأصحابه، فلما علم دبيس أنه لامفر له نزل وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وقال: أنا العبد المطرود المذنب، أما آن له أن يعفى عنه، فلم يجبه أحد، فعاود القول والتضرع ، فرق له المسترشد وهم أن يعفو عنه،فصرفه الوزير عن ذلك، فلما رأى دبيس ذلك أخذ أصحابه وانصرف، وعاد المسترشد إلى بغداد. وفيها تسلم البرسقي حلباً، وفيها جمع الجوسلين الرومي عساكر الفرنج ونزل على حلب، وأقام أربعة أشهر، وخرب المشاهد والضياع ، وخرج جماعة من أهل حلب إلى تمرتاش سألوه نصرتهم فلم يجبهم، فساروا إلى آق سنقر البرسقي، وكان قد مرض مرضة، ونذر إن عافاه الله تعالى ليفرجنّ عن حلب الشدة، فسار مع شيوخ الحلبيين في جيش قاصداً حلب، فلما علم الفرنج بذلك رحلوا عن حلب مرحلة إلى جبل جوشن، وضربوا الخيم عليه، ووصل آق سنقر إلى حلب في ذي الحجة من السنة ، وصعد قلعة حلب، وتحولت الفرنج إلى الأثارب، وتحول المسلمون إلى السعدي. وفيها قتل بلك ملك، ضربه مجير الدولة البعلبكي صاحب منبج في ودجه فهلك، وفيها قتل الفرنج محمود بن قراجة صاحب حماة على أفامية، وفيها نزل آق سنقر البرسقي. بمجمع المروج بين حمص وحماه، وعزم المسلمون على الجهاد، فأول موضع حاصروه وفتحوه كفر طاب، فتحها آق سنقر البرسقي

وسلمها إلى صاحب حمص، ثم حاصر قلعة أعـزاز ونقبوها وهرب الفرنج منها، وفيهـا في نصف ربيع الآخر قتـل القاضي أبو الفضل بـن الخشاب رحمه الله ، تبعـه قوم بعـد صلاة العشـاء الآخرة فقتلـوه ، فأمـر آق سنقر البرسقي بقتل جماعة من أهل حلب ممـن اتهم بالباطنية لأجله. وتوجه آق سنقر إلى الموصل.

ودخلت سنة عشرين وخمسمائة

فيهـا: دخل السلطـان محمـود بغداد، ونقـل المسترشـد باللـه الحرم إلى الجانـب الغـربي، ونـزل السلطـان محمـود بـالجانـب الشرقـي، ونهب دار الخلافة، وجـرى قتال ونهب، ثـم اتفق الصلـح، وحلف السلطـان محمود للمسترشد بالله، واختلط الجيشان على إتفـاق. وفيها وصل قتلغ آبه غلام السلطان محمود بتوقيع من مسعود بـن آق سنقر البرسقي إلى نائبه بحلب تومـان، حتى يسلـم إليه حلـب فلم يقبـل التوقيـع، وكان بصحبتـه مجد الديـن الطويل، صـاحب حران فدفـع قتلغ آبه التـوقيع إليه مـن مسعود وفيه صورة غـزال وطال الأمر على قتلغ آبـه، فعاد إلى مسعود فوجـده قد مات على باب الـرحبة، وهو مطروح على نطع، وقد اشتغـل الناس بنهب بعضهـم بعضاً، فعـاد قتلغ آبـه إلى حلب وحلـف لتومـان وتسلم قلعـة حلب منه .

وفيها : قبض السلطان سنجر بن ملكشاه على دبيس بن صدقة، وكان نازلاً عليه، واعتقله في قلعـة تقرّباً إلى المسترشد بالله، وفيهـا قفز جمع من الباطنية على آق سنقـر البرسقي فقتلوه بجامع الموصـل في يوم جمعة ، فلما قتـل ورد رسول السلطـان سنجر بـن ملكشاه إلى بغـداد يأمـرهم بتسليم الموصل إلى دبيس بن صـدقة، وجميع ما كان بيد آق سنقـر البرسقي فتهيأ دبيس للمسير، فبعـث المسترشد إلى السلطـان محمود لايكـون ذلك أبـداً، ووقـع اختيار المسترشـد على أن يولي الموصـل لعماد الديـن زنكي بـن آق

سنقر، وزنكي يـومئذ شحنة بغداد، وبذل المسترشد للسلطـان محمود مائة ألف دينار على تـولية زنكي الموصل، فتسلمها وسـار السلطان محمود إلى همذان.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين

فيها: تسلم أتابك زنكي قلعة حلب والرحبة.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

وفيهـا عاد السلطـان محمـود إلى بغداد فـدخلها وانحـدر إليـه أتابـك زنكي من الموصل بهدايا، ثم عاد إلى الموصـل ومعه توقيع السلطان محمود بالموصل والجزيرة وحلـب والشام والعواصم وما اتصل بـذلك، وفيها نزل الفـرنـج دمشـق بقـريـة السعـادة. وفيهـا تسلـم الفـرنـج بـانيـاس مـن الاسماعيلية، وفيهـا قتل المزدقـاني بقلعة دمشق، وفيهـا قتل اخـواجا بهرام ومعه جماعـة كثيرة ببوادي التيم، وفيهـا خرج سيـف الدين سـوار بعسكر حماه وأوقع بالفرنج على كفر طـاب، فقتل منهم خلقاً عظيماً ، وفيها وصل أسطـول الفـرنج في البحـر، وسمعـوا خبر دمشـق وخلـوها مـن سلطـان فطمعـوا بها فجمعوا خمسين ألـف فـارس وراجل، وخـرجـوا من البحـر، ونزلوا على دمشق ثـم أناخوا بحوران، فأنفذ تاج الملـوك إلى سيف الدين سوار، وإلى العـرب، فجاء الأمير مرى بن ربيعـة، ومعه خلق مـن العرب وضربـوا مع الفـرنج مصـاف القتال، فقتلـوا مـن الفرنـج أمماً لاتحصـى، وأحرقـوا خيمهم ورجالهم ورحلـو هم عن بلد دمشـق عرياً، وفيهـا مات السلطان محمـود بباب أصفهـان، وولي أخوه مسعود مكـانه، هكـذا ذكره بعض المؤرخين، وقيل إن وفاته كانت في سنة خمس وعشرين.

ودخلت سنة أربع وعشرين

فيها قتلت الباطنية الآمر بالله أبا علي،صاحب مصر ابن المستعلي بالله، وعمره يومئذ أربع وثلاثون سنة، وتولى مكانه أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم المستنصر ولقب بالحافظ الكفيل، وفي ثالث يوم من جلوسه تغلب الأفضل أبو علي ابن أمير الجيوش ، بدر على الدولة، وقبض على الحافظ واعتقله بالقصر، فتحالف جماعة من مماليك الأمير على قتل أبي علي، فقتلوه بسيفه، واحتزوا رأسه، ويقال إنه كان سيف الحسين بن علي عليهما السلام، وأخرجوا الحافظ من ساعتهم وبايعوه، وفيها كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن تومرت المهدي صاحب بلاد المغرب.

ودخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها قتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، وقتلت أم ولده شمس الملوك إسماعيل بعده. وفيها قبض دبيس بن صدقة بحلّة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، وقد ضل عن طريقه إلى صرخد، وتقطع أصحابه فلم يكن له مهرب من العرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى دمشق، فقايضه أمير دمشق ابن طغتكين من عماد الدين زنكي وكان عدواً لدبيس، فظن دبيس أنه سيهلكه، فلما حصل في قبضته أكرمه وعظمه وخوله المال والسلاح والرجال حتى قدمه على نفسه، وكان المسترشد بالله لما بلغه أسر دبيس بدمشق بعث ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دمشق ليأخذ دبيس من الأسر، للعداوة التي كانت بين دبيس وبين المسترشد، فلما وصل ابن الأنباري إلى الرحبة في الماء علم بحصول دبيس في يد زنكي ثم نفذ زنكي عسكرا إلى الرحبة، قبضوا على ابن الأنباري وحملوه إلى قلعة الموصل.

ودخلت سنة ست وعشرين

فيها وصل الملك مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، وورد إليها قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان، ومعه سلجوق شاه بن محمد وهما يطلبان السلطنة . وقراجا أتابك سلجوق، وانحدر زنكي بن آق سنقر من الموصل لينضم إلى الملك مسعود، فلما بلغ إلى تكريت جهز قراجا إليه ألفي فارس، فهزموا زنكي وقتلوا من أصحابه جماعة، وأسروا جماعة، وأصلح المسترشد بالله بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً، وقطعت الخطبة لسنجر بالعراق، واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة سنجر، وقد خطب له على منابر الشام وديار ربيعة، ومضر، وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فله خاصة دون سائر الناس حتى سمي ذا القرنين سنجر، وورد سنجر بالعساكر العظيمة، من خراسان، والتقى الجمعان وقامت الحرب، فقتل قراجا وانهزم مسعود وسلجوق شاه، وأما المسترشد فإنه كان بخانقين ولم يشهد حرباً، وقصد محاربة زنكي بن آق سنقر ودبيس، فالتقوا على فرسخين من غربي بغداد، ووقع بينهم الحرب نصر فيها المسترشد وكسر عسكر زنكي ودبيس، وانهزما، وعاد المسترشد إلى بغداد منصوراً، وأما سنجر فإنه عاد إلى بلاده وأخذ البلاد التي بيد قراجا، وهي بلاد فارس وخوزستان، وكاتب زنكي بن آق سنقر ودبيس ابن صدقة ليقصدا بغداد ويفتحاها، فتوجها إليها في سبعة آلاف فارس، فلما شارفاها لقيهما المسترشد بألفي فارس وحاربهما فانتصر عليهما وغنم عسكرهما وانهزما.

ودخلت سنة سبع وعشرين

وفيها دخل السلطان مسعود بن محمود إلى بغداد، فخطب له بالسلطنة بها، وبعده لابن أخيه داود، وخرج المسترشد بالله ومعه

السلطـان مسعود وابـن أخيه داود فخيـم على بغـداد، ثم سير السلطـان مسعـود وداود إلى أذربيجـان لحرب طغـرل بن محمـد، صـاحـب همذان، فساروا ولقـوه وهزموه، واستقر مسعـود بهمذان، وفيها توجـه المسترشد إلى الموصـل بنفسه لمحـاربـة زنكي، فـأغلق زنكـي بـابها في وجه المسترشـد، فضرب المسترشد عليها خيمه.وجمع عليها عالماً لايحصـى، وحاصرها قريباً من ثـلاثة أشهر، فبعث إليـه زنكي ، وضمن لـه أن يحمل له عوضـاً عن جميع ما خرج منه، وبذل له الطاعة.

ودخلت سنة ثمان وعشرين

فيها مات ابن تومرت بالمغـرب، وظهر عبد المؤمن، وفيها مات القاضي أبو علي الحسن بن إبـراهيم بن علي بن برهون الفارقـي، الشافعي، ولد في سنـة ثلاث وثـلاثين وأربعمائة، ودرس العلم في شبيبتـه على يد أبي عبـد اللـه الكازروني، صـاحـب المجـاملي، فلما توفي الكـازروني في سنـة خمس وخمسين وأربعمائة، قصد الشيخ أبا اسحـق الشيرازي، إلى بغداد، والشيخ أبـا نصر بن الصبـاغ وتفقـه عليهما، وحفـظ المهذب للشيـخ أبي اسحـق والشامـل للشيخ أبي نصر، وكـان يقول لأصحـابه كـررت البارحـة الربـع الفلاني من المهـذب، والربع الفلاني من الشامـل، وقد نيف على التسعين سنة، وولي القضاء بواسط، وتوفي فيها، وقد قارب المائة سنة ، وفيها قطع المسترشـد ذكر السلطـان مسعود مـن الخطبـة، وسار إلى همـذان فاصـداً محاربته، فـالتقوا وكسر المسترشد مـن غير قتال، وأخـذ جميع ما معـه من خيلٍ ومالٍ وأسلحـة، وأسروا جميع كبار الدولـة ، وضرب السلطان مسعود في دهليزه خيمة أقعد فيها المسترشد وعليـه الموكلون به، وبعث شحنةً له إلى بغداد فلم يرده أحـداً، ثم أعاد الراشد باللـه، وهو ولي عهد المسترشد باللـه، الخطبة للملك مسعـود، وأعاد النـوبة التي تضرب بـدار المملكة، وقطع خطبة داود.

ودخلت سنة تسع وعشرين

فيها قتل شمس الملوك بدمشق، قتلته أمه، وفيها قتل محمود بن بوري ابن طغتكين أخاه اسماعيل صاحب دمشق، وتقلدها بعده، وفيها قتلت الاسماعيلية بوري صاحب دمشق.

وفيها سار السلطان مسعود إلى أذربيجان والمسترشد معه أسير موكل به حتى نزلوا قريبا من مراغة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله، فدخلوا عليه فقتلوه وقتلوا معه ثلاثة من أصحابه، فلما علم السلطان مسعود بذلك ركب خائفاً وقتل الباطنية جميعهم، وأحرق جثثهم بعد أن كان الصلح استقر بين المسترشد وبين السلطان مسعود، على مال يحمل إلى السلطان مسعود ، واستقر عود المسترشد إلى بغداد، ومشى السلطان مسعود بين يدي المسترشد حاملاً غاشيته، وبينما هم كذلك، إذ قتل المسترشد كما ذكرناه، وحملت جنازته إلى مراغة، فدفن بها ، وخرج أهل مراغة حفاةً، حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر، وعطلوا المساجد، ولما ورد الخبر بقتل المسترشد إلى بغداد كسروا منابر الجوامع، واقتلعوا أبواب المساجد، وناحوا في الطرقات وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود، وكان قتله في سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان المسترشد بالله عالماً فصيحاً مدبراً ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وكان شديد الهيبة، مشهوراً بالشجاعة، كتب إليه مرةً وزيره الحسن بن علي بن صدقة، وقد نقم عليه أمراً فصرفه:

ستعلم إن أقصيتني أي خادم ... يفوتك إن سارت بليل كتائبه
وتندم إن ظلت لغيرك أنعم ... علي وقادتني إليه مواهبه

فكتب المسترشد إليه بخطه تحت لفظه قوله: خادم « مثله كثير» ،

وتحت قوله تندم : « ياهذا الندم أولى بك» . وكتب الوزير إليه مرة كتاباً أوله:

حتى متى أنا موقوف على ظمأ
بين السبيلين لا ورداً ولا صدرا

فأجابه المسترشد بالله بخطه تحت هذا البيت « إذا عاودت فكرك فيما شطرته، اعترفت بوجود الغلط والزلل فيما أثبته والسلام»، وكانت مدة خلافه المسترشد بالله سبع عشرة سنةونصف وأياماً.

خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

مولده في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسمائة، بويع ببغداد حين قتل أبوه بمراغة، وكوتب السلطان مسعود بولايته فأجاب، ولما قتل أبوه كان هو ببغداد مستولياً عليها، وكان أبوه ولاه العهد، وهم بعزله فلم يقدر، وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل دبيس بن صدقة، قتله السلطان مسعود، بعث إليه غلاماً فقتله في خيمة النوبة وأبان رأسه، وذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من قتل المسترشد بالله، وفي هذه السنة توفي مالك بن سالم بقلعة جعبر، قتله محمود بن بوري.

ولما دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

تظاهر الراشد بمباينة السلطان مسعود، فلما بلغ السلطان ذلك قصد بغداد وحاصرها ثلاثة أشهر، فقلق الراشد من الحصار، وخرج من بغداد خفية يريد الموصل،فلما توجه من بغداد، اجتمع الوزير أبو القاسم علي ابن طراد الزينبي وسديد الدولة ابن الأنباري الكاتب، وأحضرا القضاة والفقهاء، وكتبوا محضراً أخذوا فيه خطوط جماعة من العدول بما فعله الراشد من الظلم وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وأنه فسق بذلك، وأخذوا خطوط الفقهاء بأنه إذا ثبت فسقه جاز لسلطان الوقت خلعه

والاستبدال بغيره من أهل بيته، ممن يصلح للخلافة، وعرضت الفتوى والمحضر على السلطان مسعود فقال: هذا أمر قد قلدتكموه،وأنا منه بريء عند الله تعالى، فخلعوه، ووقع اتفاقهم على أبي عبد الله محمد بن المستظهر فبايعه السلطان مسعود، والجماعة الحاضرون، ولقبوه المقتفي لأمر الله، ثم عاد السلطان مسعود إلى داره، وفتح الباب ، وبايعه الفقهاء وأعيان الناس، وبعث السلطان مسعود الفتوى والمحضر إلى الآفاق، ليتمهد عذره عند الناس، وكان خلعه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت مدة خلافته، إلى أن خلع أحد عشر شهراً وأياماً، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل، فراسل السلطان مسعود أتابك زنكي في القبض على الراشد، وانفاذه إليه إلى بغداد، فامتنع من ذلك لكونه ضيفاً عنده، وجهز أتابك زنكي الراشد إلى مراغة، ليخرج من ولايته، فتوجه الراشد فوصل إلى مراغة، وملكها ، وأقام بها ثم سار نحو الري، ثم طلب خراسان ولما قرب من ولاية الباطنية جرد السيف وقتل منهم جماعة كبيرة، ثم عاد يطلب همذان وخرج السلطان مسعود إلى الراشد يحاربه، فاتفق الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزيبه صاحب خوزستان على محاربة السلطان مسعود، فحاربوه، فكانت الكرّة على السلطان مسعود، وقتل من أصحابه خلق عظيم، ثم توجه الراشد إلى أصفهان في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، فقتلوه، وقيل إنه سم بها ودفن بموضع يقال له شهرستان على فرسخ من أصفهان، وقيل بل دفن بجامع المدينة القديمة التي يقال لها جي بأصفهان، وكان قتله في سابع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

أمه أم ولد تدعى ياغي، وتلقب بست السادة ، مولده في سنة تسع

وثمانين وأربعمائة، وبويع بالخلافة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، بايعه السلطان مسعود والأكابر والعامة.

ولما دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ولد فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وفيها كانت زلزلة عظيمة هدمت الأثارب، وفيها خيم أتابك زنكي على حماه، ثم ملك حمص، ومضت الروم إلى شيزر فحصروها، فسار إليهم أتابك زنكي ومعه داود، وحسام الدين ابنا أرتق، فرحلوا الروم عن شيزر، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام، ونزلوا على حلب، فلقيهم أتابك زنكي ومعه العساكر.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان بحلب زلزلة عظيمة أتت على مائتي ألف نفس فهلكوا.

ودخلت سنة أربع وثلاثين

فيها ولد الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى.

ودخلت سنة خمس وثلاثين

فيها مات أبو بكر عبد الباقي المعروف بقاضي البيمارستان عن نيف وتسعين سنة، وكان محدّثاً عالماً عالي الاسناد، عالماً بالمنطق، وعلم الهيئة، مشهوراً، وفيها توفي أبو القاسم بن أفلح الشاعر الكاتب.

ودخلت سنة سبع وثلاثين

وفيها ولد الملك العادل سيف الدين، أبو بكر بن أيوب، وقيل بل ولد في سنة إحدى وأربعين، وفيها مات سيف الدين بدمشق.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها مات الوزير أبو القاسم بن طراد الزينبي عن ست وسبعين سنة، وكان عظيماً جليلاً، وفيها قتل السلطان داود بن السلطان محمود بن ملكشاه، على يد جماعة اغتالوه ولم يعرف قاتله، وفيها مات الزمخشري الامام في علم النحو، وهو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ علم النحو عن أبي نصر النحوي، وكان هذا ـ أبو النصر ـ عالماً فاضلاً، وفيه يقول الزمخشري لما مات أبو النصر:

وقائلةٍ ما هذه الأدمع التي
تساقط من جفنيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشا به
أبو نصر أذني تساقط من عيني

ودخلت سنة تسع وثلاثين

فيها فتحت الرها، ودخل علي كوجك إلى الموصل، في ذي القعدة منها، وفيها تسلم أتابك زنكي سروج من الفرنج، وفيها مات الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعروف بابن الجو اليقي، الامام في علم النحو واللغة، ولد في سنة ست وستين وأربعمائة، وكان عالماً، فاضلاً، ورعاً، ديّناً، ثقةً، أخذ العلم عن أبي زكريا الخطيب التبريزي وغيره، وكان يصلي بأمير المؤمنين المقتفي لأمر الله، ويؤدب أولاده، وصنف في علم الأدب تصانيف جمة.

ودخلت سنة إحدى وأربعين

فيها قتل أتابك زنكي بن آق سنقر على قلعة جعبر، وهو محاصرها، قتله بعض غلمانه، وكانوا جماعة سلف منهم ذنب، فتوعدهم فخافوه، فقتلوه، وكان له سطوة وبأس، وخلف من الأولاد الذكور أربعة : نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير ميران، وقام بالأمر بعده ابنه سيف الدين غازي بالموصل واكثر الولاية.

ودخلت سنة ثلاث واربعين

فيها : قتل شاهنشاه بن أيوب في حملة حملها على الفرنج، وفيها أخذ نور الدين محمود أفامية من الفرنج، وفيها نزل ملك الألمان على دمشق، في يوم السبت، ورحل يوم الأربعاء، فكانت مدة مقامه خمسة أيام، وفيها أيضاً حاصرت الفرنج دمشق، فجاء سيف الدين غازي بعسكر عظيم، فرحل الفرنج عنها، وجهز أخاه قطب الدين مودود بعسكر كبير إلى أخيه نور الدين محمود فنزلا على البارة، وأخذاها في هذه السنة.

ودخلت سنة أربع وأربعين

فيها: توفي الأمير سيف الدين غازي بن أتابك زنكي، وفيها تسلم نور الدين حمص، وتل باشر، وفيها مات خليفة مصر أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، الملقب بالحافظ، وقيل بل مات في سنة ثلاث وأربعين، وجلس بعده ولده أبو المنصور إسماعيل الظافر، بنص أبيه، وكان أصغر الأولاد سناً، فأقام متولياً مدةً ثم قتله وزيره عباس بن تميم المغربي وابنه ناصر الدين خفية، وأخفيا قتله، وأنكراه، وأجلسا مكانه للخلافة الفائز، فكتب أهل القصر كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان في الصعيد الأدنى، وأصحبوا الكتاب شعور النسوان، فلبس

طلائع السواد، وجند جمعاً عظيماً وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر، فساعدوه، فتوجه إلى مصر،فلما سمع عباس وابنه بذلك هربا بأموالهما وكانت عظيمة، فلما وصلا إلى منهل يعرف بمرة وأم كعب قاصدين الشام، خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً، وأخذوا جميع أموالهما، وأما طلائع بن رزيك فإنه وافى القاهرة، فدخلها وأجلسه أهلها للوزارة، ولقبوه الملك الصالح، واستقام أمره، واستقل بتدبير الدولة ،ثم كاتب الفرنج وبعث رسولاً من الفائز ومن عنده، وبعث لهم معه هدايا وأموالاً جزيلة، وطلب منهم نصر بن عباس فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وعاد به إلى القاهرة، فأخذه الصالح طلائع وسلمه إلى النساء فأقمن يضربنه بالقباقيب، والأمدسة أياماً متوالية، ثم قطعن لحمه وأطعمنه إياه مدة شهر حتى مات، ثم صلب على باب زويلة، ثم أحرقوه، وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي فقتل البرنس ملك أنطاكية، ففتح كثيراً من قلاعهم، وفيها وزر عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يلقب قبل ذلك بجلال الدين.

ودخلت سنة خمس وأربعين

فيها تسلم نور الدين محمود من الفرنج قورص والراوندان، وتسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان بهسنا، وكيسون وقونية ورعبان والمرزبان، وفيها تسلم نور الدين من الفرنج أعزاز، وفيها تسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان من الفرنج عين تاب.

ودخلت سنة ست وأربعين

فيها قتل علي بن مالك صاحب قلعة جعبر بموضع يقال له وادي العوسج.

ودخلت سنة سبع وأربعين

فيها مات السلطان مسعود بن محمود بهمذان، وفيها توجه السلطان سنجر إلى أتراك بأطراف خراسان، يسكنون البر في خركاوات، عدة بيوتهم مائة ألف خركاه، فأعطوه لكل خركاه شيئاً من الذهب عينوه فلم يقبل، وصافوه فنصروا عليه وكسروه وقوي أمرهم، وخربوا البلاد وأخلوها وقتلوا أهلها، وأتوا مرو فقتلوا كل من فيها، وجاؤوا إلى نيسابور فقتلوا كل من فيها من الفقهاء والعوام وقتلوا في تلك النوبة الامام محيي الدين محمد بن يحيى الشافعي صاحب الغزالي - رحمه الله - وكان تاريخ العلوم الخلافية، واسروا سنجراً.واحتاطوا عليه، وخطبوا له، وقالوا له أنت السلطان ونحن عسكرك، ومازال أسيراً في أيديهم حتى مات، وفيها مات أبو منصور المظفر بن أزدشير العبادي الواعظ، كان عظيم القدر في الزهد والوعظ، له كلام مدون مذكور، وكان قد مضى من دار الخلافة في رسالة إلى الملك محمد بن محمود فمات في الطريق، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها، وفيها أطلق نور الدين من جميع البلاد المكوس والمؤن في شهر رمضان.

ودخلت سنة ثمان وأربعين

فيها نقل رأس الحسين - عليه السلام - من عسقلان إلى مصر، وبنى عليه الظافر مشهداً عظيماً، وكانت عسقلان للمسلمين إلى أن نقل الرأس عنها، فبعده بقليل أخذت الفرنج عسقلان.

ودخلت سنة تسع وأربعين

فيها: فتح نور الدين محمود دمشق، وفيها قتل الظافر صاحب مصر، وولي الفائز.

ودخلت سنة خمسين

فيها: وصل الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد عبداً وضيفاً وتلقي بولد الوزير عز الدين ابن هبيرة، ولم ينزل أحدهما للآخر، فنزل سليمان شاه وقبّل عتبة إلباب النوبي، وعطف عليه المقتفي لأمر الله، وقضى ذمامه وخطب له بالسلطنة، وجهزه المقتفي بجيش من عنده، فقصد أذربيجان، والتقاه ملكها ملكشاه بن محمود وتصافا، وقصدهما محمد شاه بن محمود بعساكره فانهزم سليمان شاه بجيشه وعاد طالباً العراق، فوقف له كوجك صاحب الموصل على رأس الدربند، فلما اجتاز سليمان شاه به قبض عليه كوجك، وعلى خوارزم شاه أخي زوجة سليمان شاه، وأعتقلهما بالموصل، وذلك في سنة إحدى وخمسين، واستديمت الخطبة ببغداد لسليمان شاه مع اعتقاله، وفيها مات الملك مسعود، سلطان الروم ابن قلج أرسلان، وهو حمو نور الدين محمود بن زنكي، وفيها ولى نور الدين محمود مجد الدين أبا بكر بن الداية حلباً وجميع بلادها ،وفيها ولى نور الدين محمود أسد الدين شيركوه دمشق وأعمالها.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها فتح نور الدين محمود بانياس، وتسلم قلعة شيزر، وفيها نزلت الفرنج شيزر، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وفيها توفي صلاح الدين الشيخ بحمص، وكانت حماه له قبل ذلك، وفيها كانت الزلزلة الكبيرة المعروفة بزلزلة حماه، هدمت حماة، وشيزر، وبعض طرابلس واللاذقية وجبلة ومصياف، والقدموس وغيرها، ونبعت عين حارم ماء أحمر كالدم، وخسف بخمس ضياع من اللاذقية، غابت في الأرض، وخرب من حلب شيء كثير، وإنما عرفت هذه بزلزلة حماه لأن أثرها فيها كان أكثر من غيرها، وكانت في ثالث يوم من رجب.

وفيها ولد الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله تعالى، وفيها مرض نور الدين محمود مرضاً شديداً بحلب حتى أشرف على الموت، فسمع أخوه نصرة الدين بمرضه فقصد حلباً، فأمر مجد الدين بن الداية بغلق الأبواب في وجهه، فصاح نصرة الدين في باب قنسرين: أنا مثل أحدكم لم تغلقون الأبواب في وجهي فكسر العوام باب المدينة ودخل نصرة الدين المدينة وقت العصر، وجاء إلى تحت القلعة وصاح إلى مجد الدين بن الداية وهو والي قلعة حلب: إن كان أخي نور الدين في عافية فأنا غلامه وجميع العساكر عبيده، وإن كان أصابه شيء فأي معنى ترموني بالنشاب، فرموه بالنشاب، فحلّف نصرة الدين أهل حلب أن يكونوا يداً واحدةً فحلفوا له، ونهبوا دار الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وآدر جماعة ، وبقي باب القلعة مغلقاً على نور الدين، ومجد الدين ستة عشر يوماً، ولم يخطب بجامع حلب خطيب، وجمع المؤذين على أذان حيّ على خير العمل، ففعلوا ، وبقي السنة واقفون مع الحلبيين مع نصرة الدين، وتحالف أهل حلب على أن عدوّهم مجد الدين بن الداية، ففصل أسد الدين شيركوه من دمشق، فصعد القلعة وتوسط أن يأخذ نصرة الدين حرّان وعشرة آلاف دينار أميرية، ويمضي إليها بغير اختيار الحلبيين، فرضي نصرة الدين بذلك، ورحل إلى حران، وترك الحلبيين وشأنهم.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان المقتفي لأمر الله بايع لابنه المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بولاية العهد، فلما دخلت سنة ثلاث وخمسين قتل عامل للمقتفي على نهر ملك يعرف بالجويري، فتحدث الناس أن الجويري قتل بوضع من ولي العهد يوسف، ووقر في ذهن المقتفي شيء من ذلك، فكتب المقتفي، إلى وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة رقعة: « يا يحيى قد تحقق عندي أن الجويري قتل بوضع من ولدي أبي المظفر يوسف، وإني مراجع في نفسي

في نقض عهده، وجعل الخلافة في أخيه أبي علي فما ترى في ذلك؟» فكتب إليه الوزير عون الدين: «العبد يقبل الأرض ويعفر الخد، ويسأل مولانا، إمام المسلمين، وأمير المؤمنين ثبت الله دعوته، التثبت فيما عرض له، فإن الدعوة قد سارت في أقطار الأرض بولاية عهده لولده وقد أخرجت في ذلك أموال جمة، فإن رأى أمير المؤمنين أن لايأخذه بقول متحرضٍ واشٍ، فقد قيل في الشك رب واشٍ غاش ، والرأي أسمى وأعلى». فلما وقف المقتفي على جواب عون الدين أغضى وصفح عن ولده أبي المظفر يوسف، وبهذا الجواب الصادر عن عون الدين، انتفع عون الدين به نفعاً عظيماً حين أفضت الخلافة إلى يوسف المستنجد بالله،فإنه وقف على هذه الورقة بخط عون الدين، فشكره على صنيعه، وأعفاه من الوزارة بعد أن طلبه لها، وألح عليه فلم يفعل، وأكرمه واحترمه، وشكر له ذلك.

وفيها وهي سنة ثلاث وخمسين

مات بدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن الخجندي، رئيس أصفهان ومفتيها، وفيها مات ابن منير الشاعر الطرابلسي، كان شاعراً مفلقاً مجوداً، وله ديوان مشهور وأخبار مستطرفة معروفة ، وفيها مات القيسراني الشاعر، كان شاعراً مجوداً.

ودخلت سنة أربع وخمسين

فيها مات السلطان محمد شاه بن محمود.

ودخلت سنة خمس وخمسين

فيها مات ملكشاه.وفيها أفرج علي كوجك على سليمان شاه بن محمد، وخطب له بالسلطنة، وفيها في رجب مات الفائز صاحب مصر، وكان

صبياً عمره احدى عشرة سنة، والمدبر أمرة طلائع بن رزيك، وأقام مقام الفائز العاضد، وهو صبي، وفيها في أول شوال،اتفقت العساكر بباب همذان على القبض على سليمان شاه، فقبضوا عليه وخطبوا لرسلان شاه ابن طغرل وكان بكنجة، وقطعت خطبته ببغداد في محرم سنة ست وخمسين،وفيها - وهي سنة خمس وخمسين - توفي المقتفي لأمر الله في مستهل ربيع الأول من السنة، فكانت مدة خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبا المظفر ، وأبا جعفر.

خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

ولد في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسمائة، أمه أم ولد تدعى طاووس، بويع بالخلافة في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكان مهيباً عالماً، أظهر السيرة الجميلة في ولايته، ورد الأموال المغصوبة إلى أهليها، وأسقط المكوس والضرائب ببغداد، وكانت مضمنه في كل سنة بجملة عظيمة، ولما ولي الخلافة خافه عون الدين ابن هبيرة الوزير للمقتفي، فجمع منه ومن ولديه ثلاثين ألف دينار وحملها مع غلمانه إلى المخزن الشريف، وسأل قبولها وكتب صحبتها: « العبد كان في مبدأ أمره خامل الذكر، وضيع القدر، قدم إلى دار الخلافة المعظمة، وليس له من عرض الدنيا شيء سوى قميص وعمامة يساويان ديناراً يستتر بهما، فسما ذكره ورفع قدره بما شمله من الانعام النبوي، والآن فهو يضرع ويسأل مولانا أمير المؤمنين أن يأذن له في لزوم زاوية مسجدٍ، يعبد الله سبحانه فيه، ويدعو لأيامه الزاهرة، والرأي أعلى وأسمى» فقبل ما حمله، وكتب المستنجد بالله الجواب بخطه: « وقفنا على ما ذكره، وشكرنا سعيه، فأما ما سأله في اعتزاله فلا، لكونه شفيقاً علينا، خالصاً في محبتنا من شبه الريب، حافظاً لنا بالغيب، وهو أحق بمجلسه ممن سواه، ومن يك رأيه

فينا هذا فهو أحرى أن يحفظ ويلحظ، » ثم بعث إليه بالرقعة التي كتبها إليه المقتفي - أبوه - وقد ذكرناها، وفيها جوابه إلى المقتفي أن لايغير عليه ذلك، ولايستبدل به أحداً، فعلم الوزير أن الله سبحانه نفعه بحسن سفارته ومشورته، وينبغي كل واحد أن لايصدر منه إلاّ خير في حق أعدائه فكيف بأوليائه، ويتوكل على الله سبحانه في جميع أموره، ففيه كفاية.

ودخلت سنة ست وخمسين

فيها : قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك، قتله سبعة أنفس من الحاشية قطع أرزاقهم في دهليز القصر، وولى العاضد موضعه ولده رزيك الوزارة، ولقبه الملك العادل مجد الاسلام وخلع عليه، وكان الصالح طلائع متشيعاً موالياً لأهل الحسين عليهم السلام ، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور، من جملة شعره قصيدته التي وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات

وأول قصيدة طلائع:

أعاذل دع لومي على صبواتي
فما مات يمحوه الذي هو آتي
وما جزعي من سيئاتٍ تقدمت
ذهاباً إذا أتبعتها حسناتي
إلا أنني أقلعت عن كل شبهةٍ
وجانبت غرقى أبحر الشبهات
شغلت عن الدنيا بحبي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وقال في آخرها:

أعـــارض مـــن قـــول الخزاعـــي دعبـــل
وإن كنـــت قـــد أقللـــت مـــن مـــدحـــاتي

مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات

ولما ولي رزيك بن طلائع أظهر العدل، وتمكن من الدولة، فأشير عليه بعـزل شاور السعدي وكان أبـوه طلائع ولاه الصعيـد الأعلى، فقبل منهـم وكتب كتاباً إلى شـاور يستدعيه فأوجس في نفسه خيفـه وكتب إلى رزيك كتاباً أظهر فيـه الطاعة واستعطفه وذكره بسابق خـدمته، فلما وقف رزيك على كتابه شـاور أهله فيه، فقالـوا: إن أبقيته طمع فيك فخـالفهم وقال: المصلحة تـركه، فقـالوا: لابـد من عزلـه فأحضر رزيـك نصير الديـن بن شيخ الدولـة ، وولاه قوص، وكتب على يده كتـاباً إلى شاور يأمـره بتسليم قوص إليه، واستـدعاه إليه، فلما وصل نصير الدين إلى أخميـم بعث كتاب رزيك إلى شاور، فلما وقف عليه بعث إلى نصير الدين يقول له:

أنت صاحبي فارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فعاد نصير الدين إلى القاهـره، وجاهر شاور حينئـذ بالعداوة والعصيان، وأحضر خلقـاً من العرب وحـالفهم فحشد وقصد مصر ومعـه خلق فانهزم رزيك بخـاصته وأمواله متشتتين في كل نـاحية وأخذ رزيك نحو جهة القبلـة ، فوصل إلى جزيـرة تعرف بسليمان بن البيص اللخمـي، فقبض عليه أهلهـا، وأعلموا سليمان به فسجنه وسار بليلته إلى شاور وعـرفه بقبض رزيك فبعث شاور خمسين فارسـاً فقبضوا على رزيك وأتـوه به مقيداً، وأمـا شاور فإنـه دخل القاهرة، وحضر بين يـدي العاضد فخلع عليه، وحنكـة، واستوزره، ولقبه أمير الجيوش، وحلف له واستحلف الناس له.

وفيها وهي سنة ست وخمسين

حج أسد الـدين شيركوه وبث في الحرمين معروفـاً كثيراً، وحج في هذه السنة علي كوجك صاحب الموصل.

ودخلت سنة سبع وخمسين

فيهـا: استولى الضرغـام على ديـار مصر، وطـرد شاور عـن الـوزارة إلى الشـام، وتبعه الضرغـام ليدركـه فلم يـدركه، فلما عـاد الضرغام استـوزره العاضـد وحنكه ولقبه الملـك المنصور، وقتل الضرغـام من الأمراء الـذين كاتبوا شاور مايزيد على سبعين أميراً سوى أتباعهم.

ودخلت سنة ثمان وخمسين

فيها: خـرج شاور إلى الشام، ووصل إلى دمشـق، واجتمع بنور الـدين محمود،ووصـف له ديـار مصر، وضعـف أهلهـا، وضمن لـه إن بعث معـه عسكراً أخـذها له، فندب نـور الدين محمود أسـد الدين شيركوه لـذلك، فسار أسد الدين، وشاور في خدمتـه، إلى أن أتوا بلبيس وأخذها، ثم أخذ مصر فلما رأى شاور ذلـك دبر نفسه، وأصلـح شأنـه ، مع المصريين سراً ورام إخراج أسـد الدين ، فلـم يطق إلاّ بمظافرة الفـرنج، فكاتـب ملك الفـرنج ــ صاحـب القدس ــ وأمـراء الساحـل من الفـرنج وضمـن لهم أموالاً، إن هـم جاؤوا إلى مصر وأخرجوا أسـد الدين، فأتـوا مصر وانحاز أسد الدين إلى بلبيس وتحصن بها، ثم قـرر شاور للفرنج على إخراج أسد الـدين أربعمائة ألـف دينـار مصرية، وهـادنهم بعـد هذه القطيعـة خمس سنين، ونزل الفرنـج على بلبيس وحاصروا أسد الـدين ثلاثة أشهـر، وبنوا على بلبيس بـرجاً، وزحفـوا إليها ، هذا كلـه وأسد الديـن لم يقاتلهـم، ثم راسلهم أسد الـدين في الصلح، على أن يخرج بنفسه وعسـاكره إلى الشام مودعـاً فأجابوه، وحلفـوا، فخرج أسد الـدين ومن معه إلى الشـام، وأخذ

شاور يحث الفرنج على أن يحملوا على أسد الدين ويقللهم في أعينهم فقالوا:

لانفعل لاطاقة لنا بقتاله هو رجل عظيم، ومعه أبطال، ووصل أسد الدين سالماً إلى الشام، وأما شاور فإنه لما عاد إلى مصر، وأحاط بها، علم الضرغام أنه قد أحيط به في القصر، فصاح: يامولانا، يامولانا، فلم يجبه أحد، وبرزت إليه رقعة فيها: « خذ لنفسك وانج بها» فخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه، وقتلوا أخويه معه: ملهماً والحسام.

وفيها وهي سنة ثمان وخمسين

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش إلى سلا ، فتوفي بها في العشر الأواخر من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً، وخلف خمسة عشر ولداً ذكراً، وكان حسن السيرة محموداً في مملكته، ولما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال: إن ابني محمداً لايصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فبايعوه، ودعوه بأمير المؤمنين، فلما مات عبد المؤمن كتموا موته وحملوه إلى مراكش ثم أظهروا موته، واستقرت ولاية أبي يعقوب يوسف، وكان فقيهاً عالماً حافظاً، وسار بالناس السيرة الجميلة، وفيها كسرة الفرنج نور الدين محمود على البقيعة بكبسةٍ تحت حصن الأكراد.

ودخلت سنة تسع وخمسين

فيها مات جمال الدين محمد ابن الأصفهاني وزير الموصل المشهور بالكرم والإفضال، وحمل تابوته إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفن بها، وفيها مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، صاحب كتاب الافصاح عن معاني الصحاح، ذكر في أوله خلافيات المذاهب الأربع، وكان عالماً، عفيفاً، محباً لأهل العلم، محسناً إليهم ، وزر

لخليفتين سبع عشرة سنة، وفيها فتح نور الدين بانياس، وحارماً من الفرنج.

ودخلت سنة اثنتين وستين

فيها: سار أسد الدين بجيش كثيف إلى مصر في ربيع الأول منها، ونزل بالجيزة، وأقام محاصراً لها نيفاً وخمسين يوماً، ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنجد شاور بالفرنج، وأذن لهم أن يدخلوا مصر لنجدته، فقدموا قاصدين حرب أسد الدين، فلما عرف أسد الدين مجيئهم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعرف بباب البابين، وعبأ أصحابه فيه، وجرى بين أسد الدين والفرنج وبينهم حروب نصر بها المسلمون عموماً والملك الناصر صلاح الدين وأصحابه خصوصاً وقتلوا من المصريين والفرنج ألوفاً ، وأسروا سبعين فارساً من بارونيتهم، ثم قصد أسد الدين وصلاح الدين الاسكندرية فدخلوها ووجدوا أهلها مساعدين لهم على الفرنج والمصريين، وأقام الفرنج بالقاهرة، حتى استراحوا وجددوا آلات الحرب، وولى أسد الدين الاسكندرية صلاح الدين، وتوجه أسد الدين إلى الصعيد فجبى خراجه، وتوجه الفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين بها أربعة أشهر، فلم يظفروا ، وجمع أسد الدين الجموع وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلما قرب منهم رحلوا عن الاسكندرية ، وأما شاور فإنه عند ذلك راسل أسد الدين وهادنه على أن ينصرف عنهم إلى الشام، فطلب أسد الدين منهم عوض ما غرمه فبذلوا خمسين ألف دينار ، وأجابوه إلى كل ما سأل، فبعث أسد الدين إلى صلاح الدين وهو بالاسكندرية يستدعيه فأتاه وعاد إلى الشام.

ودخلت سنة ثلاث وستين

فيها: أنعم نور الدين محمود على أسد الدين بحمص وأعمالها فمضى إليها وتسلمها.

ودخلت سنة أربع وستين

توجه الفرنج إلى مصر، وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معايبها ومقاتلها وجهاتها فطمعوا في أخذها، وجمعوا جموعاً عظيمةً،ومضوا إليها في المحرم من عسقلان، فلما وصلوا إلى بلبيس حاصروها وملكوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم نزلوا على القاهرة، ومقدمهم الملك أمري، فقال شاور لأصحابه: أيحسب الملك أن بلبيس جبنة يأكلها فبلغ أمري ذلك، فبعث إليه أمري: نعم بلبيس جُبنة، والقاهرة زبدة، فلما حاصروا القاهرة أحرق شاور مصر خوفاً عليها فلما ضايقوها بالحصار أرسل شاور إلى الملك أمري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها معجل وبعضها منجم، فأجابه أمري وحلف على ذلك، فعجل له شاور مائة ألف دينار، ومطله بالباقي، وكاتب نور الدين محمود يستصرخ به وسود كتبه وجعل في باطنها شعور النساء وذوائبهن، وواصل كتبه بذلك إلى نور الدين محمود، وهو يومئذ بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلةٍ واحدةٍ، وجمع هو ونور الدين جموعاً عظيمةً ومضيا إلى دمشق، وعرضا العساكر على الفوار، ثم دخل أسد الدين إلى مصر، ومعه سبعون ألفاً أو قريباً منها، فلما بلغ الفرنج مجيء أسد الدين رحلوا عن مصر صاغرين، عائدين إلى الساحل، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الإيوان، وخلع عليه، ومعه صلاح الدين، وأقام شاور بضيافة العساكر وأكثر التردد إلى خدمة أسد الدين وطلب أسد الدين منه مالاً ينفقه على الأجناد، فماطله به، فبعث إليه الفقيه عيسى بن محمد يقول له: إن الأجناد طلبوا نفقاتهم، وماطلت بها، وقد تغيرت قلوبهم عليك، فإن أتيتني فكن على حذرٍ منهم، فلم يؤثر ذلك شيئاً عند شاور وركب على عادته وجاء إلى أسد الدين مسترسلاً، فاعترضه صلاح الدين يوسف، في الأمراء النورية، وقبض عليه فجاءه من القصر من يطلب رأسه، فقتل

وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر ، من هذه السنة، وقلد العاضد أسد الدين الوزارة، وكتب العاضد عليه بخطه ما نسخته: « هذا عهد لم يكتب لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله تعالى بها أوضحه لكم من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بخدمتك بنوة النبوة،واتخذ للفوز سبيلا، «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» (النحل: ٩١) .

ونسخة أول المنشور: « من عبد الله ووليه أبي محمد عبد الله بن يوسف الحافظ، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى الله كلمته:

سلام عليكم ، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على جدي محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، ويسلم تسليماً» ثم يتلو كذلك خطبتان بليغتان فيهما مواعظ ووصايا وتقليد الوزارة، وتدبير الدول بألفاظ حسنة طويلة اختصرناها في هذا المختصر.

وفيها: توفي أسد الدين شيركوه بعد وزارته بخمسة وستين يوماً، وكانت وفاته في يوم الأحد ، ثاني عشرين جمادى الآخرة من السنة ، وكانت مدة مرضه يوماً وليلة، وعمل له بالقاهرة عزاء عظيم، وفيها ولي الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله الوزارة للعاضد بمصر، وذلك أن أسد الدين لما توفي سأل العاضد أصحابه عن عسكر أسد الدين ومن فيه يصلح للوزارة . فقيل له: شهاب الدين

محمود خال الملك الناصر صلاح الديـن، فأحضر، وقال أريد أوليك مقام أسـد الديـن، فقـال لا أصلح لها، وإنما يصلـح لها ابـن أختي ، صـلاح الـدين يـوسف، وكـان بموافقـة الأمـراء النوريـة وغيرهم فعقـد العاضـد الوزارة لصلاح الدين، وخلع عليه، وكتـب له منشوراً ولقبه الملك الناصر، واستقـل الملـك النـاصر في تـدبير الـدول . وفيهـا قتـل الخصي الأسـود المعروف بمؤتمن الخلافة ، وكان زمام قصر الخلافـة ، ومطاعاً فيهم، فاتفق مـع جماعـة غلمان القصر أن كـاتبـوا الفـرنـج مستـدعين لهم إلى مصر ليساعـدوهـم على إخـراج الملك النـاصر وأصحـابـه مـن مصر، وبعثـوا بالكتاب مـع إنسان خفية ، فاتفق أن بعـض التركمان رأى ذلك الإنسان ومعه نعلان جديدان فاستنكـرهما، وأخذ النعلين منه على سبيل الامتحان وجاء بـه إلى الملك النـاصر، فأمـر بفتق النعلين فـوجد في طبـاقهما خرقـاً مكتوبـة، وإذا فيها مكتـوب من القصر إلى الفرنـج يستدعـونهم إلى قتال الملك الناصرفقـال الملك الناصر: دلوني على كاتب هـذا الخط، فدلوه على رجـل يهودي، فأحضره، فلما رأى الكتـابـة تلفظ بـالشهـادتين خـوفاً مـن العقوبـة، واعترف أن الخط خطه، وأن مـؤتمن الخلافة أمـره بكتابـة ذلك، فـأطلقه الملـك النـاصر لا سلامـه، وأخفى الملـك النـاصر ذلك وجعـل مؤتمن الخلافـة لايخرج من القصر، وإن خـرج لايبعد، فخرج يـوماً متنـزهاً ظناً منه أن ما فعله نسي، فبعث الملـك الناصر جماعة قتلوه وأخذوا رأسه، ولما قتـل مؤتمن الخلافـة غضب السـودان لقتلـه، وتجمعوا في خلـق كثير يـزيدون على خمسين ألفـاً، وكـانوا ذوي شـوكـة مـا تمالؤوا على وزيـر إلا قتلوه، فباشر الملك النـاصر صلاح الدين قتلهم بنفسه وعسـاكره، فقتلهم واستباح دماءهـم، وهرب من سلم منهم، وكـان لهم محلةً كبيرة على باب زويلـة تسمى المنصـورة، فـأمر الملـك النـاصر بتعفية أثـرهـا فخربـت ، وجعلت بستانا.

ودخلت سنة خمس وستين

فيها: كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب، حدثت في بكرة يوم الاثنين ، ثاني عشر شوال، بعد طلوع الشمس، وتعرف في الشام بزلزلة حلب، لأن تأثيرها في حلب أكثر من بقية البلدان، وهلك تحت الردم بحلب على ما روي خمسة عشر ألف آدمي، واضطربت قلعة بعلبك، وتهدم بعضها، وتهدم حصن شيزر، وجانب من قلعة حماه، وقطعة من حصن الأكراد، وحصن بارين ، وانشقت منارة حلب، وانشق جبل لبنان شقاً عظيماً مسيرة ثلاثة أيام ، وروي أن طوله لايعرف له منتهى، وقيل إنها عمت أكثر الأرض حتى جاءت من سبتةمن بلاد المغرب، وفيها نزل الفرنج دمياط في مستهل صفر، فأقاموا عليها أحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين، وفيها توجه الأوحد نجم الدين أيوب، والد الملك الناصر صلاح الدين إلى مصر، ولما عزم على ذلك فرق جميع أمواله وأملاكه، ولم يكن له سهم في ملك له فيه شريك إلا وهب شريكه سهمه، ولم يستصحب معه شيئاً من موجوده، بل أطلقه، وعجب الناس من فرط كرمه وسخائه، فلما قرب من مصر خرج للقائه العاضد بنفسه، والملك ، ومن دونهما، وكان يوماً مشهوراً، ودخلها في رابع وعشرين رجب من السنة ، وفيها حاصر نور الدين محمود سنجار وأخذها صلحاً بعد قتال شديد.

ودخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها: أمر نور الدين محمود ببناء الجامع النوري، المعروف بالجامع العتيق بالموصل، وفيها توفي المستنجد بالله في تاسع ربيع الآخر من السنة، فكانت خلافته إحدى عشرة سنة وسبعة أيام، وخلف من الولد أبا محمد حسن المستضيء بأمر الله، وأبا القاسم، وكان رحمه الله عالماً حسن المحادثة، كثير الفكاهة، قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه

الله: حدثني ابن شبيب قال: لقيني أمير المؤمنين المستنجد بالله فقال مصحفاً علي: أين شتيت؟ فقلت مصحفا: عندك ياأمير المؤمنين، وهذا أحسن ما يكون من التصحيف، وأراد المستنجد بقوله: أين شتيت، ابن شبيب كأنه يناديه، فأجابه ابن شبيب بقوله: عندك، أي عبدك ياأمير المؤمنين.

خلافة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله

بويع بالخلافة يوم وفاة أبيه في تاسع ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة، وكان عالماً فاضلاً ذا سياسة وتدبير، أظهر العدل والإحسان، ورد أملاكا كانت غصبت إلى ملاكها، ونشر العدل والانصاف، وأمر مناديا ينادي بكشف الظلامات، وفيها جهز نور الدين محمود بن زنكي الشيخ شرف الدين أبا سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون رسولاً إلى المستضيء مهنيا له بالخلافة.

ودخلت سنة سبع وستين

فيها مات العاضد صاحب مصر في يوم عاشوراء، وكان صلاح الدين أمر بالخطبة للمستضيء بأمر الله في أول جمعة من المحرم بمصر، ثم مات العاضد بعده بيومات، ثم خطب للمستضيء بالقاهرة في ثاني جمعة ، وانقضت دولة المصريين، وتسلم صلاح الدين القصر بما فيه من الأموال والذخائر، وقبض على جميع أهل العاضد وولده وأقاربه، وجعلهم في موضع، وأجرى عليهم مؤنتهم. وفيها وردت البشائر من الملك الناصر صلاح الدين إلى نور الدين محمود بإقامة الدعوة المستضية والخطبة له، وموت العاضد، فاشتد سرور نور الدين، وجهز شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون رسولاً إلى بغداد، مبشراً بالدعوة القائمة بمصر، والخطبة للدولة العباسية في الخلافة المستضية.

وفيها ولد الملك المنصور أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب في ذي الحجة ، وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين.

ودخلت سنة ثمان وستين

فيها توفي الملك الأوحد نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في سابع عشرين ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنا بها.

ودخلت سنة تسع وستين

فيها : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، رضي الله عنه، في شوال بدمشق، ودفن بها، وكان رزؤه عظيما في ركن المسلمين، بعد أن أثر في الاسلام المآثر الحميدة، والآثار الجميلة، وهي أشهر من أن تذكر ، ولما توفي رثاه العماد الكاتب الأصفهاني فقال:

عجبت من الموت كيف اهتدى
إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والارض وسط الفلك

وصدروا كتابا من ولده الملك الصالح اسماعيل تعزية إلى الملك الناصر صلاح الدين، انشاء العماد الكاتب، ثم توجهوا بالملك الصالح إلى حلب صحبة الأمير كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل بن الخازن.

وفيها فتح شمس الـدولة ابن أيوب اليمن بعساكـر الشام، وقبض على مدعي الخلافة بها يومئذ، رجل يسمى عبد النبي بن علي بن المهدي.

ودخلت سنة سبعين

فيها كـاتب كمشتكين، وسابـق الديـن عثمان، واسماعيل الخازن الأمير سيف الـدين غازي، صـاحب الموصـل في تسليم حلب إليـه، واستحثوه سراً، وكان ذلك بوضع من الأمير شمس الـدين بن المقدم ورجالته، فبلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلـك، فخرج من مصر إلى الشام، ووصل إلى دمشق فتسلمها، ثم خرج إلى حمص، فعصت قلعتها عليه فتوجه إلى حماه فتسلمها في جمادى الآخرة مـن السنة ، وسار إلى حلب ، فحـاصرها جميع الشهر، ولما أشتد الحصـار عليهم استغاثوا بالاسماعيلية، ووعـدوهم، فجاء منهم جماعة ، فعرفهم الأمير ناصـح الدين خمارتكين، فقتلوه وقتلوا جماعة من النـاس، ثم قتلوا عـن آخرهـم. وعاد الملك النـاصر إلى حمص، فنزلها ونصب عليهـا المجانيق، وحاصرهـا بقية شهر رجب وتسلمهـا في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجـه إلى بعلبك فتسلمها أول شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

وأمـا الحلبيـون فـإنهم خـرجـوا جميعهـم إلى حماه وحـاصروهـا حصـاراً شديـداً، وتقدم الملـك الناصر إلى حماه فنزلها، وتـزاحف الفـريقان، ونصر الملـك الناصر عليهـم، وتعـرف هـذه الكسرة بكسرة المواصلة عنـد قـرني حماه، ولما كسروا أمـر الملك النـاصر بحقـن دمـائهم، ونهب أمـوالهم، ثـم تقدم إلى تل السلطـان من عمل حلب، ووقـع الصلح بينه وبين الحلبيين على أن يكـون ما بيـده من الشـام إلى آخـر بلد حماه والمعـرة وكفر طـاب مضـافتان إليـه، وحلفـوا على ذلك، وعـاد الملـك الناصر إلى حماه، فنـزل عليها، ووصلته رسل المستضيء بالله بـالتهنئة بالظفر والتشريفات السنية،

والتحف الجليلة، وأفيض على الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعة جميلة ، أفردت له من الديوان العزيز.

ثم تجهز الملك الناصر إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد، وأقطع حماة خاله شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على الأمير ناصر الدين محمد، وتوجه إلى دمشق.

ودخلت سنة احدى وسبعين

فيها تجهزت المواصلة ووافوا تل السلطان، في جمع عظيم، فخرج إليهم الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان، وألقى الله على المواصلة الرعب، وقذفه في قلوبهم، فولوا مدبرين، واستولى الملك الناصر عليهم أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على سرادق سيف الدين غازي، ونزل فيه، ثم أحضر أسراهم، وخلع عليهم وأطلقهم.وفيها: فتح الملك الناصر منبج، واستولى عليها بعد كسره المواصلة بتل السلطان.وفيها فتح حصن أعزاز، بعد أن هزمت المواصلة ، وحاصره ثمانية وثلاثين يوماً.وفيها قفز على السلطان قوم من الحشيشية، وجرحه واحد منهم في وجهه، وكان ذلك في حصار عزاز، وقتلوا عن آخرهم.

وفيها عاد شمس الدولة من اليمن إلى الشام، بعد أن قتل ناشر بن بلال صاحب عدن، وفيها هدم أمير الحاج كمشتكين حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها مات نجم الدين بن حسام الدين ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين مكانه. وفيها قتلت الاسماعيلية أبا صالح بن العجمي بحلب في يوم الجمعة بباب الجامع الشرقي. وفيها توفي شيخ الاسلام هبة الله بن البوقي، المفتي الشافعي الواسطي، صاحب القاضي أبي علي الفارقي.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين

فيها مات السلطان طغريل بن مسعود.

وفيها حاصر الملك الناصر حلباً مديدة، ثم وقع الصلح العام بينهم وبين المواصلة وبينه، وأبقى الملك الناصر حلباً في يد الملك الصالح اسماعيل، ورد عليه حصن أعزاز، وعاد الملك الناصر إلى مصياف، ونصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم وتخريب ديارهم، فتضرعوا إلى خال الملك الناصر شهاب الدين محمود بن تكش، فسأل فيهم، فرحل عنهم، ثم توجه إلى دمشق، ومضى إلى مصر ، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط على القاهرة ومصر، وبانشاء القلعة بجبل المقطم، وببناء المدرسة على تربة الشافعي رحمة الله عليه، وفوض نظرها إلى الشيخ نجم الدين الخبوشاني، ثم توجه الملك الناصر في هذه السنة إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي رحمه الله، فكان يتردد إليه لسماع الحديث في يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ، فأقام لذلك مدة، ثم عاد إلى مصر. وفيها توفي قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي دمشق.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كانت نوبة عسقلان والرملة: خرج الملك الناصر للقاء الفرنج، فنزل عسقلان وسباهم وقتل جمعاً منهم، ثم استقل بالرملة طالباً بلاد الفرنج، فخرجت الفرنج على المسلمين، وجرى بينهم قتال عظيم هلك فيه جمع من المسلمين، وضلوا عن الطريق، وماتوا جوعاً وعطشاً، وأسر الفرنج الفقيه عيسى وأخاه ظهير الدين علي، وأقاما أسيرين سنتين حتى افتداهما الملك الناصر بسبعين ألف دينار، ودخل الملك الناصر إلى القاهرة وقد دفع الله سبحانه عنه بلاءه ، بعد أن أشرف على الهلاك.وفيها توفي شهاب الدين محمود بن تكش خال الملك الناصر.

ودخلت سنة خمس وسبعين

فيها توفي المستضيء بأمر الله في أول ليلة من ذي القعدة، فكانت خلافته تسع سنين ونصف وواحد وعشرين يوماً، وخلف من الأولاد الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، وأبا منصور.

خلافة الامام الناصر لدين الله تعالى أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

مولده في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، بويع في أول يوم من ذي القعدة سنة خمس وسبعين، وكان المتولي لعقد البيعة ذو الرئاستين مجد الدين أبو الفضائل بن الصاحب استاذ الدار ، وظهير الدين أبو بكر بن العطار، صاحب المخزن، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً، قبض على ظهير الدين أبي بكر، ثم مات بعد أيام قلائل، فمضت أخته لتدفنه ليلا خلسة من الناس لشدة بغضهم له أنه ضمن جهات المكوس، وكان يمنع من نقل الغلال في سني المحل، فلما خرج تابوته من باب النوبي علم به بعض العوام، فألقوه عن رأس الحمالين، وكسروا التابوت، ومزقوا أكفانه وربطوا في رجله حبلاً وسحبوه في الأسواق، وقطعوا خنصره وأذنه، وذلك في نصف ذي القعدة.

وفيها استدعى الامام الناصر لدين الله فخر الدولة بن المطلب، وطلب منه أن يستوزره لعلمه وورعه، وكان المستنجد والمستضيء طلباه للوزارة فامتنع، فلما حضر بين يدي السدة الشريفة قبل الأرض وخدم وقال: ياأمير المؤمنين المملوك رجل شيخ ما يجوز له أن يفتح كتاباً بعد العصر، فقال له بهاء الدين صندل الخادم: أجب أمير المؤمنين، فقال: له فخر الدولة: ليس لك في اجابتي مصلحة لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرك على ما بيدك من الاقطاع والولايات، بل كنت أجريك على

قاعدة بلال الحبشي، وأزيل عنك هـذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيـوف مشهورة ، فضحك الامام الناصر وأعفـاه وقال:تشير علينا بمـن يصلح، فقـال: هذا يصلـح، وأشار إلى مجد الـدين بـن الصاحـب فضاق صدر مجد الدين لقوله وقـام، فقال له الامام الناصر: لم لا يرضيك قـوله والـوزارة أرفـع درجات أربـاب الـدول؟! فقال: يـامـولانا لا أبيـع حضوري في هـذه الخدمة بـالدنيا ومـا فيها، وسـأل أن يقر على خـدمته، فأقره عليها، وقال لفخر الدولة بـن المطلب: أشر علينا بمن نوليه، فقال: إن رأى مـولانـا أن يـولي سليمان بـن جـاووش نـائب وزارة، فـرأيـه أولى وأعلى، فأمر الامـام الناصر باحضار سليمان بن جـاووش، ويلقب بحسام الدين، فأحضر، وخلع عليـه ورتب نـائب وزارة فـأقـام كـذلك أشهـرا.

ودخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها حسـن مجد الدين بـن الصاحب لـلامام الناصر عـزل سليمان بن جاووش لكبر سنـه، وتقدم إليـه الامام النـاصر أن يستبدل بـه من شـاء، فأحضر مجد الدين بن الصاحب جلال الدين أبا المظفر هبـة الله بن محمد ابن البخـاري وولاه نائب وزارة. وفيها تصدق الامـام الناصر بعشرة آلاف دينـار في شهـر رجـب على الفقهـاء والعلماء والصـوفيـة ببغـداد وأثبـت أساميهـم في دستور ، وقرر ذلك في كـل رجب في كل سنة، وجعـل ذلك عوضاً عـن دعوة كانت الخلفاء تـأمر بعملها للمذكوريـن في كل سنة في رجب في دار دفن المستضيء بها.

وفيها أسقـط الامام الناصر ببغداد وجميـع بلاده من المكـوس والحقوق المضروبة على التجار وأربـاب الصنائع والمؤن، وكان قدر مـا يحصل منها في كل سنـة ما يزيد على مـائة وخمسين ألف دينار، وبسـط العدل ونشره، وأمر بكسر الملاهي وإراقة الخمور، وإقامة الحدود.

وفيها توجـه الملك الناصر صلاح الـدين إلى بلاد الأرمن وبلـد الروم ، فنـزل على حصـن يقال لـه المنـاقير ببـلاد الأرمـن ، ففتحـه ثم هـدمـه، وصاحـب الأرمن يـومئذ ابـن لاون، ثم وقـع الصلح بينهـم على خمسمائة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، وعـاد الملك الناصر إلى حمص فنزل عليها، وأتتـه رسل الحلبيين مهنئين لـه بالنصر والظفـر، وأتته رسـل الامام الناصر شيـخ الشيوخ صـدر الديـن أبو القـاسم عبـد الرحيـم، وشهاب الديـن بشير الخادم، فاجتمعا بـالملك النـاصر بدمشق ومعهما التفـويض والتقليد والتشريـف له بتقليـد السلطنة والـزعامـة فركـب الملك النـاصر بالتشريـف، وكان يـوماً مشهـوداً، ثم أعـاد الملك النـاصر شهاب الـدين بشير الخادم إلى بغداد وأصحبه رسـولاً معه وهو القاضي ضياء الـدين بن الشهرزوري جـواباً عن رسـالة شيخ الشيـوخ صدر الـدين عبد الـرحيم، وجعل الملـك الناصر شيخ الشيـوخ صدر الدين عبـد الرحيم عنـده، ثم سار الملـك الناصر ومعـه شيخ الشيـوخ إلى الديـار المصرية، لـزيارة قبر الامام الشافعي، فلما قضى زيارته توجه إلى مكة حرسها الله تعالى.

وفيها مـات شمس الـدولة بن أيـوب بالاسكنـدرية في مستهـل صفر، وفيها بنيت قلعة القاهرة.

ودخلت سنة سبع وسبعين

فيها تـوفي الملك الصـالح اسماعيل بـن نور الديـن محمود بـن زنكي. وفيها وصل إلى حلب عز الدين مسعـود صاحب الموصل، فاستولى عليها وعلى خزائنها، ورغب أخاه عماد الديـن زنكي صاحب سنجار في حلب، وتعوض منه عنهـا سنجار لعلمه أن أمره لايستقر بحلـب، ولما بلغ الملك الناصر مـا جرى في أمـر حلب ، قلق لـذلك ، وكان بـالديـار المصرية ، فكتب إلى الملك المظفر تقي الدين وكـان بحماه يأمره بالتوجه إلى حلب، وكتب كتـابا إلى الـديوان العـزيز يشكـو صاحـب الموصل ومـا فعله ،

وطمعه في أخذ حلب، وذكر عصيانه ومساويه، وعرض في كتابه بأن هذا الذي صدر منه لايصدر إلاّ عن اذن شريف، وسأل فيه ردعه وزجره وازالة يده عن حلب.

وفيها بعث الملك الناصر أخاه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين إلى اليمن، فتوجه إليها بجيوشه ، وكان والي عدن يومئذ الأمير عثمان الزنجيلي، ووالي زبيد الأمير حطان بن منقذ، فأما عثمان فإنه فارق اليمن وهرب منها ، وأما حطان فإنه تحصن بقلعة يقال لها قوارير، ثم راسل سيف الاسلام في ذهابه إلى الشام،فأذن له، فجمع حطان أمواله وذخائره وغلمانه وتوجه نحو الشام، فجهز سيف الاسلام إليه من قبض عليه، وعلى سائر ما معه، ثم قتل حطان، وأخذت جميع أمواله، وكان قيمه المأخوذ على ما قيل من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وأمتعة ألف ألف دينار.

وفيها أو في التي قبلها توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد صاحب الموصل ، وملكها أخوه عز الدين مسعود. وفيها خرجت الفرنج في مراكب من إيلة وسارت إلى عيذاب ثم إلى جدة، وأخذت عدة مراكب من المسلمين، فتعقبهم الحاجب (لؤلؤ) في المراكب إلى الحجاز، فأخذهم أجمعين، وكانوا ألفاً وخمسمائة نفر، وعاد بهم إلى القاهرة ، فضرب رقابهم أجمعين.

وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، وكان عنده علم وافر ودين ظاهر، وله مصنفات في علم القرآن وغيره.

ودخلت سنة ثمان وسبعين

فيها برز الأمر الشريف أن لا يستخدم ذمي في جهات التصرف ، لأن الله نهى أن يكون للكافر على المسلم سبيل، فلا يستخدم أحد من

الكفـار في شيء من أعمال الـديـوان، ويرتـب عوضهـم مـن يصلح مـن المسلمين، وكان كاتب ديوان العرض ذميا يعـرف بابن الأشقر، فشفع ابن البخاري فيـه، فكتب مطالعـة يصف فيها ثقته وأمـانته وكفايتـه، ويشفع به، فوقع الامام الناصر عليها: هـذا ابن الاشقر قد مات، فما الذي يصنع بعده في ديـوان العرض، فعرض على ابن الأشقـر الاسلام فامتنـع، فعزل، وكان لابـن الأشقر ولد بـالغ، فدخل على ابـن البخاري وهو جـالس في الديوان، فقال: يـامولانا أنا رجل قد رغبت في الاسـلام لأجل خدمة أمير المؤمنين، وأنا أشهـد أن لا إله إلاّ الله وأشهـد أن محمداً رسـول الله، وأن كل دين غير دين الاسـلام باطل، فكتب ابن البخاري مطـالعة بما جرى، فوقـع أمير المؤمنين فيها: إنما منعناه من استخـدام الكفار لكفرهـم، فمن أسلم يعـاد إلى خدمته، ويخلـع عليه ويستخـدم في ديوان العرض عـوضا عن أبيـه، ويقال لكـل من صرفنـاه من خـدمتنا: مـن أحب الـدخول في الاسلام فيعاد إلى خدمته ويشرف ومن لم يفعـل لايمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام.

وفيها أحضر الامام الناصر الشيخ عبد الجبـار صاحب الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينـار وخلع عليـه وعلى ولـده شمس الـديـن، وكـان هذا عبـد الجبار شيخـاً حسناً لـه أتباع كثيرون، ثم تفتـى إليه بعـد ذلك خلـق من الملوك والأكابر ، وكان هذا الفعل مستحثا للناس على التعاضد والتناصر وحفظ العهد، وكتمان السر، وصدق اللهجة، والعفـة عن المحارم، وأرباب الفتـوة يسندونها بعنعنـة إلى أمير المؤمنين علي كـرم اللـه وجهه، ونـاهيـك بذلك شرفاً ، وفخرا وعظمة وقدراً.

ودخلت سنة تسع وسبعين

فيها مـازال الملك النـاصر مقيما بالـديار المصريـة إلى المحرم مـن هذه السنة، فخـرج إلى دمشق، ثـم خرج بجيـوشه غـازيا إلى طبريـة وبيسان،

فجرى بين المسلمين وبين الفرنج قتال شديد استشهد فيه جماعة من أبطال المسلمين، وقتل من الفرنج خلق لايحصون ، ثم خرج الملك الناصر طالباً حلب، فلما فارق حماه وصل إليه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن كوجك، فأشار عليه بقطع الفرات وأخذ ما وراءه من الموصل ونصيبين والخابور وحران والرها، ثم بعد ذلك يحاصر حلب ويتملكها، فشكره الملك الناصر على رأيه وتوجه إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى حران ففتحها، ثم فتح الرقة بعد حصار، ثم فتح عربان، ثم سار إلى نصيبين ففتحها بعد حصار ، ورتب هذه البلاد وأزال ما بها من المكوس، ثم توجه إلى الموصل، وأناخ بها بجميع عساكره، وصاحبها يومئذ عز الدين مسعود، ونائبه مجاهد الدين قايماز، فكاتب عز الدين مسعود الديوان العزيز باستصلاح أمره مع الملك الناصر ، فجهز الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولاً إلى الملك الناصر وشفيعا في المواصلة، وصحبته شهاب الدين بشير الخادم، وخاطب شيخ الشيوخ الملك الناصر بالشفاعة ، فصرح الملك الناصر بالامتناع وعدم القبول، وأدام الحصار وتهيئة أسبابه، وأصحاب الملك الناصر يقاتلون ، وشيخ الشيوخ ينهاهم عن القتال، ثم أتى شيخ الشيوخ الملك الناصر وقال: أتيتك مستشفعاً، فقال: السمع والطاعة، ثم خرج من الموصل جمال الدين محاسن، ومجد الدين الشريف نقيب الطالبيين، وأتيا شيخ الشيوخ، فبعث للملك الناصر يطلب منه ثقة يسمع كلامهما، فبعث إليه القاضي الفاضل والفقيه عيسى بن محمد، فأقاموا يوما لم يحصل فيه مقصود، ثم أقاموا كذلك قريب شهر يمضون الأوقات، وغرضهم مكاتبة الملوك سراً، والاستنجاد بهم، وأجابوا إلى تسليم حلب إلى الملك الناصر بشرط أن يعيد إليهم ما أخذه من بلادهم، فتوقف الملك الناصر في الاجابة، ثم أجاب ، ثم بعد اجابته عادوا ندموا في قولهم إنهم يسلمون إليه حلب، وآخر الأمر أن الملك الناصر قال لشيخ الشيوخ : نحن قد عزمنا على الرحيل، ونهب لهم الموصل شفاعتك فيهم، وهذه

أشهر شريفة ، ثم رحل إلى سنجار ومعه رسل الخلافة ، فنازلها في شعبان، ونصب عليها منجنيقاً، فلما دخل شهر رمضان أمر بالاحجام عنهم، والاحتراز من اراقة الدماء، ثم راسلوه في تسليمها إليه، فتسلمها منهم، وأسقط عنهم المكوس، وتجهز شيخ الشيوخ وأصحابه للمضي إلى بغداد، وأصحبهم الملك الناصر تحفاً وهدايا سنية، وعاد الملك الناصر إلى حران، فنزل بها، وأما المواصلة فانهم تجمعوا، ونجدهم شاه أرمن ملك أخلاط بنفسه وعسكره، وخرجوا من الموصل، ووافوا حرزم، ضيعة من ضيع ماردين، ووافاهم عسكر حلب والياروقية، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن، وصاروا في جمع عظيم، فلما علم الملك الناصر بهم كتب إلى أمرائه الغائبين، فوصل إليه الملك المظفر تقي الدين من حماه في خمسة أيام، وسار إلى رأس العين، فلما سمعوا خبره ولوا منهزمين من غير قتال، • وذلك في يوم عرفة من السنة المذكورة، ومضى صاحب أخلاط إلى بلاده، وكل ملك مضى إلى ملكه.

وكان الملك الناصر قد كتب إلى الإمام الناصر، طلب منه اذنا في قصد آمد وأخذها، فوصله تقليد بها، فتوجه الملك الناصر إلى آمد فنزلها في سابع عشر ذي الحجة من السنة، وحاصرها حتى دخلت سنة ثمانين ففتحها، وتملكها في المحرم منها، وعاد إلى حلب ونازلها وحاصرها، وجرت حروب كثيرة، وأصيب في هذه السنة على حلب تاج الملوك أخو الملك الناصر بسهم مات منه، ثم اصطلح الملك الناصر وعماد الدين زنكي بن مودود على أن يعوضه عن حلب سنجار ونصيبين والخابور ، وكتب الملك الناصر خطه بذلك، وتسلم حلب في ثاني عشر صفر سنة ثمانين، ومدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر
مبشراً بفتوح القدس في رجب

ووقع هـذا بطريق الاتفـاق وسوق العـافية. ولما فتح القـدس في رجب من سنـة ثلاث وثمانين قيل لـه في ذلك، فقال: سـاقتني القافيـة، وفوض الملك الناصر إلى محيي الدين ابن زكـي الدين قضاء حلب، فحكم فيها، واستناب بها نـائبه زين الـدين نبأ بن الفضـل بن سليمان بن البـانياسي، وأسقط الملك النـاصر مكوس حلب وضرائبها، ثم توجـه بنفسه إلى حارم ففتحها، وأخذها من مملوك من المماليك النورية كان قد عصا فيها.

وفيها مـات فخر الـدولة بـن المطلب، وكـان أوحد زمـانه علماً وورعـا وزهـدا ورئاسة ، وعمـر مـدرسـة تسمى دار الـذهـب ببغـداد، وجامعـاً وخانكـاه، ووقف على ذلـك وقوفـاً سنيه. وفيهـا مات الأمير أبـو منصور أخو الامام النـاصر، وغسله العدل الحراني وأخذ سلبه، وكان مـن جملة ما أخـذه مسند زركـش، وطراحـة زركش فيهـا ألـف دينار، وأخـذ جميع مـا استعمل في غسله مـن طاسات فضة وطشت فضـة، وآلات وأمتعة، قيمة الجميع على ماروي عشرة آلاف دينار.

وفيها حضر شهاب الدين الطوسي الفقيـه الشافعي دار مجد الدين أبي الفضل بن الصـاحب، واتفق الحديث أن علي بـن أبي طالـب ـ كـرم الله وجهه ــ ما ملك من الـدنيا شيئاً، وكان فقيراً، حتـى أنه كان يأكـل خبز الشعير، فقال الطـوسي: هذا مـا يقولـه ذو معرفـة، قد نقـل أن عليا أدى زكاة أربعين ألـف دينار، وكـانت له نعمـة ومال كثير، وإنما المبغضـون له يقولـون هذا، وقصـد الطوسي بهذا مهادنـة مجد الدين، فـإنه كـان يبغض الطوسي، ويقصـد اهلاكـه لأنه كان صـاحب ابـن العطار، فقـال له مجد الديـن: فكيف مـدح علي عليه السلام على إيثـاره خبز الشعير، وتصـدقه بخاتمه في الصلاة؟ فقال الطوسي:هذا كان في ابتـداء حاله، ثم ملك بعد ذلك ، فقال له مجد الدين: أريد أن أقف على هذا النقل ومن الذي نقله، فقال لـه سمنديـار الواعظ: لم يسمـع هذا قـط، فقال لـه الطوسي: يجوز أنك مـا سمعته، وخـرج وقد علم أنـه خاطـر بدمـه، وبلغ أمير المؤمنين

الامام الناصر ذلك فأنكر على مجد الدين كيف لم يكلف الطوسي احضار الحجة، وأظهر الطوسي المرض أياماً، واشتد الأمر في اظهار التشيع حتى روي أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال يوماً: ما اكثر ما يسألوني عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم، أما يكتفون مني في هذه الأيام أن أزاحم لهم بأبي بكر وعمر، وأنا مخاطر، وعلم الطوسي بخطابه، فاستأذن في الحج، فأذن له، فحج ومضى إلى الديار المصرية.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

فيها برز الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، فترك ولده الملك الأفضل على رأس الماء، فجمع العساكر، وتقدم الملك الناصر إلى الكرك والشوبك، فقطع شجرها وزرعها، وبعث الملك الأفضل عساكره إلى صفورية للغارة، ومقدمهم مظفر الدين بن زين الدين، فخرج الفرنج إليهم، والتقوا وكانت الكرة على الفرنج، وقتل منهم خلق عظيم، وسار الملك الناصر حتى خيم على عشترا، ووصل الملك الأفضل إليه، وجمع الملك الناصر العساكر، ومضى إلى طبرية ففتحها، واحتمت عليه قلعتها وصاحت الفرنج عن يد واحدة، وركبوا قاصدين منع طبرية، وجرى قتال كانت الغلبة فيه للمسلمين، وأما الفرنج فأووا إلى جبل حطين معتصمين به، وأحاطت جيوش المسلمين بهم، فلما أحس القومص بالكسرة انهزم وحده ومن بعده أتباعه، واحتوى المسلمون على بقية الفرنج أسراً وقتلاً.

وجلس الملك لعرض الأسرى، فقدم إليه ملك الداوية والملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك، وكان الملك الناصر قد نذر دم صاحب الكرك هذا، فقرعه الملك الناصر على غدره وكذبه، وكان ملك الفرنج قد اشتد عطشه، مع ما عنده من خوف القتل، فأحضر له السلطان ماء بثلج، فشربه الملك

وسقى صاحب الكرك منه، فقال لـه الملك الناصر: لِمَ لَمْ تأخذ مني اذنا في سقيـه، فـلا أومنـه، ثـم مضـى الملـك النـاصر إلى سرادق ضرب لـه ، واستدعـى بصاحب الكرك، فلما استقبلـه قام الملك الناصر إليـه، وضربه بيده بالسيف فحـل عاتقه، وأمر بقطع رأسه ، فقطع ، فـارتاع الملك من ذلك، وعرف الملـك الناصر ما حل بـالملك من الخوف والفزع فـاستدعاه وأدناه وقال له: صاحب الكرك غدر ونكث ففعلت به هذا.

وتعـرف هـذه الكسرة بكسرة حطين، وأخـذ منهـم السلطـان صليـب الصلبوت وكان أخذه أعظـم عليهم من جميع ما حل بهم، ثـم نزل الملك الناصر على طبريـة، وبقلعتها صـاحبتها الست، فتسلمها الملـك الناصر منها بأمـان، وخرجت الست آمنة إلى طـرابلس بلد زوجها القـومص، ثم رحـل الملك النـاصر إلى عكـا، فخيم قـريباً منهـا في سلـخ ربيع الآخـر، فخرج أهـل البلد إليـه يطلبون الأمان، فـآمنهم وخيرهـم بين المقام آمنين والانتقـال، وأمهلهم أيـامـا، ولما دخل جنـد الاسلام إليهـا نـزلوا آدرهـا، وجعل الملك الناصر للفقيه عيسى كلما يتعلق بـالداوية من منازل وضياع بما فيها من غـلال ومتاع ، ووهب ولده الأفضل عكـا، ودخلها المسلمون في يـوم الجمعـة مستهـل جمادى الأولى، فـأقـامـوا الجمعـة بها بكنيستهـا العظمـى، وخطـب الخطبـة جمال الـدين عبـد اللطيـف بـن الشيـخ أبي النجيب السهروردي، وتولى القضاء والخطابة بها.

وأقام الملك الناصر مخيما بباب عكـا، ووصل الملك العادل من مصر ، وبث الملك النـاصر عساكره لفتح الساحـل، ففتح مظفر الديـن بن زين النّاصرة، وعاد بـالأسرى والأموال، وفتح بدر الـدين دلدرم وغرس الـدين قليج قيساريـة، فتحوها بالسيف، وسـار حسام الدين محمد بـن عمر بن لاجين إلى سبسطية وتسلمها، ووجـد فيها مشهد زكريا عليـه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسة نفيسـة مرصعة بآلات المصبـوغات فأخذ مـا به من ذلك، واتخذه مشهـداً، وأقام به منبراً، ثم مضـى إلى نابلس فقاتلهـا حتى

تسلمها بأمان، وفتح في أثناء ذلك قلعة الفولة، ودبورية، وخفسين، وزرعين، واللجون، والطور وبيسان،، والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات. وفتح الملك المظفر تقي الدين تبنين بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، وبعث صاحب صيدا مفاتيح صيدا، وفتحت بيروت، وجبيل، وعسقلان، والداروم، بأمان بعد قتال شديد، واستشهد من الأمراء ابراهيم بن حسين النهراني، وتسلم المسلمون الرملة، وبيت لحم، والخليل، وحصن الداوية، والنطرون، وبيت جبريل.

ثم رحل الملك الناصر إلى القدس، ونزل عليه، ونصب المجانيق، واشتد عليه الحصار، واجتمع طاغية الكفر وتعاقدوا وتعاهدوا، وجرت حروب كثيرة، فبرز ابن بارزان طالبا الأمان من الملك الناصر، فامتنع الملك الناصر من إجابته، فقال ابن بارزان: إذا لم تؤمنا، فنقاتل قتال الدم، ونحرق الدور، ونخرب القبة ونقطع الصخرة، ونقتل كل من عندنا من المسلمين الأسرى، وهم ألف، ونتلف ، ولا فائدة لكم في هذا الشح، فاستشار الملك الناصر أمراءه، واستقر الأمر على أخذ قطيعة قررت على كل رجل: عشرة دنانير، وعلى كل امرأة : خمسة دنانير، وعلى كل صغير ديناران، وبذل ابن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشر من رجب من السنة المذكورة، وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على هذه الوظيفة، وكان بالقدس أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، ووكل بكل باب أمير يحصي الخارجين، ولو حفظ هذا المال لفاز منه بيت المال بأعظم حظ، لكن وقع التفريط، وعم التخليط، فكل من رشامشى، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مختفيا في الرحال، ومنهم من خرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة، وكان بالقدس ملكة رومية مترهبة، لها مال ومتاع وأتباع، فمن الملك الناصر عليها، وعلى كل من معها، وخرجت بذلك، وكذلك زوجة الملك المأسور، ابنة الملك أماري، كانت مقيمة بالقدس مع مالها من الأموال والخدم، فخرجت بمن معها، وكذلك الابرنساسية

ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمس مائة أرمني، ذكر أنهم من بلده، واستطلق مظفر الدين ألف أرمني، ذكر أنهم من الرها، وخان النواب فما ضبطوه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وجلس الملك الناصر للهناء على هيئة التواضع ، وهيئة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم والدين، وأخذ القراء في القراءة، والفقهاء في المناظرة ، والشعراء في الانشاد، وروى المحدثون، وتحدث الرواة ، وكثر ضجيج الخلائق إلى الله سبحانه، وتضرعهم إليه بالشكر له، والثناء عليه بما هو أهله.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، رشح أهل الفضل أنفسهم لتولية الخطبة وغيرها، فلما دنا وقت الزوال، أمر الملك الناصر القاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، ففعل وتمم الخطبتين، وصلى بالمسلمين، ثم جلس للوعظ بعد الصلاة زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فوعظ وأبلغ، وكان يوماً مشهوداً، ومجمعاً مورواداً، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه، ويؤثر عنهم من الأفعال الجميلة، فما منهم إلاّ من تصدق وعمر وبنى وأحسن، فمنهم الملك المظفر تقي الدين ، حضر إلى القبة وكنسها بيده، ثم غسلها بالماء مراراً، ثم أحضر أحمالاً من ماء الورد غسلها به، وفعل ذلك بحيطانها وجدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب. وعين الملك الناصر الكنيسة المعروفة بصندحنة مدرسة، ودار البطرك رباطاً، ووقف عليهما وقوفاً كثيرة، وولى الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد القدس وأعماله ،فاستناب فيه أخاه ظهير الدين علي، وجهز الملك الناصر القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد، ومبشراً بالفتح.

وتسلم الملك الناصر ما حول القدس من الحصون، وعاد إلى عكا فنزلها في أول شهر رمضان من السنة، وحرضت الأمراء الملك الناصر على قصد صور، وكان أكثرهم تحريضاً الأمير سيف الدين المشطوب، وكانت معه صيدا وبيروت، وخاف من فوتها، ولم يفكر في قوتها، بانتقال

رجال الساحل إليها، وكان المركيس لعنه الله حال اشتغال المسلمين بالقدس، قد أحكم صور ، وحفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، فرحل الملك الناصر بجيوشه قاصداً صور، فوصلها في تاسع شهر رمضان، وخيم عليها، وجرت حروب كبيرة، فلم يتفق فتح، وهجم الشتاء ، فاتفقت الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء، ويستريح الجند، وتألم الملك الناصر لفوت ذلك،وعاد إلى عكا، وسكن بها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: في آخر ليلة من شوال استشهد محمود بن أخي جاولي على كوكب، وكان دائم التهجد ، زاهداً شجاعاً.

وفيها وصل تاج الدين أبو بكر ـ أخو العماد الكاتب ـ رسولاً من الامام الناصر إلى الملك الناصر يعاتب الملك الناصر على احداث أشياء نقلت عنه، منها: أنه نعت نفسه بالملك الناصر، ومنها أنه لما فتح الساحل جهز في الابتداء مبشراً به شاباً جنديا مستحقراً، وكان العماد الكاتب وغيره أشاروا أنه لايمضي مبشراً بالفتح إلاّ رجل كبير مميز، فقال الملك الناصر: نحن ننفذ هذا الشاب الجندي في الابتداء، ثم نرسل بعده رجلاً كبيراً. ومنها أنه لما فتح القدس جهز لبشارته نجاباً، وما يليق إلاّ انفاذ عالم كبير، وإنما نفذ الامام الناصر تاج الدين أخا العماد الكاتب رجاء أن يطلع من أخيه على الأسرار، فإن الكاتب يطلع على أسرار الملك. فلما وصل تاج الدين أكرمه الملك الناصر، وبالغ، فلما أدى عليه رسالته وقرأها في تذكرته، وكان في ألفاظها غلظة وشدة، قال الملك الناصر: ما أسعدني إذا شرفت بالعتاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين، ولم أزل في نصرة المسلمين، أما أنا فتحت مصر، ودعوة الداعي قد باضت بها وفرخت، واستأنفت بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما أنا استخلصت اليمن والساحل، وفتحت البيت المقدس، وأما النعت الذي

أنكـر عليّ فهو مـن عهد الامـام المستضيء وقـد اشتهر في الآفـاق، والآن فكلما يشرفني بـه أمير المؤمنين من السمة فهـو اسمي الـذي أتشرف به ، وإني أفترض طاعة أمير المؤمنين للدين لا للدنيا، وذكـر كلاماً طويلاً هذا خلاصته، ثم أعاد تاج الدين بجواب رسالته، ومضى.

وفيها توفي شمـس الدين بن المقدم بعرفـة، وسببه أن طاش تكين أمير الحج أنكر عليـه ضرب الطبل ، فـامتنع ، فأمـر طاش تكين أصحـابه أن واقعوا شمس الديـن وأصحابه فتواقعوا وذهب شمس الـدين غـلطاً، ولما عاد طاش تكين إلى بغداد غضب الامام الناصر عليه بسبب ذلك، وعزله عن إمارة الحاج، ثم اعتقله بعد مدة.

ودخلت سنة أربع وثمانين

والملك الناصر مقيم بعكا، فسار إلى كـوكب رأى حصانتها، ووكل بها قـايماز النجمي، وجهـز إلى صفد طغـريل الجانـدار، وكان سعـد الديـن الأسدي مـوكلاً بقلعـة الكرك، وقـد ذكرنـا أن الملك النـاصر ضرب عنق صاحب الكرك بيـده، وكانت زوجته ابنة فليب مقيمـة بالقدس، وحصل ولدها هنفـري في الأسر، فلما فتح الله سبحانـه القدس، خرجت صـاحبة الكرك ابنـة فليب طـالبة الملـك الناصر بـاكية على ولـدها، حـاسرة والهة راغبـة في فك ولـدها، وخـرجت معهـا زوجـة ابنها بـاكية نـادبة زوجهـا هنفري، فـأكرمهما السلطان، وتقـرر مع صـاحبة الكرك اطـلاق ابنها على تسليم قلعتـي الكرك والشـوبك إلى المسلمين، واستحضر السلطـان ابنها هنفـري من دمشـق، وسـار معهـم جماعة مـن الأمـراء لتسليـم المعاقـل، ومضت الملكة مع ولدها حسنة الظن بمـن بالمعاقل، من أهل دينها، فلما وصلـت إليهم منعـوها وقـاطعوهـا وشتمـوها، فـذكرتهم وخـوفتهم، فلـم يصغوا إلى مقالتهـا، فعادت إلى السلطان خائبة ، فقبل عـذرها، وأعلمها

أن ولـدها محفـوظ ملحوظ إلى أن يتسلـم منها الحصـون، ويسلمه إليهـا، فمضت إلى صور وسكنت بها.

ثم أخذ السلطان يستشير في أمـر عكا وتهديمها أو عمارتها، واختلفت الآراء فترجح عنـده عمارتها ، فقال: مـا أرى لها إلا بهاء الديـن قراقـوش، فبعـث كتاباً أحضره، وسلمها إليـه لعمارتها، وعـاد السلطان إلى دمشـق، ودخلهـا في سادس ربيـع الأول، وكان الصفـي بـن القابـض، قد ابتنـى للسلطـان داراً على بعــض أبـراج قلعــة دمشـق، وأذهــب في نضـارتها وزخـرفتهـا مـالاً عظيماً، ظنـا منه أن هـذا يعجـب السلطـان، فلما دخـل السلطـان إلى دمشق اجتهـد الصفي في دخـول السلطان إليهـا، وتوسـل وتـوصـل، فما التفت السلطـان ولا دخلهـا وقـال: السعيد مـن يبنـي دار الآخرة، ثم عزل الصفي عن ديوانه بسببها، وأبقاه على الخزانة.

قال العماد الكاتب: سمعت السلطـان يقول: كان خير ذنوب الصفي عندي بناؤه تلك الـدار، وما يعمل بالدار من يتوقـع المنية، وما خلقنا إلاّ للعبـادة، والسعي في السعـادة، ومـا يخطر لنـا خلـود في هـذه الدار، ثـم وردت الأخبـار بوصـول عسكـر الشرق إلى حلـب، فتوجـه السلطـان إلى بعلبك، ووصل عماد الـدين زنكي بن مودود بـن زنكي إلى بحيرة قدس، وخيم عليهـا، فخرج السلطـان إلى قدس، وتلقاه عماد الـدين، ثـم دخلا إلى الساحـل، ونهب المسلمون من الأغنـام شيئاً كثيراً، وقطعوا أشجـارهم وخربـوا ديارهم، وفتحوا حصــن يحمور، وساروا إلى أنطرطـوس في سادس جمادى الأولى، وزحفـوا إليهـا وهـدمـوهـا ونهبـوا مـا فيهـا مـن الأنفـس والأموال، وامتنـع منها برجـان في أحدهما الـداوية ، وفي الآخر جملـة من المنهزمين، فسلم مظفـر الدين برج المنهـزمين وتسلمه منهم وهدمـه ورمى بحجارته إلى البحـر، وامتنع برج الداويـة فتركه خوفاً مـن فوات غيره، ثم سار نحـو جبلة وتسلموها بـأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، ثـم مضوا إلى صهيون، ونصب المجانيق عليها، واشتـد عليهم الحصار حتى صاحوا الأمـان، فأخـذهـا السلطـان منهم بما فيهـا مـن العـدد والأموال، وقطـع

عليهم مثل قطيعة القدس، ثم سلم السلطان صهيون بجميع ما فيها إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، ثم تسلم السلطان قلعة العيد، ويوم السبت قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلا طنس، ثم مضى إلى الشغر بكاس فتسلمها بالأمان، وكان من نوادر ألطاف الله تعالى تيسر هذه الفتوحات الخمسة المتتالية في أيام الجمع الخمس المتتالية، ثم سار السلطان إلى برزية وفتحها بعد حروب كثيرة في جمادى الآخرة أيضاً،ثم توجه إلى الدربساك وتسلمها في ثاني عشر رجب، ثم تسلم من الداوية حصن بغراس وعجب من ذلك، وسلم الحصنين إلى سليمان بن جندر، وكان له حصن عزاز، ثم عزم على قصد أنطاكية، فوصله رسول صاحبها يسأله الهدنة على أنطاكية وما في يده ثمانية أشهر، فأجابه على ذلك، وتوجه السلطان إلى حلب فدخلها، ثم توجه إلى معرة النعمان قاصداً زيارة الشيخ أبي زكريا الزاهد رحمه الله، فزاره وتبرك به، ثم مضى إلى حماه، وتوجه إلى دمشق فدخلها في آخر شعبان من السنة، وظن الناس أنهم يقيمون بدمشق للصوم عند أهاليهم، فما لبث السلطان ولا مكث، وخرج في أوائل شهر رمضان، وقصد صفد وقاتلها مدة شهر إلى ثامن شوال فتسلمها بالأمان بعد قتال شديد، فلما كان منتصف ذي القعدة فتح السلطان كوكب بعد حروب عظيمة، وتوجه السلطان إلى القدس في مستهل ذي الحجة وعيد به عيد الأضحى، وودعه الملك العادل ومضى بعسكره إلى مصر، وخرج السلطان إلى عكا.

ودخلت سنة خمس وثمانين

والسلطان مقيم على عكا يرتب أمورها ويصلحها، فلما كان العشرون من شعبان زحف الفرنج عن يد واحدة، واقتتل المسلمون وهم قتالاً عظيما استشهد فيه الأمير مجلي بن مروان، وظهير الدين علي أخو الفقيه عيسى، وطلبوا مخيم السلطان فانهزم المسلمون، ووصل بعضهم إلى

طبرية، وبعضهم إلى عقبة فيق، ومنهم من وصل إلى دمشق، وخيف على السلطان ، واشتغل كل بنفسه، ثم ورد الخبر أن السلطان صادف جمعاً من الفرنج فقاتلهم وانتصر عليهم، فتراجع الناس إليه، ووقعوا على ميسرة العدو ووضعوا فيهم السيف، ولم ينفلت منهم إلاّ الآحاد

قال العماد الكاتب: حكي أن الفرنج اعرضوا في مائة ألف وعشره آلاف ،ومن العجب أن الذين ثبتوا من المسلمين لم يكونوا ألفا، فردوا مائة ألف، وحكى بعض المنهزمين قال: انهزمت من فارس كافر وفرسه يجري جري الريح، ولزني حتى آيست من البقاء، ثم أبطأ عليّ فعله بي فالتفت وإذا به وبحصانه ملقيان وليس هناك أحد، فعرفت أنه نصر إلهي. واستشهد في هذه الوقعة الفقيه جمال الدين أبو علي ابن رواحة، ثم وقع الاتفاق على تأخير القتال، وتأخر السلطان إلى اخروبة، وشرع العدو في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر، فحفروه وعمقوه.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، موته في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بدمشق، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فكان عمره أربعاً وتسعين سنة، كان عالما بمذهب الشافعي، عظيما فيه، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الفارقي وقرأ الفارقي على الشيخين أبي اسحق الشيرازي، وأبي نصر بن الصنباغ، وقرأ أصول ابن برهان على ابن برهان، وقرأ تعليق أسعد على أسعد،وأنجب من أصحابه خلق عظيم، وهو كان السبب لعمارة المدارس واشتهار العلم بالشام.

وفيها وصل أمر أمير المؤمنين الامام الناصر إلى السلطان الملك الناصر بالخطبة لولده ولي العهد عدة الدين أبي نصر محمد، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ونثرت الدنانير على الخطيب، وأمر بذكر اسمه في السكة والخطبة ففعل.

وفيها في تاسع ذي القعـدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسـى بن محمد ، وحمل من يومـه إلى القدس فدفن به، وفيهـا توفي عز الدين بن [illegible] في بكرة الجمعة منتصف شعبان.

ودخلت سنة ست وثمانين

والسلطان مقيـم على الخروبة، والملك العـادل والأفضل معه، والفـرنج محاصرون عكا،ودام الحصار جميع السنة.

وفيها كـانت وقعة الرمـل: كان السلطان يركـب أحيانا للصيد فـركب يومـا لذلك، فطـاب له وأبعد، فخرج الفـرنج طالبين بعـد العصر، وحملوا حملة واحدة على المسلمين، وفني نشاب المسلمين، واستشهد منهم جماعة.

وفيها في نصف ربيـع الأول تسلم السلطان شقيف أرنـون، وفيها صح الخبر أن ملـك الألمان عبر مـن خليـج القسطنطينية ، وكـان معـه خلـق لايحصون ، فقيـل إنهم أقاموا في مـوضع شهراً عـدموا فيه الطعـام فهلك منهم خلق، وتـوصل الباقون إلى بـلاد قليج أرسلان بن مسعـود، فقاتلهم فهزمـوه ودخلوا قونيـة ثم راسلهم وصـالحهم على العبور إلى بـلاد الشام، فاصطلحـا على ذلك، وبعث مليح بـن لاون معه عشرين أميراً ليـوصلوه إلى مأمن، فلما وصل ملك الألمان إلى المأمن، غـدر بالأمراء، وساقهم معه مقيديـن إلى طرسوس، فمكث بها مـدة، ثم قيل إنه عـنّ لملك الألمان أن يسبـح، وكان شيخـاً مسنـاً، فسبح في الماء البـارد، فخـرج منـه مريضـاً، ومـات إلى لعنة اللـه تعـالى، وقيـل إنه غـرق ، وقيـل إنـه لما مات سلقـه أصحـابه في قـدر حتـى تخلصت عظـامـه، ثم جمعـوهـا في كيس ورامـوا انفاذها إلى القـدس ليدفنوها في قمامة اكـراما له على ما وصاهـم به، وقام ولده مقـامه، ووصل إلى السلطـان كتاب اللكوتـاغيكوس صاحـب قلعة الروم يبدي نصيحـة، وأرعد فيه وأبرق بقضية ملك الألمان، وحكـى له ما

جرى له معه، فذكر أنه بذل لملك الألمان مائة قنطار ذهب وفضة نضفين،ومن الثياب الطلس المعدنية ما يبلغ آلافا، وكثر في ذلك وشدد وأنه توفي بعد استحمامه بماء بارد، وقد خلف ولده، وقد عرض في اثنين وأربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلكثرتهم تعذر العرض.

فلما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار، ثم قدر الله سبحانه مرض ولد ملك الألمان ، ومات أصحابه جوعاً، وتواصل من سلم منهم إلى أنطاكية ، وتفرقت بقية منهم التقطهم المسلمون والتركمان، وباعوهم بحلب في الأسواق، حتى أن فلاحي القرى طمعوا بهم واستأسروهم، فتوجه ملك الألمان بنفر يسير إلى عكا، فاختلط مع الفرنج عليها.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان توفي زين الدين يوسف ابن ايتكين صاحب إربل ، وسر أخوه مظفر الدين بوفاته. وقال العماد: قصدناه معزين وإذا به في رواقه واحتاط على جميع ما يحويه، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط، وزاده السلطان شهر زور.

وفيها وقعة رأس الماء، في رابع عشر شوال، وسببها أن الأسعار غلت عند الفرنج حتى هلكوا جوعاً، وبلغت الغرارة مائة دينار، فخرجوا بحدهم وحديدهم وعدّهم وعديدهم، وعبأ السلطان عسكره، والتقى الجمعان، وقام اياس الطويل في هذا اليوم مقاماً عظيما، ووقف بين الصفين يدعو إلى المبارزة، فما برز إليه أحد إلاّ صرعه.

ثم هجم الشتاء وأذن السلطان للأجناد الغرباء والملوك بالإنصراف، فعادوا إلى منازلهم، وأقام بخاصته على قدم الغزاة.

وفيها في ثاني عشر ذي الحجة هلك ولد ملك الألمان، ولحق بأبيه لعنهما الله تعالى.

ودخلت سنة سبع وثمانين

فيها وقعت وقائع على عكا آخرها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، فهجم الفرنج عكا واستولوا عليها، وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين سر باريك وأخذا أمانا من الفرنج على أن يخرجا بأنفسهما وأموالهما على تسليم البلد ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة أسير من المعروفين، وصليب الصلبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس، وأربعة آلاف لحجابة، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين، حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بقصد أخلاط وغيرها.

وغدر الفرنج بالمسلمين بعد الأمان، وأسروا بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب، ثم لما استقروا بعكا خرجوا إلى قيسارية، ووقعت وقعتها في تاسع شعبان، واستشهد اياس الطويل. ثم في رابع شعبان كانت وقعة أرسوف ،وثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، ونزل الفرنج على يافا، وتوجه السلطان إلى عسقلان فهدمها في تاسع عشر شعبان، ثم توجه إلى الرملة فنزلها بعد هدم عسقلان.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو محاصر ملازكرد، وقد ذكرنا أن مولده في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وشهوراً.

وفيها توفي حسام الدين محمود بن عمر بن لاجين ـ وهو ابن أخت السلطان الملك الناصر ـ بدمشق، في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان في يوم وفاة الملك المظفر. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر. وفيها

توفي الصفي بن القابض في ثالث عشرين رجب. وفيها توفي نجم الدين الخبوشاني، وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الشافعي رحمه الله، ووقف السلطان عليها رباعاً، فلما توفي الخبوشاني طلب المدرسة جماعة، وشفع الملك العادل في صدر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية، فسلمها إليه، ثم عزل بعد ذلك بمدة قليلة.

وفيها مات قزل صاحب خراسان، وملك ابن أخيه أبو بكر.

وفيها تسلم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب بهسنا، وكيسون ورعبان والمرزبان. وفيها قتل الملك الظاهر شهاب الدين السهروردي وتلميذه لفساد دينه واعتقاده.

وفيها توفي القاضي محيي الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بالموصل، وفيها توفي الفقيه علاء الدين الكاشاني بحلب، مدرس مدرسة الحلاويين، وكان رئيس أصحاب أبي حنيفة بها.

ودخلت سنة ثمان وثمانين

وصل السلطان إلى القدس، وشرع في تحصينه وعمارته، ثم وصله الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر، وكان لما أسر قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار، أدى منها ثلاثين ألفا، ودفع رهائن بعشرين ألفاً، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها لمصالح القدس، وترك عماد الدين أحمد بن المشطوب بنابلس، وأبقي عليه فيها.

وفيها: هلك المركيس لعنه الله بصور، قتله كافران بالسكاكين في ثالث عشر ربيع الآخر. وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش ، قاضي العساكر.

وفيها أخذ الفرنج الداروم عنوة، وقتلوا كل من به من المسلمين، قيل كانوا خمسمائة نفس وفيها مضى السلطان إلى يافا ونقبوها وهجموها، وذلك في شهر رجب، وفيها قريب من ألف نفس من الفرنج، وطلبوا الأمان فبطل السلطان عنهم القتال طمعا في أخذهم، فجاءهم صبيحة يوم السبت نجدة من عكا، ستون مركبا موسقة بالرجال، وقاتلوا المسلمين، وقتلوا منهم جماعة، وعند ذلك ظفر السلطان بهم، فطلبوا الصلح، وطلب السلطان منهم عسقلان وغيرها فردوه فأجابوا فتسلم منهم مدينة عسقلان وهدمها، بعد أن غرم الفرنج على عمارتها مائة ألف دينار.

ودخلت سنة تسع وثمانين

كان السلطان دخل دمشق، فلما دخل صفر مرض ثم توفي في السابع والعشرين من صفر، رضي الله عنه، وقد ذكرنا أن مولده في سنة اثنتين وثلاثين، فكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرا، وخلف من الولد سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة، وكان الملك العادل يومئذ بالكرك فحضر بعد أيام إلى دمشق، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة، فإن السلطان كان قد جعل له كل ماشرقي الفرات من البلاد، ولم يخلف السلطان في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، هكذا ذكره العماد الكاتب.

قال العماد الكاتب: حسب ماوهبه السلطان من الخيل لمن حضر معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين اثني عشر ألف رأس من الخيل، من حصان واكديش وحجرة، غير ما أطلقه من المال لشراء الخيل، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب او موعود بهبته، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا جاهد عليه، فإذا نزل أعاده إلى صاحبه، وكان لايلبس إلا مايحل لبسه من قطن وكتان وصوف، وكانت محاضره مصونة، وخلواته

مقـدسة، عـالما بعلـوم الشرائع، وكان المجـالس لـه لايعلـم أنه جليـس السلطان بل جليس لأخ من الأخوان.

قـال العماد: ومما أذكـر لـه أنــه تـوجـه إلى مصر سنـة اثنتين وسبعين فحوسب صاحب ديوانه، فكانت سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبهـا ولا ذكرهـا مع أن صاحـب الديـوان معترف بها، ووصله كتاب سيـف الدولة ابـن منقذ مـن مصر يخبره أن شخصا ضمن معـاملة بمبلغ فاستقـص منها ألفي دينار وهرب، وربما وصـل إلى الباب الشريف وتمحل وتحيل وكذب، فـأخبر السلطان أنه بالباب، فقال السلطـان: قولوا له: ان ابـن منقذ يطلبك فـاجتهد ان لاتقع في عينـه، فتعجب الحاضرون من كرمه وحلمه.

قال العماد: وقـال لي بحرّان في سنة إحدى وثمانين: اكتـب إلى الصفي ابن القابض يتصدق بدمشق بخمسـة آلاف دينار صورية، فقلت الذهب الـذي عنده مصري، فقـال: يتصدق بخمسـة آلاف دينـار مصرية، قـال العماد: وأشفق من صرف المصري بالصوري لما فيـه من الربا، قال العماد: فسمعت بعد ذلـك من الصفي يقول: أحصيت فقهـاء المدارس بدمشق، فكانوا ستمائة فقيه، فأطلقت لكل فقيـه شيئا من ذلك، قال العماد: وقال لي يوم الرحيـل من حران: انظر كـم بقي من الوافـدين بالباب مـن أبناء السبيـل، وهـذه ثـلاثمائة دينـار فرقهـا عليهـم، وفضـل مـن شئـت على أقدارهم، فعينـت لكل واحد منهم قسما، فبلغـت القسمة أربعمائة دينار، فجعلت أفكـر وأطيل النظر إليـه، فقال: مالـك؟ قلت: قد جـرى القلم بقسمة أربعمائة دينـار فهل أنقص من كـل قسم ربعا؟ فقـال: لا، أجري ماجرى به القلم، وأحسن صنعا، وكانـت مماليكه وخواصه وأجناده أعف من الزهاد.

قال العماد: ورأى يـوما دواتي محلاة بالفضة، فـأنكرها، فقلـت: أوليس

تحل حلية السلاح، فدواتي أنفع، ويراعي أطول، وسلاح قلمي أجد وأجد، ومااجتمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي، فقال: ماهذا دليل، فقلت: إن الشيخ أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين أبي المعالي قد ذكر وجها في جواز تحلية الدواة، وأنا أتبعه، ثم بعد ذلك ماعدت كتبت منها، إلا من دواة شبه خوفا منه.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوقاتها، وعلى أداء سننها، ولايصغي إلى قول منجم ولامنطقي، ولايفضل يوما على يوم ولازمانا على زمان، هذا خلاصة ماذكره العماد الكاتب، وبالجملة كان السلطان رحمه الله أعظم من أن يوصف بالصفات الجميلة والآراء الحميدة، وكل ماذكره العماد الكاتب عنه مقبولا ولايمكن دفعه ،وأول من جمعه.

ولما مات السلطان قدس الله روحه قام بالملك بعده ولده الملك الأفضل نور الدين علي، واستقل بدمشق، وكان السلطان عهد إليه في حياته واستحلف الجنود له.

وفيها توفي عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وقام بالأمر بعده ولده نور الدين، وفيها تسلم الملك العادل قلعة جعبر وسروج والرقة، وصالح صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وأخذ العساكر، ودخل إلى بلاد أخلاط فكسره صاحبها وقتل من أصحاب الملك العادل جماعة وأسر جماعة، وهجم الثلج، فعاد الملك العادل إلى حران.

وفيها فارقت الياروقية الملك الظاهر من حلب، وانتقلت إلى خدمة الملك العادل.

وفيها قتل سلطان همذان طغرل-شاه بن أرسلان شاه، وحمل رأسه إلى بغداد على قناة، وعلق على الباب النوبي، وفيها أخذ الإمام الناصر

البوازيج من صاحب إربل وسلمها إلى صاحب الموصل، وفيها ذكر أن خليجا من نيل مصر أصبح دما عبيطا وفيها ورد الخبر بأن ذئبا كلبا هجم دنيسر، وعض اثنين وتسعين نفرا فماتوا جميعا، وفيها وقع بأرض بالس برد كبار، وزن البردة على ماقيل مائة وعشرون درهما، هلك به الوحش والطير والنعم والماشية والخلق والضياع والأشجار، وأخرج من الماء برد بعد خمسة عشر يوما من وقوعه في الماء مثل بيضة الحمام، وجاء عقيب ذلك رعود طارت العقول منها، وفقعت فقعة كان منها صاعقة نزلت في اصطبل بالياروقية أحرقت سبعة أنفس كانوا منتبهين، وإلى جانبهم ثلاثة انفس نيام لم تصبهم وسلموا.

ودخلت سنة تسعين

فيها نزل الملك العزيز عثمان صاحب مصر إلى دمشق يحاصرها، وأقام عشرة أشهر وقطع الماء عنها، فبعث الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل وأخيه الملك الظاهر يستنجدهما فوصلا إليه ورحلا العزيز عنها، واصطلحوا جميعا، وعاد العزيز إلى مصر، وأخذ الملك الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

ودخلت سنة احدى وتسعين

ففيها توفي القاضي مجد الدين أبو القاسم هندي بن يوسف بن هندي، الحاكم بمدينة حمص، وصلى عليه الخطيب ضياء الدين الدولعي بجامع دمشق، ثم صلى عليه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري خارج باب الصغير، ثم صلى عليه الحافظ ضياء الدين ابن عساكر بالمصلى، ثم صلى عليه القاضي محيي الدين قاضي دمشق، ابن القاضي زكي الدين بمسجد النارنج ودفن به، وكانت الجنازة عظيمة وافرة جدا، وكان رحمه الله عالما فاضلا عظيما مهيبا، وقام بالقضاء بعده القاضي زين الدين أبو

الفضل محمد، وكان في زمن والـده ينوب عنه في القضاء بحمص وأعمالها في غيبته وحضوره، ثم استقل بالقضاء بحمص وأعمالها بعد وفاة والده.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها نـزل الملك العـادل أبو بكر بـن أيوب على مـاردين، وحـاصرها، وأخذ الربض في ذي الحجة من السنة.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها تـوفي الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر وقـص به فـرسه فمات، واتفقت الصـلاحية على توليـة الملك العادل بمصر، فحضر إليهـم سيف الـدين يـازكش، وأشـار بإحضـار الملك الأفضـل وتوليتـه، وكان يـومئذ بصلخد، واتفقوا على ذلك وأحضروه وولوه السلطنـة بمصر، واستقر حاله بها، ثم بعد ذلـك خرج فخر الديـن جهاركس والصلاحيـة مغاضبين إلى القدس، وأخذوه، وبعث الملـك الظاهر صاحب حلب، والملـك المجاهد اسـد الديـن شيركوه صـاحـب حمص إلى الملك الأفضـل، وأشاروا عليـه بقصد دمشق وأخذها وأنهما ينجدانـه، فخرج الأفضل قاصدا دمشق، ولما بلغ الخبر الملـك العادل سيف الـدين أبا بكر، وهـو يومئذ بمارديـن ساق مستحثا طالبا دمشـق، فدخلها في أيام قلائل قبل وصـول الملك الأفضل إلى دمشـق، وسببه أن الأفضـل اعتـاق في الطـريق لالضرورة، ولـو كـان استحـث نفسـه سبـق إلى دمشق، ولما وصـل الأفضـل إلى دمشـق جـاءه الملك الظاهر وصاحب حمص، وأناخا على دمشق محاصرين عمهما الملك العـادل، فحاصراه والملـك الأفضـل مدة، ثـم هجم الشتـاء فـرحلا عـن دمشـق، وكان الملـك العـادل في خلال الحصـار استـدعـى ولده الملـك الكامـل، وهو على ماردين بالعساكر، فجـاء العادل بعساكـره إلى دمشق ودخلهـا، ولما رحل الملـك الظـاهـر والملك الأفضـل عـن دمشـق توجـه

الظـاهـر إلى حلب، والأفضـل إلى مصر، وعـاد الملـك الكامـل إلى جهـة الشرق، ثم توجه الملـك العادل إلى مصر تابعا للأفضل فـوصلها، وكانت عساكـر مصر قد بـاطنت وخامـرت ونكثت أيمانها، فملـك العادل مصر، وخرج الملك الأفضل إلى صلخد.

وفيها تـوفي القاضي الفـاضل عبد الـرحيم بـن البيساني في الليلـة التي دخل الملك العادل فيها إلى مصر بعلة السكتة.

ودخلت سنة ست وتسعين

لم يزد فيهـا نيل مصر، واشتـد عليهم الغـلاء والوبـاء حتى مـات أكثر الناس بها جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفيها وليّ القاضي ضيـاء الدين بن الشهرزوري قضـاء القضاء ببغداد، وفيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل محمد بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حمص إلى مدينـة حماة مفارقا حمص وقضائها، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالإكرام والإعظام واستقضاه وبعثه رسولا في سنته إلى الديار المصرية إلى الملك العادل سيف الدين.

ودخلت سنة سبع وتسعين

كان الملـك العادل أقطـع ابن أخيـه الملك الظـافر خضر السـواد من الشام، فبلـغ الملك العادل أنـه يكاتب أخـوته باطنـا، فأقطع الصـلاحية السواد وأمـر عليهم عـز الديـن سامـة، وأمرهـم بقصد صلخـد ومحاصرة الأفضل ففعلوا، ثـم أقطع الملك العادل سيـف الدين أبو بكـر ابن أخيه الملـك الأفضل ميـافارقين وجبـل جور، ونفـذ في الباطـن إلى ولده الملـك

الأوحد المقيم يومئذ بميافارقين يأمره أن لايسلمها إليه، فخرج الملك الأفضل في جمادى الآخرة من السنة، ومضى إلى حلب واستنجد بأخيه الملك الظاهر، فأكرمه، وجند الملك الظاهر الجنود وخرج بنفسه وعساكره وأخرج معه خزانة السلاح محمولة على مائتي جمل، وقصد منبج، فأخذها، وصاحبها يومئذ شمس الدين عبد الملك بن المقدم، وقبض عليه وبعثه إلى حلب، فاعتقله بها، ثم توجه إلى قلعة نجم فأخذها وسلمها إلى نواب أخيه الأفضل، وعاد إلى جهة حماة ومعه من العرب أمم عظيمة، فنهبوا القرى وأجلوا أهلها وسفكوا دمائهم، وأكثروا الفساد في الأرض، وأخافوا السبيل، ثم مضوا إلى حماة فحاصروها في شعبان وشهر رمضان من سنة سبع وتسعين، ثم اصطلح الملك الظاهر والملك المنصور، وتوجه الملك الظاهر والملك الأفضل إلى حمص وصاحبها يومئذ(اسد الدين شيركوه) ابن احمى الملك الأفضل، والكل متفقون باطنا، ثم مضيا إلى بعلبك، فأعطاهما صاحبها مالا، ثم توجها إلى دمشق في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين، فنزلا في ميدان الحصا والمقابر، وزحفا مرة، ثم زحفا مرة ثانية فملكا العقيبة وهدماها، وملكا خان الملك المظفر تقي الدين، وخرج إلى الملك الظاهر الخطيب الدولعي والأمير عز الدين سامة ولطفا به ووعداه أنه اذا توجه إلى عمه الملك العادل وبلغ مقصوده منه وعاد سلموا إليه دمشق صلحا.

وفي أثناء ذلك وقع فيما بين الملك الظاهر والملك الأفضل، وفسد الحال ورحلا عن دمشق في أول صفر سنة ثمان وتسعين، ولما عاد الملك الظاهر إلى حلب صالح الملك الأفضل عمه الملك العادل على سروج وسميساط والموزر، فدفعها الملك العادل إليه، وخاف الملك(المنصور) صاحب حماة من الملك الظاهر على المعرة، فراسل الملك العادل في استدعائه للمقام بظاهر حماة، ونزل ظاهرها، ثم اتفق الصلح بين الملك العادل وبين الملك الظاهر.

وفيها توفي حسام الدين صاحب ماردين، قيل إن غلامه قد سقاه سما، فمات منه، وفيها عزل القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري عن قضاء بغداد، وفسح له في العودة إلى وطنه.

وفيها توفي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إمام وقته في علم الوعظ والحديث والجرح والتعديل والتفسير والتاريخ والسير، والفقه على مذهب أحمد بن حنبل، صنف في كل علم وطبق الأرض ذكره، واشتهرت تصانيفه وكان من العلم والفضل بمحل عال وأما الوعظ ومواده فهو مسلم إليه.

وفيها زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة بالشام والسواحل هدمت صور وعرقة وأبراجا من عكا وهلك فيها خلق عظيم ووقع رأس منارة دمشق والكلاسة وأبراج من قلعة حماة وبارين وشعثت شيزر وبعلبك.

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة الست وحشية خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ووصلت إلى حماة وكان يوما مشهوداً ،وتوفيت السنجارية زوجة الملك المنصور قبل ذلك بثلاثة أيام فكان موتها راحة لها.

دخلت سنة تسع وتسعين

فيها في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ولد الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك منصور والدته وحشية خاتون بنت الملك العادل سيف الدين.

وفيها ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء حماة في صفر وتوفي في العشر الاوسط من رجب من السنة فكانت مدة ولايته خمسة

أشهر فيها شهر واحد صحيح الجسم ، والباقي مريض، وفيها توفي القاضي محيي الدين أبو المعالي بن القاضي زكي الدين قاضي دمشق المحروسة.

ودخلت سنة ستمائة

فيها توفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر بدمشق.

ودخلت سنة خمس وستمائة

فيها جاءت زلزلة عظيمة هائلة في الثلث الأخير من الليل هدمت شراريف من برج القلعة بحماة المحروسة وهدمت أبراجا بقلعة بارين وهدمت غالب قلاع الساحل وحكي ان البحر غار قطر منه وعمت معظم البلاد في الأقطار.

ودخلت سنة ست وستماية

فيها توجه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الى سنجار فنزل عليها وصحبته الملك المنصور صاحب حماة وغيرها وذلك مدة أشهر.

وفيها توفي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بابن خطيب الري صاحب الكتب المصنفة في الحكمة والمنطق والأصولين وغيرَ ذلك، طبق ذكره الأرض واشتهر فضله وسارت مصنفاته وعلت منزلته عند خوارزم شاه حتى كان يقرأ عليه ويقعد بين يديه، وتوجه الى عند شهاب الدين الغوري وحظي عنده بالحظوة العليا وله أخبار منقولة وسير مشهورة ومولده في حدود سنة خمسين وخمس مائة،

وأخـذ العلم عـن والـده الخطيب بـالري وعـن مجد الـدين الجيلي وأخـذ الحكمة وعلم الكلام عن الحمّصي — بميم مشددة•

ودخلت سنة سبع

فيهـا وردت رسـل البـاطنيـة الى بغداد مـن ألموت وبقيـة بـِلادهـم، وخبروا عنهـم أنهم اسلمـوا وأظهـروا شعائر الإسـلام وبعثـوا بمفـاتيـح بلادهـم وقلاعهم الى دار الخلافـة وبعثوا ذهبـا مضروبا عليه اسـم الإمام الناصر لدين الله تعالى وزَفّت في جوانب بغداد•

وفيها تـوفي نور الـدين زنكي صـاحب الموصل وتقلـد السلطنة بـالموصل بعده الملك القاهر•

ودخلت سنة ثمان وستمائة

فيها تـوفي شيخنا الإمام عماد الـدين أبو حـامد محمـد بن يونـس إمام أصحاب الشافعي في وقته، مولـده في حدود سنة اثنتين وخمس مائة وكان رحمه اللـه جامعـا بين العلم والعمـل انتهت اليـه رئاسـة الديـن والدنيـا وصنف في أصول الفقه وفـروعه، وكان إذا مرض يعوده نور الـدين أتابك صاحب الموصل في منـزله، وكان نور الدين حنفـي المذهب، فعاد الشيخ عماد الديـن مرة في مرضـه وسأله حاجـة فقال: ارى أن تعود الى مـذهب الشافعـي فعاد من وقتـه وبنى لأصحاب الشافعـي مدرسة لم يـر الراؤون أحسـن منها، ودفعهـا للشيخ عماد الـديـن رحمه الله، وكـان الشيخ هـو المعتمد للترسـل الى دار الخلافة، ولما تـوفي نور الـدين انحـدر الشيخ الى بغداد رسـولا وأخذ التقليـد الشريف بالسلطنـة بتملك القـاهر بـن نور الدين أتابك، وبعد هذه السنة خال الى:

سنة اثنتي عشرة

فيها حج الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ومهد طريق تبوك وفتحها فانقطع الحاج عن طريق تيماء وسلكوا طريق تبوك.

ودخلت سنة ثلاث عشرة

فيها مات الملك الظاهر غياث الدين غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب في العشرين من جمادى الآخر وكان رزئا عظيما في الإسلام.

ودخلت سنة اربع عشرة

فيها خرج التتر الكافر الى بلاد خراسان وماوراء النهر، وأسروا خوارزم شاه، واستولوا على بلاد المسلمين،وتسلموا خوارزم وهدموها، وقتلوا كل من بها، وفعلوا ذلك ببخارى، وتلك الأقاليم حتى روى جماعة من التجار والفقهاء الواردين من تلك الجهات أنهم هدموا مائتي مدينة ونيف، وقتلوا من الفقهاء آلافا كثيرة، فكيف بالعوام، وانقطعت السبل في تلك النواحي سنين عديدة.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بعالقين على فراسخ من دمشق وقد ذكرنا ان مولده في سنة سبع وثلاثين، فكان عمره سبعا وسبعين سنة وشهورا.

ودخلت سنة ست عشرة

في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شعبان تسلم الفرنج دمياط بعد محاصرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما، فإنهم نزلوا عليها في ثالث ربيع الأول سنة خمس عشرة، وأقام السلطان الملك الكامل في مقابلتهم بمن معه من الملوك والعساكر الاسلامية مدة طويلة بالمنزلة المشهورة بالمنصورة وجرى بين الفريقين من القتال برا وبحرا مالايمكن وصفه واشتد الغلاء بدمياط في حالة حصار الفرنج لها حتى لم يبق يوجد شيء وإن وجد كان أضعاف أضعاف ثمنه ونفدت نفقاتهم ووقع فيهم الفناء فماتوا، ولما تسلم الفرنج دمياط في التاريخ المذكور مازالت بأيديهم والمسلمون يحاصروهم ،ويوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة ثماني عشرة وستمائة فتحها المسلمون وتسلموها من الفرنج كل ذلك بحول الله وقوته وبعزم السلطان الملك الكامل وحسن نيته وجميل طويته، وكان ذلك يوما مشهودا عظيم البركة على المسلمين، وكانت مدة مقام دمياط في يد الفرنج سنة كاملة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القعدة توفي الملك المنصور صاحب حماة رحمه الله تعالى، ومولده كما ذكرناه في سنة سبع وستين، وابتدأ ملكه حماه في أوائل سنة ثمان وثمانين فكان عمره خمسين سنة وشهوراومدة ملكه تسعا وعشرين سنة تقريبا ولما نزل به المرض أمر خاصته بتحليف الجند والخاصة والعامة لولده الاكبر الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود ففعلوا ذلك، وحلف الناس له اولا ثم من بعده لأخيه الملك الناصر قليج أرسلان،وكان الملك المظفر تقي الدين يومئذ بالديار المصرية بالغزاة في خدمة خاله السلطان الملك الكامل، والملك الناصر قليج أرسلان بدمشق تخلف بها، فلما اشتد المرض بالملك المنصور

تعصب بعض الخاص للملك الناصر قليج أرسلان لقربه من حماة وأحضروه وجرت أمور لم تخف عن أهل الأمر خلاصتها أنهم صعدوا به الى القلعة في يوم الإثنين وأحضروا الذي كان حلف من الخاصة للملك المظفر أولا والأمراء والخواص وطلبوا منهم ان يحلفوا للملك الناصر قليج أرسلان ، فامتنعوا وقالوا للمستحلف إنك حلفتنا بالأمس للملك المظفر بالعهود وبالنذور وبالأيمان المغلظة بالطلاق والعتاق فبأي فتوى ننكث أيماننا ويقع علينا الطلاق والعتاق فأجابهم بما اشتهر، وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها وكان من لطف الله سبحانه أنني كنت مريضا في تلك المدة لم أحضر شيئا من ذلك، ودفن الملك المنصور في يوم الإثنين المذكور، وأظهروا موته في بكرة الثلاثاء، وعملوا عزاء عاما في الجامع الأعلى، واستقل بتدبير الملك من غلب على الملك الناصر ممن هو معروف لم يخف على الناس أمره وحاله.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها فتح المسلمون دمياط وملكهم يومئذ الفاتح لذلك المولى السلطان الملك الكامل، وكان فتحا مشهودا لم يكن في الإسلام أعظم منه، وبعد هذه السنة خال من الحوادث الى :

سنة اثنتين وعشرين

فيها توفي الامام الناصر لدين الله تعالى ابو العباس أحمد في ليلة السبت سابع شهر رمضان، ومولده كما ذكرناه في سنة اثنتين وخمسين وولي الخلافة في ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين، فكان عمره سبعين سنة وشهورا، وكانت مدة خلافته ستا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا تنقص يومين، ولم يخلف ولدا ذكرا سوى ولده الإمام الظاهر أبي نصر محمد، وسنذكر ولايته، وكان الإمام الناصر عظيما مهيبا عالما، سياسيا

حازما وقد سقنا من أخباره جملا في التاريخ الكبير، وهذا المختصر لايليق به التطويـل، وقد حكي أنه لما عـزل وزيره نصير الدين العجمـي القمي وقبض عليه اسكنـه في دار منعه من الخروج منها وأجرى عليه مـايقوم به وبأولاده فكتب الوزير اليه:

ألقنـــــي في لظـــــى فـــــإن غيرتنـــــي
فتيقـــــن أن لســـــت بـــــاليـــــاقـــــوت
عـــــرف النســـــج كـــــل مـــــن حـــــاك
لكـــــن نسيـــــج داود ليـــــس بـــــالعنكبـــــوت

فكتب اليه الامام الناصر جوابا:
نســـج داود لـــم يفـــد صـــاحـــب الغـــار
وكـــان الفخـــــار للعنكبـــــوت
وبقـــــاء السمنـــــد في لهب النـــــار
مـــــزيـــــل فضيلـــــة اليـــــاقـــــوت

وهذا جـواب فائق وشعر مفلـق، ومعنى بـديع، وكان رضي اللـه عنه يحب علي بـن أبي طـالـب رضي اللـه عنـه ويحب اولاده ويميـل اليـه ويمتدحهم ويقدمهم ويفضلهم.......

خلافة الامام الظاهر بأمر الله

عدة الـدين أبي نصر محمد بـن الإمام النـاصر لدين اللـه أبي العباس أحمد. بويـع بالخلافة في يـوم عيد الفطـر من سنة اثنتين وعشريـن، وكان والده قبض عليه مدة طويلة خـوفا على نفسه، ولما ولي كان قد أناف على الخمسين سنة وظهـر الشيب في لحيتـه، وحكي عنـه انه قـال،كم يقعـد المعلم في المكتب إذا فتحه بعد العصر، فكان كما قال فلما دخلت:

سنة ثلاث وعشرين

توفي في ثالث عشر رجب فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وثلاثة عشر يوما٠

خلافة الامام المستنصر بالله أبو حسن المنصور بن الامام الظاهر بأمر الله .

بويع بالخلافة يوم موت أبيه، واستبشر الناس بخلافته وتيمنوا ولايته، ورد على الناس أموالا وأملاكا كانت قبضت عليهم. وتظاهرت الرعية بالأموال، وظهر من العدل مالا يمكن وصفه، وإكثر من الصدقات بالأموال الجزيلة، ومنع أصحاب الأخبار والتخبر لما فيه من الفساد والضرر، وكان صاحب خبر كتب مطالعة اليه فكتب في جوابها: إن عاد كتب مطالعة أو خبّر خبرا ضربت عنقه، ومنع أهل الفساد من ذلك ووصل الحق الى مستحقه ومنع الظالم من تعديه وظلمه٠

ودخلت سنة أربع وعشرين

في سلخ ذي القعدة منها توفي الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وولي مكانه الملك الناصر صلاح الدين داود.

ودخلت سنة خمس وعشرين

فيها في شعبان تجهز السلطان الملك الكامل الى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى، حين علم تحشدهم وتجمعهم ولترتيب أمور المسلمين وبلادهم، فوافى تل العجول، وأناخ به، وتوجه الملك الأشرف الى خدمته،ومضى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين

داود معه لنجدته،واجتمعت عساكـر المسلمين هناك،وكان الانبروز طاغية الفرنجة وعظيمهـم خرج بجمع كثير الى الجزائر والسواحـل، وخيف على بلاد الاسلام منهم فاجتهد السلطان الملك الكامل رأيه وصالحهم صلحا تـامـا رآه مصلحـة للمسلمين وغنيمـة لهم، فكـان راعـي هــذه الأمـة المحمدية، وسلطان الملـة الاسلامية، ومن أعز الله تعالى بـه الدين وأهله، والمأمون عليهـم، والناصـح المشفق عليهم، ففعـل مارآه مصلحـة وغبطة ترجحـت في نظره راعـاها، وصـالح الفـرنج على ان يسلـم اليهم البيـت المقدس حرسه الله تعالى وحـده،من غير تسليم شيء من أعماله ولا بلاده قليـلا ولا كثيرا، وشرط عليهـم ان لايجددوا فيـه شيئـا ولاسـورا ولادورا ولايتجاوزوا خنـدقـه، وأن تقـام فيـه الجمعـة للمسلمين المقيمين بـه، ولايمنـع مسلم مـن زيارتـه كيف أراد، ولايـؤخذ مـن زائر مال أصـلا، وكـان ذلك إن شـاء الله تعـالى من أكبر مصـالـح المسلمين وأعظمها مما لايخفى عن ذي البصيرة، فإن البيت المقدس مـوضع عبادة لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الناس، فسلم السلطان الملـك الكامل ذلك إليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليـه المصلـون، وعقـد معهـم عقد الهدنـة الشرعيـة المدة المرعيـة في نظـر سلطان المسلمين وملكهـم ومتولي أمورهم، وانـدفع عن المسلمين بـذلك شر عظيـم، وخوف وحصـل الأمن مـدة الهدنـة فلا مصلحـة للمسلمين أعلى مـن هذه المصلحـة، ولاغبطـة لهم أعظم مـن هـذه الغبطة، ودخـل البيـت المقدس أنـاس قليلون مـن الفرنـج لاشوكـة لهم ولاعدد ولاعـدة، وكـان ذلك في سنـة ست وعشرون وستمائة، ومتـى مهـد السلطان الملـك الكامل بـلاد المشرق، واتفقت كلمة الملوك استعاد البيت المقـدس من يد من هو فيه مـن الفرنج في يوم واحد، بل في ساعـة واحدة حتى روي أنه وجـد في المسلمين جماعـة قتلـوا ورمـوا في بئـر هنـاك، فنسـب المسلمـون المقيمون بجبـال القدس قتلهم إلى الفرنـج، وهجموا عليهم البلـد وقتلوا منهـم مقتلـة عظيمـة يقـارب خمس مـائة نفـس كما روي، وحجـزوهـم

وأرهبوهم واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية مايكون من الذل، وعاد اللانبروز بعد الصلح التام إلى بلاده، ومازال السلطان الملك الكامل مقيما بتل العجول يمهد الأرض ويملأها عدلا.

وفيها عاد الملك الأشرف من تل العجول فأناخ على دمشق في أوائل ربيع الأول وحاصرها مدة ربيع وجمادين، وجاء السلطان الملك الكامل فخيم عليها، وجرت حروب كثيرة اشتهرت إلى أن ضاق الأمر بالبلد، فلم يكن للملك الناصر صلاح الدين داود إلا الترامي على السلطان الملك الكامل واستمطار مراحمه، فخرج إليه خفية وأكب على قدميه قبلهما، فرحب به السلطان وأكرمه ورأى له سعيه، وطيب قلبه ووعده بالدخول في أمره، وأعاده إلى دمشق إلى أن يفصل القضية وصلح الحال بينه وبين الملك الأشرف على أن الملك الأشرف يتسلم دمشق، فدخلها في أول يوم من شعبان من السنة في يوم الاثنين، ووهب السلطان الملك الكامل للملك الناصر صلاح الدين داود الكرك بما فيه من أموال ونابلس وبيسان وبلاد كثيرة وستة وعشر ين ألف دينار مصرية كما قيل، وأحسن إليه إحسانا لم يخطر بباله وتوجه إلى بلاده وقلاعه، وفيها تسلم السلطان الكامل من الملك الأشرف حران والرها ورأس عين، وجملة من بلاد الشرق، وفيها نزل السلطان الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك المنصور على حماة في يوم الجمعة في شهر رمضان ونازلها وقاتلها بالمجانيق وغيرها، واستمر الحال هكذا إلى ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان فخرج الملك الناصر قليج أرسلان من حماة ليلاً وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل إلى سلمية، وكان قد وصل إليها في ذلك اليوم، فوصل إلى المعسكر المنصور الملكي الكاملي على سلمية متذللا مذعنا مستسلماً، فرحب السلطان به، وبعد يومين من ذلك وصل كتاب الملك الناصر إلى نوابه بقلعة حماة أن يسلموها إلى نواب الملك الكامل وعرفهم أنه قد طاب قلبه ورضي بما وهبه السلطان الملك الكامل عوضا عن حماة سروج، وماله بحماة من مال وغيره وأن

ذلك أنعم عليه من السلطان، فلما وصل الكتاب إلى نوابه بحماة تهيئوا لنقل الأثقال، ثم شغبت جماعة من الخدم والمماليك، وقالوا لانسلم القلعة والمدينة إلى نواب الملك الكامل ولانخرجها عن بيت الملك المظفر تقي الدين وعن أولاده وأولاد أولاده، كل ذلك ظنا منهم أن السلطان الملك الكامل قد أخذ البلد لنفسه ولم يكن الأمر كما ظنوه، ولاكما توهموه، فوصلت كتب السلطان الملك الكامل ثانيا: لم نرد هذه المدينة لأنفسنا، ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا، فإن البلاد بلادنا والأولاد أولادنا،ونحن نتصرف في ذلك كيف شئنا، وقد اطلقنا البلاد والأقاليم انعاما وتطوعا، فإذا كنتم تؤثرون مصير هذا الأمر إلى أولاد الملك المنصور فالملك المظفر عندكم وقفوا الحال معه، فإن الملك الناصر تضرع إلينا وطلب منا أن لايصير الملك لأخيه الملك المظفر فإذا اخترتم انتم خلاف مااختاره وآثرتم الملك المظفر فشكر الله سعيكم وتقبل منكم وجزاكم الخير كيف حفظتم بيت استاذكم، وأنتم فسلموا المدينة والقلعة إلى الملك المظفر، فهو كبير البيت ومربيه، وكان والده الملك المنصور رحمه اوصى له به وفوضه إليه، وهو مصالح أخاه كما يتفق معه، وقد أخرجنا أنفسنا من الوسط، وتوجه السلطان الملك الكامل إلى الشرق في ثالث عشرين شهر رمضان، ووكل أمر الصلح إلى نوابه المحاصرون لحماة: الملك المجاهد صاحب حمص، والملك العزيز صاحب بانياس، والأمير عثمان، والأميرفخر الدين البانياسي وجماعة من الأمراء واستقر الحال والحمد لله وانتظم الصلح، واستدعاني من بالقلعة المحروسة من النواب وقالوا قد تقرر الصلح ودخول المولى السلطان الملك المظفر إلى المدينة وتسلمه لها، ونؤثر منك المضي إلى خدمته مع العسكر المنصور وطلب الأمان للأجناد والرعايا وتطييب قلوبهم وأخذ يده الكريمة على ذلك وتقبيلها، فتوجهت مع جماعة من العدول إلى المخيم في يوم الإثنين سابع عشرين رمضان، فلما دخلت عليه في الخيمة زاد في الإكرام والإنعام، ورأيت مايملأ العين قرة والقلب ابتهاجا ومسرة، وحصل عندي من

الفـرح والجزل والسرور بسلطنته وولايتـه مـالايمكنني والله وصفـه لنفسي وللمسلمين، وسـألته أن يـؤمـن الرعـايـا والأجنـاد والنواب على أنفسهـم وأموالهم، فـأمنهم وطيب قلـوبهم ووعدهم بـالخير، وأخذت يده الكـريمة على ذلك فقبلتها، ثم دخل المولى السلطان الملك المظفر إلى البلد في تلك الليلة ليلـة الثلاثـاء ثامـن عشرين شهـر رمضان فنـزل في الدار المعـروفة بدارالأكرم وجلس للناس في بكرة الغد جلوسا عـاما وكان يوما مجموعا له الناس، ويوما مشهورا بكثرة الفرح والإينـاس لم يبق بالمدينة خاص ولاعام إلا ودخل إليه وقبل يده، واستبشر النـاس بقدومه وسروا بمملكته وتيمنوا بسلطنته وعيد في دار الأكـرم عيدا مشهودا لم يشاهدوه فيما تقـدم من كثرة الخلع والخيرات، ومـد سماط للناس على طبقاتهم وحضره خلـق لايحصون ولما كانـت ليلة الجمعة ثـاني شوال صعد القلعة المحـروسة المباركـة ليلا، وجلـس بكرة الجمعـة جلوسـا عامـا، ونـادى في البلاد بـإزالة المنكـرات وإسقـاط المكـوس والضمانـات، وخلـع على القضـاة والأمـراء والنـواب والخزندارية والمقـدمين والرؤساء واستقر الملك والحمد لله تعـالى له، وثبت وتضاعفت أدعية الخلق وحمده له تعالى وكثـر ثناؤهم بما أنعم عليهم من سلطنة السلطـان الملك المظفر ومملكته وولايتـه عليهم، وأمر بـدار العدل ففتحت وأصلحت، وجلس بها وقصده الناس مـن كل جانب وكف اليد المعتديـة، ومنع الظلـم، وأوصـل الحق إلى مستحقه، ورجع إلى المدينـة من كان رحـل منها، ورفعـت إليه القصـص، فوقـع عليها بـالعدل الشـامل، والإنعام الكامـل ووصل إلى خدمته الأمير الكبير العالم سيف الـدين أبو الحسن علي بن أبي علي الهذباني، وفوض إليـه السلطان الملك المظفر جميع أموره في بـلاده وقلاعـة ورعاياه وأجنـاده فاعتذق ذلـك، وقام بـه أحسن قيـام ونظم شمـل الـدولة أجمل نظـام، ورتب أحـوال المملكـة ومهدهـا، وشيد أركانها ووطدها، وقرب أهـل الخير والصلاح وأدناهم وأحسن إليهم وآواهم، ورتـب ذوي الأمانـات والكفايـات في مراتبهـم وولاهم، وأبعـد أهل الفساد والشر وأقصاهم، وطهر البلـد منهم ونفاهـم، وأظهر للشريعة

رونقا وهيبـة، وفخم أمرهـا وأعظم في النفوس قـدرها، وتقدم إلى كـل من عليه حق بالخروج منـه إلى السعي مع الخصم إلى مجلس الحكم كـائنا من كـان من أمير أو كبير، وخـوفهـم من المخـالفـة وحذرهـم وأكـد الوصـاة عليهم وأنـذرهم، وكـان السلطان الملـك المظفر لما ملـك سلمية في سنـة ست وعشريـن وستمائة فوض أمـورهـا إليـه فسـاسهـا أحسن سيـاسـة، وعمرها بالعـدل أعظم عمارة، وبلغني من جماعة أنه مـذ وليها لم يثبت في ديوانها درهم واحـد من جناية ولامـن مظلمة وابتنى قلعتها، وأعـادها إلى أحسـن ممـا كـانـت عليـه، ورتب فيهـا مـن أمـور القـلاع مـن الأجنـاد والمستخـدمين وغيرهم مـااشتهر ذلـك وشاهـده من شـاهده، ووصـل في خدمة السلطان الملك المظفر كاتبه الوزير الكبير العالم الذكي نجم الدين أبو القاسـم عبد الرحمن بن عبـد الوهاب أبي الحسن بـن علي الزهري ذو الفضائل الغزيرة والعلوم الكثيرة، وأطلق له ألف دينار مصرية كان وعده بها، وحكى الوزير نجم الدين المسمى أن المولى السلطان الملك المظفر لما أطلقها له اعتذر استقلالا لها وأنه قال له:يـاخوند من جملة انعام السلطان وفضله أنه يعطي الآلاف ويعتذر....

من التاريخ المنصوري
(تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)
تأليف
أبي الفضائل محمد بن علي بن نظيف الحموي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه العلي العظيم، الولي الحكيم، الأزلي القديم، الدال على أزليته حدوث الحوادث، الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الصاحبة والولد والثاني والثالث، محيي الأموات، ومميت الأحياء فهو الوارث لكل وارث، خلق السموات بغير عمد ترونها قائمات، وأمسكهن أن يقعن على الارض، فهن بقدرته دائمات مواكث، ودحا الأرض على الماء، وباين بينها في السفل والعلاء والحزون والرمائث. أحمده على نعمه المقيمات اللوابث، ودفاعه النائبات الكوارث، وأشهد ألا إله إلا اللّه وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل رسول أرسله.

وبعد فقد قال أبو الجلد: الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفاً للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة لفارس، وألف للعرب.

وقال يحيى بن كثير: خلق اللّه ألف أمة، فأسكن ستمائة البحر وأربعمائة البر واللّه أعلم .

فلنذكر الآن ابتداء التناسل، التناسل بمقتضى ماورد في السير والتواريخ حاكيا ماذكروه وسطروه كما سطروه واللّه أعلم.

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

خرجت الفرنج ، وزحل بالسنبلة، والمشتري في الميزان. ومات منصور بن نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وانقرض به البيت.

سنة أربعمائة وتسعين:

فتح قوام الدولة الرحبة. وفتحت الفرنج أنطاكية وسميساط، ، وفتح أمير الجيوش دمشق، وولد الآمر بن المستعلي.

سنة إحدى وتسعين وأربعمائة:

ملكت الفرنج الرها، والحدث ، ومرعش ، وكيسون.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس. وخطب لتتش بالموصل. وأخذت الفرنج المعرة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

مات عميد الدولة بن جهير، وابن جزلة الطبيب.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

خُطب لبركياروق بالجزيرة، وأحرقت رسائل أخوان الصفا في بغداد. وقُتل جماعة من الاسماعيلية ببغداد بالمعسكر، منهم عين القضاة الصوفي.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

جُعلت البيعة التي بتكريت جامعاً. وتوفي المستعلي صاحب مصر.

سنة ست وتسعين وأربعمائة:

مات الملك دقاق . وفي سابع عشر جمادى الآخرة ظهر في الغرب كوكب أبيض له ذؤابة من شرقيه ، بعيدة عن الشمس في نصف برج الحوت، طول ذؤابته مائة وخمسين ذراعاً.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

خالية

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

استولى رضوان على أفامية . ومات يوسف بن تاشفين صاحب المغرب. واستولى أتابك طغتكين على صلخد وبصرى.

سنة خمسمائة:

توفي الشلول صرخاب بن بدر بن المهلهل صاحب شهر زور ونواحيها. وفتح السلطان قلعة دز، وقتل صاحبها.

سنة إحدى وخمسمائة:

تسلم ينال بانياس.

سنة اثنتين وخمسمائة:

سلمت الموصل لمودود . وملكت الفرنج طرابلس . ومات ابن الخازن الكاتب، واسمه أبو الفوارس الحسين بن علي بن الحسين.

سنة ثلاث وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع وخمسمائة:

فتحت الفرنج صيدا، وبرزية، وشيح.

سنة خمس وخمسمائة:

توفي سليمان النجمي ببالس.

سنة ست وخمسمائة:

خالية.

سنة سبع وخمسمائة:

وفاة الملك رضوان . وقُتل مودود بجامع دمشق. وتسلم أتابك طغتكين صور من المصريين. وملك حلب تاج الدولة الأخرس بن الملك رضوان.

- ٩٧٦١ -

سنة ثمان وخمسمائة:

زلزلت الأثارب وما حولها ، وخسف بسميساط ومرعش.

سنة تسع وخمسمائة:

فتح برسق حماه.

سنة عشر وخمسمائة:

قُتل كامل بن منقذ، وحريق النظامية، ومقتل أحمد يل صاحب أذربيجان.

سنة احدى عشرة وخمسمائة:

خالية

سنة اثنتي عشرة وخمسمائة:

تسلم ايلغازي حلب، وفتحت الفرنج أعزاز. ومات المستظهر وبويع المسترشد.

سنة ثلاث عشرة وخمسمائة:

خالية.

سنة أربع عشرة وخمسمائة:

تسلم أتابك طغتكين تدمر والشقيف. وكسر نجم الدين إلغازي الفرنج على موضع يسمى البلاط ، وأخذ روجال، صاحب أنطاكية،

أسيرا ، وفتح زردنا، وطلبت الاسماعيلية من نجم الدين قلعة الشريف بحلب، وكانت عامرة، فبعث كتاب الطير إلى حلب بخراب قلعة الشريف.

سنة خمسمائة وخمس عشرة:

مقتل الأفضل أمير الجيوش، ومات القاضي عماد الدين . ومات توفيق المهندس بدمشق. ومات توفيق الحاسب ببغداد، ومات فيها أبو القاسم الحريري صاحب المقامات.

سنة ست عشرة وخمسمائة:

خرج ملك الخزر، ومَلَكَ تفليس، وبقيت في ذريتهم إلى أن ملكها جلال الدين بن خوارزم شاه في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

سنة سبع عشرة وخمسمائة:

مات ملك الخزر، وكان له نظر عظيم في شرع الاسلام، وجرى له مناظرة مع القاضي الكنجي في الكلمة أهي مخلوقة أم قديمة ؛ وأكل القطا زرع الشام.

سنة ثمان عشرة وخمسمائة:

ملك البرسقي حلب، وهبت ريح حملت الرمل من أرض الرصافة إلى قلعة جعبر . وفتحت الفرنج صور. وفتح بلك منبج. ومات حسن الصباحي رئيس الاسماعيلية.

سنة تسع عشرة وخمسمائة:

أخـذ ملك الخزر مـدينـة دوين، وقتـل عـالماً لايحصـى. ومات نـاصر الدولـة بن طـرخان الشيباني بحلـب، وهو دمشقـي. وقتل داعـي الحلبية بحلب.

سنة عشرين وخمسمة:

سنة قران . ودخل ابن تومـرت بغداد في طلب التفقة، وقرأ على الغزالي أحد عشر مصنفاً، من جملتها الوسيط والبسيط، وتهافت الفلاسفة[١].

سنة احدى وعشرين وخمسمائة:

دخـل أتـابك الشهيـد الموصـل، والخليفـة يـومئذ بمصر عبـد المجيـد الحافظ.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة:

دخل أتـابك حلـب. وملك ابـن تومـرت الجبل. وقتـل اخواجـا بهرام داعي النزارية بوادي التيم.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة:

قُتل الـوزير ابـن المزدغاني وقتلـت معه الاسماعيليـة بدمشـق[٢]. قران المريخ وقلب الأسد.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة:

خطب للسلطان محمود بألَمُوت، مقر ملك الاسماعيلية. وقتل ابن البيمند صاحب أنطاكية، وكان الرصد بظاهر بغداد بالدار السلطانية.

سنة خمس وعشرين وخمسمائة:

قُتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، فأُمّر ولده شمس الملوك اسماعيل، وفيها قتل ناصر الدين ابن أوشر بن يوسف بن فيروز بميدان دمشق. وفك ابن تاج الملوك(٣).

سنة ست وعشرين وخمسمائة:

دخل أتابك الموصل

سنة سبع وعشرين وخمسمائة

نزل المسترشد الموصل حادي عشر رمضان ورحل عنها عاشر ذي القعدة .

سنة ثمان وعشرين وخمسمائة:

مات ابن تومرت، وظهر عبد المؤمن. ومات أبو علي الحسن بن ابراهيم الفارقي شيخ ابن عصرون.

سنة تسع وعشرين وخمسمائة

مولد يوسف بن أيوب.

سنة ثلاثين وخمسمائة

وقعة المسترشد والسلطان مسعود، وأسر المسترشد ، وقتل، وخطب للراشد، وقتل سيف الدولة دبيس بن مزيد، وفيها جلس المقتفي سابع عشر ذي القعدة ، ووصل الراشد إلى الموصل مخلوعاً.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

صاف السلطان بُزابة، وكانت الكرة لبزابة. واستولى بنو الصوفي على رئاسة دمشق.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

مقتل الراشد.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

زلزلت حلب، وخرج ملك الروم إلى الشام. وخرج ضياء الدين جغري من دمشق. وقتل شهاب الدين بها، وولي جمال الدين بن تاج الملوك، وأخذت الروم بزاعا، وسبوا مقدار خمسة آلاف نفس، وجعلوها في خندق الأثارب، وكان يطعمونهم الباقلي والحشيش، ورحل ملك الروم طالباً شيزر، ونزل في القرمينية.

وخرج سيف الدين سوار بن أيدكين من خيل في معسكر حلب، فخلص الأسرى جميعهم.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

استجار الزينبي بدار السلطان. ومات جمال الدين، وولي ولده. ومات شرف الاسلام اسماعيل بن أبي المعالي قاضي الممالك.

سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

مات قرا سنقر صاحب أزربيجان، وفتح أتابك زنكي بعلبك، وآمن أهل قلعتها وغدر بهم، فصلب الجميع ، فكانوا مقدار ثلاثمائة نفر، ونزل على دمشق بعشرين ألف نفر.

ومات ابن أفلح قاضي البيمارستان فيلسوف عصره، وكسر سيف الدين سوار الفرنج بكبسة، وأخذ الكند اصطبل قاطع الجسر الحديد بأنطاكية.

سنة ست وثلاثين وخمسمائة

مات ايكلدي بن ابراهيم صاحب آمد، ورأس بالوزارة المؤيد بن نيسان، وجلس في الامارة بآمد هذه السنة محمود بن ايكلدي، شمس الملوك.

سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

وفاة ملك الروم بأذنة، قتله خنزير برّ ي في الصيد، وكان معه ولده منويل، فمضى على وجهه من أذنه بجماعة يسيرة إلى قسطنطينية في ثمانية أيام، وتملك بعد أبيه، ومات سيف الدين اكتدي.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

خالية.

سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

فتحت الرها خامس وعشرين جمادى الآخرة . ودخل زين الدين علي كوجك الموصل في العشرين من ذي القعدة . ومات تاشفين بن علي (ابن يوسف) بن تاشفين. ومات داود، وولي ولده فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا.

سنة أربعين وخمسمائة

كسرت الفرنج نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ على بغراس(٤).

سنة احدى وأربعين وخمسمائة

قتل أتابك الشهيد على قلعة جعبر، وملك ولده سيف الدين الموصل، ووزر له جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالكرم والجود والصدقات، وملك نور الدين حلب.

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

خالية.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

نزل ملك الألمان على دمشق. وكسر نور الدين الفرنج على إنب، وقتل

الابرنس صاحب أنطاكية، وعمل قحف رأسه وضببه بذهب وفضه، وبعثه إلى المستنجد. فلما نزل ملك الالمان على دمشق ، وعاد غير مسرور، ركب قسيس لهم حماراً وجعل الانجيل قدامه، وفي يده صليب وخلفه قليل خيالة، والفرنج تزعم أنه يملك دمشق، فلما وصل بين القنوات اشترك في قتله رجلان من أمراء دمشق: ابن الدورسي، وابن حُمار ، وقتلوا جميع من كان معه.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

وفاة تاج الدولة قرواش بن شرف الدولة. ووفاة الحافظ، وخلافة الظافر، وتوفي سيف الدين غازي وملك أخوه قطب الدين مودود.

سنة خمس وأربعين وخمسسمائة

سنة ست وأربعين وخمسمائة

خاليتان.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

مقتل عباس ببغداد. ومات العبادي الواعظ، وتملك عبد المؤمن بالغرب على ولاية بني حماد. وكان الجراد بالموصل، ومكث سبع سنين بدمشق، وقحطت الجزيرة وديار بكر.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

مات حسام الدين تمرتاش. وأخذت الفرنج عسقلان . وقتل الرئيس زين الدولة بن الصوفي بدمشق وأولاده.و فيها قتل عطاء صاحب بعلبك.

سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فتح محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ دمشق، ووقع الحريق ببغداد في دار الخليفة بصاعقة، وقتل الظافر، وولي الفائز ، ووردت مراكب من صقلية نهبت تنيس. ومات مؤيد الدين بن الصوفي رئيس دمشق.

سنة خمسين وخمسمائة

اتفق محمد شاه السلطان، وزين الدين علي كوجك على حصار بغداد.

سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

خطب لسليمان شاه ببغداد، خامس عشر محرم. ومات ابن نيسان بآمد ، وولي ولده أبو القاسم علي، جمال الدولة.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

قبض علي كوجك على سليمان شاه في دربند ابن القراملي،واجتمع هو ومحمد شاه،ورجعاالى حصاربغداد،وضايقوها. وزلزلت حماه وشيزر. واستولت الغز على خوزستان ، وأسروا السلطان سنجر، ومات في أيديهم(٥)،واوقبضوا على محمد خان قرابة سنجر وكحلوه، وانقطعت خطبة سنجر. وفتح عبد المؤمن المهدية. وفيها مات الفائز وجلس العاضد.

سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

مات ابن منير الشاعر وابن القيسراني، واستولت الغز على خراسان،

ونهبوا مرو، وسألوا عن ذخائر سنجر. ومات صدر الدين الخوجندي رئيس أصفهان، وهو المشهور.

سنة أربع وخمسين وخمسمائة

مات المقتفي، ثم غرقت بغداد، ووصل الماء إلى قبلة الجامع بالرحبة، وتساقطت جميع العمائر، وفار الماء من البلاليع والآبار. وملك المستنجد عند نزول الشمس أول الحمل(٦).

سنة خمس وخمسين وخمسمائة

هم ألدكز بحصار بغداد، فخاف الخليفة المستنجد، فأمر الوزير عون الدين بن هبيرة أن يكتب إلى ملك الخزر بأن يخرج إلى بلاد اللان وأذربيجان فهي اقطاعه، فخرج ملك الخزر إلى مدينة دوُين المسماة بأردبيل ففتحها عنوة، وقتل عالما من المسلمين، ورجع .

سنة ست وخمسين وخمسمائة

خالية.

سنة سبع وخمسين وخمسمائة

استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، ومات ذو النون صاحب ملطية، وياغي سيان صاحب سيواس.

سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

استدعى الضرغام أمراء مصر، وأحضرهم ، ثم أمر أن يدخل إليه

واحد بعد واحد، وأوهمهم الخلع عليهم، وكان يضرب رقابهم أولاً فأولاً حتى قتل أربعين أميراً، ثم نهب دورهم، وهتك حريمهم.

سنة تسع وخمسين وخمسمائة

توجه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع شاور بعساكر الشام، والسلطان يومئذ الملك العادل، نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر رحمه الله، وهو من جملة أصحابه، فملكوا مصراً وقتلوا الضرغام، ثم غدر شاور بأسد الدين شيركوه، وكاتب الفرنج ومناهم بكل أمر، فأتاه ملك الفرنج بخلق عظيم، فخرج أسد الدين شيركوه إلى بلبيس، فحاصرته الفرنج بها ستة أشهر ، وقتل فيها سيف الدين بن بُزان مجاهد الدين، وفي هذه السنة كسرت الفرنج لمحمودبن زنكي على البقيعة بكبسه تحت حصن الأكراد، وقتل الأمير عزيز بن جندر، ثم نصر عليهم.

ومات جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني، وزير الموصل ، المقدم ذكره، رحمه الله، وحمل تابوته إلى مكة كرمها الله وحماها، فدفن بها، وفيها مات ابن هبيرة عون الدين.

وفيها فتح نور الدين بانياس وحارم من الفرنج، وفيها كسر نور الدين الفرنج على حارم، وقتل وأسر مقدار عشرين ألف نفر، وأخذ البرنس وأكثر أبطالهم.

سنة ستين وخمسمائة

طلع أسد الدين شيركوه مرة ثانية إلى مصر، وكاد يفتحها ، ورجع.

سنة إحدى وستين وخمسمائة

اتفق قران في برج الجدي بزحل والمشتري والمريخ.

وغيرت الاسماعيلية مذهبهم، وشربوا الخمر، وبطلوا الصلاة والصيام، فلا رحم الله سنان، ولعنه الله.

سنة اثنتين وستين وخمسمائة

خرجت الفرنج، خذلهم الله إلى ديار مصر، فحاصروا القاهرة، واضطروا إلى أسد الدين شيركوه أن ينجدهم، فكتبوا إليه ، ومنوه فطلع إليهم بعساكر الشام، وطرد الفرنج عنهم، وقتل شاور ، وملك أسد الدين شيركوه مصر، ومكث خمسة وخمسين يوما وزيرها ومات ، ثم ملك بعده السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، والخليفة يومئذ العاضد.

وفيها أحرق شاور مدينة مصر فرقاً من الفرنج أن يملكوها. وفيها كسرت السودان بمصر وقتل أكثرهم، وخرج الباقي من القاهرة.

سنة ثلاث وستين وخمسمائة

حاصرت الفرنج دمياط في البر والبحر، وفيها خرج زين علي كوجك من الموصل غضبابا، فوصل إلى إربل ، فمكث بها، وظهر عليه مرض بقي شهراً ومات.

سنة أربع وستين وخمسمائة

في شهر أيار كثرت الأرياح والأهوية ، والغيوم بإربل ، وظهر في خلال الغيم تنين عظيم أسود، فكان يقرب من الارض، ثم يرتفع، ولم تدركه حقيقة النظر لعظم الغيوم والضباب، ولم تزل الرياح تطرده إلى بحيرة أرمية من كورة أذربيجان، وهلك هناك.

سنة خمس وستين وخمسمائة

زلزلت حلب وبعلبك يوم الاثنين عاشر شوال وخربتا، وهلك فيهما عالم عظيم، وانشق جبل لبنان المطل على بعلبك شقاً عظيماً مسيرة أيام، وكانت هذه السنة كثيرة الزلازل بحيث كان في بعض الأوقات أن تجيء الزلزلة في اليوم والليلة عشرين مرة، وحسب من مات بحلب تحت الردم، فزاد عن خمسين ألفاً ما بين صبي وشيخ وامرأة.

وفيها بطل الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر جميعها، من دمياط إلى أسوان.

سنة ست وستين وخمسمائة

وفيها ابتدى صلاح الدين يوسف بن أيوب ببناء سور القاهرة.

وفيها ظهر ملك الخزر فحاصر دوين فأخذها ، وقتل بها من المسلمين ثلاثين ألف نفراً وزيادة ، وفيها توفي المستنجد، وجلس بعده الامام المستضيء.

سنة سبع وستين وخمسمائة

قطعت خطبة العاضد بمصر، وخطب للمستضيء من بني العباس، ومات العاضد آخر خلفاء المصريين، وانقضت دولتهم، واستولى صلاح الدين على القصور، واستخرج ذخائرهم ظاهرها وباطنها، وقبض أهله وسائر الفاطميين، وصلب من أهل مصر جماعة منهم قاضي القضاة العوريس، وشيرما الداعي، وعمارة الشاعر، والشريف الجليس، والقاضي ضياء الدين بن كامل، وكسفت الشمس كسوفاً كلياً. بحيث ظهرت الكواكب.

سنة ثمان وستين وخمسمائة

فتح شمس الدولة توران شاه بن أيوب ابريم من بلاد النوبة، وفتحت برقة وسنترية وجبل نفوسة بعساكر الشام، على يد قراقوش المظفري، ابن أخي صلاح الدين، وفتحت قفصه على يد ابراهيم سلاح دار.

وفيه كانت وقعة الكلمان مع مليح بن لاون، وكسر الكلمان، ووقع وقتل، وأسر أكثر جيشه.

سنة تسع وستين وخمسمائة

مات نجم الدين أيوب أبو صلاح الدين، ونور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وفتح شمس الدولة ابنه اليمن بعساكر الشام، وقبض على الخليفة بها، وهو يومئذ عبد النبي بن علي، ومات فخر الدين داود، وولي ولده نور الدين.

وفي هذه السنة ظهر بضيعة من بلد دمشق رجل يدعي النبوة، وضل جماعة به، فخرج إليهم العسكر، فلم يظفر به ولا بهم، وأرسل صلاح الدين رسولاً يناظره، وكان من جملة من خرج إليه ابنان للفقيه ابن عبد الدمشقي، وتسحب إلى كفرند من بلد حلب، فقتله كمشتكين الخادم.

سنة سبعين وخمسمائة

خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب، وملك دمشق، وأكثر الشام، ونافق الكنز بالصعيد، فخرج إليه الملك العادل بن أيوب فقتله بمدينة من الصعيد تعرف بطود، ومن كان معه.

وفيها: خرجت مراكب من جزيرة صقلية حاصرت الاسكندرية ، فظفر بهم المسلمون ولم ينج منهم إلاّ القليل.

وقتل ابن البصار، وفيها خرج أبو الفضل بن الخشاب رئيس حلب، وحاصر القلعة مستهل محرم، واجتمع إليه الحلبيون، ثم خذلوه وتفرقوا عنه، فأخذه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بالأمان، فقتله بالقلعة.

وفيها صلب عبد النبي بن علي بن مهدي، صاحب اليمن. وفيها ظهر المؤيد من خراسان إلى طبر ستان، فخرب جرجان وميشه والميزوان، ومدينة الملك ساوه، وأحرق هذ ه المدن، وقتل عالماً لايحصى، ورجع عنها، وقتل ملك طبرستان ونهب خزانته، وهو يومئذ بساوه، حسن بن رستم بن علي.

سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

كسفت الشمس حتى ظهرت الكواكب، ونزل شمس الدولة من

اليمن إلى الشام بعد قتله لناشر بن بلال ، صاحب عدن، وأخرب أمير الحاج حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها قفزت الاسماعيلية على صلاح الدين بن أيوب في حصار عزاز، ونجاه الله، وفيها كسر سيف الدين مودود، كسره صلاح الدين مرة ثانية ونهب عسكره .

وفيهاخرج المؤيد من خراسان يريد أن يحاصر خوارزم، فوصل من المفازة إلى رأس حد خوارزم، وقد تفرقت العساكر في طلب الماء، فصادف عسكر خوارزم ، فأوقع بهم، وظفروا به فقتلوه، فكان في نحو من ثلاثمائة مملوك من مماليكه، وحمل رأسه على رمح، وطوف به في ولاية خوارزم.

وفيها مات نجم الدين بن حسام بن ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين.

سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

مات كمال الدين بن الشهر زوري قاضي دمشق. ومات فيها ألدكز أتابك السلطان. ومات السلطان طغرل بن مسعود. وقتلت الاسماعيلية شهاب الدين أبو صالح بن العجمي بحلب، بباب الجامع الشرقي، بعد صلاة الجمعة.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

هبت ريح شديدة في بلاد القفجق، ووصلت إلى سنجة وتفليس، وبيلقان، ووصلت إلى همذان وأصفهان وإلى بلاد كوهستان، وأخربت البيوت الضعيفة ، وقتلت الغنم والبقر، ورئي في دهستان، رجل خزري

عليه زيهم، ولباسهم، وزعم أنه كان في بلده نهار أمس ، فحملته الريح المذكورة في ليلته، ورمته في دهستان، ولا يعلم ما كان ولا يدري، إلاّ أنه بالتقريب يكون نحواً من خمسة عشر يوماً.

سنة أربع وسبعين وخمسمائة

قران زحل والمريخ في السرطان. ومات المستضيء ، وبويع ولده الناصر، وكسرت الفرنج صلاح الدين على الرملة، وقتلوا عالماً من المسلمين، وأسرت الفقيه عيسى. ويوم كسوف الشمس ظهر رجل بضيعة من أعمال حلب، يقال لها كفرند ادعى النبوة، فقتلوه. وفيها قتل كمشتكين الخادم.

سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فتح قصر يعقوب بالسيف ، وكسرت الفرنج، وقتل أكثرهم، ونافق جلدك الشهابي واستولى على الواحات الداخلية، فأرسل إليه أبا الهيجاء - المعروف بالسمين - وقراقوش الخادم، فأخذاه سلما.

سنة ست وسبعين وخمسمائة

مات شمس الدولة بن أيوب مستهَل صفر بالاسكندرية، وقبر بها ، وبنيت قلعة القاهرة ، ومات الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود، رحمه الله، صاحب حلب، وتسلمها عز الدين مودود بن زنكي ابن آق سنقر.

وفيها ظهرت الغز وعليهم صاحبهم مالك بن دينار، فحاصر طبرستان، وخرب جرجان وإسترباد، وأحرقها، وانهزموا في البراري والقفار. وولدت امرأة غراب بمصر، هكذا نقل، والعهدة على الناقل.

سنة سبع وسبعين وخمسمائة:

فيها تسلم عماد الدين قلعة حلب من أخيه عز الدين. وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، مصنف اللحن الخفي.

سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

نزل صلاح الدين الشام، وحمل تابوت شمس الدولة ، وقبره بدمشق، وعبر صلاح الدين الفرات إلى الجزيرة ، ففتح سروج والرها، وحران، والرقة، والبيرة، وسنجار، ونصيبين، وكاتب عز الدين صاحب الموصل، ولشاه أرمن ، فجمع العساكر، وقصد صلاح الدين ، فوصل إلى ماردين ، ومكث هناك شهوراً لايقدم على صلاح الدين، ثم إنه اجتمع مع عز الدين بقلعة ماردين، وكان خائفاً منهم، ثم إن شاه أرمن وعز الدين صاحب الموصل ، وقطب الدين صاحب ماردين اختلفوا فيما بينهم وتفرقوا ، ورجع صلاح الدين إلى آمد ففتحها وأعطاها لنور الدين بن فخر الدين، وكان قد حاصر الموصل ، ولم يقدر عليها.

سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ملك صلاح الدين حلب، وقتل أخوه تاج الملوك، ونزل عماد الدين من قلعة حلب في العشرين من ربيع الأول، وتسلم عماد الدين سنجار، والخابور عوض حلب.

وفي هذه السنة مضى إلى الكرك فحاصره ، وفيها كتب للملك المظفر تقي الدين عهداً على مصر، وكتب عهداً لسيف الاسلام أخيه باليمن، واستدعى أخاه سيف الدين من مصر وأقطعه حلب.

وفي هذه السنة ، ظهر بقرية بمصر يقال لها أبو صير، بيت هرمس

الثاني، فتحه القاضي ابن الشهر زوري، وأخرج منه أشياء من جملتها: كباش ،وقرود، وضفادع بأزهر، وقوارير دهنج، وأصنام نحاس وغلبهم السافي(٧) على الباقي فلم يصلوا إليه.

سنة ثمانين وخمسمائة

فتح سيف الاسلام فتوحات باليمن.

ووقع بين الكرد والترك، وقتل بينهم عالم عظيم، وكانت الغلبة للأتراك. وفيها مات الفقيه ابن عوف بالاسكندرية ، مالكي فقيه عصره.

سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

مات الفقيه علاء الدين الكاساني، إمام الحنفية بحلب.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

فيها عبر صلاح الدين الفرات، وحاصر الموصل وضايقها ولم يفتحها، وانتظم الصلح بينهم. ومات شاه أرمن . ومات قطب الدين صاحب ماردين. ومات نور الدين صاحب آمد، ابن فخر الدين، واختلفت ديار بكر والجزيرة، ووقع خلف كثير بين العالم: بين الترك والكرد، وبين الفرنج والروم، وبين الاسماعيلية والبنوية، وقتل بينهم عالم عظيم بالباب، والبارة من أعمال حلب، وقتل في هذه السنة من سائر أجناس الأمم مالا يحصى.

وفيها فتح صلاح الدين ميافارقين، بعدما قتل عليها خلق عظيم. ومات كثير من الأمراء المشهورين مثل ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص ، والرحبة، وتدمر. وقتلت الاسماعيلية ابن نيسان، ومات

محمود بن ايكلـدي، وهو شمس الملوك صـاحب آمد، لأن صلاح الـدين أخذ آمد تسليما، وسلمها إلى نور الدين ، وأخـرج صاحبها بجميع ماله، فمضـى إلى سلطان الـروم، ومعـه وزيره ابـن نيسـان، فقتـل ابن نيسـان، ومات صاحبها شمس الملوك محمود بن ايكلدي بن ابراهيم.

وهذه السنـة كان قد أرجف بها المنجمـون من سائر الارض بأنـه يكثر الهواء ويهلك أكثر الخلق ويكون طوفان هـوائي، فلم يكن له صحة، بعد أن كان قـد أخاف الناس سنـة. وفيها تسلم صلاح الـدين يوسـف شهر زور، والبوازيـج. وفيها نزل الملـك العادل سيف الـدين من قلعـة حلب، وتسلمها الظـاهر بـن الملك النـاصر صلاح الـدين . وفيهـا توجـه الملك العادل إلى مصر . وفيها مات سعد الدين بن معين الدين.

سنة ثلاثة وثمانين وخمسمائة

اتفـق طالعهـا العقـرب ، وفيهـا خرج الملـك النـاصر صـلاح الديـن بعساكـر المسلمين من ديـار مصر وعساكـر الشام والجزيـرة، وديار بكـر، والموصل، وكـان زحل والمشتري في الميـزان، ففتح مدينـة طبرية عنـوة يوم الخميس ثـالث وعشرين ربيـع الآخر على تـل حطين، الكسرة المشهورة ، وقتـل مـن العـالم مـالا يحصـى، وأسر السلطـان الملـك النـاصر ملكهـم الأعظـم، وسائر ملـوكهم، ومقـدميهـم، وأحصوا ذلـك فكان زيـادة على عشرين ألفاً ثم سار من بعـد أخذهم وقتلهم إلى مـدينة عكا فأخـذها ، وتسلمها يـوم الجمعة مستهل جمادى الأولى ، ثـم شرع فتسلم قيسـارية ، وحيفـا، ويـافـا وأرسـوف، وتبنين ، وهـونين ، والنـاصرة ، واسكنـدرونـة، وبيسان، والفولة، وجميع تلك البلاد، ثم سار إلى مدينة صيدا فتسلمها.

ثم سار إلى مدينة بيت المقدس فحاصرها.

واستقـر بين صلاح الـدين وبين الفـرنج الـذين كـانوا فيهـا على شراء

أرواحهم، بأن يزن الرجل عشرة دنانير مصرية، والغلام خمسة دنانير، وكذلك الامرأة والطفل والجويرية دينارين، ومن لايقدر على شراء روحه يؤخذ أسيراً ، فحصي الذي لايقدر على فكاك روحه، ولا اشتراه أحد من الفرنج خمس عشرة ألف نفر من رجل وامرأة وصبي وجويرية، فأخذوا جميعهم أسارى، وخلص في هذه البلاد التي فتحها صلاح الدين مما أحصي بالتقريب ، فكان عشرة آلاف نفر ممن كان له في الأسر السنة والعشرة والعشرين، وكان الذي قبض من مفاداة الفرنج عن أنفسهم ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

وفي هذه السنة توجه قراقوش المظفري إلى الغرب، واستولى على القيروان والتقاه ابن عبد المؤمن ظاهر مدينة تونس فكسره قراقوش يوم الجمعة سادس عشرين ربيع الأول، واستولى على البلاد ، وخطب فيها لصلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم رجع ابن عبد المؤمن مفلولاً ، فجمع أطرافه وجموعه، وحشد خلقاً، ورجع إلى قراقوش في هذه السنة وصافه فكسره، وانفض عنه جيشه ، ومضى قراقوش هاربا في البرية.

وفي هذه السنة قتل شمس الدين بن المقدم أمير الحاج الشامي على جبل عرفات قتله كماشتكين أمير الحج العراقي، والخليفة يومئذ الناصر لدين الله.

سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها خرج صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرب مدينة أنطرطوس، وفتح جبلة ، واللاذقية، وفي الشهر المذكور أيضا فتح صهيون، وحصن بكاس، وقلعة السرمانية وحصن شغر، وبرزية عنوة، قتل فيه وسبى. وفي شهر رجب فتح دربساك، وبغراس.

وفي رمضان تسلم الكرك بعد حصاره أشد حصار ومقاتله ، كان

بعض عسكر صلاح الدين محاصروه قبل ذلك بسنة ونصف. وفي شوال من هذه السنة تسلم صفد ، وفي شهر ذي الحجة تسلم قلعة كوكب بعد قتال شديد ، وفيها أطلق الملك الناصر الملك الذي كان أسره نوبة حطين سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وفيها صالح الابرنس صاحب أنطاكية على أن يطلق كل أسير من المسلمين في أنطاكية ، فكان عددهم ألف أسير، وفيها مات عيسى بن بلاشو.

سنة خمس وثمانين وخمسمائة

ظهرت الفرنج بالشام ، وجاءوا من بلادهم براً وبحراً ، فحاصروا عكا، وكان نزولهم عليها مستهل رجب والقمر يومئذ بالدلو، ثم سمع صلاح الدين ، فقصدهم بسائر العساكر الاسلامية، فخندقوا على أنفسهم، وكان المسلمون يقاتلونهم من عكا، والعساكر مع السلطان يقاتلونهم من برّا من وراء خنادقهم.

ثم إنهم اجتمعوا يوم الأربعاء العشرين من شعبان، وخرجوا بكليتهم إلى المسلمين، والمسلمون يومئذ على غره، فوصلوا إلى خيمة صلاح الدين فقتلوا من كان حول السرادق، ثم نهبوا سوق العسكر، وقتلوا من لحقوه ، وقتلوا في خيمة السلطان لأبي علي بن روا حة ، الشاعر المجيد الحموي، ومكبس السلطان، وظنوا أنهم قد ظفروا ، ثم عاد صلاح الدين والعساكر فكبروا عليهم تكبيرة واحدة، فنصرهم الله، فهزموهم فقتلوا منهم خلقاً لايحصى فلما رجع صلاح الدين أمر أن تحصى القتلى، فكانوا أربعة آلاف وسبعمائة وستون نفراً، كلهم قتلى، ولم يفقد من المسلمين إلاّ القليل، وفيها تسلم السلطان الشوبك.

سنة ست وثمانين وخمسمائة

هذا والفرنج مقيمون على عكا يحاصرونها، وتقاتلوا براً وبحراً،

والسلطان كما ذكرنا من وراء خنادقهم يقاتلهم صباحاً ومساء.

وفي هذه السنة تسلم شقيف أرنون، وكان الفرنج خذلهم الله قد نصبوا أبرجة الخشب والمناجيق والدبابات، ونقبوا سور عكا، وأشرف المسلمون على الهلاك، ثم نصرهم الله، فأحرقوا مناجيقهم ودباباتهم وأبراجهم الخشب، وذلك يوم السبت العشرين من ربيع الأول، ثم خرج المسلمون عقيب الحريق، وقتلوا منهم خلقاً، ونهبوا من مخيمهم ماقدروا عليه، وأخذت الشواني عليهم في البحر.

وفي هذه السنة طلع ملك الفرنج، وهو ملك الألمان على قسطنطينية، ثم على بلاد قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي، فمنعهم ولده قطب الدين، وضرب معهم مصافاً فهزموه، وهجموا قونية ونهبوها وقتلوا منهم عالماً، حتى أنهم أخذوا النساء من الحمامات ؛ ثم رحلوا عنها، فأهلك الله ملك الألمان في الطريق، وقام مقامه ولده، ووصلوا مدينة أنطاكية في جمادى الآخر، وكان الذي وصل إلى أنطاكية نحواً من مائة ألف انسان ، ثم مضوا إلى عكا، وخرجوا لمحاربة السلطان صلاح الدين رحمه الله يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة، فهجموا خيم الملك العادل، ثم تراجع عليهم المسلمون من كل جانب فردوهم، وقد قتل منهم عالماً بحيث طبق تلك الأرض الدم والقتلى، فأمر السلطان صلاح الدين احصاءهم، فكانوا اثني عشر ألف قتيل، وكان عدد الذين خرجوا إلى القتال من الفرنج يومئذ اثنان وستون ألفا.

ثم وصلت في هذه السنة جميع ملوك الفرنجة في البحر، بحيث توهم صلاح الدين شراً كثيراً لكثرة عدد الفرنج، فخرب طبرية ، وقيسارية، وحيفا ، ويافا، وصيدا، وجبيل ،وأرسوف، وسائر بلاد الساحل على البحر ،ما خلا عسقلان.

وذكـر أن الفرنجيـة الذيـن اجتمعوا على حصـار عكا في البر والبحـر كانوا مائتي ألف وأربعين ألفا، مع قلة خيلهم.

سنة سبع وثمانين وخمس مائة

أخذت السفينة التـي أرسلها صلاح الديـن ، وكان قد شحنها بـالعدة والميرة والمال والرجال، فغرق المسلمون أنفسهم في البحـر ورموها أنفة من الأسر، وهي كـانت زيادة على ضعـف عكا عما كـانت في السنة المتقـدمة مـن الـذخيرة والرجـال، وأكثـروا عليهـم القتـال وهجمتهـا الفرنـج يـوم الخميس بعـد وصولهم نصف البلـد، وقتلوا منهم جماعـة من الخيالـة، ثم أعادوا عليهم القتـال، ونصبوا عليهم المجانيـق من كل جانـب، وفتحت فيهـا مواضـع عدة حتـى خربـت وصارت مثـل الطريـق، فغلبوا وطلبـوا الأمـان لأنفسهم، وأخـذتها الأفرنـج يـوم الجمعة سـابع وعشريـن جمادى الآخرة تسليماً، ثـم غدروا بهم وقتلوهـم ولم يسلم منهم إلاّ القليـل، وقتل الفرنج للمسلمين يوم الثلاثاء سابع وعشريـن رجب تغمدهـم الله برحمته، وأسر بهاء الدين قـراقوش، وسيف الديـن المشطوب وابن باريـك، وذكروا ان عدة من كان داخل مدينة عكا من المسلمين سوى من خرج منها في المـراكب خمسـة آلاف وسبعمائة، ومـا كان في الاسـلام مدينـة إلاّ وكـــــــان فـــــي عكـــــــا مـــــن اهلهـــــــا جماعـة، وكان سبـب قوة الفـرنج عليهـم ـ خـذلهم الله ـ أن جماعة مـن المسلمين خرجوا عليهم من عكا، مـن جملتهم رجل حلبي منجنيقي يقال له ابن الوشيئة عمل مناجيق وعرفهم الأسهل منها.

سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فيها مات الموفـق خالد بن القيسراني الكـاتب، وكان مجيداً في كتـابته، ووزر لنور الـدين ، وكـان ناسخـاً مجلداً، وبذلـك توصـل إلى نور الـدين رحمه الله.

وفيها قتل الملك الظاهر الفقيه أبا الفتح السهروردي المشهور، بعد فتاوى الفقهاء له بقتله، وأحرق خوفاً من أفاسده، فإنه كان عالما، وقتل بعده بأيام تلميذه ، لأنه كان يوافقه في أقواله ودعاويه.

وفيها مات قطب الدين بن العجمي بحلب، ومات المجد بن الخشاب. ومات ابن الحلي. ومات القاضي المؤتمن بن كاسبيويه وزير الملك الظاهر صاحب حلب ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب. ومات جمال الدين أحمد بن فياض وزير الظاهر أيضاً.

وفيها أخذ ابن لاون البرنس هو وابنه وزوجته وابنته بحيلة، وبقيت أنطاكية بلا صاحب .

وفيها قصد الملك الظاهر صاحب حلب بلد صافيثا.

وفيها رحل الملك المظفر تقي عمر بن شاهنشاه بن أيوب لتسليم ما شرقي الفرات مُن البلاد التي كانت مع مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك مضافة إلى ميافارقين فصارت معه: جبلة ، واللاذقية، والمعرة ، وسلمية، والرها، وحران ، وسميساط، والموزر، وشرط عليه الملك الناصر القيام بحفظ معاهدي تلك الخطة لاسيما صاحب آمد.

وفيها وصل ملك الفرنسيس لنجدة الفرنج على عكا، واسمه فليب، ومعه من الأموال ما لا يوصف.

وفيها وصل الخبر بملك الانكلتيز، واسمه جبلرت إلى قبرس، واستولى عليها، وكان قد تقدمه إلى الجزيرة عدة مراكب وشواني، ونفذ يطلب من الفرنج من عكا نجدة، فنفذوا إليه جفري أخا الملك العتيق، فأدخل صاحب الجزيرة جماعة معه في الصلح فصالحه، وحمل إليه الهدايا والإقامة فأخذه بعد ذلك من مأمنه وغله وقيده، واستولى على الجزيرة، ثم وصل

بعد ذلك إلى عكا، وصحبته خمس وعشرين بطسه، كل واحدة تضاهي القلعة.

وفيها كان خرج سيف الدين المشطوب، واجتمع بالمركبس لسماع رسالته، وترددت الرسل بينهم بسبب عكا، وكانوا قد اشترطوا اعادة جميع البلاد في صلحهم، وإطلاق الأسارى، فبذل لهم السلطان عكا بما فيها، فلم يفعلوا ، وسمح لهم باعادة صليب الصلبوت.

وفيها تسلم الفرنج عكا، وكان المشطوب قد خرج إليهم، وبذل لهم عند تحقيقه أخذهم لعكا مائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة من المعروفين، وصليب الصلبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس لعنه اللّه ، وأربعة آلاف دينار لحجاب المركيس، وما فعلوا ؛ وهم في ذلك ، وإذا قد طلعت أعلام الفرنج على عكا، فجرى على السلطان ما لايحكى، ونسب ذلك إلى غيبة الملك المظفر تقي الدين في ديار بكر، واشتغاله بأخلاط وغيرها.

وفيها غدر الانكلتيز ــ لعنه اللّه ــ بالأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ، فأحضرهم في الحبال قبالة المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة ، فقتلوا اجميع قتلة واحدة، وذلك بعد أن كان قد تقرر مع السلطان ـ رحمه الله ـ فديتهم بأموال وأسارى غدر بهم، وكان ملعونا غداراً، وحمل السلطان عليهم بالعسكر حملة واحدة، وجرى في ذلك النهار من القتال مالا يحكى ، وتصرف السلطان بالمال الذي كان أعده للفداء، والأسارى أعادهم ـ بعد أن كان قد اعدهم في الصلح ـ أيضا إلى البلاد.

وفيها رحل الفرنج إلى عسقلان ليعمروها، فلما رحلوا كان للملك الأفضل اليزك، فوقع عليهم، ونال الغرض منهم وقتل جماعة ، وساروا نزلوا على حيفا، ووصل الخبر إلى السلطان بذلك، وكان قد هلك من الفرنج أربعمائة فارس على عكا وحيفا.

وفيهـا استشهد ايـاز الطويـل، أفرس المسلمين والفـرنج، كـان مملوكـا للسلطان، صلاح الدين رحمه الله.

وفيهـا اجتمع الملـك العـادل بالانكلتيـز بعد عـدة مـراسلات جـرت بينهـم، وكان الترجمان بينهما سير هنفـري، وقـال: تصـالحونا وتـردوا إلينـا البـلاد، فقال لـه الملك العـادل: هذا لايمكـن والرمـاح ذون ذلك، فثـار الانكلتيز وقام مغضبًا كالجمل الهائج.

وفيها أخـذت أرسوف بعـد مقاتلـة عظيمة . وفيهـا سار السلطـان إلى عسقلان ليخـربها، فأحضر الجماعة وشـاورهم في ذلك، فقـال سليمان بن جندر: المصلحـة أن تخرب للعجز عـن حفظها، وكان السلطـان بالـرملة، والفرنـج قد نـزلوا يـافا، وتمكنـوا منها، فـأوقف الملـك العادل جماعـة من الأمراء قريبا من يافا، وسـار السلطان إلى عسقلان، وشرع في هدمها بكرة يوم الخميـس تاسـع شعبان مـن هذه السنـة ، وعاد السلطـان منها وأمـر بخراب حصن الرملة ، ويبنا، ولد.

وفيها وصل صاحـب ملطية الملك معز الدين قيصر شـاه ابن سلجوق ملتجئاً إلى السلطان الملـك الناصر صلاح الدين من أبيـه وأخيه ، فتلقاه الملك العادل، وأقامـوا له بما يجب لمثله، وبقي مده وصاهـر الملك العادل ليتقوى على أبيه وأخيه ببني أيوب.

وفيها هـدم حصن نطرون. وفيها كـان قد تقرر زواج الملـك العال على أخـت الانكلتيـز، وكان ذلـك بعـد رضـاهـا، فلما اتفق السلطـان الملـك النـاصر والملك العـادل على ذلك، ولم يبـق إلاّ العقـد، اجتمع القسـوس والمطارنـة وأحرفوها عـن ذلك، واعتذروا عنهـا بأن قالوا هـي إنما وافقت بشرط الدخول في دينها.

وفيها اجتمع الملك العادل بالانكلتيز مرة ثانية، وجرت بينهما محادثات ومطاولات ، وافترقا عن أتم صداقة.

وفيها شرع السلطان ــ رحمه الله ــ في عمارة البيت المقدس، وأحضر الصناع من الموصل وغيرها، وتولاها بنفسه الكريمة ـ رحمه الله ــ وكان يعمل كأحد الفعالة ، فأنشأ سوراً جديداً بالحجارة الكبار والعمد، وعمق الخنادق، وأنفق من الاموال ما لا يحصى، ابتغاء وجه الله، رضي الله عنه وأرضاه.

وفاة الملك المظفر تقي الدين رحمه الله

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين ، المقدم ذكره، يوم الجمعة تاسع عشر رمضان على ملا زكرد، وكان محاصرها ، وهي من بلد أرمينية، وكان قد أخذ السويداء، وحاني من صاحبها، وأخاف أخلاط وغيرها من تلك الممالك، وكان موته قد كتمه ولده الملك المنصور محمد إلى حين خرج من ذلك الاقليم، بأتم حزم وسياسة، وبقي في بلاده، وجاءته رسالة السلطان صلاح الدين بإبقاء ماكان لأبيه عليه، فطلب من السلطان يميناً بعد عدة شروط ، فما أجابه، فخاف حينئذ الملك المنصور، فدخل في صلاح حاله الملك العادل، ووصل هو بنفسه إلى الرها، وأحضره إلى السلطان صلاح الدين ، وهو على عكا، فأحسن إليه السلطان، وأقبل عليه.

وترك تقي من الأولاد: الملك المنصور محمد، وأسد الدين ابراهيم، والملك الصالح محمود، والملك المعظم نجم الدين اسحق، والملك الفائز أسد الدين خضر، والملك القاهر شمس الدين عبد الرحيم، والملك الغالب فتح الدين. وفيها توفي حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهو ابن أخت السلطان صلاح الدين، وكان شجاعاً. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر، من أكابر أمراء الدولة. وفيها قتل أتابك مظفر

الديـن، قتله أرسـلان بن ايلـدكز في همذان ليلـة الأحد مستهـل شعبان، وكان قـد تولى الملك بعـد وفاة أخيه المعـروف بالبهلوان، وكـان السلطان طغرل السلجـوقي تحت ولايته وحكمه، وهـو ابن أخيه ، لأمه وأبيـه اسم السلطنة، ولقزل حكمها.

وفيهـا توفي أبـو الفتـح الصفي بـن القابـض، كـان عظيما عند الملـك الناصر ، ووجيهـا، ووزيراً، وأخـا، وغير ذلك، وفيهـا توفي الحكيـم الموفق ابن المطـران في ربيع الأول، وكان نصرانيا، وأسلـم وحسن اسلامـه ، كان طبيبا فـاضلاً للملك النـاصر صلاح الديـن. وفي هذه السنة تـوفي الفقيه العالم الصـالح الورع نجـم الدين الخبـوشاني بمصر، وهو الـذي بنى على الشافعي ـ رحمه الله ـ المدرسة العظيمة، فشفع الملك العـادل بعد موته لشيخ الشيـوخ صدر الـدين بـن حموية بـأن يكون متـوليها ، فكتـب له بذلـك، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة، ثم صرفه بعـد ذلك السلطان من المدرسة ثم أعاده.

وفي هذه السنة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

كان السلطـان مقيما في القدس لاتمام عمارتها. وفيها عزم الفـرنج على عمارة عسقلان فما مكنوا.

وفيهـا خـرج المشطـوب علي بـن أحمد مـن الاسر، بعـد مشترى نفسـه بخمسين ألف دينار، وفيها وصل إلى الملك النـاصر صلاح الدين ، فتلقاه وأحســن إليه، وأعطـاه نابلـس، وعاش إلى آخـر شوال مـن هذه السنـة، ومات.

وفيهـا هلـك المركيـس بصـور ، وذلك أنـه أكـل وشرب وطـرب عنـد الأسقف فـركب، فقفز عليـه اسماعيلي فضربه بسكين، فقـال : احملوني إلى الكنيسة ، فلما حملـوه إليها قفـز عليه فيهـا شخص آخـر فضربه بسكين،

فمسكوه أيضاً، فوجدوهما اسماعيلية مرتدين فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا ، فقالا: ملك الانكلتيز، وذكر عنهما أن لهما مدة ستة أشهر ، وقد دخلا في ترهب وتنصر.

وفيها استولت الفرنج على قلعة الروم. وفيها نزل السلطان على يافا وحاصرها ، وأشرف على أخذها ، ودخل المسلمون إليها ، وسألوا السلطان الأمان، فأجابهم، فجاء الانكلتيز إليهم في البحر ، وطلع إلى القلعة، وقويت شوكتهم، فعادوا عما كانوا عنه، وأخرجوا منها عنوة للمسلمين، وأسروا جماعة ،ورحل السلطان عنها، ونزل على نطرون.

وفيها كانت الهدنة العامة مع الفرنج، وذلك باتفاق من المسلمين والفرنج، وفيها عزم السلطان على أشياء، وطلب الانكلتيز من السلطان زيارة البيت المقدس، فاعتذر السلطان إليه، وفي ضمنها مرض مرضاً أشغله، فأقلع وسار بمن معه من الفرنج.

وفيها عزم السلطان على الحج، وكاتب البلاد بذلك ، فما زال الناس بالسلطان إلى أن أحرفوه عن الحج، خوفا من غدرة الفرنج، فولّى في القدس ورتبه، وسار من القدس ضحوة نهار الخميس خامس شوال، ولقى بهاء الدين قراقوش، وقد خرج من الأسر بطبرية. وفيها دخل إلى بيروت ، وجاءه بيمند صاحب أنطاكية ، دخل عليه مستجيراً فأدخله عليه وأكرمه ، وخلع على من معه، وكتب مناصفات أنطاكية بعشرين ألف دينار، وفارقه.

ورحل السلطان قاصداً دمَشق، فدخلها وكانت مدة غيبته عنها في الجهاد أربع سنين ، وخرجت السنة والسلطان على أتم عافية، ورسل الممالك من أصحابها يخطبونه ويرغبون إليه بأموالهم وبلادهم وأولادهم وأنفسهم.

وفي هذه السنة توفي سلطان الروم قلج أرسلان بن السلطان مسعود ابن قلج السلجوقي، وله عشرة من البنين، فولى كلا منهم اقليما، فقوي كل منهم في ثغره، وكان الكبير منهم قطب الدين ملك شاه.

وتوفي فيها القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش ، وهو قاضي العسكر الصلاحي.

ودخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

والسلطان رحمه الله مقيم بدمشق في داره.

وفيها مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قدس الله روحه في بكرة الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر، فلما تحقق العماد الكاتب الأصفهاني ـ وكان كاتبه ـ موته، أنشد ارتجالاً.

قلت لضوء الصبح لما بدا
ونوره منكسر حائر
مالك لاتسفر عن بهجة
فقال: مات الملك الناصر

خلف رحمه الله سبعة عشر ولداً، وابنة صغيرة، ولم يخلف في خزائنه سوى دينار واحد لاغير.

وكان ولي عهده بالشام ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وهو أكبر أولاده. والملك العزيز ولي مصر وأعمالها، وما أضيف إليها، واسمه عثمان فأحسن في مملكته أحسن من كل محسن في الممالك. والملك الأفضل دمشق وأعمالها والساحل وما يجري مع ذلك.

والملك الظاهر غازي حلب ، وما يضاف إليها.

وفيها سـار الملك العـادل إلى بلاد الجزيـرة بعد وفـاة أخيه مـن خوفـه عليها. وبقي سيف الاسلام على حاله باليمن.

وفيها كـان ابتداء تفاهـم أمر المماليك الصـلاحية واتفاقهـم وسعادتهم بالديار المصرية مع الملك العزيز.

وفيها كان الملك العادل قد نفـذ إلى الملك الأفضل يطلب عسكراً منه ومـن إخوتـه ليفتـح بـلاد الجزيرة ، فجهـز لـه الملـك الأفضل العسكـر، وكـذلك سير إلى الملـك العزيـز فجهز لـه العسكر، وكـان مقدمـه الأمير فخر الـدين جهـاركس مملوك صـلاح الدين فـوصل إلى دمشـق، والملك العادل قد فتح سروج، وأعاد عسكر الملـك الأفضل إليه، فعاد جهاركس بمن معه إلى مصر بعدما تقرر معه ما يشافه به صاحبه.

وفي سنة تسعين وخمسمائة:

برز الملك العـزيز الى البركـة (٨) وسير إلى أخيه الملك الأفضل بأن يخطب له ويضرب السكـة باسمه ، فما وافقه على ذلـك، فجاء إلى دمشق وحـاصرهـا ، وأخذهـا منـه بعملـة من أولاد أبي غـالـب الحمصي، لأنهم فتحوا بـاب شرقي، ولما تملكها سأل الملـك العادل يازكوج أن يطلبهـا له من الملـك العزيز، فطلبها لـه فأعطاه إياهـا لولده الملك المعظـم عيسى. وكان مع يازكوج في الحجبة بها جهاركـس وسنقر الكبير وعز الدين سامة وسرا سنقر.

وفيها بعـد عوده من دمشـق جد في نقـض الأهرام ورمى أحجـارها في البحر إلى دمياط ليبني بها أبراجاً.

وفيهـا وصل الملـك المعظم والملـك الأشرف من قلعـة جعبر إلى أبيهما العادل بدمشق.

وفيها نـزل الفرنج على تبنين وجـرى عليها مـن الزحف والقتـال وأخذ النقوب مـالا يوصف . ووصـل الملك العزيز بعسـاكره واستنقذهـا منهم عنوة وعاد إلى بلاده بعد أن كانت أشرفت على الأخذ.

وفيها سير الملك العزيز هدية إلى ابن سيف الإسلام.

وفيها كـان ظهر بـدمشق رجل ادعـى النبوة وخيـل للناس أشيـاء من عمل السيمياء فقتل لئلا يفتن الناس.

سنة ثلاث وأربع وتسعين وخمسمائة:

خاليتان

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة:

كان الملك المنصـور محمد بن تقي الديـن عمل الجسر على حماة خارج بلده بالجانب الشرقي بالمدينة السفلى.

وفي أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة:

جاء للملك المعظم ولد ذكر هو أول أولاده.

وفيها مات الملك العزيز بن الملك الناصر سلطان مصر، وكان سلطاناً جـواداً حليماً مليـح الصـورة حسن السيرة، وكـان الملـك الظـافـر خضر المعروف بالمشمـر عنده بمصر، فاجتمع الأمـراء وأقاموه في البلاد سلطـاناً إلى حين وصل أخـوه الملك الأفضـل من صرخد ، لأنـه أقام بها وبـأهله وعيـال صلاح الـديـن حين أخذ (العـزيـز) دمشقَ منـه فسيروا أحضروه

إليهم، وجرى ما جرى عند وصوله، من كونه لم ينزل عند فخر الدين جهاركس أولا ، ونزل في خيمة أخيه الملك المؤيد وأكل، ثم منها انتقل إلى خيمة جهاركس. فما طاب لجهاركس ذلك وخشي من عملة عليه مع المماليك الأسدية مثل ياز كوج وجماعته من الأمراء الأسدية. فاتفق جهاركس وزين الدين قراجا على مفارقة ديار مصر، فسارا عنها وتبعهما سرا سنقر . وهذا سبب تفرقة الصلاحية أولا وتسحبوا واحداً بعد واحد إلى الشام.

هذا والملك العادل على ماردين يحاصرها، وكان اجتماع الأمراء عند نزولهم من مصر في القدس المحروس، فسيروا إليه واستدعوه، حتى إن قراجا وسرا سنقر توجها إليه، فرتب ولده الملك الكامل محمد (٩) والأمراء عنده، ومن جملتهم عماد الدين بن المشطوب ، وتوجه إلى دمشق بعد ذلك ، وكان أهل ماردين قد استنجدوا بأتابك نور الدين صاحب الموصل، فلما رحل الملك العادل جاء إليهم ونجدهم، فرحل الملك الكامل عنها عنوة . ووصل إلى حران بعد أن كان تسحب إلى آمد بمن معه من العسكر.

وفيها وصل الملك الأفضل من الديار المصرية بعد تملكه إياها بيويمات، ونزل على دمشق ، وضرب خيمته في الميدان، وذلك في رابع عشر شعبان ، واستمر الحصار، فسير الملك العادل طلب ولده الملك الكامل فجمع العساكر، وأنفق الأموال، وتوجه قاصداً أباه، ووصل الخبر إلى الملك الأفضل والملك الظاهر، لأنه كان قد اتفق معه وجاء إليه من حلب، فاتفق رأيهما على الرحيل عن دمشق، وسار الملك الظاهر إلى بلاده ، والملك الأفضل عاد هارباً إلى ديار مصر بعد أشياء جرت وأمور تجددت ليس هذا المختصر موضع شرحها لما شرطنا من اختصاره.

وكان الحصار عليها. والملك العادل يقوي نفسه ويخبز البقسماط ويعمل القرب والروايا ويقول: «لابد لي من ديار مصر» . والناس

يعجبون من قولـه وفعله ، فقدر اللّه ما قدره مـن هروب الملك الأفضل ، وساق الملك العادل خلفه ، وجمع بينهما السـائح، وجرى من القتال ما لا جرى في الإسلام، وكسر الأفضل وساق الملـك العادل خلفه إلى القاهرة ، وبقي الملك العادل عليها ثمانية أيام ، وصالح الملك الأفضل وعين له ما يعوضه وحلف له، وملك الملك العـادل الديار المصرية . وكان قد حلف للملـك الأفضـل على ميـافـارقين ، ورأس عين الخابـور ، وسميسـاط ، وحاني ، وجبل جور.

سنة ست وتسعين وخمسمائة:

فيها تقرر أن الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان يكون هو السلطان والملك العـادل على ذلك وسلطنـه وحملت الغاشيـة له كما جـرت العادة، ثم بعـد ذلك عـاد الملك العادل سير رسلـه إلى البلاد واستحلـف الناس لنفســه، وضرب الخطبة والسكـة باسمـه، فما اختلـف عليه أحـد وأجابـه الناس كلهم رغبة في دينه وتدبيره واسمه وحزامته.

وفيها أحضر الملك العادل ابنه الملك الكامل إلى الديار المصرية ورتبه فيها وجعله ولي عهده وحلف الناس له.

وفيها حاصر جهاركس بانياس وأخذها من حسام الدين بشارة.

وفيها حلف ابن المشطوب وجهاركس وقراجا وميمون القصري على أن يولـوا الملك الأفضل ، ووصل عـز الدين سـامة من الحج فأطلعـه الملك الأفضل على ما جـرى من المذكورين وثوقـا منه ، فأظهر لـه سروراً وفرحاً وحمد الله على ذلك ، وفارقه وكاتب الملك العادل به إلى الديار المصرية ، ثم ما كفاه ذلك حتى سار بنفسه إلى ديار مصر عرفه ما جرى شفاها.

- ٩٧٩٦ -

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة:

والحالة هكذا.

وفيها قصر النيل في طلوعه إلى الغاية فغلت الغلة بمصر إلى أن أبيع إردب القمح بخمسة دنانير وأكل الناس بعضهم بعضا، بحيث كانت المرأة تأكل ولدها بسائر الألوان ، وخلت مصر والقاهرة من أكثر أهلها ، بحيث إن الناس يموتون وما لهم من يدفنهم ، فيبقون على حالهم شهوراً.

وفي أوائل هذه السنة جلبت الغلال في البحر من الشام والساحل، ووقع الفناء أيضا فانقرض الناس فناء وجوعا.

وفيها ندم الملك العادل على كونه مكن جهاركس من أخذ بانياس وتبنين والملك المعظم، فاطلع جهاركس على ذلك، فاجتمع هو وألطنبا الجحاف، وفارس الدين ميمون القصري ، وعلاء الدين شقير، وزين الدين قراجا،وسيروا إلى الملك الأفضل وإلى الملك الظاهر، وحثوهما على الحركة ، ليملكوا دمشق للملك الأفضل . وكان إذ ذاك الملك العادل بالديار المصرية ، وشرع سامة يكاتبهم، ويظهر لهم أنه معهم، وكان كذاباً في ذلك. فتجهز الملك الأفضل وأخوه الملك الظاهر ، وخرجا من حلب بالعساكر ، ووصلا إلى حماة ، وحاصراها في رمضان وقاتلاها قتالا عظيما وما حصلا على طائل منها لشهامة صاحبها وحمية أهلها، واتفق الحال بعد الإياس منها على أن يحمل الملك المنصور محمد صاحبها ثلاثين ألف دينار، وإن أخذا دمشق كان في خدمتهما، فقبلا ذلك منه، ورحلا قاصدين دمشق، فجدا تارة وقصرا تارة إلى أن وصلاها بعد أن كانا عزما على العود عنها غير مرة، فجدا على قصدها ووصلاها ونازلاها وحاصراها مدة، ولم ينالا منها غرضاً ، وذلك لسوء نياتهما وحسد بعضهما بعضاً ، وغدر المماليك الصلاحية بهما لما سمعوا من الملك الظاهر ، وكان

الملك العادل مقيما بنابلس ، وكان جهار كس قد أخذ من الملك الأفضل ثلاثين ألـف دينار، ورهناً على تمـام أربعين ألف دينار. وأخذ قـراجا صلخـــــــد وأنـــــــــــزل الملـــــــك، الأفضل أمه وعيـال أبيه منها، وكل هذا رغبة في الملـك وطمعا ولإتفاق جهاركس وقـراجا عليه. وكان في الجملة قـد قال الملك الظاهـر: إنه متى أخذ دمشق ما يسلمها للملك الأفضل ، فسمـع الأفضل بذلك ، فأفكر في نفسه وراسـل عمه السلطـان الملك العـادل على الصلح معـه، واتفق معـه على ما يعطيـه بـاطناً ، ولم يطلـع على ذلك سـوى عماد الـدين بـن المشطوب ، والمهـذب بن نظيـف، وكان وزيره يـومئذ ،.وهـو حموي ، ثم شاع ذلك في المماليك ، ومحا الملـك الأفضل ما قاله الظاهـر فأقصروا عن القتال ، حتى إن العسكـر كان قد بلغ من دمشق أتـم غرض، بحيث إن بعـض العسكر كـان قد دخـل دمشق وشرب فقـاعاً ، وخـرج من بـاب الفراديـس ، ولم يبق إلا هجمهـا ، فعاد الملـك الأفضل سير إلى الجماعـة ومنعهـم من المبـالغـة في القتال، بحيـث أعيد ابـن المشطـوب من بـاب الحديد . فلما اجتمع به قال له الملك الأفضل قول الملك الظاهر.

وكان الظاهر أبـداً يكارم فارس الدين ميمون ويعظمـه ويحترمه ، وهذا أيضا ممـا كان جهـاركس ينقمـه على الظاهـر وكذلـك قراجـا ، فانضـم جهـاركـس وقـراجـا إلى الملـك الأفضـل وأطلعهما على قـول الظـاهـر ، وشـاركاه في الـذي فعلـه مـن رجوعـه إلى عمـه في البـاطن . ثـم هـرب جهاركس وقراجـا بمواطأة من الأفضل وبقوله ، فعلـم الملك الظاهر - وكان يشرب في بقيـة الليل ــ هربتهم ، فخـاف على نفسه ، فشجعـه ابن المشطوب، وأصبحـوا وجدوا في القتـال ذلك النهار ، واحتـاطوا بـدمشق من كل جانـب ، ونزل الملك الظافر، ونصب سنجقـه على جسر باناس ، وابـن المشطوب عبر جسر الحديـد ، والملـك المعظـم في دار العدل وهـو مريـض، فكفهم الملك الأفضـل أيضا بمجد الـدين مرزبـان، وعادوا إلى

خيمهم ، ورجعوا عن غرضهم ، ثـم جاءت رسل السلطان الملك العادل باطناً إلى الملك الأفضل بما كـان عين له، وهو رأس عين الخابور ، وجملين والموزر ، وسميساط ، وميـافارقين، وحاني، وذو القرنين، ويحمـل إليه في كل سنـة من مصر قماشـاً بخمسين ألف دينـار، وخمسين ألف دينـار عينا ذهباً ، وحلـف له سراً ، ولم يعلـم الملك الظاهـر ، ونقل الملـك الأفضل بيته وعياله ووالدته إلى حمص .

وكان الملـك الظاهر قـد أخذ من التجار مـائة ألف دينار وزيـادة من القماش وفرقـه على العسكر ، ويكتب لهم خطه ، ويستـوفونه مـن حلب. وكان الملـك الظاهر قد اتفـق مع الجماعة على استدعـاء عز الدين سـامة إليهم إلى المخيم ، فلما خرج عاتبوه وقالـوا له كل قول فما أفاد معه. وعاد من عندهم بعد أن قال للملك الظاهـر: « أنت غدار مالك قول ولا يثق بك أحد أبـداً» . ودخل (دمشق) وعرف الملك المعظم مـا جرى ، وكتب إلى الملك العـادل بذلك. واتفق أن الجحـاف عمل دعوة للملك الظـاهر وجماعـة الأمـراء ، فسكـر الظاهـر وطـرب وغطـى على عقلـه الشراب ، بحيث إنه رمى سنورا على الجحاف وأنشده:

ستعلـــم ليلى أي ديـــن تـــدينـــت......

ففهم شقير والجحـاف ذلك، فأسراه في أنفسهما وتـوهما بأنه قـد تحقق صورة الحال مع السلطان الملك العادل فهربا في ليلتهما ، ودخلا دمشق ، ومعهما يـاقوت العـزي . فلما بلغ الملـك الظاهـر ، ركـب هـو ومن عنـده عازمين على الـرحيل مـن دمشق، وركب جميـع العسكر ، وسـاق الناس على حمية ، وطلعـت شمس نهار تلـك الليلة وهـو الاثنين من سنـة ثمان وتسعين وخمسمائة. وساق الملـك الظاهـر بمن معـه . وفي الطريـق أقطع ابن المشطوب منبج وقلعة نجم ، ولسرا سنقـر بهسنا ، وكان ذلك بواسطة ميمـون القصـري. وكـان قبـل ذلك قـد أعطـى قلعـه نجم للملـك. الأفضل، فسير ابن المشطـوب يتسلم قلعة نجم، فما سلموهـا إليه وساروا

ودخلوا في السوق. فدخل الملك الأفضل إلى حمص والملك الظاهر ساق بمن معه . وكان فراق الملك الأفضل لأخيه الملك الظاهر من مجمع المروج. ثم نزل الملك الظاهر على حماة فقاتلهم بعض الجماعة ، فسير إليه الملك المنصور وعاتبه على غدره بيمينه له، فاعتذر الظاهر عن ذلك وكف أصحابه ، وسار إلى بلده بعد أن كان الملك الظاهر قد ركب في عسكره وجرح في رجله اليسرى . ولما وصل إلى حلب طالبه ابن المشطوب بوعده له بمنبج، وحصارها وأخذها له، وكان قد جاء إلى منبج الملك الفائز بن العادل وابن الجراحي فأخذاها في غيبة الظاهر، وكانت إذ ذاك لابن المقدم عز الدين، ورثها لأخيه شمس الدين عبد الملك ، لأنها وقعت إليهم في مقايضتهم لصاحب حماة، ابن تقي الدين ببارين وكانت بارين لهم وكفر طاب وفامية ـ وقد ذكرنا ذلك مطولا في المطول ـ فمغلطه عنها إلى وقت ثم وفى له بها ، فأخذها ابن المشطوب وفي يده خرب قلعتها.

وفيها وصل الملك المؤيد والملك المعز ولدا صلاح الدين من حبس الكرك ، لأن الملك العادل كان حبسهما ، فلما أخذ دمشق وأمن عليهما أطلقهما من الحبس.

وفيها وصل السلطان الملك العادل قاصداً حماة ومتوجهاً إلى حلب، فنزل حماة، وصارت المراسلات بينه وبين الملك الظاهر إلى أن وقع الصلح بينهما.

وفيها أخرج القاضي نجم الدين عبد الرحمن بن أبي عصرون من حماة ـ وكان قاضيها،وزيرها يومئذ ـــ إلى حلب بعد أخذ عدة دراهم منه وحبسه مدة فأخرج بشفاعة دلدرم بن ياروق، صاحب تل باشر، وذلك لبغضة السلطان الملك العادل له.

وفيها: حدث على القاضي محيي الدين بن الزكي ، قاضي دمشق ، من الخلط ما شوش عقله وغيره، وكان عالماً فاضلاً فقيهاً كاملاً ، ذا عقل ورزانة ، وورع وديانة ، وكان خرج راكباً ، فوقع عن دابته فمات رحمه الله.

وفيها أحضر السلطان الملك العادل ولده الملك الأشرف موسى من القدس ، لأنه كان به مقامه ، وكذلك الملك المعظم ، وهذا بعد عوده من حماة ، وقد عاد إلى حمص . فقرر الملك الأشرف بحران والرها، ويكون مقيما في الجزيرة وعساكرها في خدمته ، أسوة بأخيه الملك الأوحد كان مقيماً بميافارقين وديار بكر ، وعين الملك المعظم بدمشق ، والملك الكامل بالديار المصرية ، كما قدمنا ، وهو يتردد إلى الممالك بنفسه.

وفيها : حلف الملك الظاهر للملك العادل أن لايستخدم ابن المشطوب وقطع خبزه ، فوصل إلى عند السلطان فما استخدمه، بل أذن للملك الأوحد أن يستخدمه ، فما اتفق بينهما ، فاستخدمه الملك الأشرف وأحسن إليه.

وفيها : جاءت الزلزلة العظيمة التي أخربت الساحل وأكثر بلاد الفرنج . وأشرف الفرنج على أخذ طرابلس بحيث إنهم عبوا قماشهم في المراكب للهرب من المسلمين ، فما أقدم المسلمون عليهم.

ودخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة:

فيها : طلع النيل دون كفاية البلاد، وزرع الزرع ، وانحطت الأسعار ، وصار يزيد السعر وينقص إلى سنة تسع وتسعين وخمسمائة طلع النيل ورويت البلاد وزرعوا وتباشر الناس بها.

وفي سنة ثمان وتسعين أخرج سيف الإسلام ولده الملك المعز اسماعيل من اليمن خرجة ثانية بعدما كان أخرجه إلى الشام وعاد منه إليه . وذلك

كله خوفاً على نفسه منه، فسار فاتصل بالسرين من بلاد اليمن، وهي آخر اليمن وأول الحجاز ، فأقام بها أياما وتوفي سيف الاسلام . فسير جمال الدولة كافور خادم أبيه ياقوت العجمي ، وياقوت الجمالي، ومحمود السيرواني ، والأسعد بن الحارس ، (فساروا) إلى الملك المعز عرفوه بموت أبيه واستدعوه إلى زبيد، فحضر معهم ، وسلموها إليه، وأقام بها أياماً وسلموا إليه جميع القلاع. ثم توجه منها إلى قلعة تعز ، فأقام بها مدة، ثم توجه إلى الدملوة ، فأقام بها شهرين، ثم طلع إلى حب(١١) ، فأقام بها، ثم توجه إلى لحج وأبين ، فأقام بها أياما، ثم توجه إلى عدن ، فأقام بها ستة أشهر ، ثم توجه إلى صنعاء . فلقيه الشريف عبد الله بن عبد الله الحسني ، فصافه تحت حب ، فكسر الشريف المذكور ، وتوجه إلى صنعاء ، فلقيه مماليك أبيه ، عدتهم ثمانمائة مملوك، فاعتصموا بصنعاء وقاتلوه، فكسرهم ، وأخذ صنعاء ، وأقام بها أربعة أشهر ، ثم نزل إلى تعز ، فأقام بها أربعين يوما، ثم إلى زبيد، فأقام بها أياما . ثم استحلف الناس ، وفصل له الثياب الخضر ، والعمائم الخضر المذهبة ، واستسلم من كان في بلاده من النصارى واليهود ، وخطب له بالخلافة في زبيد ، وادعى أنه من الأمويين ، فأول خطبة خطب الملك المعز المذكور في داره المعروفة بعبد النبي بن مهدي . ثم سير إلى البلاد ، وأمرهم أن يخطبوا له على المنابر بأمير المؤمنين ، وأبطل الخطبة لبني العباس . ولم يزل هو يخطب بنفسه مدة حياته ، وذلك في تعز ، وفي الدملوة، وفي كل موضع له حصن ، وكان قد أقام سلطاناً من غير دعوى خلافة سنة كاملة ، وبقي خليفة إلى أن مات أربع سنين، وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهيرات.

ثم تجهز طالبا مكة المحروسة ، وجهز ياقوت الجمالي، والمجاهد الجمالي، وسنقر العزي إلى مكة بأن تعمل له دار ، ويقام له إقامة ليكسو البيت ، فلما تحقق الشريف أبو عزيز قتادة ذلك أمر غلمانه أن ينهبوا جميع من كان من أصحاب الملك المعز وأسروهم، فسمع الملك المعز

ذلك فشق عليه، وتجهز طالبا مكة إلى أن وصل إلى المهجم تقاعد عنه جماعة من أصحابه وخذلته ، فتعكس وتشوش ، فعاد إلى اليمن إلى بلد يقال له الكدراء من أعمال زبيد ، فأقام بها خمسة أيام ، ثم استدعى مملوكا يقال له سيف الدين سنقر واستحضره عنده في الدار بمحضر من جماعة ، فسقاه الخمر بعد أن تركها مدة زمانية وقال له :

« ياسنقر، قد كبر جوفك وسمنت» ودعا بمعتوق الزراق الحلبي وقال له : « يامعتوق ، طيب لي قارورة نفط!» فأحضرها بين يديه، وقال له: «قم ياسنقر !» وأمر معتوق أن يضربه بها ، فقام إليه مملوك يقال له أبو شامة كبير من مماليك أبيه ، كان له صنعاء في حياة والده ، واستوهبه منه فوهبه له ، ثم قعدوا على شرابهم ساعة، ثم دعا بسنقر مرة ثانية وجذب عليه سكينا وقال له: « أريد أشق مصارينك ! » فقال له : «ياأمير المؤمنين ، أنا مملوكك » فعاتبه ساعة، ثم قام سنقر من بين يديه بعد أن قبلها، وقعد في مكانه ساعة ، ثم خرج ، فقال له الملك المعز : «إلى أين ؟» فقال : « في حاجة ياأمير المؤمنين (إلى) البرية أقضيها وأعود » فقال له : « دع رهنك على العود ، كما جرت عادة من يشرب مع الندماء» فترك منديله وخرج إلى خيمته لقي جماعة من المماليك فقال لهم: « قد قتلت الخليفة! » وكان ليلاً فركبوا في خمسمائة مملوك ، ثم دخلوا إلى الكدراء ونهبوها، وأخذوا خزانتها ، فبلغ ذلك الملك المعز ، وهو على شرابه ، فبطل الشراب وتجهز في ليلته هاربا إلى زبيد ، ثم قصد سنقر موضعا يقال له المهجم ، فنهبه وأحرقه وأخذ خزانة فيه، ثم توجه إلى المحاليب فأحرقها وأخذ خزانتها ، ثم صعد إلى الشريف عبد الله بن عبد الله في بلاده منتصراً به، فأقام عنده خمسة أيام ، فتجهز الملك المعز خلفه، فنفذ إليه هذا سيف الدين سنقر المذكور وقال له : « بالله عليك ياأمير المؤمنين ، لاتخرج ، فإن العسكر منافق عليك » فوصله الكتاب وهو راكب ، فقال : « يهددني هذا الفاعل الصانع!» وساق من وقته بجيشه إلى أن خرج إلى موضع يقال له الجنابذ(١٤) ، وهي أرض يقال لها

عجى ، فتحالف العسكرعليه، وتشاوروا على قتله ، وهم كبار الأكراد مثل : شمس الدين الدقيق، وجمال الدين ابن أخيه، وابن أخته ، وابن بركات، وهندو، وروبك أخوه، وسيف الدين نجد أمير آخور ، وباخل ، ومن الأتراك : شمس الدين القرابلي. فحمل عليه هندو وروبك أخوه . فلما قربا إليه بالحملة قال لهما: « لاتفعلا وأغنكما » فجفلت به البغلة في مثل ذلك الوقت من الرماح فرمته ، فبقي متخبطا في ثيابه وأكمامه ، وذلك أن ثياب الخليفة كانت عليه ، طول أكمامها كل كم خمسة وعشرون شبراً ، وسع الكم ستة أشبار ، فسبقه شمس الدين الدقيق والقرابلي ، وابن بركات ، وهو يخبط في ثيابه فقتلوه وأخذه ابن بركات فقطع رأسه ، وحمله على رمح ، وأعطاه للداعي الذي كان بين يديه . فأقاموا في المدينة ثلاثة أيام يدورون برأسه في البلد.

ثم نهبت زبيد سبعة أيام نهبا شنيعا ، ثم اختلفت الأكراد لعدم مقدم عليهم . هذا وسيف الدين سنقر لم يعلم بذلك ، فاتصلت به الأخبار ، وعند اختلاف الأكراد ، نفذوا إلى سنقر إلى صعدة باخل الكردي الحميدي ، فطلبوه لتمليكه ، فحضر إلى زبيد ، ودخلوا به إلى دار إلى الرباع بباب شحاد ، ونزل في دار يوسف العروي ، ثم تقدم شمس الدين القرابلي من الأتراك وابن الدقيق من الأكراد وسلطنوا سنقر ، وحملوا الغاشية بين يديه ، وأدخلوه راكباً إلى دار ابن سيف الاسلام . فأقام بزبيد ثلاثة أيام . وأمر جماعة منهم . ثم عاد إلى تعز ، وأقام بها أربع سنين . فكتب كتابا إلى زبيد يطلب من الأكراد المقيمين بها مائة ألف دينار ، وكان عند سلطنته قد قنع منهم بالاسم لا غير؛ وترك لهم البلد وقال : « أقنع بتعز لاغير » فخادعهم إلى أن قوي وجيش وتمسك بجماعة عاهدهم ، ونفذ يطلب المال ، فأحضروا خمسة أحمال صناديق وعملوا فيها اللوالك (١٥) المقطعة والخفاف والجلود المقطعة وأسنة مكسرة ومسامير وحديد مكسر ، وختموها وسيروها إليه. فلما رآها شق عليه ذلك ، ونفذ في الوقت والحال يعلمهم وصوله إليهم قبالة هديتهم ،

فخرج في ليلته قاصداً زبيد. فلما سمع الأكراد خروجه ، خرجوا إلى ضيعة يقال لها المعزية كان بناها الملك المعز بن سيف الإسلام ، وسماها القاهرة المعزية ، وهي ضيعة كبيرة جيدة كثيرة الخيرات ، فوصل سيف الدين سنقر إليها ، فلما قرب منها انهزم الأكاريد ونزلوا في ضيعة يقال لها الزريبة ، فأقاموا بها خمسة أيام ، ورحلوا منها إلى زبيد ، ورحل سنقر طالبهم إلى زبيد، فنزل وخيم عليها ، وقفلوا أبوابها . وكان قد ذكر لأصحابه أنه « إذا أخذناها بالسيف انهبوها » فخرج الأكراد وقاتلوه يومين ، فما منهم يوم إلا ويخسرون فيه، فلما كان اليوم الثالث ركب سنقر بجماعته . وزحف إلى باب يقال له باب القرتب فوقعت إحدى البواشير،

فقفز سيف الدين سنقر هو وبدر الدين ابن تميرك ، فقال سنقر عند ذلك : « الحمد لله رب العالمين » وهو واقف في وسط الثلمة ، وقال للعسكر : « يا أصحابنا كنا قد أمرنا أنكم إذا أخذتم هذه المدينة بالسيف انهبوها ، وقد عمل الله لنا مالا كان في حسابنا من هدم هذه الثلمة . فأنا أشتري منكم نهبها بمائة ألف دينار » فأبوا إلا نهبها، فزادهم خمسين ألف دينار وحلفهم بالطلاق أنه إن سمع أنهم تعرضوا لنهب أو غيره من أذية البلد آذاهم . ثم دخل مدينة زبيد وأقام بها، فخرجت الأكراد من باب ولا فقه ، ثم قصدوا ضيعة يقال لهاة الحصبى ، فنزلوا عند رجل يقال له علي الكناني ، وهو من غفراء البحر، فأضافهم وأحسن ضيافتهم ، فطلبوا منه نبيذاً يشربونه، فأحضر لهم نبيذ النخل، وهو يقال له الفضح، فشربوا منه وسكروا ورقدوا فقام مضيفهم علي الكناني وأخذ خيولهم وربط غلمانهم ، وأخذ ما كان معهم من المال ، وكتف الأكراد إلى أن أصبح الصباح واجتمع قومه بنو كنانة وساروا بهم على الإبل في المحائر إلى أن وصلوا بهم إلى زبيد ، فشنق سنقر علي الكناني وأخاه محمداً ، وقال لهم: « قبحكم الله ، غدرتم بضيوفكم » . ثم أخذ جماعة الأكراد ورماهم الحبس ، واستدعى بهم في اليوم الثالث إلى القصر ، فنصب لسيف الدين سنقر شبرمة ، وهي قاعدة من خيزران مثل السرير،

واستحضر ولد سيف الإسلام يقال له الملك الناصر ، كان صغير السن ، واستدعى الدقيق فضرب رقبته ، ثم من بعده علم الدين ابن أخيه ، ثم من بعده لهندو ، ثم بعده روبك ، ثم بعده عيسى بن أجول الزرزاري وسبعة من إخوته ، ثم بعده النظام بن عيسى الجزري وجماعة ، فكانت القتلى في ذلك النهار سبعمائة بالضبط . وعفا عن القرابلي وأولاده وعن باخل وعن ابن بركات ، ثم قعد في مملكته وفعل من العدل وحسن السيرة مالا رآه أهل اليمن ولا رعية ، وسلطن الملك النا صر ، وصار هو أتابكه ، وخطب للملك الناصر في بلاد اليمن ، ثم بقي في السلطنة (والأتابكية) أربع سنين إلى أن توفي بتعز فجأة ، وذلك أنه كان ليلة موته قد أكل لحم فرس ولحم بقر ، وشرب عليه شراباً مطبوحاً ، فغسل ودفن في جامع تعز ، وخلف ولداً أخرس وولداً آخر من أم الملك الناصر ، لأنها كانت زوجته ، ثم تزوج إبراهيم غازي بن جبرائيل أم الملك الناصر بعد وفاة سيف الدين سنقر ، وصار أتابكاً أيضاً للملك الناصر . وبقي الملك الناصر مدة ، ثم توفي في الجند وحمل إلى تعز فدفن فيها. وكان سبب موته أن غازي بن جبرائيل سمه بكوز فقاع ، فبقي غازي صاحب البلاد مدة يسيرة وقتل في حب ، قتلته حمير وخولان وبنو عبد الوهاب ، ورموا برأسه من قلعة حب، وسبب ذلك اتهامهم له بقتل الملك الناصر فبقيت البلاد بلا صاحب إلا الخواتين لاغير . فجاء الشريف عبد الله بن عبد الله بخلق كثير وملك زبيد مدة يسيرة ، ثم سمع بركب الحجاز ووصوله فقال في نفسه: « لايخلو هذا الركب من أحد من بني أيوب » فخاف على نفسه وعاد إلى بلاده . ووصل ركب الحجاز إلى زبيد ، فنزل المهتار كدكل العزيزي من عند أم الملك الناصر يتفقد الركب الحجازي ، فلقي سليمان شاه بن سعد الدين بن الملك المظفر تقي الدين بن شاهان شاه بن أيوب ، وكتب كتاباً إلى أم الملك الناصر يخبرها بخبره وقال : « هذا من بني أيوب وهو حسن الشباب » فأحضرته وخلعت عليه وتزوجت به وسلطن وملك البلاد، وملأها فسقاً

وجوراً وفجوراً ، وأخذ نسـاء الناس وما شكر ما أنعم الله عليـه به ، فإنه كـان فقيراً لايملـك درهما ، بحيـث حـج مـاشيـا مـع الفقـراء يكـدون ويطعمونه ، فلما بغى سلبه الله ما كان خـوله . بعد أن وصلت مكتوباته إلى السلطان الملـك العادل وإلى عمه الملـك المنصور صاحـب حماة جهز الملك الكـامل ولـده الملك المسعود إليـه ، وأخذ البـلاد منه عنـوة . وقد ذكرنا ذلك مفصلاً في تاريخنا الكبير المرسوم (بالبيان في حوادث الزمان)، وإنما ذكرنا هذه اللمعة لسياقة الحديث والله أعلم.

ودخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة:

والملك الأشرف قـد تجهز لقصد مـاردين ، واستخدم ابـن المشطوب ، وسير إلى الملك الأفضـل يحضره من سميساط إلى البيكـار عنده ، ووردت الأخبـار بأنهم قـد تـأهبوا في مـاردين للحصـار واللقـاء ، ووصل الملـك الأفضـل إلى حران . ورحلـوا وأخـذوا رأس عين الخابـور وسلمها الملـك الأشرف للملـك الأفضل ، وسـاروا إلى مـاردين ، فـراسـل أهـل ماردين السلطان الملك العادل على أن يحملـوا للملك الأشرف خمسين ألف دينار فعجلوا ذلـك . فعاد الملـك الأشرف عنهم راجعـاً إلى حران ، وأعطـى الملك الأفضل جملين .

وفيها نزل الملـك العادل على خربة اللصوص بسبب الفـرنج . وفيها : أخـذوا رأس عين الخابـور مـن الملـك الأفضل وكـذلـك جملين بكـذبـة كذبوها عليه لاستعادة البـلاد منه، ولم يبقوا سوى سميساط لاغير وأعطوا رأس عين لابن المشطوب .

وفيها : كـان عند أتابـك نور الديـن صاحـب الموصل عدة أمـراء من الشاميين ، مثل المبـارز خطلخ الحلبي ، والمبارز سنقر الحلبي وعـز الدين كر ، حملـوه على لقاء الملـك الأشرف وقووا عزمـه على ذلك ، فبلـغ الملك

الأشرف ذلك، فسير إلى السلطـان الملك العـادل عرفـه ذلك ، ويستـأذنه فيما يفعلـه على لسـان ابن المشطـوب ، فـأعـاده سريعاً وقـال لـه: « إن قصدكم صاحـب الموصل لاتلاقوه ، الله الله ، ولا تغتروا بقـول صاحب سنجار وآمد والجزيرة » فعـاد ابن المشطوب ، فوجد أتابـك قد خرج من الموصل . ووصل الملـك الأوحد إلى عند أخيه الملـك الأشرف . وقال ابن المشطـوب رسالـة الملك العـادل للملك الأشرف . واجتمعـوا على دارا ، ومنها رحل الملك الأشرف بمن معه ووصلت الأخبار بقصد أتابك لهم ، فرتب الملـك الأشرف أصحابه ومن معه ميمنـة وميسرة كما جرت العادة » ورحل طالبا باشزا ووصل أتابـك بعساكره يوم الجمعة سادس عشر شوال من سنة ستمائة ، فنـزل الملك الاشرفِ دون باشزا ، وسير أتـابك رسولاً أمين الـدين يـاقـوت الكاتـب إلى الملـك الأشرف يطلب المصـاف ، وفي عقيبـه حمل أتـابـك بمن معـه ، ووصـل إلى أن شـارف الملـك الأشرف ، فضرب أتـابك دهليـزه، وذلـك بكـرة نهار السبت ، ولم يقـم بها ، وسـاق ووقع القتـال، وحمل أتابك حملة بنفسـه ورمي أكثر أصحابـه في وقتهم ، وأخذوا قتـلاً وأسراً ، ونجا بنفسـه وكانـت وقعة عظيمـة مشهودة . ونـزل الملك الأشرف بعـد الكسرة واستحضر الأمراء ومن أخـذوهم مـن عسكر الموصل ؛ فكـان في الجملة سنقر الحلبي وولـده ، والأسد بن عبـد الله ، وحسين الطويـل ، ووصل أتـابك إلى الموصل في هـزيمته في يـوم واحد ، وسير الملك الأشرف البشائر إلى أبيه فاستعظم الملك العادل ذلك.

ودخلت سنة ستمائة:

فيها : اتفق الصلح بين أتابك والملك الأشرف وتحالفا.

وفيها : كـان الملك العـادل قد رحل مـن خربـة اللصوص ونـزل مرج عيـون ، وراسلـه الفـرنـج إلى أن تقرر الصلـح، وعـاد الملـك العـادل إلى دمشـق ، وأمر الملـك الأشرف بالعـود إلى حـران ، وسمع بـرحيل الملـك العادل إلى مصر ، فوصل إليه إلى دمشق.

وفيها : طلب الملك المجاهد صاحب حمص نجدة من الملك العادل.

وفيها : كانت واقعة شرف الدين قراقوش المظفري في المغرب مع بوزبا المظفري أيضاً ومسكه وسيره إلى ابن عبد المؤمن .

وفيها : عاد الملك الأشرف من وداع أبيه.

سنة إحدى وستمائة:

جاءت الفرنج إلى حماة بالفارس والراجل ، فأخذوا وقتلوا وسبوا خلقاً وحملوا إلى الباب القبلي فاختنق فيه جماعة . وفيها أسروا الفقيه الشهاب ابن البلاعي ، كان شاطراً شجاعاً . وساروا به في جملة الأسرى فبات في طرابلس ليلة واحدة ، وهرب ونجاه الله منهم ووصل إلى بلاده . وذلك من أطرف ما وقع لمأسور ، وبلغ السلطان الملك العادل نوبة حماة ، فشق عليه ذلك.

وفيها : سير الملك المعظم العسكر إلى حمص وحماة ولم يفارقوا إلى أن تقرر الصلح.

وفيها: طلع الملك المنصور صاحب حماة إلى الملك العادل بالديار المصرية ، فتلقاه وسر به سروراً كاملاً ، بقي مدة وعاد.

وفيها: قطع الفرنج العاصي ، ودخلوا إلى أرض حمص ، فقتلوا جماعة وأسروا ، فبلغ ذلك الملك العادل ، فوعد بنزوله إلى الشام وبرز إلى البركة وسار أولاً فأولاً ووصل إلى دمشق .

وفيها: كانت واقعة السلطان شهاب الدين الغوري مع محمد خوارزم شاه بن خوارزم شاه، وذلك أن السلطان شهاب الدين الغوري وقع بينه

وبين خوارزم شاه، فجاء أخذ نشاوور [١٧] وولى فيها ملكاً من أصحابه ، وهو ابـن أخته يقـال له ضياء الـدين ، وعاد إلى غـزنة. وسبـب ذلك أن البلاد تخبطـت عليه من الهنـد فسمع خوارزم شـاه بذلك، فجمـع وقصد نشاوور ونـزل عليها وحاصرهـا مائة يـوم، وأن الهنود قامـوا على السلطان شهاب الدين، فـانشغل بهم وما نجدهم، فأخذها خـوارزم شاه بالأمان . ونـزل ضياء الـدين المذكـور منهـا ، وضرب خيمته بقـرب خيمة خـوارزم شاه، والأمـراء الذيـن كانـوا معه طلبهـم يخدمونـه فما أجابـوا إلى ذلك . قـالـوا: « إذا لم نحفظ الأول مـا نحفـظ الآخـر» . وفـارقوا وتـوجهـوا إلى السلطان شهـاب الدين الغـوري ، فسألهم : « كيـف جرى» فقالـوا له : «سيرنـا عدة كتـب ما جـاءنا لها جـواب» فاستحضر وزيـره وأنكر عليـه وقال له: « كيف كنـت تخفيني مثل هذا وقد حوصروا ثـلاثة أشهر ، لعلي كنت أنجدهـم» . وسخط عليه . وجند السلطان شهاب الدين بعد ذلك

وطلب خوارزم شاه . وعملوا مصافـا واقتتلوا ، فانكسر خوارزم شاه إلى البلـد ، وبقي بين السلطـان الغوري وبين خـوارزم شاه مسـافة يـومين ، فعمد خـوارزم شاه وكسر مـن سيحون وجيحون سـاقية مـاء ، وأدارها في الخندق فمنعـت من العبور إلى البلـد ، فطال مكث السلطـان على ذلك الماء ، وشرع في عمل زواريـق ليعبر إلى البلد في الماء. فأنفذ خـوارزم شاه إلى أخـواله الخطـا وقـال لهم : « قد جـاء مـن يأخـذ البـلاد منا ومنكـم فأنجـدوني » . فجمع الخطـا وركبوا في أربعين ألـف فارس جـرائد ، كل واحد وجنيبه ، وقصـدوا السلطان ، فسمع بهم السلطان فـانتقل عن الماء وطلبهم ، فبقـي بينهم وبين الماء مسافـة أربعة أيام؛ وبقـي بين السلطان والماء مسافـة ثلاثـة أيام . فقال الأمـراء للسلطان : « إن سبقـونا إلى الماء ظفروا بنا وإن سبقناهم ظهرنا عليهم » فجد السلطان في السوق فسبقهم إلى الماء بـدقيقـة . فـوصلـت بـوادر عسكـرهـم، وأشرفـت على الماء ، والسلطان نازل عليه، فقال له أمير مـن أمرائه : « تعطيني رجالاً ودستوراً لألقى من وصل من عسكرهم ، لأنهم قـد وصلوا تعاباً إلى غاية» . فقال

السلطـان : « لابل نصبر حتـى يصلوا » . ومـا قبـل منه ، فقـال : « إلى غد» فتيقنوا ضعفـه، فطمعوا فيه وضربوا معـه مصافاً ، وأرسل اللـه هواء عظيماً في وجـه السلطـان وأصحـابـه، فـانتصر عليهـم الخطـا ، وقـاتـل السلطان شهاب الدين بنفسه أشد قتال بحيث إنه غير على عشرين دابة غير أنه كسر، ولكن بعد أن قتل كل واحد من أصحابه جماعة من الخطا . فانهزم السلطـان إلى قرية صغيرة يقال لها بنـدخوي[١٨] . وكان مع الخطا السلطان عثمان ، سلطان سمرقند ، وصعـب عليه كسرة السلطان شهاب الديـن ، وذلك لإسـلامه . غير أنـه لم يكن لـه حيلة في دفـع ذلك عـن المسلمين. وقصـدوا محاصرة الربـاط وأخذ السلطـان منه، فـأشار عليهـم السلطان عثمان بأن مـا هذا مصلحة ، فإن له عدة غلمان وممـاليك معهم العساكـر الكثيرة مثل تاج الـدين الدز، وأيبـك لاشك ، وقطب الـدين ، فيسمع هؤلاء فيقصدونكم والمصلحة عندي رواحكم وآخذ لكم منه فيلاً من فيلته وحمل ذهـب . قالوا: « افعل » فنفذ إلى السلطان شهـاب الدين وأطلعه على القضية فسير لـه ما طلب، وعاد السلطان إلى غـزنة مكسوراً، واجتمعت اليه ممـاليكه من جميع الأطراف وأنفـق في العسكر عن سنين ، فلما كان هـو في بعض الليـالي في الصلاة اختصـم مملوكـان صغير وكبير، فخاصمهما السلطـان وهددهما إلى بعـد صلاتـه ، فأخـذ أحدهما سكينـة صغيرة وقفز على السلطـان شهاب الـدين فقتلـه وخرجـت مصارينـه في وقتـه، وقبر في غزنـة ولم يعقـب ولا بشر بـولد، كـان عـاقـراً . وكان هـذا السلطان عثمان المقدم ذكره ، وهو صاحب سمرقند أحسن الناس بحيث إن نساء سمرقند إذا ركـب يدعون له ويقلن : « اللهم تقبـل مهورتنا منا صدقة عن شباب السلطان عثمان». والله أعلم.

وفي أوائل سنة ثلاث وستمائة:

كانت الكرج قـد تحركوا لقصد أخلاط . والملك الظاهـر قد خاف أن

تكون حركة عمه إليه فسير إلى البلاد وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب ، وعز الدين كر ، وسنقر الحلبي. وتراسل الملك العادل والملك الظاهر ، وتقرر الصلح بينهما. ووصلت الأخبار برحيل الكرج فخاف الملك الظاهر ، ونزل على غرض الملك العادل ، ونزل السلطان الملك العادل على بحيرة قدس بأرض حمص ، فوصل إليه الملك المنصور ، صاحب حماة ، وولده الملك الأشرف والملك المعظم ، وولده الملك المغيث ، والملك الأمجد صاحب بعلبك، وعسكر سنجار، وعسكر آمد.

وفيها : وصل وزير آمد ضياء الدين ابن شيخ السلامية (١٩) إلى البحيرة إلى السلطان يستحلف لصاحبة الملك الصالح ليصل إلى الخدمة بنفسه.

وفيها: دخل السلطان بمن معه إلى الساحل فنهب وخرب وأحرق ، وسبى وأشرف على أخذ البلاد، وأخذ القليعات وخربها وكذلك طاحونة أعناز (٢٠)، وكان ذلك عظيماً .

وفيها : قفز أهل بعلبك على واليهم فقتلوه ، فأمر السلطان الملك الأمجد بمسيره إلى بلده ، فسار ولم يدخل الساحل معه.

وفيها : عزل البدر بن الأبيض قاضي العسكر ورتب عوضه في القضاء النجم خليل بن المصمودي الحموي ، وذلك بتعصب من الوزير صفي الدين بن شكر ، وسيره رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله وإلى غيره.

سنة أربع وستمائة.

دخلت والسلطان الملك العادل بعدما خرج من الساحل ، وكتب الكتب إلى البلاد بالبشائر .

وفيها: كان الملك المجاهد قد سير كاتبه الشمس الكشغريدي ، إلى الملك الأفضل يطلب ابنته لابنه الملك المنصور إبراهيم فمات.

وفيها : وصل إلى السلطان الملك العادل صبي من بحنين نصراني أسلم على يده، فسلمه إلى الملك المجاهد، فرباه وكبر عنده ، فكثر منه وولاه ورسله إلى الملوك.

وفيها : مات زين الدين قراجا صاحب صلخد المملوك الصلاحي.

وفيها : عاد الملك الأشرف إلى بلاده ، فعبر بحلب واجتمع بابن عمه الملك الظاهر وكان عظيماً. وفيها : توجه الملك المجاهد صاحب حمص إلى الرحبة لعمارة قلعة استجدها، وخرب القلعة العتيقة التي كانت للرحبة، لأنها كانت قد خربت.

وفيها: وصل ابن أبي الحجاج والقاضي الأشرف بن عثمان إلى عند الملك المجاهد يستشفعونه إلى الملك العادل.

وفيها: أمر السلطان بعمارة قلعة دمشق ووظف على صاحب حماة الملك المنصور والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهما عمارة أبرجة في قلعة دمشق .

وفيها: سير الملك العادل مملوكه أستاذ داره الدكز وصحبته النجم قاضي العسكر رسولاً إلى الإمام الناصر.

وفيها: عاد بالجواب وصحبتهما رسل الخليفة بالخلع والتقليد وخلعة لوزيره ابن شكر ولأولاده : الملك المعظم والملك الأشرف ، وذلك بدمشق ، ونصبوا منبراً ، وقرأ ابن شكر التقليد قائما على الناس ، والسلطان أيضا قام إجلالاً لذكره صلى الله عليه.

سنة خمس وستمائة:

بلـغ الملك العـادل اتفاق أتـابك الموصـل مـع الملك الظـاهر وجميـع الشرقيين.

وفيهـا: مات الأمير جنـاح الديـن الهكـاري أخو المشطـوب. وتغيرت أحوال عماد الديـن بن المشطوب ، فأجمع السلطـان الملك العادل على أن يجمع جميع العسـاكر وأصحابها ويقصد الكـرج ، فكاتب الملوك بـوصوله إلى حران ، والجمـع عليها، فـاجتمع النـاس إليه فـأول من وصلـه الملك المنصـور صـاحـب حماة ، والملـك المجـاهـد صـاحـب حمص ، والأمجد صاحب بعلبك ، والملك الصالح صاحب آمد ، وعسكر الملك الظاهر ، وعسكـر الملك المنصـور صاحـب سنجـار . فلما وصل الجمـع إليه سـار قاصـداً الكرج، فنزل على ماردين وأقام. وتجدد له قصد سنجـار ، وذلك لتخلف صاحبها عن وصولها بنفسه ، فخاف فأرسل نساءه في الاستشفاع في حقه وذلـك برأس عين الخابور فما قبـل ذلك ولا أجـاب . فسير ولده الملـك الأشرف ، والملـك المنصـور صاحـب حماة ، وصحبتهما العسـاكـر فأخـذوا نصيبين ، وولى فيها ، ثم بعد ذلـك وصل الملك العـادل ووصل إليه ولـده الملك الأوحـد صاحـب أخلاط ، فلما قـارب سنجار جـاء إلى السلطان مـن سأله في تسليم سنجـار إليه بشرط العوض عنها، فـأجابهم إلى ذلـك . ثم (مـا) بـدا لهم إلا الحصـار ، فحنق السلطـان عليهـم ، فحاصرهـم ونزل عليهـم، وقطعت أشجارهـم ، وأخذت الملـوك منازلهم ، ونصبوا المجانيق وقـاتلوهم وضايقوهم ، وأقطـع السلطان الخابور جميعه ، وفرقـه على الملوك الـذين كـانوا في خدمتـه مثل الملـك المنصور صـاحب حماة، والملك المجـاهد صاحـب حمص وغيرهما. فلما أشرف السلطان على أخذها عنوة جاءت رسل الإمام الناصر لـدين الله شافعة في ترك سنجار على صاحبهـا وأخذ الخابور ونصيبين ومـا يتعلق بـذلك ، فقبل شفـاعته وبادر إليهـا طاعة ، وخـرج صاحبهـا الملك المنصور إلى السلطـان الملك

العادل فأحسن تلقاءه، ورحل عنها ، وتفرق الملوك إلى بلادهم ، حتى إن أخا صاحب سنجار نور الدين صاحب قرقيسيا كان في خدمة السلطان. ولما سار السلطان من سنجار ، لحقه العماد بن يونس رسولاً من الموصل ، فقضى شغله وأعاده.

و (في رأس العين) حرد وزير الملك العادل ابن شكر المعروف بصفي الدين على السلطان لإنكار كان أنكره السلطان عليه، فما ثبت له، فهرب صنعة ، فتبعه الملك المنصور صاحب حماة، وكان عانيا بابن شكر حتى إنه أول من مشى إلى ابن شكر من الملوك. وتبعه فخر الدين جهاركس ودارا عليه في برية رأس عين، إلى أن أحضراه إلى خدمة السلطان ، فعفا عنه، ومنها انحطت منزلته.

وفيها: مات الملك المؤيد بن صلاح الدين برأس عين لما عاد في جواب رسالته من عمه إلى أخيه الملك الظاهر. سبب موته أنه غم عليه البيت الذي كان فيه فمات هو ومن كان عنده في البيت،

وفيها: أعطوا لابن المشطوب المجدل من الخابور.

وفيها: عاد الملك الأوحد إلى أخلاط.

وفيها: وزر جمال الدين بن شيخ السلامية للملك الأشرف ، كان ممولاً إلا أنه كان عامياً جداً.

وفيها: وصل من سيف الدين سنقر أتابك اليمن عشرة آلاف دينار باسم السلطان الملك العادل.

وفيها: كاتب الملك الظاهر الأمراء ، وقويت شوكته بعد وصول عمه الملك العادل إلى حران ، وبرز إلى السموقة من بلد حلب، وترددت

الرسل بينهما، ووقع الصلح بعد إفساد الملوك والأمراء من الجهتين، وسار السلطان إلى دمشق، وهو كثير الشكر من صاحب آمد، لأنه جاءه عند حاجته وانتفع بوصوله إليه.

وفي سنة سبع وستمائة:

سير الإمام الناصر يطلب مملوكه مظفر الدين المعروف بوجه السبع يستعيده من الشام ، لأنه كان قد هرب منه، وذلك لخوفه من كلام كلمه (به) الوزير النصير بن مهدي العلوي، فأعيد إلى الخليفة وتكمل رضاه عنه لعقله ولحفظه كلامه.

وفيها: قويت عزيمة الملك المعظم على عمارة الطور.

وفيها: كاتب الظاهر سامة.

وفيها : وقع الصلح مع الفرنج والسلطان.

وفيها: سير الفرنج بعد صلحهم إلى البحر يعرفونهم بأن الطور يعمرونه وهو قوي به يملكون الساحل . فجد الفرنج في وصولهم من البحر والمعظم يجد فيه.

وفيها :تجدد للسلطان الملك العادل الطلوع إلى ديار مصر ، فسار وبقي في الكرك أياماً، فبلغ الملك الكامل ذلك فوصل إليه إلى حوران، واجتمع به بها، وكان قد رتب له الإقامات إلى القاهرة.

وفيها: عزم عز الدين سامة على الطلوع إلى مصر ليستريح من معاندة الملك المعظم له. فأشار عليه جهاركس ترك ذلك فما قبل منه وكان جهاركس مريضاً ، وسار سامة فمات جهاركس . وبلغ سامة موته فضاق صدره وندم على مفارقته ، ووصل الملك العادل إلى القاهرة.

وفيها: بلغه حركة الفرنج، فتجهز الملك العادل للعودة إلى الشام، فبلغ ذلك الملك الظاهر، فظن أنه لأجله ، فجهز القاضي بهاء الدين ابن شداد رسولاً واستحلف السلطان له.

وفيها: كفت يد الوزير ابن شكر عن العمل .

وفيها: كان الملك الأوحد قد مرض ، وسار إليه الملك الأشرف ، ومات الملك الأوحد، فأخذ البلاد الملك الأشرف ، وبلغ السلطان موته، وهو على البركة، وفيها عمل عزاءه.

وفيها : وصل كليام التاجر الجنوي ــ لعنه الله ــ وقدم للسلطان وصادقه، فأحسن السلطان إليه، وكان في جملة إحسانه إليه، أنه يأخذه معه إلى أين اتجه، وكان الملعون (في ضمن ذلك) يكشف الأحوال أولاً فأولاً ويكاتب بها الفرنج، وقيل للسلطان فما التفت.

سنة ثمان وستمائة:

فيها توفيت أم الملك الكامل، فدفنها في الشافعي ، ورتب عليها القراء والصدقات ، حتى إنه ساق الماء إلى الشافعي، ولم يكن قبل ذلك، ووجد عليها وجداً عظيما.

وفيها: وقع بين الأدفنش، ملك الفرنج، وبين ابن عبد المؤمن في الغرب ، وأخذ قلعة رباح(٢١)، وقتل خلقاً عظيماً.

وفيها :توجه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليام صحبته.

وفيها : بلغ الملك العادل أن مراكب واصلة ، فشرق عز الدين سامة إلى الملك الظاهر .

وفيها : أشير على سـامة أن يسلم كـوكب وعجلون إلى الملـك االمعظم ويأخذ عوضها الفيوم، فما أجاب إلى ذلك .

وفيها : كان الملك المعظـم قد وصل إلى أبيه بالديـار المصرية ، فخاف سامة فهرب سـامة، وأوهم أنه قاصد الصيـد والسلطان وهرب في البرية، ولم يعلم أحـد بخبره . فبلغ الملك المعظم ذلـك، فركب خلفـه واستركب النـاس، وما زال سـائقا ومـن كان معـه انقطعوا عنـه، فخرج مـن أرض الداروم، ونزل يقضي شغلا، عجـز عن الركوب وذلك لوجعـه بالمفاصل . فرآه بعـض الصيادين ، فـدل عليه الملـك المعظم لما وصل خلفـه، فجاء إليه، فأخـذه وسير لوقته عرف السلطـان به، وأخذ منه الحصـون قهرا بعد حصار وقتال، وحبسه وولده في قلعة الكرك .

وفيهـا : نـزل الملك العـادل الشـام، وسـار الى الجزيرة، رتـب أحـوالها، ورتب شهاب الـدين غازي في الرهـا، وعاد إلى دمشق وكل هـذا وكليام الفرنجي صحبته .

وفيها: هبـت في بغداد ريـح من قبـل الغرب، معهـا رمل أحمر، وقـوي وتعلـق بالجو إلى أن أوقـد الناس الشمـوع وغيرها ، واختنـق جماعة منـه ، وبقي كذلك إلى اليوم الثاني.

وفيها: وصل الخبر بأن بعض مماليك الديوان عصى، فجهز إليه رسولا فقتله واستجار بخوارزم شاه، فأعـانه على عصيانه فسير الخليفة إلى مظفر الدين بن زين الدين عـرفه ذلك، فاستنجد بعسكر الملك الأشرف وغيره، وقوي عليه وحصل الغرض منه.

وفيها : نقـل إلى الخليفة .« أن ولي العهـد قد عـزم على قتلك» فعـزله وحبسه، وجـرى له معـه عدة أقوال . ومـال الخليفة عنـه إلى أخيه الأمير

الصغير ، فمات، فنقـل أولاده الى ششتر (٢٢) ، ثم أعادهم وسلمهم إلى عمهم ، ولي العهد، فأحسن إليهم إحسانـا ما توهمه الخليفة، وصاهرهم، وطاب قلب الخليفة عليهم.

سنة إحدى عشرة وستمائة

كان قد تجهز خوارزم شاه إلى العراق .

وفيها : وصلـت رسل خـوارزم شاه، تطلـب الدار ببغـداد والخطبة وأن يخاطب بمخاطبة السلجوقيـة ويقال له في الخطبة «قسيم أمير المؤمنين» . فما أجيب إلى ذلك وأنكره عليه غاية الانكار.

سبـب عزل الخليفـة لـوزيـره نصير الديـن العلـوي أنـه كان قـد سير ثلاثمائة جمل عليها قـواصر التمر، وأودع كل جمل ألف دينـار، فتعرض لها بعض ولاة الخليفة وطلـب شيئا من ذلك التمـر يأكله فامتنعـوا عليه من ذلـك، إلا أنه ألـح عليهـم ، فأخـذ جملين وفتـح قـوصرة تمر يفرقهـا على الجماعة، فوجد الذهب، ففتح الثانية فوجد كذلك فضبط الجميع، وطالع به الخليفة فـأنكر ذلك عليه وعـزله ونقله إلى دار الخليفة هـو وأولاده بعد أن أخذ جميـع الذي كان له ، فما وجـد إلا القليل، لأنه كان قـد نقل إلى العجم ، وقد استوفينا قصته في البيان.

وفيها : وصل الخبر بموت سيف الدين سنقر ، صاحب اليمن .

وفيها : عاد الملك العادل إلى الديار المصرية وكليام لا يفارقه .

سنة اثنتي عشرة وستمائة

كان الملك العادل بالقاهرة، والملك الأشرف بأخلاط ، وشهاب الدين غازي في الرها. وكان الملك العادل قد تشوش مزاجه ، والملك الظاهر قد سير إليه القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا، وفي ضمن رسالته يتوقع ما يكون من مرضه، ورتب بريدا من حلب إلى الديار المصرية، فاتصل بالسلطان الملك العادل من البريد الواصل من حلب أن الملك الظاهر قد مات، وذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة ومات الملك الظاهر وترك من الأولاد الملك العزيز، اسمه (غياث الدين محمد) ، من ابنة السلطان الملك العادل ، والملك الصالح أحمد من بعض المغاني . وكان الملك المشمر خضر مقيما بحلب يومئذ . فقال الملك العادل لابن شداد قاضي حلب : «ما عندك من أخبار صاحبك ؟» قال له : « ما أعلم من يوميات أخباره» . فقال له : «قد مات» . فعزاه وفارقه وعاد . وقعد الملك العادل لعزائه كما جرت العادة .

من جملة سبب موته مع فراغ أجله كان قد أكل لحم قديد بعدس وهو في الصيد ، وشرب عليه الخمر، فأوصى عند موته إلى الأمير سيف الدين بن علم الدين ليكون أتابك ولده ، وكذلكِ عين شهاب الدين طغرل الخادم ، فما وافق ابن علم الدين على أن يكون أتابكا . واتفق مع الأمراء عل أن بقي شهاب الدين أتابكا ولا يعمل شيئا إلا باتفاق من هؤلاء: ابن علم الدين و القاضي بهاء الدين وسيف الدين بن قلج ، واستمر الحال في أحسن سيرة.

وفيها : قصد الملك الأشرف الوصول إلى حلب فعزم الحلبيون على إحضار الملك الأفضل من سمسياط (ويكون أتابكا للملك العزيز) فعاد ابن علم الدين أنكر ومنع من ذلك، ووصل الملك الأشرف واطلع على ذلك .

سنة أربع عشرة وستمائة

فيها : تواترت الأخبار بجمع الفرنج ودخولهم عكا ونقضوا الصلح وقصدوا الشام ، فلما تحقق السلطان العادل ذلك خرج من الديار المصرية إلى الشام بجميع أمواله التي كانت بمصر ، فوصل إلى نابلس إلى أن تكامل عسكره فجاءه الخبر بقصد دمشق

وفيها : وصل فخر الدين بن شيخ الشيوخ من (بغداد في) جواب رسالته إلى الخليفة الناصر

سنة خمس عشرة وستمائة

(فيها): قوي الخبر بحركة كيكاوس سلطان الروم السلجوقي إلى البلاد الشامية ، باتفاق من الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام. هذ ا والملك الأشرف بحلب، فوصل الرومي إلى الشام ، فوصل إلى منبج وأخذ تل باشر، ورعبان، وقويت شوكته ، وكان الشرط معه أنه مهما ملك يسلمه إلى الملك الأفضل نور الدين ، فما أقام بقوله وسلمها إلى أصحابه، فوقف الناس عنه ، وتحققوا غدره، فجذبوا عنه، ووقع العربان بفرقة من عسكره ، أخذوهم قتلا وأسراً ونهباً ، وعاد إلى بلاده مكسورا، وكان به خروج دم مفرط، إلا أن الملك الأشرف عند دخوله حلب أحضر الأمراء المأسورين من عسكر الرومي وخلع عليهم وأطلقهم ، وسير إلى السلطان الملك العادل يخبره بكسرة الرومي

وكان الفرنج— خذلهم الله— قد فعلوا في حركتهم وقتالهم للملك العادل واندفاعه من قبالتهم، وعملوا في الغور ما عملوه من قتل وأسر وخراب، وقوي عزمهم على قصد الديار المصرية فقصدوها وحاصروا

دمياط وأخذوها بعد كل جهد وفراغ مـا فيها من إقامة وغيرها، وكان قبل هذا قد جـرى على الطور ما جرى مـن قتال وغيره، وخربه الملـك المعظم بعد عمارته أحسن عمارة ، وقد غرم عليه من الأموال ما تجاوز الحد .

وفيهـا : وصل ابـن شيـخ الشيوخ وصحبـه رسـل الخليفة النـاصر إلى الملك الكامل على دمياط، فظن النـاس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فبين أنه لأجـل رمي البنـدق وكونه يـريد أن يكون هـو قبلته لا يـزدجرد، فتعجب الناس من إمام العصر وهمته.

وكان نزول الفـرنج ـ خذلهم اللـه تعالى ـ على ثغر دميـاط ـ حماه الله ـ في ثالث ربيـع (الأول) ستة عشر من حزيـران ، واعيدت إلى المسلمين في رجـب من سنـة ثمان عشرة وستمائة ، سـابـع عشرين آب ، ووافـق وفـاة السلطان الملك العـادل ـ رحمه الله ـ من شهور الـروم آخر آب مـن هذه السنـة وسارت إليها العساكر الشامية.

وفيها : مات السلطـان الملك العادل رحمه الله وتـرك من الأولاد: الملك الكامل محمد ، الملك الفائز ابراهيـم، الملك المعظم عيسى، الملك الحافظ أرسلان شـاه ، الملك المظفر غازي، الملـك العزيز عثمان، الملك الصـالح إسماعيل، الملك المعز يعقوب ، الملك الأشرف مـوسى ، الملك تاج الملوك. الملك عبـاس، الملك المفضـل قطب الديـن ، فنقل إلى دمشـق ، وأخذ الملك المعظم جميع ما كان معه.

وفيها : طلـع المعظم إلى مصر، واجتمع بـالملك الكامـل على دمياط ، فشكا إليه عماد الدين بن المشطوب ، فأخـرجه المعظم من الديار المصرية كما لايحب ، فوصـل إلى الشام بـأربعة نفـر لا غير ، وأقام بحماة، وتجهـز منها بعسكـر، (ورحل عنهـا بسبعمائة فارس) ووقـع بجشار حلـب ونهبه،

وخرج السلطان الملك الأشرف إليه وأخافه وآمنه بعد ذلك وأعطاه رأس عين الخابور وزلبيا ملكا

سنة ست عشرة وستمائة

فيها : وصل الملك الفائز بن السلطان العادل إلى أخيه الملك الأشرف رسولا من أخيه السلطان الملك الكامل، فضبطه عنده بعد الاحسان إليه، لأنه كان الغرض أن لا يكون بالديار المصرية .

وفيها : تحجب ابن المشطوب برأس عين لصاحب ماردين وهي في يده، فعوضه عنها وتسلمها صاحب ماردين، وأعطى ابن المشطوب زلبيا ملكا وأرجيش إقطاعا.

وفيها سار الملك الأشرف إلى الموصل وعليها مات الملك الفائز رحمه الله.

وفيها : عرف ابن خوشترين حسام الدين أحوال ابن المشطوب وأعطاه مجلسه بجملة كبيرة إلى أن جرت أمور أوجبت للملك الأشرف القبض عليه وعلى ابن خوشترين وأودعهما السجن وماتا فيه بحران وقد استوفينا ذلك بتفاصيله في تاريخنا المطول:البيان .

سنة سبع عشرة وستمائة

وفيها : مات الملك عز الدين كيكاوس ملك الروم، وولي بعده أخوه الملك علاء الدين كيقباذ وهو الذي كان محبوسا بقلعة المنشار وقد ذكرنا قصته

وفيها : وردت كتب الخليفة الناصر إلى الممالك بنجدة الملك الكامل بدمياط .

وفيها : كان خروج التتر من بلادهم وقصدهم بلاد العجم، وخربوها، ونهبوها وفتكوا فيها فتكا عظيما لم يسمع به في الزمان. وكان انهزم منهم خوارزم شاه بعد عدة وقعات معهم، ولم يظفروا به. وكان سبب خروج الكافر في سنة سبع عشرة وستمائة إلى مقاتلة السلطان محمد خوارزم شاه ابن خوارزم شاه أن الطريق من طمغاج وكاشغر (٢٣) إلى سمرقند مقطوعة من مدة سنة وخمس عشرة ، لا يجسر أحد يركبها، فقلت الكساوي عند أهل طمغاج وجميع ما كان يحمل إليهم. فنفذ الملك الذي للكافر ، وهو الترمجي، ويعرف بكشلوخان (٢٤) أيضا ثلاثة رسل وصحبتهم عدة تجار إلى خدمة السلطان خوارزم شاه بسمرقند . فلما وصلوا إلى رأس الحد الذي لبلاده إلى بلد يقال له أطرار فيه أمير يقال له رسلان ملك من قبل السلطان، فأعاقهم وسير إلى السلطان عرفه خبرهم، وعدتهم ثلاثة رسل وصحبتهم تجار لواجية، فجاوبه السلطان أن « من المصلحة أن لايمكن هؤلاء من دخولهم بلادنا وكشفها ولا يؤمنوا ، فتجهزهم وتسيرهم يومين ثلاثة في الطريق وتسير إليهم من يأخذهم ويقتلهم حتى كأن الحرامية قد فعلوا بهم ذلك » فعمل بقوله وما سلم منهم إلا شخص تركوه قصدا ليعود إلى صاحبه ملك الكافر يخبره بما جرى . والذي كان مع الرسل والتجار صحبتهم ما يناهز مائة وخمسين فرسا محمل عليها نقرة الفضة، فأخذوا الجميع . فلما وصل إلى الملك وخبره بما جرى سير رسولا إلى السلطان وقال له : « أنت رجل مسلم وما نفذنا إليك إلا مسلمين موحدين حجاجا، فكيف جاز لك في دينك ما فعلته من قتلهم وأخذ مالهم ، والله لا بد لنا منك . إما أنك تحييهم كما كانوا وتسيرهم إلينا. وإلا فنحن واصلون إليك قولا وفعلا» فأخذ خوارزم شاه ذلك الرسول وقطع من سائر أطرافه ، وقال له : «ما لكم عندي إلا هذا الجواب» . فلما عاد إلى الملك بذلك ، وكان بين السلطان وبين هؤلاء الكفرة مسيرة سنة، لأنهم كانوا في صحارى مر غزارات، وهي برية وأودية داخلة الصين معروفة بالحشيش اليابس والرطب شتاء وصيفا، فجمعوا وقصدوا

السلطـان خـوارزم شـاه فسمـع بهم السلطـان ، فـركـب في سبعين ألفـا وطلبهم ، وافترق الكفـار ثلاث فرق. فـالملك الكبير الترجمي وولـده ركبوا بالعسـاكر ، فأخذ الملـك الكبير فرقة ، والـولدان كل واحد منهما فـرقة . وكـان لهم في كـاشغـر مملـوك يقـال لـه جنكـز خـان . ومملوك يقـال لـه كشلوخان ، وكان في خـدمته أ ربعون ألف راكب، فقصـدت فرقة الملك الكبير مملوكـه بكاشغر، فضرب مـع مملوكه مصـافا فكسره مملوكـه وقبضه وقتله، وابن السلطان خوارزم شاه وقع بـابن الملك الكافر الواحد ، فسير ابن الملك إلى خوارزم شاه يقول له : « ما معي من أبي أمر بأن أقاتلك» . فلج السلطان خـوارزم شاه عليه وساق إليه ، فـاندفع قدامـه مسير ثلاثة أيام. فلما كـان في اليوم الثالـث نفذ إلى السلطان وقـال له: «قد ألـزمتني بقتالـك وما معـي فيه إذن، لكن أقـاتلك» فـالتقى بخـوارزم شاه وكسره، فـانكسر السلطان خـوارزم شـاه ورجـع على أنحس قضيـة ، ووصـل إلى بلاده ومـا معه إلا نفر قليل مـن عسكره ، فعبر جيحون وعاد ابـن الملك الكـافـر إلى أبيه وأخـوه ، واجتمعـوا كلهـم، وعـرفهـم ما جـرى لـه مـع السلطان وكسره فقـويت أنفسهم وتجهزوا وطلبـوا بلاد السلطان، فـوصلوا بخارى وكـان فيها أخـو قمر الـدين وكشلـو أمير أخور السلطـان معهم عشرة آلاف فـارس، ونزلـوا على بخارى وكـان سورهـا خربـاوعوامـه غير معترفين بقتـال وحصار ،فقـاتلـوا ثلاثـة أيـام فكسروا أمير آخور وكشلـو وأخذوا بخارى بعد أن انهزم أمير آخور وأخو قمر الدين، وخرج العسكر الذي كـان فيها في الليل منهزما وتسلمـوا البلد، وكـان له قلعـة، فعصت عليهم خمسـة أيام فجمعوا كل مـا في بخارى من قطن وخشـب وبهيمة وأجمال ، ورموه في الخندق حتى سدوه، فقاتلوهـم وتسلموها بالسيف بعد ذلك ، وقتلـوا واليها جمال الديـن بعد أن قـاتل قتالا عظيما ويقـول:« ما أجـاهـد إلا المسلمين » لأنهم كـانـوا عليهم مـع الكـافـر، وتـوجهـوا إلى سمرقند، فنزلـوا عليها، وكان فيها أمير آخور السلطان معـه عسكر عظيم وثلاثون ألف راجـل ، فأخذها الكافر، وأحضر الملـك الذي كان فيها إلى

بين يدي الملك جنكز خان فقال :« يا سبحان الله معك هذا العسكر كله والرجالة وما قدرت تحفظه» أكان معك في البلد من يحكم عليك؟ قال: «لا» . قال: «فكم لك واليا؟» قال:«ثلاث عشرةسنة؟» قال: «فما كنت حفظته أياما بعدد السنين؟! » فقتله حنقا عليه وأخذ سمرقند بالسيف، وقتل جميع حاشية السلطان وغيرهم من الأجناد ما خلا العوام، فسمع السلطان وهو على ترمذ بأخذ سمرقند، فقال العسكر:«إن انتصر الكافر على السلطان وأخذ ما وراء النهر قمنا نحن عليه وأخذنا السلطان» ، وذلك لكثرة حنقهم على خوارزم شاه لما كان قتل منهم، فاجتمع امراء السلطان على ذلك، وتحالفوا، وكان في جملتهم خال خوارزمشاه، معهم وما طاب له هلاك السلطان،فنقش على يده صورة ما حلفوا عليه وأنهم في تلك الليلة يريدون قتله في الخيم ، فلما حضروا الخوان سأل السلطان خاله: «ما على يدك مكتوب؟» فقال : «اقرأه ، فإنني لا أقدر على قوله لك ليميني » . فلما قرأه كتم ذلك الى الليل ، وألبس مملوكا له ثيابه وأجلسه موضعه وتودد هو إلى اليزك، فلما كان نصف الليل قتلوا المملوك اعتقادا منهم أنه هو السلطان وسروا بذلك، فلما أصبحوا والسلطان على رأسه الجتر [٢٥] وهو في الموكب .فخافوا منه على أنفسهم وقالوا وأجمعوا رأيهم على أن حملوا عليه. فانهزم منهم فتبعوه ودخل نشاوور فتبعوه فما قدر يقيم بها لعدم العسكر بها ، فانهزم إلى الري وكان وزيره عماد الدين عراق قال له : «يا مولانا المصلحة أن تنهزم وأنا أكسرهم لك » فبقي أربعة أيام وتلاقوا فكسرهم السلطان في ميمنتهم فجاء خال السلطان إلى الوزير فضرب رقبته،وذلك أنه كان قد قتل ولده ، فانهزم السلطان خوارزم شاه بعد قتل الوزير ووصل همذان هو وولداه غياث الدين وجلال الدين ، وتبعوه إلى همذان، ومنها ركب برية قفراء وطلب مكانا يقال له أوسخن على جانب البحر وأفكر فيما تم عليه وعلى الاسلام فانفطرت نفسه ومات فيها فدفنوه هناك . وطلب ولده جلال الدين خوارزم شاه فما فتحوا له الباب وقالوا له : «هذا البلد لأبيك» وما علموا بموته ، فساق وطلب نشاوور، فلما وصل اليها غبر

فيها وأقام بها ونادى : « من أراد الرواح يروح فإنني ما أقدر آقيم بالغرباء وأهل البلد». وسار عنها يومين ، فالتقاه الكافر فكسروه وأخذوا جميع ما كان معه، وتم إلى هراة منهزما ، وهم في أثره، فما قدر يقيم بها ، فتم إلى غزنة ، فلما وصلها التقى رجلا بلخياً مسلما، وكان قد سمع بما تم على السلطان وعلى المسلمين فقال له : «تقف لنضرب معهم مصافا ونكسرهم»، فوقف البلخي وضرب المصاف وكمن لهم فكسرهم، ووقعت الغنيمة للبلخيّ فحسده ابن السلطان على ذلك وتقاول هو وولد البلخي فضربه ابن السلطان قتله على الكسب، فصعب على البلخي وفارقه . وانتزح عنه، فسمع الكافر بانتزاح البلخي عن ابن السلطان فطمعوا به وعادوا إلى ابن السلطان، فضربوا معه مصافا فكسروه ورموه في ماء السند ، ولم يفلت إلا هو بنفسه وعجز الكافر عن عبور الماء خلفه ، فعادالى البلاد جميعها أخذها وخربها لعدم السلطان ومن بها، وملكوا العراق البراني وغيره، وما امتنع عليهم بلد وقتلوا واقتسموا فرقتين : فرقة عادت إلى ما وراء النهر وما عادت ، وسكنوا بخارى وسمرقند وعندهم من المسلمين الذين كانوا بها مقيمين، يأخذون منهم الجزية، وكل من كان يعمل صنعة في تلك البلاد التي أخذوها وخربوها نقلوهم إلى عندهم وسيروهم إلى بلاد هم وهي الصين وطمغاج وغيرها وفرقة توجهت إلى الكرج وإلى البلاد الشمالية وغيرها

وفيها : مات الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ابن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله .وترك من الأولاد الملك المظفر محمود والملك الناصر قلج أرسلان ، والملك العزيز، والملك المجاهد، والملك المسعود، والملك المؤيد، والملك الصالح، والملك المعز. كان حسن السيرة عالماً بالسير والتواريخ وعلم الكلام ، حصن قلعة حماة، وعمق خندقها ووسعه وأدار خندق البلد وعمر الجسر عليها. وكان رحيما ما رد أحدا من بابه لاستخدام من جرى أو هدى . رحمه الله تعالى .وكان عند

موته قد أوصى بعتق عبيده وإمائه وإخراج كل من في حبوسه حتى إنه قال :« في الحبس من قد ظلمنا، وفيه من قد ظلمناه» . وكان أوصى أولا إلى ولده الكبير الملك المظفر محمود، واتفقت غيبته عند خاله الملك الكامل نجدة من والده لدمياط ، فعاجله الموت، فوصل ولده الملك الناصر قلج أرسلان من عند خاله الملك المعظم ، كان عنده نجدة أيضا فمملك حماة وصارت بيده ومنعت من الأول ، وقد استوفينا في تاريخنا المطول ذلك .

سنة ثمان عشرة وستمائة

وصل الملك المعظم إلى أخيه الملك الأشرف وأخذه مستنجدا به لدمياط، والملك الحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وعسكر الشرق وصاحب حماة والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم من الأمراء الأكابرفطلعوا إلى دمياط واستنقذوها من الفرنج ، ووقع الصلح بعد عدة مقاتلات وحروب جرت وأشياء على الأسارى الذين كانوا عند الفرنج وعلى النزول عن القطائع والمناصفات مدة ثماني سنين. ومنَّ الله تعالى على المسلمين بهذه الفتوح ، وبه عاد الاسلام جديدا.وعاد الناس إلى بلادهم وتفرقوا الى أماكنهم وأعيدت دمياط إلى ما كانت عليه أولا بعد خرابها، فكان نزول الفرنج - خذلهم الله — على دمياط ثالث ربيع الأول من سنة خمس عشرة وستمائة، ورحيلهم عنها بعد تقرير الصلح في شهر رجب تاسع عشره من سنة ثمان عشرة وستمائة .

وفيها: مات الملك الصالح صاحب آمد ابن أرتق بالقولنج، وملكها ولده الملك المسعود.

وفيها : وصل الملك الناصر صاحب حماة إلى الرقة إلى خدمة الملك الأشرف ، وكذلك الملك المظفر شهاب الدين غازي واجتمعوا كلهم بالرقة ، وعاد كل إلى بلده .

سنة تسع عشرة وستمائة

فيها : مات ملك الكرج وبقوا بلا ملك كبير ، وسيروا إلى الملك الأشرف عرفوه بذلك .

وفيها : مات ابن جميل صاحب المخزن في بغداد .

ومات ابن البختري، وكان مشارف مخزن.

ومات شرف الدين معد .

وفيها : سار السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل. وأقام عنده في رمضان.

وفيها : كان نزول الملك المعظم على حماة وانتقل إلى المعرة وعاد إلى سلمية وجاءته رسالة الكامل والملك الأشرف وسألاه والحاجب حسام الدين علي كان عنده، فأجاب وكف عنها وعاد إلى دمشق .

وفيها :اجتمع الملك الحافظ وأخوه الملك المظفر غازي على سنجار باتفاق من الملك الأشرف .

وفيها : مات الوزير نصير الدين بن مهدي الشريف وزير الناصر لدين الله، وأقيم عوضه أيام عزله نائبه المكين العجمي وكان ذا نهضة ودراية ولقب بمؤيد الدين، ثم توفي الناصر . وولي ولده الظاهر أبقاه على مكانته ، ثم توفي الظاهر وولي المستنصر أبقاه على مكانته، وفي كل الأحوال هو نائب وزارة لا مطلق الوزارة .

وفيها : منع الملك المسعود بن الملك الكامل صاحب اليمن أعلام

الخليفة الناصر من طلوعها قبل سناجق والده الكامل وكاد أن يقع السيف في الحاج ، ثم بعد ذلك اتفق الحال ووقع الصلح بينه وبين أمير الحاج، واعتذر إليه ولبس خلعة الخليفة وركب الفرس المسير برسمه كما جرت العادة.

وفيها : ملك عليهم الأرمن بعد موت ابن لاوون ابن الأبرنس ودخل في مذهبهم، ثم عزلوه بعد مدة قليلة إلى الفرنج واعتقلوه وطلبوا منه أموالا وطلقوا ابنة الملك منه وزوجوها غيره وقد استوفينا ذلك في تاريخنا الكبير .

وفيها : مات صاحب حصون الاسماعيلية بالشام أسد الدين ووليها أخوه صلاح الدين بقي مدة ومات ثم وليها أخوهما تاج الدين، فبقي مدة وسيروا من ألموت عزلوه واستدعوه إليهم وولوا غيره محيي الدين أعجمي حسن السيرة .

وفيها : أمر السلطان الملك الأشرف بأن تبنى له دار على القلعة الجديدة التي كان السلطان الملك العادل قد أسسها وأبطلها فبنيت عدة آدر . وغرم عليها من الأموال ما يزيد عن الحد، وعمل قبالتها بستانا في الجانب القبلي.... الشامي لم ير مثله، فيه أنواع الفواكه الشامية والمصرية والعراقية وغيرها.

وفيها : عاد الملك الأشرف من الديار المصرية وتلقته الملوك في طريقه ووصل إلى حلب وسلطن الملك العزيز بن الملك الظاهر وألبسه خلعة الملك الكامل ورفع سنجقا منه أيضا وحمل له الغاشية وكان يوما عظيما .

وفيها : وصل الملك الأشرف إلى قلعة جعبر وشرب عند أخيه الملك الحافظ فيها ونزلا في الماء إلى الرقة .

وفيهـا : تقررت سلميـة للملك المظفـر عوضـا عن حماة التـي كانـت (مقررة له) [٢٦]

سنة عشرين وستمائة

فيهـا : وصـل الملك المسعـود إقسيـس إلى عنـد أبيه وصحبتـه الفيلـة والتحف الهندية واليمنية .

وفيها : وصـل رسول مـاردين لإتمام الـزيجة بينه وبين الملـك المعظم . وكان الملك الأشرف الولي عن أخيه الملك المعظم .

وفيها : تأخرت الأمطار لاسيما عن الجزيرة .

وفيها : مـات الشيخ أبـو محمد الأنتـاني[٢٧] بتونـس من بلـد افريقيـة فوصـل الخبر إلى ابن عبد المؤمـن أبي يعقوب بن يـوسف بن عبـد المؤمن فسير إلى الموحدين بالإقـامة بتونس السيد أبا العلى، عـم أبيه ، وهو من أولاد السيد أبي حفـص بن عبـد المؤمن ، وتحالـف العريـان وكاتبـوا أمير المسلمين المايرقـي . وكان بسجلماسـة السيد أبـو زكريـا ء من أولاد عبـد المؤمن والسيد أبو عبد الله بسلا ، وكان ديانا صالحا.

ومات السيد أبو زيد بإشبيلية .

وفيها : دخـل الملك الأنبروز إلى جـزيرة صقليـة ، وكان بها قـائد من المسلمين وهو الحاكم عليها وسلطانها على جبـالها وغيرها وبعض وطاها، وكان أصله مـن بلدة المهدية ، دخلها دون البلوغ ، وكـان لما دخل اتصل بابن فاخر صـاحبها فقدمه عنده حسن سيرته وأفعالـه وشجاعته وصدق لسـانه، .فـأزوجه ابنتـه إليـه الملك، وأقـام كـذلك إلى آخـر التاريـخ المذكـور . فلما دخـل إليـه الأنبروز من بلـد الألمانيـة في البحـر في عـدة

مراكب وبألفي فارس وستين ألف راجل، وأقام يحاصره ثمانيةشهور، فاختلف عليه بعض أصحابه وقواددولته ، فخاطبوه على لسان بعضهم بما قالوه له يقوله وهم على الأسوار في الحصار، فلما خاطبه بما لايليق أنكره عليه وقال له: « كيف تقدم علي بهذا الخطاب؟» فقال: « تعودون إلى الأسوار كما كنتم » . فلما خرجوا من عنده قتل ذلك الشخص القائل. فبلغ أولئك فلبسوا عددهم ودخلوا على الأنبروز وقالوا له :« تجيء تأخذ البلد» . ودخل إلى ابن عباد ولد القاضي قاضي صقلية وقال له:« المصلحة أن تخرج إلى طاعة الملك » وكان ابن عباد متمرضا في نفسه من القتال والسهر فقال :« والله لا فعلت ذلك خوفا من العار» . فلما كان صبيحة تلك الليلة ، خرج القاضي وابن عباد معه إلى الأنبروز وحضر بين يديه فانتهره وضربه برجله وفيها المهماز شق جبينه وتركه في خيمة ناحية ، ثم بعد سابع يوم قتله وشق بطنه وأخذ ماله وربط أولاده في أذناب الخيل وتملك الأنبروز الجزيرة ، وبقيت بقية من القلاع في يد المسلمين، في يد بعض أقارب ابن عباد مثل القائد مرزوق وهو ختنه، عمل حيلة حسنة، وهي أنه سير إلى الأنبروز وقال له : « تعلم أن ابن عباد قد راح وما بقي لنا إلا أنت، فنفذ إلي ثقاتك وخواصك لأسلم البلاد إليهم والقلاع وننزل إليك فما لنا إلا أنت» . فسير الأنبروز أخص الناس عنده وأقربهم إليه مقدار مائة وخمسة عشر نفرا، فقتل الجميع وأخذ دوابهم وغلمانهم وقال: « هؤلاء عوض ابن عباد ياعدو الله». فجرى على الأنبروز ما لا يوصف، وبقي الأنبروز على هذه الحالة.

وفيها: كان في الغرب من الغلاء ما لا يعبر عنه بحيث إنهم أكلوا الميتة جميعها، وذلك أن المطر انحبس عنهم من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة وستمائة .

واختلفت القبائل سنتين، سنة عشرين وسنة إحدى وعشرين وستمائة. وقلت الخيول عندهم، بحيث أن أكثر الموحدين رجالة وكذلك العربان .

وكان لهم في الأرض عرق يسمى الرنا شديد البياض كانوا يطبخونه طول ليلهم وما ينضج فإذا أكلوه ما ينهضم عنهم ، فهلك أكثرهم بهذا العرق. وكانوا مدة هذا الغلاء يصانعون ملوك الافرنج مثل الأذفنش، والبرشنوني، والنبري، وولد الرنك والبابوج [٢٨] والدوك، عن كل يوم ألف ومائتا دينار، الألف مقررة للملوك، والمائتا دينار لفارس يصل يقبضها منهم ، جعلوها عوضا عن حصان وعدة . وصرف هذا الذهب نصف دينار بمصري. وكان صاحب البلاد يومئذ السيد أبو اسحاق أخو المنصور والمسير لهذه الجملة في كل يوم للفرنج السيد أبو عبد الله. وأولاد عبد المؤمن أبدا يهادنون صاحب غانة ويهادونه، وهو ملك السودان ، والبرابر يهدون إليهم الخيل البلق تسمى عندهم الحبارية . والجواري والروم، والثياب الأشكري، ويهدون هم لأولاد عبد المؤمن عوضها التبر في أرقاب الجمال، ويسيرون درق اللمط ، وحمار الوحش والزرافات، والخدم البابوجيات وهن أحسن من الهنود وأطيب.

سنة إحدى وعشرين وستمائة

كان الغيث قد انحبس في الجزيرة . وفي أول شباط وقع الغيث والثلوج وعمت البلاد ورويت بعد الإياس.

وفيها : ظهر في السماء نجم بذؤابة كبيرة طويلة في كبد الغرب ، بقي اثنتي عشرة ليلة.

وفيها : اشترى الملك الأشرف من تجار حجر بلخش [٢٩] وزنه ستون درهما غير نصف درهم، يعرف هذا الفص بالجبل، وهو الذي كان لسليمان شاه بن سلجوق، بثلاثمائة ألف درهم وصحبته فص آخر وزنه خمسة عشر درهما . وكان عند الملك الأشرف فص بلخش وزنه تسعة وثلاثون درهما ونصف ، تكملت الحجران مائة درهم، وهذا لم يرلملك في

هـذه الممالك ، وقـد كـان التجار شروه مـن أتابـك أزبـك، وهو الحجـر المذكور في التواريخ بالجبل

وفيها : قـويت الأراجيف بعصيان الملـك المظفر شهاب الديـن غازي على أخيـه الملك الأشرف بـأخـلاط ، وهو يمغلـط ولا يصـدق فيه قـولا ويراسله ويهاديه ويلاطفه بالرسـل والهدايا ولا يسمع ما يقال عنه والناس يحملونـه على قصده، وتمادى الحال في ذلك إلى أن ظهـر له عصيانـه قولا واحـدا، ، فراسلـه وخوفـه قصده لـه فما أفاد، فجمـع العساكـر من كـل مكان، وكـان قد وصـل إلىٰ الرقة أخـوه شهاب الديـن من أمـه وأبيه إلى أخيهـم السلطـان الملـك الأشرف، وتـوجـه قـاصـده ومـا زال سـائرا إلى ماردين، فنزل تحت ماردين ووصـل إليه السلطان الملك المنصور ولي أبيه السلطان الملـك المجاهـد صاحـب حمص إلى دنيسر، وجاءتـه الإقامـات منها، ونـزل صاحبهـا إليه واجتمع بـه وبات عنـده بحرزم، وعمـل دعوة للسلطان الملـك الأشرف في موضع جـدده تحت ماردين في الجبـل، وقدم للسلطان ولأصحابه وإخوته التقادم وغيرها .وجرد عسكره في خدمته، ثم توجه منهـا وجاءه صاحب آمـد الملك المسعود وقدم لـه التقادم وغيرها ، وفي جملتهـا خيمة لم يـر لأحد مـن الملوك مثلهـا ، عملت في أربـع عشرة سنة، سيرها الملك الأشرف لأخيه السلطان الملك الكامل وجرد عسكره في خدمته أيضـا، وساق إلى أخلاط وقد كـف عن حصار ميافـارقين احتراما لنساء أبيه ، وسـار ونازل أخلاط وخرج إليـه جماعة من مقدميهـا وغيرهـم وزحف إليهـا، فأخذهـا من غير مداومة قتـال وملكها وآمن أخـاه الملك المظفر شهـاب الدين غـازي وأحسن إليه وقبـل عذره وعفا عنـه، وأعطاه بعـد أن حلف لـه ميـافارقين وحـاني، وجبـل جـور، وذو القرنين، وقلـب والسناسنة.

وكان ابـن زين الـدين مظفـر الديـن قد نـازل الموصل محاصرا فنـدب السلطـان أخاه الملـك الحافظ نـور الديـن وسير في خدمتـه العساكـر إلى

نجدة بدرالدين لؤلـؤ أتابك الموصل، وتوجه إليها بكـرة نهار الجمعة ثالث يوم فتح أخلاط، فلما بلـغ ابن زين الدين أخذ أخـلاط خاف على نفسه، ورحـل عـن الموصل، وسـار الحافـظ إلى أن وصـل الجزيرة أقـام بها مـدة وخدمه صاحبها أتم خدمة بحيث إنه لعب عنده في الميدان بالكرة، فنزل الملك المعظم معز الـدين بن سنجر شاه ابن أتابك صـاحب الجزيرة عن حجرة مثمنة وقدمهـا بيده وقال: « هذه يعز عليها السلطـان». وكان هذا من أعظم المكارمات. ولم يزل الحافـظ إلى أن وصله كتاب السلطان الملك الأشرف إليه فتوجه واجتمع به على حـرزم وهناك عيد الملك الأشرف عيد الفطر، وعنده البانياسي رسول الملك الكامل.

وفيها : مـات عز الدين مسعـود بن سابق الـدين صاحب شيـزر وهو آخر من كان بقي من أولاد الدايـة المعروفين بغلمان نور الدين محمود رحمه الله، ووليها بعد ولده شهاب الدين الأعرج.

وفيها : وقع من قلعـة حلب تسعة أبرجة وأبدانها فبناهـا شهاب الدين أتابك الخادم في أسرع مـدة ، وهمّ همة ما قدر عليهـا غيره، وحسب جميع ما أنفق عليها من ماله تطوعا.

وفيها : مـات شمس الـدين محمـود بن قلج مـن أكابـر أمراء الـدولة الحلبية.

سنة اثنتين وعشرين وستمائة

مات فيها الشهاب خطيب منبج ، وكان عالما مجيدا .

ومات خطيب الرقة وقاضيها المجد إلياس.

ومات ابن التيمية(٣٠) شيخ الحنابلة وعالمهم بحران .

وفيها : وصلت رسـل الملك الكامل إلى ملوك الشرق جميعهـم بالاتفاق في خدمة الملك الأشرف وتحالف الجميع.

وفيها : قوي جلال الـدين بن السلطان خوارزم شاه بـن محمد خوارزم شاه، ودخل العـراق ونهب وقتل وسبى، وكان قد شـارف بغداد ،أقام على قرب بغداد ثمانيـة عشر يوما، وكان الخليفـة الناصر لما علم بوصـوله سير الفدن إلى الأرض التي تحقـق وصوله منها فحرثها وقلبهـا بحيث لا يبقى لدوابهم مـا تأكله ، فهـذا كان سبب عـوده عن قصد بغـداد، ووصل إلى دقوقا فأخـذها وخربها وقتل جميع أهلها وانتقل إلى البـوازيج أخذ أموالهم وأطلقهـم، وأخـذ خمسة عشر ألـف فـدان وسيرهـا بفلاحيهـا إلى بـلاده، ووصـل إلى الـزاب، فخاف صـاحـب إربـل فهـاداه وحمل إليه وكـاتبـه وحلف له فعاد عنهـا ونزل بمروج شهرزور وتوجه إليـه عماد الدين زنكي ابن أتابك وقدم ووعده بالموصل وعاد من عنده .

وفيها: كـان الملك المعظـم قد سير ولـده الملك النـاصر داوود إلى عند ابن زيـن الدين زيـادة في تأكيد المودة والوثـوق ، وكان ذلك بطلـب ابن زين الدين له ، لأنه قال: «أريد أجعله ولي عهدي».

وفيهـا وصل الشيـخ شهـاب الديـن السهـروردي رسـولا من الخليفـة الناصر لدين اللـه إلى الملك الأشرف بالرقة بهدايا وتحف وأشيـاء ما سمح خلفـاء بني العبـاس لأحد مـن ملوك الأطـراف من أقـوال جميلة وطـرف جليلة.

وفيها : مات الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر صلاح الدين رحمة الله. كان جوادا عالما كريما محبا لأهل العلم والدين، أجرى جميع ما كان والده أجراه للناس من صـدقة ورسوم رحمه الله ، وزيجته للضرورة في الستمائة إلى سلاطين الروم بني سلجوق حماية لـه ممن يقصده. فجاء ولده

إلى السلطان الأشرف فخلع عليه وقبل عزاءه، وطلبوا رسوله يسمع الخطبة باسمه في سمسياط فما وافق وقال : « لا تغيروا الخطبة عن سلطان الروم السلجوقي والزموا ما كان والدكم عليه في ذلك وطيبوا قلوبكم مني»

وفيها: وصل رسول أرزن الروم ركن الدين واسمه أبو الفتح جهان شاه بن طغرل بن قلج أرسلان ، إلى الملك الأشرف، وهو ابن سلجوق يطلب رسولا من عنده يقف على سماع الخطبة باسمه ، لأن أباه مات ، وهو عم السلطان علاء الدين كيقباذ ، فأرسل معه الأمير شروة المعروف بسبع مجانين ، بهدية حسنة

وفيها مات الصفي محمد بن اسماعيل الكاتب المصري وكان مجيدا.

وفيها : مات الحكيم صدقة السامري، وكان فاضلا في فنه.

وفيها : هرب أمير الحاج العراقي المعروف بأبي فراس إلى الديار المصرية .

وفيها أغارت العربان وقتلوا من التراكمة خلقا عظيما وأخذوا جشار الرقة.

وفيها: كسر السلطان علاء الدين سلطان الروم الأشكري [٣١] وأخذ من قلاعه. وكذلك كسر ألكس أيضا الرومي ومسكه.

وفيها : وصل الملك الجواد مظفر الدين بن مودود بن الملك العادل إلى عمه الملك المعظم بدمشق هاربا من البحر. وتخيل الملك الكاملُ من أمراء دولته فمسك منهم جماعة ووقع عنده الاحتراز على الطرقات وغيرها

وفيها : مات الوزير صفي الدين بن شكر بالديار المصرية لأنه كان وزر للملك الكامل بعد موت السلطان العادل، كان جبارا ظالما جباها منتهكا للناس، متعصبا للأراذل ومتعصبا على الأماثل، فأخذ السلطان الكامل أولاده، واستخرج منهم ما كان أكله أبوهم ، وعصروا وضربوا ووجدوا بعض ما عملوا.

وفيها : أمر الملك الأشرف بخراب خمسة أبرجة من سور الرقة قبالة الآدر التي عمرها في القلعة الجديدة.

وفيها : كان الغلاء قد كثر في البلاد الشرقية وخلت البلاد من فلاحيها وأهلها وحصل في البلاد الغلاء والوباء والمرض المختلف، إلا أن أكثره بالبرسام بحيث لا يؤخر المريض إلا بعض أسبوع ويموت وفني أكثر الماشية .

وفيها : مات الأمير سيف الدين بن علم الدين بن جندر، كان جوادا شجاعا صالحا ورعا كثير الخير عمارا للمساجد والمدارس والخانات.

وفيها : أمر الملك المعظم بقطع طريق باب الفرج إلى باب الحديد وسيب الماء في الخندق بحيث منع .

وفيها : أدار العمارة لسور دمشق وعرضه .

وفيها : تنكر على أخيه الملك الصالح وأحضره من بصرى وأسكنه دمشق وكان مقامه بصرى لأنها بلده.

وفيها : نقص نيل مصر وخاف الناس الغلاء، فأحسن السلطان الملك الكامل التدبير ثم عاد زاد بعد ذلك .

وفيها : وصل مجد الدين قاضي المهالك الحنفي رسولا من ابن خوارزم شاه إلى الملك الأشرف،ثـم إلى الملك المعظم،ثم إلى الملـك الكامل،وشرب الخمر مـع الملك الأشرف والملك المعظم،وأحسنـا في عطائه وحرمته غـاية الإحسان .

سنة ثلاث وعشرين وستمائة

كـان الحاج فيها في غـايـة الأمن والـرخاء وكثـرة الميـاه وغيرها، وكـان الحاج الشامي أكثر من العراقي والمصري.

وفيها : كـان الشريف قـاسم بـن مهدي قـد حاصر مكـة مجدها اللـه وحماها، وجمع عليها من العربان خلقا وما حصل على بعض غرض منها . وكان لما نـزل من الديار المصريـة ألطن بغا قد تـرك قماشه وزرده وغيره في البحر، ضرب قاسم على الجميـع أخذه . وهذا قاسم هو صـاحب المدينة المحروسـة . وكان قد نـزل صحبة هذا ألطـن بغا زيادة على مـن في مكة من العسكر المصري سبعمائة فـارس وراجل، فقويت بهؤلاء أيضـا. وكان هذا قاسم قـد أخلى المدينة من أهله وقماشه وجماعته وسيرهـم مع العربان إلى العراق خوفا على أهله.

وفيها : وردت الأخبـار بموت الإمام النـاصر لدين اللـه الخليفة، وولي بعده ولده ولي العهد الإمام الظاهر بأمـر الله، بقي في الولاية تسعة أشهر وأربعة عشر يـوما ، ثم مات ، وكـان حسن السيرة كريما ورعا ، في زمـانه ترك الحقوق وغيرهـا ، وأعاد على الناس ما أخذ لهم في زمان أبيـه من مال وملك ، وطـابت قلـوب الناس وسـار سيرة حسنة رحمه اللـه. وولي بعده ابنه الإمام المستنصر باللـه أبو جعفر بعد أبيه الظاهر. فـأول ما سمع من الإمام المستنصر بالله تعالى صلوات الله عليـه :« نستمد من الله المعونة» هذه أول كلمة سمعت منه عند مبايعته بالخلافة في السنة المذكورة .

وكانت قد وردت رسل الإمام الظاهر إلى البلاد الاسلامية ، وخطب له فيها ، فكانت رسله إلى الشام محيي الدين يوسف بن أبي الفرج ابن الجوزي ومملوك من مماليك الخليفة تركي يقال له شمس الدين،وكان رسول الملك الأشرف إلى الإمام الظاهر في العزاء والهناء بدر الدين عثمان. وسير الملك المعظم في ذلك القاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل رحمه الله، فأكرم إكراما زائدا ، وذلك لأبيه زيادة على مرسله . وسير الملك الكامل في ذلك المعين ابن شيخ الشيوخ ابن حموية . واتفق موت الظاهر وخلافة المستنصر وهو عند الملك الأشرف وسير استأذن الكامل فيما يفعله، فأمره بالمسير وتعزية الإمام المستنصر بوالده وجده وتهنئته فسار .

الكلمات التي قالها ابن شيخ الشيوخ رسول الكامل بين يدي الوزير مؤيد الدين نيابة عن الملك الكامل : « عبد الدولة المقدسة النبوية المستنصرية يقبل العتبات التي يستشفي بتقبيل ثراها، ويستكفي بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها، ويوالي شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء الذي عم مصابه بصبح الهناء الذي تم نصابه حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الاشفاق، وصوح بيت رد كأنفق النفاق، وامتازت الخلافة المعظمة من مستنصرها بالمثل الأعلى وفاز عبد دولتها من ولاتها بالقدح المعلى، فجعل الله كلمتها العليا وكلمة معاديها السفلى، وزادها شرفا في الآخرة والأولى» . ثم قعد

ثم سير الملك الأشرف إلى الامام المستنصر للهناء والعزاء فلك الدين ابن المسيري المصري المعروف ، فأكرم غاية الإكرام وبولغ في تلقيه والاحسان إليه . وسير الملك المعظم ناصرالدين بن أيمر أحد خواص دولته.

وفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة

مرض الملك المعظم مرضته التي كان يبلغ فيها الموت، ولما أبل عمل الناس الهناء وزينوا البلد أحسن زينة بالمغاني وغيرهن ودام الناس على ذلك ليلا ونهارا مدة عشرة أيام وكان عنده قاضي الممالك الخوارزمي فرأى من ذلك ما أهاله، ووردت عليه الرسل بالهناء من البلاد حتى إنه خشي على تشويش الساحل ، فسير كاتبه عرفهم أنه في عليّ عافيته ، ورسل الخليفة الظاهر لما وردوا عليه كان في عقابيل مرضته.

وفيها : وصل رسول كبير من ابن خوارزم شاه إلى الملك المعظم وخلع على المعظم وأعطاه سنجقا وأضاف إلى السنجق حربتين وسيفا ، وصار الملك المعظم يركب بسنجق الخليفة وسنجق ابن خوارزم شاه بمحضر من رسل الخليفة.

وفيها : ورد رسول سلطان الروم علاء الدين بقود كثير وتقدمه للملك الكامل والمعظم، وأدى رسالته على المعظم، فما أجاب عنها فما قبل طعامه ، ولا هو قبل هديته، وتوجه إلى الكامل .

وفيها : عاد القاضي النجم قاضي العسكر الدمشقي من عند سلطان الروم.

وفيها : مات القاضي الجمال المصري الذي كان وكيلا أولا وصار قاضيا بدمشق ، وقبر في داره، وتحدث جماعة في القضاء من الأماثل وغيرهم وبذلوا أموالا وما قبل منهم، وولي القضاء لرجل أعجمي يقال له الشمس الخوئي ، كان في بعض المدارس وذكرت عنه أشياء ، وذكر أن المعظم رآه وسمعه فيها، وولاه أيضا مع ذلك مدرسة والده وحضر دروسه .

وفيها : ورد الملـك الأمجد صاحب بعلبك لهناء الملك المعظم بعـافيته وكتب مهـر ابنته على الملك المغيـث بن الملـك المغيث بن الملـك العادل وكان عظيما ، وكل هذا وقاضي الممالك حاضره.

وفيهـا : قبض الملـك الأشرف على صاحـب ديوانـه علاء الـدين بـن الرام، ثم أفرج عنه ومسك جماعة من ولاته.

وفيها : قبض الملـك الناصر صاحب حماة على قـاضي بلد ه(المعروف بـ)ابـن القطب و(بـ) ابن المقيشـع ، وأهانه وعصره بالمعـاصير ، وهرب منه، لما كان شاع عنه من أعمال لا يليق به فعلها .

وفيها : تـوجه قـاضي الممالك إلى صـاحبه ، وقـد أكرمـه المعظم غـاية الاكرام، حتى إنه سير معه لمخدومـه ثـلاثة آلاف قوس عمل دمشق وهذا قاضي الممالـك الذي كان أرسلـه الخوارزمي إلى ملـوك الشام كان فـاسقا خمارا زانيـا محللا شرب الخمـر وغيره، كثير التبرج بـالمحارم. ولما عـاد إلى مخدومه الخوارزمي أنكـر عليه ذلك وأخذ أمـواله وقبض عليه ، بقـي مدة ثم شفـع في حقه فأطلقـه، ومات بعـد موت الخوارزمي بمـدة يسيرة بعد وصوله إلى حلب وأخذ صدقة من أتابك حلب طغرل .

وفيها : عـاد الشرف بن عنين الشاعر المعـروف بالهجاء الدمشقـي من جواب رسالته من إربل.

وفيها : مـات القاضي نجم الـدين نائب قـاضي حلب المعروف بـابن الحجاج ، وولي بعده الزين بن الاستاذ.

وفيها ولي القضاء بحماة الشهاب ابراهيم بن أبي الدم .

وفيها : وقـع الارجاف بـأن صاحـب حماة وقع وهلـك ، وطلبوا أخـاه

بكتاب زور وهو بدمشق، فتوجه بعد ذلك برأي الملك المعظم وتجهيزه ، وعاد من غير صحة .

وفيها : كان الملك المعظم بعد عوده من هذه القضية قد نزل على قرية من قرى دمشق يتصيد بها ، فورد عليه رسول مظفر الدين صاحب إربل بـ « أنني قد خرجت إلى الموصل ، فتخرج إلى البلاد وتأخذها » . فقبل رأيه وتجهز ووصل إلى حمص ، فأقام عليها مدة محاصرا، وتراسل هو وصاحبها الملك المجاهد عدة طرق فلم يجب.

وكان أعطاه بانياس ونابلس وخمسمائة فارس وقال له: « اطلع إلى عندك إلى القلعة وخذني بخادم واحد ، واستحلفني على ما تريد، وأنا ما أحلفك ، ولا أريد أن تسير صحبتي إلا بعض أولادك لا غير » فما وافق على ذلك .

وكانت النجدة قد وصلته من حلب في غاية القوة ، فأخربوا بلدها وطواحينها وأفسدوا فيها ، وتراسل الملك الأشرف وأخوه الملك المعظم ، بعد أن كان الملك الأشرف قد توجه إلى ماردين وغيرها من معاهدي المعظم ، فاتفق الحال بينهم على الاجتماع وكل منهما يرحل عن الموضع الذي هو محاصره، ووقع الاتفاق بينهما على ذلك، ووصل الملك الأشرف وتلقاه أخوه الملك المعظم على القريتين من بلد حمص وتصيدا ودخلا إلى دمشق ثاني عشر رمضان من هذه السنة المذكورة، ووصلت رسل حمص وحلب وحماة إليهما. أقاموا عندهم مدة طويلة وحلف الملك المعظم بحماة وبحلب وما حلف بحمص ولا أزال نوابه عن قارا ، ولا عن الوادي الشرقي الذي للملك المجاهد ، وكذلك النبك ، ثم أقاما بدمشق وعادا إلى القريتين للصيد والرسل ترد عليهما من الأطراف ، ووصل إليهما الزكي بن العجمي من جواب رسالة الخوارزمي ، ووصل

فلك الـدين بـن المسيري في جواب الخليفة أيضـا . كل هـؤلاء وصولهم إلى القريتين .

وفيها : عـاد العماد وزير الجزيرة من الملـك الكامل في جواب مـا كان سيره به الملك الأشرف وكذلك بدر الدين عثمان.

وفيهـا : مات أبـو سعيد الجعبري الـذي كان والي قلعـة دمشق بـدوز نطاريـا ، كان شيعيا سبـابا جباهـا كذابـا دهريا وولي بعـده الخادم شبل الدولة .

وفيها : مات الخادم شبل الدولة المعـروف بست الشام أخت السلطان صلاح الدين كـان دينا صالحا ، عمر المدرسة المعروفة بـالصالحيين بظاهر دمشق ، حنفية وأحسن وقفها وعمارتها .

وفيها : مات المبـارز المعتمد الذي كان شحنة دمشـق وسيرته مشهورة معروفة.

وفيها : عـاد الملك المسعود أقسيس بـن الملك الكامل إلى اليمـن بعد كل جهد من والده.

وفيهـا : وردت الأخبار بـأخذ ابـن خـوارزم شاه تفليـس وقتل أكثـر الكرج .

وفيهـا : عزم الملـك الأشرف على طلوعـه الـديار المصريـة غير مرة مـا يمكنه المعظم من ذلك .

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة

والملك المعظم والملك الأشرف على ما هما عليه بدمشق من الاجتماع في الملاذ وغيرها .

وفيها : وردت الأخبار أن عسكر الخوارزمي في أواخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة كانوا قد قصدوا خلاط وهجموها وبلغوا فيها سوق الدقيق ، وأن الناس تحايوا ونصحوا وقاتلوا أشد قتال وأخرجوهم منها عنوة ، ورحلوا عنها لكن بعد خراب كثير وقع في البلد .

وقيل : إن أهل أخلاط هم الذين كانوا استدعوا الخوارزمي ليسلموها إليه ، ثم عادوا عن قولهم ، فعاد الحاجب علي بعد رحيلهم حصنها ونقل إليها العدد والغلال وحشدها خيالةً ورجالة وبقيت في أتم حصانة .

وفيها : عاد الملك الناصر داوود من إربل إلى أبيه الملك المعظم وتلقاه عمه السلطان الأشرف .

وفيها : كانت الأخبار قد حققت بعود علاء الدين من حصار صاحب آمد بعد أن أخذ الكختين (٣٢) ومواضع أخر مثل حصن منصور وغيرها إلى بلاده. وكان الملك الحافظ نور الدين قد توجه منجدا لصاحب آمد ، هو وعز الدين أيبك الأشرفي ، ووقع ابن بدر وأخذه العسكر الرومي ، وكان في سنة ثلاث وعشرين وقع هذا .

وفيها : كان صاحب ماردين قد خطب للرومي وعاد في خدمته.

وفيها : وصل قاضي حصن كيفا إلى الملك الأشرف يخبره أن صاحب آمد في خدمته وأنه ما عاد إلى الرومي كما نقل عنه.

وفيها : وصل بدر الدين عثمان أخو الحاجب علي والغرس مبارك المعظمي برسالة (٣٣) إلى الملك الناصر صاحب حماة وإلى أتابك حلب لا غير ، فما وقع مرضيا لقولهما .

وفيها : عاد النجم خليل الحموي قاضي العسكر من عند خوارزم شاه، وقد كان له عنده مدة تسعة شهور، وحكى من جوره وظلمه وجبروته وعظمته ما لا سمع عن غيره ، وفارقه متوجها الى كنجة وسار صحبته مملوك المعظم المعروف بالبركين

وفيها : مات المهذب السامري الحكيم الذي كان عند الملك الأمجد صاحب بعلبك، الذي كان الناس قد عملوا الأشعار في الأمجد بسبب عشقه له ومحبته ، فمن جملتهم الشهاب فتيان النحوي الشاغوري رحمه الله، عمل :

الملك الأمجد الذي شهدت
له جميع الملوك بالفضل
أصبح في السامري معتقدا
معتقد السامري في العجل

فيها : وصل الكمال بن مهاجر من بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل ، إلى الملك الأشرف والملك المعظم بقود وهديه وأقمشة وغيرها ، وهو كبير القدر كثير المال والمعروف ، وله الصدقات الدارة وبناء الطرقات والخانات وأوقف الوقوف ، فتلقي بحلب أحسن تلق ، وتلقاه الملك المجاهد صاحب حمص ، وحمل له وأضافه وبالغ في إكرامه ووداعه.

وفيها : كان وصل إلى صاحب الموصل رسالة من الإمام المستنصر يطيب قلبه ، ويبسط أمله ويغده بكل جميل لا سيما عن صاحب إربل ، ووصل إليه أيضا رسول السلطان علاء الدين كيقباذ سلطان الروم، في

معنى التعاضد على الخوارزمي، والتعجب من تأخر الملك الأشرف عند أخيه في مثل هذا المهم .

وفيها : قبض بدر الدين لؤلؤ على أولاد بلس وذلك بعد اتفاقه مع ابن زين الدين صاحب إربل على ذلك ، وأخذ جميع أموالهم وكانت كثيرة .

وفيها: عاد ناصر الدين بن أيمر من عند الإمام المستنصر إلى مخدومه المعظم .

وفيها : عاد كريم الدين المعروف بالخلاطي من عند سلطان الروم كيقباذ إلى صاحبه .

وفيها : كانت الوقعة بين الأمير مانع بن حديثة وابن عمه الأمير منيع على يرعم ببلد بارين ، فطعن منيع طعنة بلغت منه، وحمله مانع إلى بيوته، وسير الملك المجاهد جرائحيا من عنده لعلاجه فصلح . ومات الأمير حلو من أصحاب منيع ، وطرح منهم جماعة مانع مائة وثمانين شخصا ، وكانت وقعة عظيمة ، كان أصلها منيع ، لأن مانع قال له عند الالتقاء : « كف الشر واحقن الدماء » فأبى إلا السيف والغي ، فحمل مانع بجماعته على منيع وأصحابه فرموهم إلى الأرض وجرى من القتل والجرح والموت والهرب ما اشتهر في الناس وهذه عاقبة البغي . ثم رحل بقية أصحاب منيع إلى بلد بعلبك وصاروا يتخطفون الناس ، فمن جملة فعلهم وإقدامهم أنهم وقعوا على البهاء بن رسلان بغا وهو في قرية يقال لها قطينة بقرب بحيرة قدس من بلد حمص ليلا ، فأخذوا قماشه وجرحوه ومماليكه وأصبح فقيرا ، وكم لهم من فعل قبيح هذا أقله .

وفيها : كان الملك المعظم والملك الأشرف قد توجها إلى الغور للصيد والتفرج وغيره ، أقاما مدة ثم عادا إلى خربة اللصوص بدمشق أقاما فيها

وفيها في آذار في العشرين منـه وقع من الثلج والأمطار والأهـوية ما لا يحد ولا رؤي من الأعمار، وتلف بعض الأشجار.

وفيها : شرعـوا في إعادة عمارة البرج الذي كـان بسلمية وخربـه الملك المنصورمحمدبن تقي الدين رحمه الله، وذلك بـأمر الملك الكامـل واشارته لصاحبها ، وهو الملك المظفر محمود المقدم ذكره

وفيها : شرع السلطان الملـك المجاهد صاحـب حمص في حفر خندق القلعة وتعميقـه وتوسعته وحصـانته لأنه مـن الثغور الإسلاميـة المندوب إلى حصـانته، وقـد كـانت قلعـة حمص أيضـا قبـل ذلك مترجلـة صغيرة فعلاها وكبرها وحصنهـا وكم عني بها من أتم عنايـة لله تعالى وساق إلى حمص المياه وأطاعه في ذلك العاصي الذي لم يطع قبله لغيره من الملوك.

وفيها : وقـع بين صاحب حماة الناصر وصـاحب شيزر شهاب الـدين الأعرج على ضـامنة اللطـف وقصده النـاصر وخرب شيـزر ونهبهـا وقتـل منها إلى أن وصل من الملك الأشرف رسول بالصلح بينهما .

وفيها : عاد الحجاج ووصفوا من الـرخص وكثرة المياه والأمن ما تجاوز الوصف وانباع الليمون الأخضر في الطريق برخصه في الساحل

وفيها : وقـع الصلح بين مـانع بـن حديثة وابـن عمه منيـع بن تـوبة، وذلك بإشارة السلطان الملك المجاهد صاحب حمص.

وفيها عاد الملك الظـافر خضر المعروف بالمشمر لديـن الله بن صلاح الدين رحمه الله من عند أولاد عمه العـادل من دمشق فأحسن إليه الملك المجاهد وأعطاه نفقة سنية وحمل إليه الاقامة الكثيرة إلى حين انفصاله.

وفيهـا : عاود الملـك المعظـم بـن العادل مـرضـه وهـو نازل بخـربـة اللصوص من بلد دمشق .

وفيها : وردت الأخبار من البحر أن البابا أعطى الملك الذي كان صاحب عكا اثني عشر بلدا، وكان الملك الامبراطور قد تزوج ابنة هذا الملك المذكور وبقيت عكا له ورتب نائبه فيها .

وفيها : مات ملك الإفرنس وكان يحاصر بلد صنجيل وهو بلد البطلانية ، والبطلانية عند الفرنج كالنصيرية عند المسلمين ، فاجتمع أكابر ومحتشمو الخيالة ورتبوا ولده في الملك عليهم ، ولازموا حصار من كانوا عليهم ورتبوا الصبي بالا وهو مثل أتابك العسكر.

وفيها : عاد خصبك ابن صاحب تكريت من العجم وخبر أن الخوارزمي تأخر عن حركته بسبب من قام عليه في تلك الخطة .

وفيها : توفي نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا بدمشق .

وفيها : وردت الأخبار بأن الاسماعلية قتلوا خال الخوارزمي ووصلت رسلهم إلى الأشرف بذلك .

وفيها : اتفق الأشرف وأخوه المعظم على ما جرى بينهما ، وسيروا الكمال بن مهاجر إلى السلطان الملك المجاهد وإلى الناصر صاحب حماة وأتابك حلب بصورة ما وقع به الاتفاق بينهما، فما وافقوا على شيء منه ، وشرعوا في عمارة بلادهم وتحصينها .

وفيها : وردت الأخبار بإنفاق السلطان الكامل في عسكره وخروجه .

وفيها : وردت الأخبار أن الخليفة المستنصر بالله قتل رشيق الشرابي ورتب عوضه كافور أحد خدام أبيه، ثم بعد ذلك توجه الخليفة إلى الحديثة للتفرج بقي أياما فغلا السعر ببغداد، بلغه ذلك فعاد إليها وأعاد السعر إلى حاله .

وفيها : في شهر جمادى الآخرة ودع الأشرف أخاه المعظم من المنزلة عائدا إلى بلاده الشرقية بعد الإرجاف بقبض المعظم له قطعا.

وفيها : في الشهر بعينه بعد انفصال الأشرف عاد كيميار رسول الرومي إلى مخدومه. فتلقاه الملك المجاهد وأولاده ولي عهده الملك المنصور ابراهيم واخوته ، وأحسن إليه .

وفيها : في الشهر أيضا غارت العرب، وهم غزية البطنين وغيرهم على بلد حمص وأخذوا حتى غنم أهل البلد، فوقع الصوت وركب العسكر وتبعوا العربان إلى معظم الطريق، وكان فيهم قوة ومنعة لكثرتهم ، فعاد عنهم بمراسلة جرت بينهم ، وذلك توفيقا من الله لحقن الدماء . ثم بعد ذلك أمر المعظم عربه أن يغيروا على بلد حمص وحماه وسلمية وبارين فجاءوا ونزلوا الزراعة من أرض حمص وأرض جوسيه الخربة والقصب ومكثوا أياما يغيرون والملك المجاهد مهمل لهم ، فلما طمعوا ركب إليهم بمن معه وأولاده ، وأذن لأهل بلده في النهب وأطمعهم فما كان بأقل من نصف نهار حتى نهبوهم وسبوهم وقتلوا وجرحوا خلقا ، وكان مانع بن حديثة يومئذ قد وصل إلى خدمته فحضر الوقعة أيضا ، وكان عند العرب المذكورين مملوك المعظم سنجر أمير العرب فرحلوا غصبا ، وكاتبوا المعظم بما جرى فصعب عليه وأمرهم بنزولهم الغوطة خوفا عليهم ، وعاتب الملك المجاهد في ذلك فأجابه جوابا سادا، ثم توجه المعظم في ضمن هذا إلى صفت ، وكوكب ، وتبنين، وغيرها ليخرب بقية أساساتها وسد صهاريج الماء بالقدس خوفا لما بلغه من حركة الفرنج .

وفيها : توجه السلطان الملك المنصور ابراهيم بن السلطان الملك المجاهد صاحب حمص ، وهو ولي عهد أبيه، إلى حلب والى الأشرف

طالبا نجدة ، ليجهز إليه من العسكر العدة المقررة لالتقاء المعظم وعاد، ووصل من العدة جماعة من عسكر حلب إلى حمص مثل شهاب الدين ابن مجلي الهكاري ومظفر الدين بن جرديك وغيرهما.

وفيها : عاد رسول الملك المجاهد صاحب حمص من عند الرومي وأخبره بمن عنده من الرسل المجتمعة من الخليفة وسائر الملوك ، وأنه حلف لصاحب آمد، وقد كان رسوله أقام مدة ، فلما تحقق وصول رسول الأشرف، وهو الزكي بن العجمي، حلف قبل وصوله حنقا على الأشرف، وأنهم في ترقب وصول كريم الدين الخلاطي من المعظم .

وفيها : توجه رسولا من أتابك حلب إلى الرومي ، بدر الدين ابن أبي الهيجاء الدقيق.

وجملة ما كان قد أخذه السلطان الملك المجاهد، ومانع عنده والتركمان، من العربان خمسة آلاف جمل خارجا من الأغنام والخيول والأقمشة وغيرها . وعاد مانع إلى أصحابه على الفردوس من بلد حلب بعد وقعة كانت جرت لعربة ولأخيه علي على عسكر حماة، وظفرهم بهم ، ولولا عسكر حلب لم يبق من عسكر حماة بقية ، وخربوا بلد حماة والمعرة وقطعوا الطرقات .

وفيها : طهر السلطان الملك المجاهد بقية أولاده الصغار، وهما الملك الزاهر داوود والملك الأفضل موسى .

وفيها : كان مجد الدين متولي حصون الإسماعلية بالشام قد سير إلى ملك الروم علاء الدين كيقباذ يطلب منه المقرر عليه ، وهو ألفا دينار التي كانت جرت عادتهم بحملها إلى ألموت، فأبوا ذلك ، وسير الرومي

إلى جلال الدين [٣٥] بألموت في ذلك ، فقال له : « تحملها إليهم بالشام، فقد عيناها لهم ذخيرة » ، فحملوها .

وفيها : وصل نجم الدين رسول الروم، وهو المهمندار، واجتمع به السلطان الملك المجاهد في جواب رسالته وفاوضه وقال : « قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلك مع المعظم وإزالة اعتراضه على جميع مالك» وكان عند وصوله قد تجهزت سرية عظيمة إلى بلد حماة وغيرها من عرب المعظم ، فأخذ خبرهم الملك المجاهد وركب خلفهم وتبعهم بنفسه وأولاده فأخذوهم وقتلوا منهم عالما واستعادوا غنائم كانوا قد غنموها من حماة وغيرها .

وفيها : في شعبان وصل ولدا شيخ الشيوخ وهما الكمال والمعين من عند السلطان الملك الكامل وقاضي العسكر المصري الشريف الحسيني رسلا إلى المعظم ، وأن الرسالة تؤدى بعد أن يقف عليها الكمال بن شيخ الشيوخ، ثم يعود قاضي العسكر إلى مصر ، ويتم الكمال والمعين إلى حمص ، ويؤدي الكمال الرسالة إلى السلطان الملك المجاهد، فتلقاهم الملك المجاهد بأولاده وأنزلهم في دار الملك المنصور تحت القلعة وأكرمهم غاية الاكرام ، وأدى الكمال رسالته وسار أخوه المعين إلى بغداد لأنه ما كان معه رسالة إلى غير الخليفة . وأما الكمال فإنه تأخر بحمص، وقال ما كان حمله وفي جملته:« إن مخدومي قال : تعرف الملك المجاهد صورة ما جرى منا ومن المعظم ، ومهما أشار به يكون العمل بمقتضاه » فقرر الملك المجاهد معه ما وقع الاتفاق عليه وتوجه إلى حماة وإلى الأشرف وإلى بدر الدين لؤلؤ الموصل ، وأخبر المذكور بأن قد وصل رسول الأمبرطور، ومعه من التحف وغيرها والخيول ما لا يحد ولا يوصف، وأن السلطان الملك الكامل اهتم له غاية الاهتمام من حسن ترتيب وإقامة وغيرها ، وأنه أحضر له من مراكبيه عدة بالذهب وغيره ، وأن الكامل سير فرس الامبرطور الخاص بعينه إلى ابن الملك الظاهر بحلب

وأشياء معه، وأنه قد شرع في عمل هدية لم يسمع بمثلها ، ويسير بها جمال الدين اسماعيل بن منقذ في الجواب، وقد ذكرنا هذا وغيره من الوقائع في كتابنا التاريخ الموسوم « بالكشف والبيان في حوادث الزمان» لأن هذا التاريخ في غاية الاختصار كما شرطنا .

وفيها : وصل رسول الأشكري في البحر إلى السلطان الملك الكامل وبذل من نفسه .

وفيها : وصل رسول من الامبرطور، وهو نائبه بعكا إلى المعظم بهدية حسنة ، وكان رسول الامبرطور وصل وطلب الساحل من الكامل .

وفيها : أصلح هذا الرسول بين الأبرنس والديوية والاسبتارية فإنهم كانوا قد حرموه.

وفيها : وصل رسول الخوارزمي واجتمع بالملك المجاهد وعلى يده إليه كتاب إليه من وزيره خواجا جهان يتضمن ما جرى لهم مع الكافر ، وأنه في عزم المضي إليه لاستقصاء شأفته، وذكر أنه كان على يده هدية في جملتها أسارى من الذين أخذوهم وعدة إلى المعظم وأنهم اتهموا بغدي مملوك أتابك أزبك بأنه تبعهم بعد انفصاله عن الأشرف وأخذهم

وفيها : وصل رسول الامبرطور إلى الإسماعيلية بالحصون الشامية بجواب رسالتهم إليه وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار ، فقال لهم مجد الدين متولي الحصون : « الطريق إلى ألموت وجلال الدين غير طيبة من الخوارزمي وغيره ونخاف إلى حين صلاح الطريق واتركوا ما معكم عندنا وديعة لكم ، والغرض حفظ نفسه وأماننا له » . وحلفَ لهم وأعطاهم قميصه أمانا وهذه عادتهم

وفيها : سير الاسبتار يطلبون قطيعة من الاسماعلية ، قالوا لهم : «

ملككم الامبرطور يعطينا وأنتم تأخذون منا» ومنعوهم ، فأغاروا عليهم وأخذوا من بلدهم جملة ،

وفيها : اتفق عيد رمضان وعيد اليهود وعيد النصارى وهذا عجيب عجيب .

وفيها : كانت وقعة بين التركمان وصاحب آمد وظهر عليه التركمان .

وفيها : كان قد اجتمع الملك المنصور صاحب ماردين والملك المسعود صاحب آمد ، وجاء كل واحد منهم إلى بعض الطريق وأكلا وشربا وتحالفا واتفقا بعدما كان بينهما من الشحناء والبغضاء .

وفيها : حج الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل على البرية وودعه أخوه الأشرف ، ولما عاد تلقاه، أقام عنده أياما وعاد إلى بلده ميافارقين وغيرها .

وفيها : اهتم الفرنج بعمارة قيسارية الشام .

وفيها : ورد الخبر بأن الحاجب علي بن حماد صاحب الدولة الأشرفية توجه إلى بلاد العجم فنزل سقماوناه (٣٦) فبلغه بأن الوزير خواجاجهان وصل إلى شميران (٣٧) بثلاثة آلاف فارس ونزل عليها ، فجرد الحاجب علي العسكر من أول الليل ،وأصبح عليهم بشميران وساق عليهم فكسرهم وأخذ أحمالهم وكوساتهم ، ولم يفلت منهم إلا خواجا جهان بستة نفر وتسلم الحاجب علي خوي (٣٨) وسار يتسلم غيرها .

وفيها : كان موت الملك المعظم بدمشق وولي ولده الملك الناصر.
وفيها : وصل العماد ابن موسك إلى سنجار ، وصحبته رسول الخوارزمي الذي كان بدمشق لما مات المعظم

وفيها : هرب بغدى من حران إلى الخوارزمي وسبب ذلك أنه كان له حوالة وصار كل وقت يطلبها، فقال بدر الدين قابيا الأشرفي ، وهو يومئذ نائبه في البلاد، قولا قبيحا عن بغدي ، فلما بلغه ، هرب والتحق بالخوارزمي، وكان بغدي في غاية الوبال على الناس هربته، وكان قد عرف البلاد وتحقق العساكر بها ومن فيها .

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة

والأشرف بسنجار

وفيها ؛ وصل رسول الاربلي يستصلحه فانصلح له .

وفيها : وصل إليه الملك المنصور بن الملك المجاهد والركن الهيجاوي ووصل كتاب مجير الدين الملك المعز بن العادل بأنهم قد ملكوا نقجوان ومدينة أرمية وخطبوا للأشرف فيها .

وفيها : ورد الخبر بأن بغدي تملك ثلاث قلاع ، وكذلك ورد الخبر أن الرومي ملك قلعة عظيمة بعد حصارها ثمانية أيام ، ثم عاد الأشكري صافقه فكسر الرومي وأخذ جماعة من عسكر الرومي وقهره .

وفيها : عاد الحاج وقد وجدوا شدة عظيمة من موت أجمالهم والعطش.

وفيها توجهت أم الملك الناصر بن المعظم من دمشق الى الكرك.

وفيها : عمر الفرنج صيدا بغير رضى من في الساحل ، لأن الفرنج الغرباء الذين وصلوا من الجزائر عمروها .

وفيها : وصل الحاجب علي بن حماد إلى الأشرف بنصيبين ، وعرفه

صورة ما جرى له في العجم ويحثه على نزوله إلى خلاط لا غير ليملك العجم ، فان أهل توريز وغيرها قالوا : « إذا جاء الملك الأشرف سلمنا إليه البلاد» ومع هذا فأنكر عليه الأشرف وصوله إليه خوفا على االبلاد ووعده بنزوله إلى خلاط وأعاده إليها فعاد . وسير الملك الأشرف إلى أخيه الحافظ يأمره بأنه ينزل ويقيم بحران وأن عز الدين نفذنا إليه بمن معه يكون عندك بها، وكذلك الكمال بن مهاجر» فامتثل أمره وسير أصحابه إلى حران.

وفيها : وصل فخر الدين أبو شعرة وابن شيخ الشيوخ من السلطان الكامل بالخلع والسنجق . وسلطنوا الملك الناصر وحملوا في خدمته الغاشية ، وكذلك أعمامه الملك العزيز والصالح ووصل معهم خلعة للسلطان الملك المجاهد أيضا ، وأصلحوا بينه وبين الملك الناصر .

وفيها : حلف الأشرف لابن أخيه الناصر ولصاحب آمد أيضا .

وفيها : سير الأشرف الركن أمير جانداره [٣٩] بهدية إلى الخليفة ، وعاد جواب الخليفة إلى الأشرف بسنجار يأمره بأن لا يتغير منها إلى أن يأمره، فتأخر بعد تحقيق حركته إلى العجم، وكان ذلك سبب حرمانه العجم .

وفيها : أفرج الناصر عن الوادي الشرقي وجميع ما كان لصاحب حمص السلطان الملك المجاهد.

وفيها : أغار الملك العزيز عثمان بن العادل على صور وأخذ منها جماعة أسارى وفعل في ذلك فعلا عظيما .

وفيها : زاد ظلم الملك الناصر بحماة إلى غاية ، وطرح على الرعية أغناما وغلة ما يناهز خمسة آلاف مكوك بأكثر الأسعار .

وفيها : خرب داراً لأحد بني قرناص كانت عامرة حسنة .

وفيها : هجم الملك العزيز بن العادل بعلبك طامعا بمخامرة من أهلها لكراهيتهم في الملك الأمجد صاحبهم لظلمه وعسفه لهم وفسقه وجوره، فلما علم بهم قتل من بلده جماعة بسبب ذلك .

وفيها : وقع بين ناصر دمشق وعمه العزيز ومملوك أبيه أيبك صاحب صرخد وسير الملك الناصر إلى عمه الأشرف يستنجده .

وفيها : عاد الأشرف من نصيبين بعد استصلاحه لصاحب ماردين بحيث أنه بذل له بلد نصيبين أو رأس عين الخابور أو الموزر وجملين ليحلف له ، ولم يوافق لأنه طلب دارا فأعطاه بلدها . فأبى وقال : « أريد القلعة وأخربها وأحلف » فما وافقه الأشرف عليها . وكان رسول الديوان أيضا قد دخل في هذه القضية وما وافق. وكان الأشرف قد جهز عسكرا إلى خلاط بعد كسرة كسروها ، وكان الحاكم فيها بغدي وخواجاجهان .

وفيها : أخذ صاحب الروم كيقباذ أرزنجان [٤٠] بعملة طريفة ذكرناها في التاريخ الكبير وغيرها لما شرطنا ها هنا من الاختصار .

وفيها : عاد الامبرطور إلى قبرص وملكها وعمل عملة على صاحب بيروت ليقبضه فما تمت عليه وقبض المال [٤١] الذي فيها وخافته الديوية وجميع من في الساحل .

وفيها : وصل سيف الدين بن قلج بحران يخبر الأشرف بصورة الرسالة التي وردت إليهم من السلطان الملك الكامل ويطلب ألف فارس ، وأنهم ما وافقوه على ما طلبه ، وان الناصر بحماة ما وافق أيضا .

وفيها : عـاد ابن قـاسم الـدين مـن بعلبك وحمص لاصـلاح ما كـان بينهما .

وفيها : توجه أبـو منصور بن الزُبد رسول الإسماعليـة إلى حلب يخبرهم بصورة رسـالة الامبر طـور إليهم بما طيـب به قلـوبهم ووعدهـم ، ويقول لأتابك حلب :« إن أنتم اتفقتم مع الساحليين انتصرتم عليه ، وإن كُنتم عاجزين عرفونا لنصلح أحوالنا معه » .

وفيها : وقعت واقعة بين عسكر خلاط وبغدي على بيكري (٤٢) وكسر عسكر الأشرف بهم وجرحـوا تاج الملوك بن العادل في خـده جرحا نسر ومـات منه عنـد أمـه بميافـارقين ،وكـان الحاجـب علي قد جمع العسكـر قاصدا الخوارزمي فـأعاقه الرومي بأخذه لأرزنجـان خوفا على أرزن الروم، لأن صاحبها كان في خدمة الأشرف وكان قد خطب له كما تقدم .

وفيها : وصـل الملك الكامـل بعساكره ونـزل على تل العجول، فخـافه الناصر صاحـب دمشق فتحصن وحلف رعيتـه، وعاد إليه عمه الصـالح وكذلـك عز الـدين أيبك مملـوك والده وتخلف عنـه عمه العـزيز ، فسير الناصر ابن القاضي الفاضل إلى عمه الأشرف يستحثه للوصول إليه .

وفيهـا : ورد الخبر بمضي الخوارزمـي إلى ألموت في طلب أخيـه غيـاث الديـن لأنه كـان انهزم منه وقال لهم : « ان دفعتـم أخي إليَّ فـلا كلام ، وإلا خربت بلادكم وغيرها » فما سلموه إليه .

وفيهـا : في ثـالـث رمضـان وصل الأشرف قـاصـدا دمشـق إلى نجـدة الناصر كما طلبـه ، فاجتمـع به في الطـريق بـأرض سلمية النـاصر بحماة وحمل إليه وقدم لـه ذهبا وغيره ، ثم إجتمع به السلطان الملـك المجاهد ، وحمل له وقدم جملة، وكان عمل شغله ليسير في خدمته فمنعه من ذلك ، وقال لـه :« المصلحة إقـامتك بحمص فـإن دعت الحاجـة إلى حضورك

نطلبك » فأجابه وعاد إلى حمص بأولاده وعسكره ، ووصل الأشرف إلى دمشق وتلقاه الناصر وأنزله في القلعة وحمل إليه جميع مفاتيح خزائن القلاع وأحضر أخواته إليه وقال : « نحن مماليك مولانا وعبيده وأيتامه مهما حكمت سمعا وطاعة »٠

وورد الخبر بأن الأمبرطور يشتي في الجزائر وسار إليه الإبرنس، بعد أن كان قد أخافه .

وكان الملك العزيز قد توجه إلى أخيه السلطان الكامل إلى الديار المصرية فتلقاه في بعض طريقها وقدم له الكامل وأعطاه عطاء لم يسمع بمثله ، وكتب له خطا ببعلبك لابنه وله زيادة في خبزه . وكان الملك الكامل عند وصوله منع أحداً من الأذية في بلد الناصر، فاتفق أن صاحب بعلبك ، بعد مضي العزيز إلى الكامل ، قد دخل بلد العزيز ونهبه ، فلما بلغ الكامل ذلك أمر بنهب بلد الناصر .

وكان الحافظ قد رتب معه الأشرف ومع أيبك أنه إن قصدهم صاحب ماردين، وإلا فلا يقصدونه هم ، وإن احتاج صاحب آمد إلى نجدة بسبب الرومي يروحون إليه ينجدونه.

وفيها : أغار صاحب ماردين على حصن كيفا ، أخذ ونهب وأحرق وكذا أغار صاحب آمد المسعود على التاخ .

وفيها : وصل رسول الامبرطور، وهو الكند توماس وصحبته صاحب صيدا إلى السلطان وقالوا له : « الملك يقول لك إن الجيد للمسلمين والمصلحة لهم أنهم كانوا قد بذلوا لنائبي اللكان الساحل جميعه وإطلاق الحقوق هذا في حصارهم لدمياط وما فعلوا ، وفعل الله بكم ما فعله وأعادها إليكم . ومن كان للكان هو إلا أقل نوابي وعبيدي ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له » . فقال السلطان الكامل لابن قلج،

وكـان عنده يـومئـذ ، لأن الأشرف كـان قد سيره إلى عنـده: « تكتـب إلى الملك الأشرف تعرفه صـورة هذه الرسالة وتقول له يقـول ما عنده فيها » فقال الأشرف : « يا سيف الدين ، مـا يقول عبد مملوك هو وجماعته، مهما رسمه السلطان الكـامل كان ، لأنه هو سلطان البـلاد ولا يخرج أحد عن أمره، بل تسأله اتفاق الكلمـة ، لتجمع العساكـر من البلاد إلى خـدمته ويقرر مـا فيه الصلاح للمسلمين وللبيـت ، وقد اشتاق المملـوك إلى تلك الطلعـة السعيـدة » . وهـذا في العشر الأول من ذي القعـدة مـن السنـة المذكورة .

وفيها : مـات وجه السبع مملـوك الخليفة صـاحب ششتر فوليهـا بعده بهمان .

وفيها : غلا السعر ببغداد . ثم عاد رخص

وفيهـا : أزوج الخليفة المستنصر مملـوكـه الـدويدار بـابنـة بـدر الديـن صـاحب الموصـل، وخـرج معها مـن الأقمشة والـذهـب والفضة مـا لا يوصف .

وفيها : سير صاحـب ماردين البى الرومي يقول لـه : « ما لمضيك إلى أنطاكية معنى . البلاد خالية ، الملك الأشرف عند الملك الكامل في قبالة الفرنج ، والجزيـرة ما فيها سوى الحافـظ وأيبك وصاحب آمـد ، ومن هو بحلب فتسير إليّ عسكراً لأخـذ تلك البلاد » . فقوي عـزم الرومي وسير إلى والي الكختين سيـف الدولـة عدة أمـراء . فجـاء الوالي وركـب الماء، ودخلوا إلى بلد قطينـا والسويداء ، وأخذوا منها جماعـة ، ثم عادوا فسير صاحب آمد طلب الحافظ لنجدتـه فجهز. إليه ، فعاد الآمدي إليه شكره ومنعـه مـن قصـده ، فعـاد هذا ، وقـد وصـل كتـاب الأشرف إلى أخيـه الحافظ يخبره بأنه قد توجه صحبـة ابن قلج إلى السلطان الكامل لإصلاح حال الناصر بن المعظم .

وفيها : وصل كتـاب الحاجب علي وفي عطفه نسخة كتـاب الخوارزمي ووزيره خواجاجهـان إلى حسام الدين خضر صاحب سرمـاري، لأنه كان يظهر للخوارزمي أنه في جملته ويظهر للأشرف كذلك .

ووصل كتاب الآمدي يخبر أن عسكر الرومي قد عادوا إلى بلادهم .

وفيهـا : وصل كتـاب الحاجب علي وشهـاب الـدين غـازي يخبران أن الخوارزمي وصل إلى مـلا زجرد ، وكاتبوا الأشرف بذلك ، وهـو بدمشق ، حتى أن الحـاجب قـال فـي كتابـه للكمـال بن مهـاجـر: « اعلم أن الخـــوارزمـــي يسبـق خبـــره، وقـــد ذكـــر أنـــه يـــريـــد يشتـــي بالـرقة، لأنها أشبه ببـلاده ، فلا تتمم قـراءة هذا الكتاب الا بقلعـة حرّان أو الرها». فاجتمـع الحافظ وأيبك وابن مهاجر وقـابيا على أن جمعوا أهل حرّان عند الحافـظ واستحلفوهـم وأمروهـم بالاستخـدام والعدد مهما قدروا، وتعـرّف الحافظ وأيبـك أبرجـة القلعة بحـرّان والبلد ورتّبـوا آلة الحصـار، وطلب الحافظ زَرَدْخَاناه من حلب وغيرهـا لقلعة حرّان ونقل جميع ماكان في الـرقة مـن مال وغيره إلى قلعـة جَعْبر، ثـم بعد ذلـك وصل الخبر بـأن بغدي وصل إلى جبل جور وعاد منه لأجل الثلج وكثرته.

ووصل كتـاب الحاجب علي وطيه كتاب صـاحب سرّ ماري الـواصل من الخوارزمي ووزيره، مضمونه ما نسخته. كتاب الوزير:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه:محبة علي بن القاسم.

المجلس السامي الشريف الملك الكبير العادل المؤيد المظفر المجاهد، شرف الدولة والـدين، نصرة الإسلام والمسلمين، عضد الملـوك والسلاطين

قامع الفجرة والمتمردين، شهريار أرمن، دام شريفاً مخصوصاً بالتحية والثناء والأشواق الى كريم محياه متوافر.

والذي نعلم به أن أمور السلطنة في غاية الرونق والطراوة، وما لها عزم الا الانصراف الى بلاد الأرمن والشام، وان كان جماعة من الحساد الذين يريدون ليطْفئوا نورَ الله بأفواههم، يظهرون أصواتاً، فما ذاك الا مُنَى زور، وسؤل غرور، فلا يلتفت المجلس الى ذلك، ولايصغي اليه، ولايفوّت مصلحته. ولو أن السلطان كان يُهمل أمرَ بلبان، صاحب خَلْخال، ويتوجه الى الأرمن والشام، لكان تنسد طرقات العراق وخراسان، فرأى أن يطفىء شرَّ شرَّه، ولما تحقق قصد العساكر المنصورة إلى المذكور، وبطل طِلَّسم إمرته؛ وكان اجتمع عنده ثلاثة من الباوكسية، تفرقوا وأكثرهم انتظموا في سلك عبودية الدولة، وقد وصل معتمد المجلس الشريف الأجل تاج الدين حميد الدولة، وشاهد أحوال القلعة التي فيها بيت المذكور وأولاده، وفي هذين اليومين نفتحهما ان شاء الله.

وحيث خلا وجه سلطان هذا العالم من هذه الجهة، فلاشك ولا شبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشام،وقد وصل الأجل الأغر بهاء الدين؛ جمال الإسلام والمسلمين، رضي الملوك شرف الأماثل، مشهور خراسان أعزّ الله نصره عائداً من جهة المجلس الشريف، وشرح ماشاهد من اختلال أحوال بلاده. وإنني وإن تأذّى قلبي من المجلس فما استحسنت ولا استحسن أن يتأذى المجلس، وساعة وصول قاصده قدمته إلى سرير السلطنة وأدّيت شرائط التهنئة عن لسان المجلس بالقدوم، وطالعت بما أنعم على المجلس بمثال موشح بالمواعيد الحسنة. وتعلم أن عاطفة السلطان ورحمته تشمل من اليوم إلى أسبوع، فيتحقق هذه المعاني ويتصورها. والظاهر أن بهاء الدين يرجع الينا ويجتمع بنا في حدود أذربيجان،فيكتب المجلس أحوال الملوك والأطراف مشروحاً، وقد

ذكرنا على لسان بهاء الدين مايعيده عليه فيسمعه ويعلم انما نذكره قولنا ويتيقن أننا مانجازيه على فعله ونحن كما قال قُرَيط بن أُنَيْف:

يُجْزُونَ مــن ظُلْــمِ أهــلِ الظُّلْــمِ مغفرةً
وَمِــنْ إساءَةِ أهْــلِ السُّــوءِ غُفْـرَانــا .(٤٤)

وهـذه نسخة كتـاب الخوارزمـي الوارد إلى صـاحـب سُرَّ ماري، وهـو بالفارسية والعربي. ترجمته:

«جلال الدنيا والـدين أبوالمظفر مَنْكُبرتي بن السلطان محمـد بن تكش خوارزم شاه ناصر أمير المؤمنين.

عنوانه: النصرة من الله وحده.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملك الكبير العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد شرف الدولة والديـن سعد الإسلام والمسلمين، نصرة الملـوك والسلاطين، قاهـر الفجرة والمتمرديـن، خسروا شهريار أرمـن سميدار إيـران أذكره دام عزه وتـأييده مخصـوص بعـزّ الاستمالـة وشرف الاستخبـار والتفـات الضمائر إلى نظـم مصلحته. وتعلـم أن جوامع أمر السلطنـة جارية على وفق إرادة ممـاليكنا وممـالكنا. وعنـد وصولنـا أذربيجان كـانـت العزيمـة مصممة على قصـد الأرمن والشـام، ولكن لما تجاوزت فتن عز الـدين بلبان الحد، وكـان يرى غيبة الرايـات المنصورة فرصة فينتهـزها ويشوّش هذه الأطـراف، اقتضت آراؤنـا التي هـي مـرآة الأسرار أن تقطع أولاً أصـول فتـن المذكور ليخلـو خاطـرنا الأشرف من أمـور هذه البلاد، فجهـزنا فـوجاً من الحشـم لقصد المذكـور في نصـف شهـر رمضان، فـانهزم ودخـل قلعـة فيرزر (٤٥) آباد وتحصن فيهـا. ونحن أقمنا بحـدود خلخال لأجـل العلوفة إلى آخـر شهر رمضـان، وتـوجهنا بعـد العيـد إلى قلعـة فيـزور آبـاد، فنازلتهـا ممـاليكنـا

وعساكرنا وأحدقنا بها بحيث كان يتعذر عبور الطيور إليها وهبوب الريح من جهتها، وأمرنا بترتيب المجانيق وتقدمنا إلى كل عشر نفر من العساكر باتخاذ ماممكن من جلود البقر، فحصل في اليومين التاليين من العُدد والآلات ما لايُعد، فلما عاين أهل القلعة تلك العُدّة والاستعداد، علم بلبان أنه لايمكن خلاصه من تلك الورطة إلا بالاعتذار والاستغفار، والتجأ إلى ظل الأمان، وتمسك بأركان الملك، وتشفع بهم، ففتحت عواطفنا له باب القبول على معذرته، وسترت هفواته بذيل المغفرة لتعلم الملوك الذين يهبون الذهب والفضة، وقد انتظم بلبان منذ ثلاثة أيام في سلك مماليكنا وتقدمنا بأن يرتب في كل قلعة والياً. ولما انقطعت موادّ تلك الفتن بانعطاف العنان المبارك، وأي شر لاينطفىء، وأخذ بصدر من ضميرنا الأشرف، وقد أمرنا بإعادة معتمد الملك الكبير شرف الدولة الذي وصل إلى أبوابنا العالية أعلاها الله وشُرّف بتقبيل اليد الكريمة المباركة في صحبته معتمد ديوان الوزارة، أجله الله وأكرمه وهو الأجل الأخص بهاء الدين، نجم الإسلام، عميد خراسان، أعزه الله،ليبلغ هذه البشارة ويعرّف مملوكنا المخلص الكبير الأشرف شرف الدولة والدين شهريار أرمن دام عزه وتأييده أحوال الدولة، ويعلم أنه إذا حصل للرايات المنصورة فراغ من ضبط هذه الحدود ورتب في كل قلعة مملوكاً، يتحرك إلى صوب الأرمن والشام. وعند وصولنا إلى تلك الحدود نجازي الأولياء والأعداء بالواجب وقد أحاطت علومنا الشريفة بما اعتقده جماعة المشركين ومخالفي دولتنا من التعدي على بيته، وأصبح خاطرنا الشريف ملتفتاً إلى نظم أحواله وقد انقضى وقت فراغ معانديه وحاسديه ومضت مدة استيلائهم، وسيجري عليهم من صواعق غضبنا وقهرنا وعواطف سخطنا من اليوم إلى مدة يسيرة مايصيره عِبرَة وتنقطع مدة التعرّضات لماليكنا المخلصين، فليتصور هذه المعاني ويستظهر بأنواع من اصطناعات وأصناف ترتيبنا وقوّتنا أن يُنير بالأمر العالي أعلاه الله هذا المثال العالي الصاحبي المعظمي الصدري الأعظمي العادلي المؤيدي

المظفري المجاهدي الفخري الذخري اليمينـي القامعي القاهري المنصفي المنتصفي العُهْـدتي العدّتي القـوامي النظـامي الكهفـي الخالصتي، شرف الملك، كريـم الأنساب والأطراف، مظهر العدل والإنصـاف، ذُو المناقب والمنـاصـب، قـدوة صـدور العـرب والعجـم، ملـك ملـوك وُزَراء الشرق والغـرب، دينورا إيـران أتـوران، أصغـر زماك اينـانـج قتلـغ الثُغ ملكـاً خواجـا جهان لازال عـالياً. الثـاني عشر من شـوال سنة خمس وعشريـن وستمائة».

وهذه نسخة كتاب الحاجب علي بن حماد على هذين الكتابين:

«المملوك علي الأشرفي تقدّمت كتبه ومطالعاته غير مرة.

المملـوكُ يعـرّف أن يوم السبـت خـامـس شـوال وصلني كتـاب بـأن الخوارزمي عاد لكثـرة الثلوج بعد أن كان بلغ إلى جبل جـور وأخذ غنائـم كثيرة».

وفيها: وصل قاصد صاحب مـاردين إلى الكمال بن مهاجر يطلب من يصل يحلفـه للأشرف، فأجمعوا رأيهم بعـد مراسلة الأشرف بـذلك على أن اتفق الكمال بـن مهاجـر والملك الحافـظ وعز الـدين أيبـك وقابيـا نائب السلطان الأشرف على محمـد بن نظيـف الكاتب الحمـوي كاتـب الحافظ ووزيره والأمير شمس الـدين خاص بك التكـريتي يحضر اليمين، فحلفه ولم يطلب شيئاً مما كـان بذله الأشرف له وقال: «الآن رأيت فعـل هذا من تلقاء نفسي، فما أريد جزاء عليه».

ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة

والأشرف عنـد السلطان الكـامـل قبالـة الامبرطـور. وغلت الأسعـار في الساحل ودمشق.

وفيها: تفرّقت عساكر النجد من خلاط إلى أصحابها بوقوع الثلوج.

وفيها : وقعت الأخبار بوقعة الرومي مع الأشكري وأنه استظهر على الرومي وقفز من الرومي جماعة إليه مثل ابن أخت ماتريدون، وقبض الرومي على شخص يقال له قزَل.

وفيها: وصل المظفر غازي إلى دمشق كأنه في حجة الغزاة،واجتمع بإخوانه وعاد غير طيب. وكان السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وأولاده عندهم وكذلك عسكر حلب وحماة.

وفيها:قفز أيدَمُر المُعظمي من عند ابن أستاذه الناصر إلى الكامل.

وفيها: استدعى الرومي المجد البَهْنسي فسار إليه بغير كتاب إلى الأشرف.

وفيها:وصل رسول أرزن الروم وهو حسام الدين بهدية إلى الأشرف ويعتذر عن ميله وحلفه للرومي.

وفيها: عاد الناصر قلج صاحب حماة من قصده خدمة السلطان الكامل مظهراً أنه قد مرض.

وكان الحاج في سنة خمس وعشرين قد انقطع من العربان وعاد أكثر الناس على الشام فوجدوا شدة من العطش على طريق أيلة ومات عدة جمال، وكان في جملة الحاج زوجة الخوارزمي التي كانت في قلعة قطور(٤٦)،وهي بنت البهلوان وقد كانت زوجة أزبك صاحب توريز، وأنفقت أموالاً كثيرة ومعروفاً، حجت على العراق وعادت على الشام، وكانت كبيرة السن وتوجهت أقامت عند الخليفة ببغداد وعليها منه الراتب.

وفيهـا: وقع الصلـح بين السلطـان الكـامل والامبرطـور على القـدس، وتهادنوا وتـأكدت بينهم صـداقة، والـذي تولى الحديث في الصلـح فخر الدين ابن شيخ الشيـوخ، وقاضي العسكر المصري، والصلاح الإربلي ومن عند السلطان الملـك المجاهد الأمير صفي الـدين سودان بن ابـراهيم بن سودان المعـروف، وكان قد طلـب من يعـرف علم الهيئة فسيّر إليـه العلم قيصر المعروف بالحنفي المشتهـر بتعاسيف، وهو أفضل المتأخـرين في هذا العلم.

ثم جـرى بعد ذلـك من محاصرة دمشـق ماجـرى إلى أن وقع الصلـح ومقايضـة الملك الأشرف بالجزيرة للسلطـان الكامل على دمشـق وبعلبك وانتقال الملك الناصر صاحب دمشـق إلى الكرك مابيناه وشرحناه مستوفى في تاريخنـا الكبير، وأن أيبك أستـاذ دار المعظم يعطـى الكرك وأن الملـك العـزيز وأيبـك يكونـان في خدمـة السلطـان الكامـل خارجـاً عن تبعيـة دمشق وكذلك الملك الناصر.

وفيهـا: سيّر الكامـل شمس الـدين صـواب الخادم وفخر الـدين بـن شيخ الشيوخ إلى الجزيرة يتسلمانها من الملك الحافظ ومن بدر الدين قابيا فوصلا وتسلماها، وخـاف علي بن جرير الرقي على نفسـه من قبضه فسار مع العرب في البريـة وكان إذ ذاك متولي الرقـة وقد كتب خطه بـارتفاعها بزيـادة كثيرة إلى غايـة لم تكن، فخـاف عند تحقيقهـا على نفسه، فهـرب واتصل بالسلطان الأشرف بدمشق.

وفيهـا: وصـل كتـاب الحاجب علي بـن حماد يخبر أن خـواجـا جهـان وبُغـدي في خـوي والخوارزمـي بنفسه في كـرميـان وإن لم يلحـق الأشرف البلاد وإلا فهي غير مأمونة البقاء.

وفيها: وصل الجمال الكاتب المعروف بابن أبي دبوقة إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة في تسكين العالم عقيب الصلح على القدس.

وفيها: وصل كتاب الحاجب علي يخبر أن الخوارزمي قصد بلاد الكرج لاختلافهم ونزل على قلعة لهم يحاصرها يقال لها كاك، بقي يحاصرها مدة ثم رحل عنها عجزاً، بعد أن كان قد خرب من سورها مقدار قامتين. ووصل كتاب صاحب سُرّ ماري إلى قاضي خلاط يخبر أن الخوارزمي رحل عن قلعة كاك. ووصل كتاب الأشرف بالاستخدام، ونزل صاحب ماردين إلى حرزم يستخدم.

وفيها: في آخر جمادى الأولى عاد الامبرطور إلى بلاده.

وفيها:وردت الأخبار بعود الرومي إلى ملطية ووصلت غوّارته إلى جسر العادل، فنهبوا وخرّبوا ودخل بعضهم على الجسر ووقع بعضهم. فجمع الحافظ العربان وأيبك وقصدوهم فما لبثوا وأمر الأشرف مملوكه أيبك بالنزول إلى خلاط وحثه على ذلك، وكان مريضاً فقبل أمره ونزل إليها فلما وصلها بعد يومين أو ثلاثة وصل كتابه بوصوله، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة وصل كتابه بالقبض على الحاجب علي وذلك أنه قال:«ماوجدت في القلاع ذخيرة ولا غيرها، ولما قلت للحاجب عن هذا اعتذر عذراً غير سائغ فقبضت عليه»، ثم بعد أيام وصل كتاب مجير الدين يخبر أن الحاجب علي مات بالإسهال،وكان الأمر غير ذلك وقد ذكرنا ذلك في تاريخنا الكبير. وبلغ الأشرف هذا فقبض على أخيه عثمان وأخذجميع ماله وبقي في الاعتقال مدة ثم أطلقه وأحسن إليه وكان وصل الجمال الكاتب ومعه أيبك التغلبي ولاّه قلعة خلاط وعزلوا الزكي العجمي من ولايتها.

وفيها: نقلوا بيت الأشرف، زوجته بنت الملك العزيز ابن عمه إلى سنجار ونقلوا زوجته بنت أتابك الموصل إلى دمشق.

وفيها: وصل الملك المظفر بن المنصور إلى حماة يحاصرها بعساكر الكامل وبأمره والسلطان الملك المجاهد صاحب حمص، ونقل إليه من عنده جميع آلة الحصار مثل مجانيق وغيرها والرجالة، وكان الناصر صاحبها قد تحصن غاية التحصين، ووصل السلطان الكامل إلى سلمية بعد ذلك، وكان المتولي لحصار حماة فخر الدين عثمان أستاذ الدارالكاملية والملك المجاهد والملك العزيز وأقاموا المجانيق على الباب الغربي وهدّموا بعضه، وتحدث الناصر بما يحمله إلى السلطان الكاملُ مصانعة ثم عاد عن ذلك، ونزل بنفسه إلى السلطان الكامل إلى سلمية مستسلماً جريدة تلقاه، ثم وكل عليه وسير علامة بتسليم حماة فما قبلوا منه، فراسل المظفر من بحماة وهو بشير الخادم ومن كان معه وتقرر الحلف بينهم على ثلاثمائة ألف دينار تحمل للناصر وجميع ماله من خيل وعدة ورخت(٤٧) وزيت وصابون وغير ذلك، فلما وقع الصلح والأيمان، وأدخلوا المظفر إلى حماة، وكان قد نقل بعض قماش الناصر وأنزل به من القلعة، فلما طلع المظفر ليلة عيد رمضان عاد عن ذلك جميعه وحمل للناصر بالتوكيل إلى الرها، بقي فيهامدة، ثم لما تقرر حال حماة وصل منشور السلطان الكامل بها للمظفر.

وفيها: وصل الحافظ بأولاده إلى سلمية إلى الكامل، فتلقاه وأحسن في حقه وتوجه إلى الجزيرة فعبر من قلعة جعبر فحمل إليه مفاتيحها على يد أصغر أولاده فقبلها، ثم أعادها إليه وأعطاه ألف دينار، وجرى في هذا وغيره مالايليق ذكره هاهنا لما شرطناه من الاختصار.

ولما وصل الكامل إلى الرّقة بقي يوييات ثم سار إلى حرّان أقام بها، ووردت عليه الرسل من الأطراف جميعها ففيهم من قبل منهم وتّيهم من لاقبله. ووصل إليه الملك المعظم صاحب الجزيرة فتلقاه وبالغ في إكرامه واحترامه، وأعطاه عطاء كثيراً فيه في جملته عشرة آلاف دينار مصرية خارجاً عن قماش وخيول وغيرها. ثم عاد بعد مدة إلى بلاده،

ووصل أيضاً المظفر صاحب حماة فأحسن تلقيه، وكتب مهر ابنته عليه وكان صداقاً مشهوداً.

وفيها: وصل رسول صاحب إربل يشير بأن يسيّر السلطان الكامل رسولاً إلى الخليفة في نعي البيت المقدس والعذر عنه، فقال الملك الكامل:«نحن مماليك هذا البيت المقدّس وآباؤنا وخدماتنا له معروفة مانُرائي ولانماذق» ثم بعد ذلك جهز فخر الدين ابن شيخ الشيوخ رسولاً إلى الخليفة.

وفيها: وصل كتاب من خلاط يخبر بأن الخوارزمي قد أحاط بها وضايقها من كل مكان، ووقع بينهم القتال وربحوا الخوارزمي مازالت كتبه تصل تارة بقوة الخوارزمي، وتارة بقوتهم عليه، وطالت مدته وأكلوا جميع ما في خلاط، وعدم كل شيء عندهم، وأكلوا لحم الكلاب والحمير والبغال وغيرها والخطمي والأشراش وجلود اللوالك، ينقعونها ويأكلونها، وانصب عليهم عدة مجانيق وخرّب السور وبنوا بطانة له، وصبر أهل خلاط وصابروا وكان الخوارزمي عزم على المسير عنها فقفز مملوك للزكي ابن العجمي الذي كان بها والياً إلى الخوارزمي وعرّفه ضعف البلد، وأنه مابقي فيه خمسون فرساً، فعاد عن رحيله وشد القتال، وتوهموا في الزكي أنه سيّر مملوكه قاصداً فأعدموه نفسه أيضاً، ثم وصل رسول الخليفة إلى الخوارزمي وسأله الرحيل عنها وتقرير الصلح فما وافق عليها. وقال:«هؤلاء قد فنيت رجالي عليهم وأموالي عليهم وماكفى هذا حتى يشتموني أقبح شتيمة،لأصابرنّها حتى آخذها عنوة». ثم حفر له السرابات وقطع الأشجار وعملوها بيوتاً، وصارت دوابهم تأكل الأشجار ولم يزل كذلك إلى أن أخذها وقيل بعَمْلَةٍ من ابن محسن دَلْدَرُمُ ورفيقه، وكان قدوصل إليه صاحب سرَّ مَارَي المقدم ذكره، فأعطاه أرجيش وألأل(٤٨) .وكان وصله صاحب أرزن الروم وهو حمل إليه جميع المجانيق وغيرها، وكان الرومي قدسيّر إليه هدية عظيمة من جملتها خمسمائة فرس

وعشرون مملوكاً كبارا بعدتهم وعدة خيولهم خارجاً عن تلك الأفراس، وكان غرضه، كما قال، الصلح بينهم. فقال لرسوله:«رسولي يصل إلى الرومي» ،فعاد بهذا القول، ثم بعد ذلك سير الخوارزمي رسوله إلى الرومي بمائة وعشرين فرساً ، فأحضره الرومي وماقام له ولاتلقاه أحد من عنده، بقي أياماً ، فلما كان وقت وداعه ماقام له وأعطاه يده باسها وكلمه منه إليه، وعادة الرومي أن لايكلم أحداً ، وقال له:«إذاأنكر صاحبك هذا التلقي لك وقلّة الاهتمام فقل:إن هذه عادة أبي مع أبيك وجدّي مع جدّك» وودّعه.

وأما عز الدين أيبك ومجير الدين بن العادل والأمجد تقي الدين عباس وجماعة فطلعوا إلى القلعة، وبعد ذلك صعد حسام الدين القيمري، بقوا يوييات، ففرغ ماعنذهم. وأما الخوارزمي فإنه وَفَى لأهل خلاط ،وقتل من قتل ونهب من نهب، ثم أفكر في القلعة والعجز وأنه يأخذهم عنوة، فوقع رأيهم على أن يستأمنوا، فأمنّهم الخوارزمي، وأول من نزل إليه تقي الدين عباس، فأكرمه وأطلق أنفسهم من القتل، وحاسن أيبك بحيث لعب معه بالأكرة، وشرب معه. وهذا كله خديعة لعله يحصل على تسليم باقي القلاع، وقال له:«تسير تسلم إليّ ملازجرد» فسير إلى من فيها، فما التفتوا إليه، وكان فيها بهاء الدين صاحب السويداء، وفتح الدين بن دَلْدُرم الياروقي، وعدة مماليك. وقالوا:«ومن أيبك وغيره هو مملوك مثلنا، ومهما وصلنا خط صاحبنا عملنا به».

وفيها: ظهر وطلب خوابي في ملطيّة عدتها سبع خوابي في سرداب.

وفيها: توجه فخر الدين عثمان إلى بعلبك ليأخذها بمن معه من العساكر التي كانت تحاصر حماة، بعد رحيلهم عن حماة.

وفيها: وقع برد وصواعق، فنسفت برد كبار بمنبج، وآذت جماعة، وذلك في أيلول.

وفيها: خطب صاحب ماردين للكامل، وعاد عن الرومي وضرب السكة باسمه.

وفيها: كان الكامل قد توجه إلى الرّها، وعاد منها بعد نظرة في أحوال قلعتها وأمر بعمارة جدّدها فيها.

وفيها: عاد العزيز من بعلبك وتولى حصارها أخوه الصالح إسماعيل.

وفيها: في ذي الحجة غارت الفرنج على بارين، وأخذوا جملة من مواشٍ ورجال ونساء وغير ذلك وست قرايا بجميع من كان فيها، ولم يكن الملك المجاهد بحمص، وكان بتدمر هو وأولاده، فلما سمع هذا عاد غائراً من طريقه، وسيّر عرّف السلطان الكامل فشق ذلك عليه.

وفيها: أمر الأشرف بعمارة قلعة زلبيا بعد أخذها من الحافظ.

وفيها: كان قد جهّز الكامل الناصر وأطلقه من حبس الرُّها، وقال له:«بارين لك تروح إليها» فلما وصل قنسرين وجد أخاه المظفر قد توجه إليها من حماة يحاصرها، فأقام موضعه، وسير عرّف الكامل، فأنكر ذلك، ثم بعد ذلك سار إليها ودخلها.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة

والسلطان الكامل بالجزيرة، والخوارزمي بخلاط، والأشرف على بعلبك يحاصرها.

وفيها: وصل بحرّان رسول الامبرطور إلى الكامل، وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوانه ترجمته: قيصر المعظم امبرطور رومية فردريك بن الامبراطور هنريك بن الامبرطور فردريك المنصور بالله المقتدر بقدرته، المستعلي بعزته، مالك ألمانية ولمبردية وتسقانة وإيطالية وانكبيرده وقلورية وصقلية، ومملكة الشام القدسية، معز إمام رومية، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم.شعر:

رَحَلْنَا وَخَلَّفْنَا القُلُوبَ مُقِيمَةً
تَخَلَّتْ عَنِ الأَجْسَامِ والجِنْسِ والنَّوعِ
وآلَتْ عَلَى أنْ لاَ تُخِلَّ بِوُدِّكُمْ
مَدَى الدَّهْرِ وانْسَلَّتْ تُنَكِّبُ عَنْ طَوْعِي

لو ذهبنا إلى وصف مانجده من عظم الشوق، ونكابده من أليم الاستيحاش والتوق، إلى المجلس السامي الفخري أدام الله أيامه، وسرمد أعوامه،وثبت في الرياسة أقدامه، وحرس مودته وإكرامه، وأجرى على سبيل النجاح مرامه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه، وجدد مع الجديدين سلامه،للزمنا في الخطاب شططا، وجدنا عن الصواب غلطا، إذ منينا بروعة استيحاش؛ بعد سكون وإيناس،ولوعة فراق، في إثر غبطة واشتياق، فرأينا السلو ممتنعاً، وحبل التجلد منقطعاً، ومأمول التماسك قد عاد، وشمل الاصطبار مُنصدعا:

وَقَدْ كُنْتُ لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ فِرَاقِكُمْ
وَبَيْنَ حِمَامِي قُلْتُ يُدْرِكُنِي نَحْبِي

وتخاله، أكرمه الله، ملّنا، واعتاض بغيرنا، واختار فراقنا، وتناسى ودادنا، فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب:

إذَا تَرَحّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
ألاّ تُفَارِقَهمُ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ (٤٩)

وبعد، فعلمنا أنـه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنـا، والحميد من آثارنا، نشعره حسبما شرحناه له بصيدا أن البـابا—باء بالغدر والخديعة— أخذ إحدى قـلاعنا المنيعة تسمى منت قسين، أسلمها لـه أبّاطها اللعين، وعند ذلك رام المزيد، فلـم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لـرجوعنا السعيد، فـاضطـر إلى أن زعم أننـا متنـا، وحلـف القـردناليـة على ذلـك وعلى أن رجوعنـا مستحيل، وراموا خـداع العامة بمثل هـذه الأباطيل، وأنـه ليس أحد بعدنا يحسن حـراسة بلادنا وحفظها برسم ولدنـا مثل البابا، فلإيمان هؤلاء الـذين هـم أئمة الديـن وخلفاء الحواريين، انخـدعت جماعـة من الطغام والمفسدين، فعنـد وصولنا إلى ميناء برنديس المصـونة، ألفينا الملك جُـوّان واللمبرديين في الـدخـول في ملكنـا معانـديـن، وقـع خبر ورودنـا متشككين ، لما قرره القـردناليـة عندهم بـاليمين، وكتبنا ورسلنـا بوصـولنا سالمين. داخـل أعداءنا الجزع، وحل بـه الروع والفزع ونكصـوا إلى ورائهم خـاسرين مسـافة يـومين ، وارتـد أهل طـاعتنـا إلينا طـائعين، وكذلـك اللمبرديين الذين كـانوا معظم عسكرهـم لم يرضوا لأنفسهم أن يـوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أدبـارهم أجمعين، وأمل الملك المذكـور وأصحابـه، فـأحاط بهم الحيـاء والخوف، واجتمعـوا إلى موضـع ضيق يخافـون الانصراف عنه، والخروج منه، بل لايقـدرون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قـد عادت لنا وإلى طاعتنا. ونحن في خـلال ذلك قد جمعنا عسكراً مـديداً من الألمانية الـذين كانـوا معنا في الشام، والذيـن انصرفوا قبلهـم ورمتهم الـريـح إلى بـلادنا وغيرهـم مـن أمنـائنا ورؤسـاء دولتنـا، واستعددنا نجدّ السير إلى بلاد أعدائنا.

وبعد فمّما نؤثر من المجلس مواصلـة كَتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحـاجاتـه، وأن يقري سلامنـا على جميع أكـابر العسكـر وغلمانه ومملوكيه ودخلتـه، والسلام عليه ورحمة الله وبركـاته. كتب ببرلتّ المصـونة بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسّو للأندقتنس الثاني».

وهذه نسخة الكتاب الثاني. الترجمة كالأول:«فيه من الأخبار بما نشعره به. أنا قد جمعنا عسكراً كثيراً، وأنا نجدّ السير إلى قتال من هم بانتظارنا، ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم كانوا قد حاصروا قلعة من قلاعنا ونصبوا عليها المنجنيقات وماشابهها من الدبابات والآلات، فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم وبيننا، لم يتمهلوا إلي، بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجدّ السير في طلبهم وتفريق شملهم، وتبديد جمعهم، وطلب البابا حيثما وجدناه، وردّه خاسئاً على قفاه، نادماً على مانواه، ومانجده من الأخبار فنحن نكاتب المجلس إن شاء الله».

الغرض من إثبات هذه الكتب تحقيق ممالك هذا الملك الأمبرطور وقدرته، فما ملك من النصرانية مثله من زمن الإسكندر وإلى الآن، لاسيما قدرته وإهماله لخليفتهم البابا وقصده له واطّراحه إيّاه.

وفيها: وصل إلى الكامل بحرّان شخص يقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشايخ غلو من جبال صقلية، وهي غير ماهو على رأس صقلية مُطل على البحر، والجزيرة كلها بيد الامبرطور، إلا هذه الجبال التي فيها القلاع الخارجة عنه التي فيها هذا الرجل المذكور، وهن غلو، وجنش، وجاطو، وأنطلة، وغلو خراب وأهلها في الجبل، والباقي عامرة.

وسبب وصوله أن الامبراطور غدر بأصحاب الجبال هناك،وعدّتها أحد عشر جبلاً ، فيها هذه الحصون المذكورة، وذكر هذا الحاج المذكور أن الامبرطور من جملة من أخذهم إلى البر الكبير، وأخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم ، مائة ألف وسبعون ألفاً، وقتل من الشطار مثلهم، وخلت هذه الجبال. والذي يطلب من السلطان الكامل ردهم

إلى أوطانهم، فان كان الامبر طور لايفعل، فيمكننا من الخروج إلى ديار مصر ولايؤذي أحداً».

فكتب له السلطان الكامل كتاباً إلى الامبر طور بذلك وسار عائداً من حران.

وفيها: حلف الكامل للعزيز صاحب حلب دون أتابكه، وسيّر التاج ابن الصفي بن شكر إلى حلب حلّف العزيز له.

وفيها: كان سيّر السلطان الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل رسولاً إلى الخليفة، وعاد إلى الرقة أقام. وسيّر فخر الدين عثمان يحث الأشرف على وصوله إلى الجزيرة.

وفيها: سيّر الرومي يخبر السلطان الكامل أنه قد سيّر خمسةعشر ألف فارس إلى أرزنجان وعشرة آلاف إلى ملطية، وأنه حيث يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك، وكان الرومي قد سيّر حلّف الكامل وحلّفه الكامل بالشهاب أحمد والجمال الفقيه الإسكندري مدرس الشافعي رحمه الله بمصر.

ووصل الخبر بأن رسول الخليفة واصل مع ابن الفاضل،فرتبوا له إقامة من رأس عين الخابور،وأخلوا دار أتابك في الرقة فنزل بها.

وفيها: في العشر الأخير من ربيع الآخر تسلم الأشرف بعلبك وعوض صاحبها بخبز وداره بدمشق، واستخدم أولاده.

وفي الشهر المذكور وصل الأشرف إلى السلطان الكامل بالرقة.

وفيها: وصل مانع وغنّام وبذلوا من أنفسهم ورجالهم الخدمة للكامل.

وفيها أورد الكمال كيميار رسالة الرومي التي كان سيرها إلى الخوارزمي، بمحضر من الملوك الكامل والأشرف والحافظ وغيره ورسول الخليفة محيي الدين بن الجوزي وماقاله له. وهي أنه قال له:«المولى من بيت كبير ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيّر والدك نيته، وخبط على نفسه، فآل به الحال إلى ماآل، والآن فقد فضلت هؤلاء بيت أيوب. وتجنيت عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصل من سنين، ولهم الإحسان الى الجند والرعايا والمجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقوة؛ وأنت فلا أموال ولا رجال ولا قوة، وبلادك خربة، ونحن نعرف حالك أكثر منك، ولاتظن أني عدوهم، لاوالله، بل صديقهم ونسيبهم بمابيننا من الأهلية والمصاهرة واختلاط الدم، ولعمي معز الدين منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولاشك جرى بيننا قضية عاتبتهم عليها وعدنا إلى ماكنا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحك، فتصالحهم وتعتد بهم أصدقاء ، فنحن نعرف ماوراءك من الأعداء، يعينونك على عدوك، ويقع الاتفاق وشأنك وشأن الكرج وغيرهم، وهذا نصحي لك، فلا تغتر بمن يكاتبك ويحلف لك فكله زور وتدفيع للأوقات، وقد والله قلت جميع مايلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجوا ب أن قال لرسولي: عد إلى صاحبك والجواب يصل مع قاصدي».

وفيها: وصل خادم من حلب إلى الكامل يخبر أن العزيز جاءه ولد ليلة الاثنين العاشرجمادى الأولى من سبع وعشرين وستمائة.

ولما ملك الخوارزمي خلاط كانت رسل الديوان عند الكامل بالرقة، وصارت الرسل تتردد بينهم وبين السلطان الكامل، وحلف الكامل للخليفة في الرقة بمحضر من السلاطين وباقي الجماعة وحضور بهاء الدين مروان بن قابيا رسول السلطان الملك المجاهد، وخلع عليهم وعادوا إلى بغداد، وسيروا في الماء من الرقة إلى بغداد شَبَّارة، معرفة بما جرى قبل وصولهم بأنفسهم.

وفيها: مات الملك الظافر خضر المعروف بالمشمر رحمه الله،كان كريماً جواداً شجاعاً، هو أول من سنّ القندس العريض الجامكية وجراية الخبز واللحم وحوائج طعام وغير ذلك، من بني أيوب، دُفن بحرّان.

وعند تمليك الخوارزمي خلاط سيّر هدية للخليفة أرمغانا ابن العادل تقي الدين عباس في قيوده إلى العراق، فلما وصل بغداد أزيل ذلك عنه وأكرمه الخليفة، وبقي عنده إلى أن كُسر الخوارزمي ووصل الكمال بن المهاجررسولاً من الأشرف، فسيره الخليفة صحبته وأعطاه عطاء عظيماً، وأمّره، وأعطاه جميع مايحتاج إليه مثله، وفي جملة الحوائج الحطب والكُزبرة والبصل وغيرها، وعاد مع الكمال بن مهاجر إلى أرجيش بعد كسرة الخوارزمي.

وفيها: قويت حركة الكامل إلى الديار المصرية، وتحدث بذلك بمحضر من رسل الديوان، فما أعجب الأشرف هذا ولا الجماعة، فقال:«لابد لي من هذا وأعود سريعاً بالخزائن والرجال، ولابد لي من فتح العجم». فما قدر أحد على منعه من قصده. وكان وصل إليه خبر موت ولده أقسيس صاحب اليمن، وهو بحرّان، فما أشاعه وكتمة، ولاخاطبه أحد بعزائه. وقد كان فيها شخص يقال له ابن رسول من أصحابه تقدم عند الملك المسعود أقسيس وعظم، فلما مات حفظ اليمن، وقيل له في تسليمه إلى من يعيّنه الكامل فأبى وقال:«لاأفعل لأنني محلف لابن أستاذي بأن الأموال يصل من يتسلمها،ويسير ديواناً لذلك، ماعدا ولاية القلاع، فلا أمكن منها لأنها لابن أستاذي».

وقرّر[الكامل] مع الأشرف مايفعل مع الخوارزمي من الاتفاق مع الرومي ثم توجه.

وفيها: بعد مسير الكامل وصل حسام الدين القيمري زوج أخت

الأشرف هارباً من خلاط إلى الرقة، وحكى عن ضعف الخوارزمي وقلة من معه وأنهم غير عاجزين عنه، فسيره إلى الكامل في بعض طريقه بدمشق فعرّفه ثم عاد.

وفيها: وصلت كتب أيبك بتشديد الخوارزمي وفي عزمه خنقهم بعد هربة القيمري لحنقه و«أن الخوارزمي توجه من خلاط ونحن صحبته إلى بلاد ملازجرد».

وفيها: وصل إلى الأشرف بعد مضي الكامل الغرس خليل، والزكي بن السكري الحموي رسلاً من السلطان الملك المجاهد يخبرانه خبر الصلح مع الفرنج وصحبتهما سيمون رسول بيت الاسبتار.

وفيها: توجه ابن كريم الدين الخلاطي إلى الرومي وحلفه له وعاد من عنده وصحبته الكمال كيميار من الرومي، مضمون رسالته أنه قال:«مخدومي السلطان علاء الدين كيقباذ يخدم المولى، ويقول له: محبتي ومودتي وصداقتي ماتغيرت بل زادت، وإنما لعن الله من كان السبب، ولايحسب المولى أنني[ما] ذكرته في نجد السلطان الكامل إلا لتأكيد مودة وغرض أبلغه. والآن فبلادي وأموالي بحكمك، فتصل قولاً واحداً بالعساكر إلى قُرْشِهر، وتنجرد وحدك وتصل إلى عندي بقيسارية نتفرج ونحظى بخدمتك،ونصل أنا وأنت إلى العسكربالعساكر، فوالله لاقنعت لك بخلاط، بل بجميع البلاد».

ثم عاد وصل كتابه إلى كيميار يقول له:« لاتجيب الأشرف إلا إلى سيواس حتى لايتعب ويبقى العسكر في قر شهر». ومعه نسخة يمين فإن لم يصل الأشرف بنفسه قبل عساكره. قال الأشرف:«ماأحلف بهذا اليمين، بل أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته».

وفي شعبان من السنة توجه الأشرف إلى الرومي جريدة وصحبته

كيميار، فوصل إليه بسيواس، فتلقاه وسرّ به، وتبعته العساكر الشامية، فلما وصلوا خرجوا إليهم إلى الملّوحة (٥٠) ، وتلقوهم فأنزلهم مواضعهم، وحمل لهم من الإقامات والتقادم النفقة مالاً عظيماً في مرتين، عند وصولهم إلى سيواس وبعد كسرة الخوارزمي بأرزن الروم بحيث حمل إلى الأشرف أربعمائة ألف درهم سلطانية وعشرين ألف مكوك غلة وعشرة آلاف رأس غنم، ولإخوته على طبقاتهم مايناهز مائة ألف درهم لكل واحد، وعدة خيول وبقج من أثواب ومراكيب وغيرها، وكان ذلك عظيماً، وأقاموا عنده بسيواس سبعة أيام.

وفيها: وصل الخبر بوصول السلطان الملك المجاهد من حمص، وأسرّ الأشرف بذلك، وعاد وصل الخبر بعوده بسبب أشياء جرت فعاد من بلد حلب، وأن ولده السلطان الملك المنصور إبراهيم ولي عهده واصل بعسكره، وأحضر الرومي زوجته ابنة العادل من قيسارية إلى سيواس، أبصرت إخوتها، وقدموا لها وقدمت لهم أشياء، ولعبوا معه بالأكرة غير مرة، وبالغ الأشرف في خدمة الرومي، بحيث أنه كان يبوس له الأرض فما يخدمه الرومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرومي تعاظماً زائداً بحماقة، ثم سمعوا بحركة الخوارزمي إلى أرزن الروم، وأن الخوارزمي كان مريضاً، وأبلّ من مرضه، حتى إنه لولا مرضه كان سبق إلى البلاد الرومية وحصل على غرض منها، وهذا كان من لطف الله، فتجهز الرومي والأشرف وساقوا إلى لقائه، وسير صاحب الروم إلى عسكره بأرزنجان يستدعيه، ولم يعرف الأشرف بذلك، وكان قد وصل من أخبر أن الخوارزمي قد وصل، فنزل في مرج يقال له ياصجمن، وسار الرومي طالبه، فلما قارب ذلك المرج وبلغ الخوارزمي وصول عسكر أرزنجان إلى صاحبهم، جرّد سبعمائة فارس، التقتهم فقتلوا منهم عالماً مايناهز ثلاثة آلاف فارس، ونهبوا وأسروا خلقاً، وبقي الغبار طالعاً، وفي الأخير عُلم ماالسبب. فشق على الأشرف ذلك وقال:«ليت كان المولى عرّفنا بطلبهم، كنا لقيناهم». وخجل الرومي. وفي ذلك اليوم كان وصول السلطان الملك

المنصور ناصر الدين ابراهيم بن السلطان الملك المجاهد بعسكره، فتلقاه الأشرف والملوك، وسُرَّ به سروراً كاملاً، وفي صبيحة تلك [الليلة] ركب العساكر وأشرفوا عليهم من رأس ذلك المرج، وطاردتهم العربان، وأخذوا منهم عدة خيول وقتلوا جماعة، وذلك في ثامن وعشرين رمضان، ثم ساقت العساكر وطلبوا العقبة المطلة على منزلة الخوارزمي، ورتبوا الميمنة والميسرة، والرومي هو الدُّبَنْدَار (٥١)، وله الميمنة والميسرة، والأشرف في القلب، وله الأجنحة وغيرها كما جرت عادة تعبئة العسكر، وكان مع الرومي من الخلائق ماطبق الأرض وملأها من التركمان والأرمن والفرنج والمسلمين وغيرهم من الشاميين، فكان من جملة أجنحة الرومي أرتق شاه ابن صاحب خرتبرت، ومن أجنحة الأشرف الملك المنصور ابن الملك المجاهد صاحب حمص. وكان يوم الجمعة. وألبس الخوارزمي في قتالهم ورتب جماعاته، فلم يزالوا كذلك كل في قبالة صاحبه إلى الليل، وكان الخوارزمي قد أخفى أصحابه في الأودية نكداً منه، وطلع بنفسه على الجبل، وطمع الأشرف وساق وملك عليهم أكثر منزلتهم. فلما كان الليل عادْ الأشرف والرومي إلى منازلهم، ورتبوا اليزكية كما جرت العادة، ثم قوي عزم الخوارزمي على كبسة العسكر، وقفز إليه جماعة قالوا له:« ان الرومي والأشرف قد خافاك وتأخرا عن ذلك التل». فقوي عزمه أيضاً، ثم عاد أفكر، فما قويت نفسه على الكبسة. فلما كان صبيحة تلك الليلة تعبأ الخوارزمي والأشرف والرومي وكان في قلب الشاميين عسكر حلب وعسكر الجزيرة:صواب، وبعدهم المظفر غازي، والملك العزيز، والأشرف والرومي بعدهم. فوقع الجاليش، فظهر أصحاب الخوارزمي وشالوا ميسرة الرومي ثم عادوا على الخوارزميين ثم عاد الخوارزميون ثانياً فكسروا الرومي، فأردف الأشرف الميسرة بأخيه الحافظ والرومي بصاحب خرتبرت، ووقعت الواقعة، وعمل الملك المنصور ابن الملك المجاهد ذلك اليوم عملاً عظيماً، هو وأصحابه،وفقد جماعة منهم دون باقي جمع السلاطين، وذلك لنشبه بما كان فيه من دون غيره، فلما عاين من مباشرته

الخوارزمي كثرة العساكر وقوتها وشدتها أيقن بالغلبة، فأومأ بيده يمنة ويسرة وقلباً، وساق منهزماً بجماعة يسيرة، من جملتهم قلج الخادم الذي كان يحبه ، ورُمي جماعة من أصحاب الخوارزمي، منهم صاحب ألْتي وغيره من الخانات وصاحب أرزن الروم وأخوه وصهره، وأحضرهم إلى الرومي، وتفرق الخوارزميون في الجبال والأودية والشعاب، وبلغوا إلى درابزون، وفي ذلك الوادي شقيف وقع فيه مايناهز ألفاً وخمسمائة رجل وأبغال بأحمالها وجمال، وصار الناس يطلعون منه الأجمال والأبغال بأحمالها، وفيها الجواهر والكساوي والذهب والأطلس وغيره، وكأن معظمه كان خزانة للخوارزمي أو لأصحابه من خواصه. وبقي في الطريق من العدد والآلات والأقمشة مالايوصف. وكب الناس ومسك العربان جمدارية الخوارزمي ومعهم أثوابه وتلاكشه (٥٢) جميعها مطرزة.وأما الخوارزمي بنفسه، فإنه في يوم وليلة بلغت هزيمته إلى خمربرت بات بها ليلة. ودخل الحمام هو وقلج الخادم، وسار إلى خلاط واجتمع بخواجا جهان وزيره وعرفه صورة الكسرة، وكان خواجاجهان يحاصر ملازجرد، وقد أشرف على فتحها فسار عنها وترك طعامه في القدور. وحمل الخوارزمي بقية أثقاله وبيته وتوجه إلى العجم. وكان علم الدين سنجر الألفي الأشرفي مقيماً ببدليس، فضرب على الأمير اختيار الدين قبض عليه لأنه ماكان بلغه كسرة الخوارزمي، ولو كان مع تقدير الله تسوق العساكر خلف الخوارزمي ماكان يسلم، بل ظنوا أن له عدة أمكنة، لأنه انكسر من غير قتال. فقالوا:«هذه خديعة مانثق بكسرته».

ثم عيَّد الناس عيد الفطر، وخلع الرومي على الأشرف وعلى باقي الجماعة، وساقوا إلى أرزن الروم، وكل الجماعة قلعوا خلعة الرومي إلا الأشرف لبسها عدة أيام، وقد جافت الأودية والجبال من رمم الموتى وأركب الرومي صاحب أرزن الروم وأخاه وصهره على أبغال تبن بفردات التبن بالقيود، وساقوا بهم، فسبحان مالك الملك، وكذلك من كبسوه من جماعة الخوارزمي، منهم مشاة وركبان والتواكيل عليهم، وكان قد وصل

رسـول آمِد مكـاسرة ويطلب أن يُحلـف لـه. فقيل لـه: « تخدم صاحبـك وتهنّيه بهذه الكسرة التـي تعزّ عليه» فكتبـت الكتب إلى الكامـل والخليفة وجميـع الأطـراف، ووصلـوا إلى أرزن الـروم، ونـزلـوا عليهـا، وأحـاط بها العسكر، وشرعوا في قتالها، وأظهروا العصيان والممانعة أول يوم، وقوتلوا من جماعـة بعض قتـال، ثم سيّروا سراً إلى الأشرف فقـال لهم:«أنا أدخـل في الكفّ عنكـم ورفع الأذى من السلطـان عنكم». وأرسلـوا الرومي بـاطناً، ودخـل إليهـا بكرة هـو والأشرف، وإخـوتـه، والملـك المنصور صـاحـب حمص، إلى قصرها وذلـك يوم الثـلاثاء، ووقـع العوض عنهـا، وحلف لـه الرومي بالسلامة على نفسه—أعنـي لصاحب أرزن الروم— وأخذ زوجته أخت صـاحبها، وكـان قد منعـه منها، وأقـاموا يـوميات هو والأشرف في أكـل وشرب ولذةووداع وتقـرير ممـالك، وأجـرد الرومـي مع الأشرف مـن عسكره خمسـة آلاف فارس قـدّم عليهم نجـم الديـن الجاشنكير، وودّعه، وسـار الأشرف، وقد أعطـاه جميـع العَجَـل التي كـان عليهـا الـزردخانـاه بإيفـادها ذخيرة لخلاط، وعـرض القلاع التـي كانـت الكرج أخـذتها من خلاط، وهـي جملة، فما أخذ إلا قلعة ألتـي لاغير، وهي أجودها، ثـم سار ووصل إلى خمربرت فعرّفـه أهلها بوصول الخوارزمي وأن قلج كـان مريضاً ودخل هو وهو الحمام، ثم سار إلى ملازجـرد فتلقاه من كان بها من أهلها وعسكره، وسيّر إلى خلاط رتبهـا ورتب والياً وديوانـاً الشهاب أخا الجمال الكاتب، ثم بقي ثلاثة أيـام وسار إلى أرجيش، فتلقاه من بها ووصل إليه فيها الملك المعظم صاحب الجزيرة، فكرمه غاية المكارمة.

وفيهـا: وصل الكمال بـن المُهـاجر وصحبتـه الملـك الأمجد عباس بـن العادل وتلقوه كما جرت العادة.

وفيهـا: رتب الأشرف اليـزك، وذلك أن خـواجاجهـان كان قـريباً مـن بيكري، والخوارزمـي في خوَي، وكان قلـج الخادم المقدم ذكره الـذي يحبه الخوارزمي قـد مرض مرضـاً شديداً فمات بخـوَي وجرى عليه منـه أعظم

من كسرتـه، كان مليـح الصورة إلى نهايـة، وبقي أيـاماً لايـركب ولايـراه أحد، وقيل إنه قطع بعض شعره عليه لحزنه.

وهـمّ الأشرف في عبوره بـلاد العجـم ليبلغ أولئـك، وتـارة يقدم وتـارة يحجم، واتفق أنه أحضر اختيار الدين المقـدم ذكره، وطيّب نفسه وفاوضه وقـال لـه:«كيـف نعمـل بجلال الـديـن»؟قال:«إذا أذن للمملـوك قـال ماعنـده»،ثم تركه وأحضر مـن كان عنده من أسراه مـن الخوارزميين يقال له جُتر خان وأعطـاه أماناً وقال:« تمضي إلى جـلال الدين تعرّفـه إحساننا إلى من عندنـا منكم من الأسرى ومالكـم من راتب ونفقة وحـرْمَة ليفعل مع من لنـا عنده كذلك» فسـار إليه واجتمع به فطلـب الخوارزمي رسولاً من الأشرف ليحـادثه، فلما عـاد جتَرخان وذكر قـوله وطلبـه، قال الأشرف لجُتَرخان:«مـاعندنـا مثلك وأنـت أميننا ونسمـع ماتقـوله». فلما عـاد إليه وعرّفـه، قال له:«تقـول للأشرف ياخوانـد، أنا ماأسـأت أولاً، ولاشك أني سيّرت المجير قاضي الممالك إليكم فما أحسن السفـارة، وأفسد بيننا، ومع هذا فقـد كنت طلبـت المسالمة مـا أجبتم إليهـا، ودخل الحاجـب بلادي وخرّبها وأخذ حرمـي، وفعل ماقد علمتموه. وطلبت الصلـح مافعل، ثم ولي بعده أبيـك طلب الصلح مافعـل وجرى ماجرى بقـدر الله وقضائه وعندي الآن ملوك وعندكم مماليـك، فإن اخترتـم الصلح بسم الله». فكان جواب الأشرف لجترخان بـ«أن تخدم عني المولى السلطـان وتقل: ياخواند أنت سلطـان وابن سلطان ومـاأردنا لك سُـوءاً وقد بالغـت فيما فعلته في بلادنـا من خـراب ونهب وقتل، والـذي كان قصـد بلادك، كما زعمـت؛ فقد قابلناه على فعلـه، وأنت فما أبقيت في سوء المعاملة وإراقتـك الدماء فبلادنـا قد خربت فصلحنـا على أي شيء يكون، فإن أردت ذلك فـانزل عـن هذه البـلاد التي مـاكانـت لـك ولا لأبيك، لنعمـر نحن بـالعامـر الخراب. ونحـن فما اشتهينـا نتمـم أذيتك، لأن خلفـك أعـداء كثيريـن، وأنت أبتر، فهـذا موجـب إبقائنا عليـك رحمة. وأما قـولك: عنـدك ملوك وعندنامماليك،فالذي عندك مماليك أيضاً. وأخي مجير الدين أقدّر أنه قد

مات، ولي عـدة إخوة وأولادهـم جماعة، وأهلي مـايناهـز ألفي فـارس من بيتنا، ولي مـن يكفلني ويخلفني ويكفيني ماورائي، وأنت فمالـك أحد». وسيّر جُترخان إليه في الجواب، وكان خواجاجهان نازلاً بمنوشهر (٥٤) .

فيها: كما تقـدم كان وصـل الكمال بن مهـاجر وصحبتـه تقي الـدين. وحكى أن زوجـة الخوارزمي، التـي كانت عنـد الخليفة، كـان قد جهـزها إليـه قبـل الكسرة، وأعطـاهـا عطاء لم يُسمـع بمثلـه، وسلمهـا إلى رسـل الخوارزمي الواصلين إليـه بسببها، بعد أن توثـق لها منه غاية التـوثق، فلما وصلوا إلى إربـل، سمعت بكسرة الخوارزمي، فقـالت:«مابقيـت أروح من هـاهنـا، إلى أيـن». فجهـدوا بها، فأبـت. فقـال صـاحـب إربـل لغلمان الخوارزمـي:«تـروحـون مـن عنـدي، وإلا إن طلبكـم الأشرف مـاأقـدر أحميكـم». ثـم نفاهـم مـن عنـده، وعـادت زوجة الخوارزمـي إلى العـراق أقامت به.

وفيهـا: طلب المظفـر غازي مـن الأشرف أرزن، فأنعـم عليه بـأخذهـا ورسـم بتوقيعهـا، ووصـل قـاضي أرزن ابن الشهـرزوري العماد بهديـة إلى الأشرف وتهنئة بـالكسرة، ويعتذر بمـرضه عـن تخلفه، فقبـل هديتـه وقال لـه:«حديثكـم مع أخـي المظفر، إن رضي فـلا أي كلام» فلما تـوجه هـذا القاضي المذكـور إلى المظفـــــر اعتقله يـومين ثم قال لـه:«هذه أرزن لي مابقي فيها كلام، والمصلحة تسليمها إليّ، ونعطيـه مايتبلغ به بقية عمره». وزوجة صـاحب أرزن ابنة الأوحد بـن العادل فما رعيت في ذلـك، ثـم إن المظفر سيّر إليهـا حاصرها، ونصب مجانيـق عليها، وسير الأشرف الجمال الكاتب إلى صاحبها فما أجابه، فلما تواتـر الحصار وعاين أخذها وعجزه، قال صـاحبها:«ماأسلمهـا إلا إلى الأشرف، وثوقاً بـأنه ربما أبقاهـا لبيته وكبره ولأخته ولخدماته، حتى إنه أسر بخـلاط ومشى مدّة مع كبره راجلاً في ركاب الخوارزمي.

وفيها: سيّر الأشرف شمس الـدين التكريتي إلى الكـرج وإلى صاحب الدَّربنـد شروان. فقال له شروان:«تعرّف صـاحبك أنه كان عنـدي جماعة مـن الخوارزمي ليتنـاولوا مـن مُغل بـلادي الثلث فقتلتهـم جميعهم، وقـد سيَّرت إلى الكرج أيضاً استنجدتهم، والخوارزمي فقد تـوجه إلى توزير بعد أن كان قـد جمع واستخدم زيادة على مـن عنده ألف فـارس، ولاشك في خوفه من التتر، والتتر قد خرجوا عليه، فتعرّفه ذلك.

وفيها:وصل ابن صاحب سُرّمَارَي الأصيلي وتلقاه الحافظ وكريم الدين وقابيا.

وفيها: قبض الأشرف على حسـام الدين خضر وابنه صـاحب سُرّمَارَي المقدم ذكـره، لأنه كان قد أسـاء كثيراً عند تمليك الخوارزمي وإعطـائه له أرجيش، وحمله بعد ذلك إلى دمشق.

وفيها: بـأرجيش أيضـاً وصل كتـاب إيواني ملـك الكرج، حمو الأشرف مضمونـه:« إن كتاب الخوارزمـي قد وصلنـي ابتداء لاجـواباً، وقـد سيرته على مافيه. وعلى رأس الكتاب ترجمته:

داعيـه مَنْكبرتي بن السلطـان محمـد بـن السلطان سنجـر. وإنما ابنتـي تبعث تقـول لي:«دار الخوارزمي لأجلي» وكـان قد بعـث إيواني هـذا سيفاً لـلأشرف صحبة الكتـاب، لأن عـادة الكرج إذا ظفـر جـارهم سيروا لـه سيفاً. وقال:«قد عرفتك صورة الحال، وأنا على ماتعهده من المعاهدة».

وفيها:شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في عمارة قلعة ببلد سلمية، كـانت قديمة على رأس جبـل يعرف بشُمَيميس، وما طـاب ذلك لصاحب حماة، واجتهـد في إبطالها ظاهراً وباطناً، فجمـع السلطان الملك المجاهد غلمانـه وأصحابه وعسكره ورعيتـه وجماعة من العربـان، وكان قد

حصل جميع الآلات، وشرع فيها جملة واحدة بنفسه وأولاده أيضاً ماخلا الملك المنصور ولي عهده، لأنه كان بأرجيش بعسكره، وأدارها بالعمارة وتسوير سورها في سبعة أيام، بحيث إنها صارت تمنع من يقصدها، ودار الحرس عليها تلك المدة، ثم بعد ذلك كمل عمارتها كما ينبغي؛ ورتب الولاة والأجناد وحمل إليها الذخائر في تلك السنة وسماها ماردين الشام، وهي كذلك لأنها في غاية المنعة والحصانة وحفر فيها عدة آبار، وعمل عدة صهاريج وملأها ماء، وخرّب برجاً كان قد عمل في سلمية قديماً في وسط البلد، وكان قد خرّبه الملك المنصور بن تقي الدين رحمه الله قديماً، فلما صارت سلمية لولده المظفر بأمر السلطان الكامل أعاد عمارته، كما كان أولاً، فنظر الملك المجاهد في أمره فخرّبه ونقل حجارته وآلته إلى قلعة شُمَيميس، وقد كانت انتقلت من المظفر المذكور بأمر الكامل إلى الملك المجاهد، فعمرّها وحصنها، وكم له من عمارات حميدة، وآثارات سديدة. وكذلك عّمر قلعة حمص ورفعها عما كانت عليه، وحصنها وعمق القنوات وأجرى الماء في المدينة وعمل البساتين، وتجرفت المياه في جميع أرضها الغربية، وزرع الأرز عليها وغير ذلك، وأطاعه العاصي، وهذا لم يقدر عليه سواه من الملوك الذين تملّكوا حمص. وكذلك عمَّر قلعة الرحبة كما تقدم، وكذلك أنشأ قلعة بتدمر على جبل عال منيع حصين، وخرّب برجها الذي كان في المدينة. كل هذا خوفاً على الرعايا، وجدّد بحمص بيمارستاناً عظيماً، ورتب فيه مايحتاج إليه. وأوقف عليه وقوفاً، ولم يكن قبل ذلك. وعمّر مدرسة جميلة غير المدرسة النورية أولاً. وهذا وكم له من اصطناع وصدقة ومعروف وبرّ لاسيما إلى من يقصده، وكم له من واقعة مع الفرنج صارت تواريخ، وكذلك مع العربان السرايا وغيرهم، وأبداً يسترد منهم الغنائم ويطاردهم هو وأولاده في البرية اليومين والثلاثة.

وفيها: بأرجيش كان خواجاجهان قد طلب من يصل إليه يحدّثه فيما

يتفق بينهم، واتفق الأمر على أن المظفر غازي يسيّر إليه من عنده رسولاً فعاد المذكور من عند خواجاجهان وصحبته رسول من عنده، واتفق وصول هذا الرسول بكرة نهار عيد النحر، فأمر الأشرف العساكر والملوك وعسكر الرومي أن يلبسوا ويتجملوا، وأن يدخل بين يديه جميع الأكابر في الحلقة، وأن يحضروا رسول خواجاجهان لاعن قصد وترتيب، يتفرج عند وصوله برانية من الطريق؛ فحضر وأوقف بمعزل بمن معه ورأى العالم وكثرته وحسن ترتيبه، ثم حمل إلى مخيم المظفر، ونزل بخيمة لُبَّاد، كان قدَّمها له الملك المعظم صاحب الجزيرة، وحضر الناس الخوان، ثم انصرفوا وفي غد العيد أحضر رسول خواجاجهان عند الأشرف، وسمع رسالته وإخوة الأشرف كلهم قيام في الخدمة، وأكابر الأمراء تعظيماً لحاله، وصرف الرسول بعد ذلك، واجتمع آراء السلاطين على الجواب، وسيروا به الحكيم سعد الدين بن الموفق الدمشقي طبيب الأشرف الدمشقي لأنه يعرف بالعجمي، وسار إليه.

وفيها: في عشرين ذي الحجة بأرجيش قبض الملك الحافظ على كاتبه محمد بن على بن نظيف الحموي، وأخذ جميع مايملكه من مماليك ودواب وذهب وقماش ورخت وغيره، وحمله إلى قلعة جعبر ليلاً، وذلك لكثرة سكره. وكان سبب ذلك أنه طلب أحد مماليكه فما امتنع عليه. وقيل له غير مابذله من نفسه في ذلك القبول، ووقع النشب به، فلما أفاق من سكرته، ندم، ومابقي يمكن إلا الإتمام لما فعله.وكان هذا كله بعد أن خلع عليه خلعة العيد، وأخوه أيضاً.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة

فيها انتقل الأشرف إلى خلاط ليرتب أحوالها وينتظر رسول

الخوارزمي، فوصل الرسول صحبة الحكيم سعد الدين وحلّف الأشرف في البلد. ثم بعد ذلك أطلعه القلعة وشرب معه وأنعم عليه وأعاده. ورتب الأشرف مماليكه والعسكر والديوان بها، وكان قد نقم على حسام الدين القيمري، وفتح الدين بن دلدرم الياروقي، ففارقاه وخدما لصاحب آمد، ثم توجه الأشرف إلى أرزن فتسلّمها، وسلّمها إلى المظفر وأعطى دستوراً للعساكر، وسار صحبته الحافظ وصاحب الجزيرة ووزراؤه، وفارقه السلطان الملك المنصور إلى الرحبة، لأن والده السلطان الملك المجاهد كان قد وصل إليها، فأقام الأشرف بدارا يومين ثلاثه، ثم انتقل إلى نصيبين وبقي كذلك، ثم توجه إلى سنجار وبقي مدة يفرّج بها صاحب الجزيرة وقال له:«تجيء إلى دمشق فتفرج فيها أياماً» فما أمكنه مخالفته، فسار معه، فلما وصل إلى قرقيسيا بلغه أن السلطان الملك المجاهد وقع في الصيد عن فرسه، فساق إليه جريدة افتقده، فأطلعه إلى قلعة الرحبة وقدّم له كما جرت العادة، واستحسن القلعة وشكرها كثيراً، ثم سار إلى دمشق، وفارقه أخوه الحافظ إلى قلعته، فأقام الأشرف أياماً يسيرة بدمشق، ثم توجه، وبقي الملك المعظم مقيماً بدمشق يتفرج، إلى أن سيّر إليه استدعاه للطلوع إلى مصر، فسارا إليها، فتلقاهما السلطان الملك الكامل، وضاعف احترام صاحب الجزيرة وأعطاه عطاء كثيراً، ثم تركه والأشرف، وسار إلى الاسكندرية، ثم عاد وفرّج صاحب الجزيرة في دمياط وغيرها.

وفيها: شفع صاحب الجزيرة بمصنف هذا التاريخ محمد بن علي بن نظيف إلى الأشرف بمكاتبته إلى مخدومه الحافظ بإطلاقه، فكتب الأشرف في ذلك، وأمر الحافظ بإعادة جميع ما أخذ له عن آخره، وأن يحسب جميع ماله ولمماليكه من حين قبض وإلى حين الإفراج عنه، ويعطاه جملة ويضاعف حرمته وماكان له،«ولاتمكنه من المفارقة لنصل ونحسن إليه» فقبل شفاعته وأطلقه بعد تحليفه ألا يفارق خدمته. وجميع ماردّ عليه من

جميع ماأخذه له: مملوكان كبيران لاغير، وأربعة دوابّ. وكان كل وقت يمنّيه ويعده، فأطال عليه وخاف من غدره، فتسحَّب ليلاً إلى الرحبة من قلعة جعبر، فوجد المولى السلطان الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم ولي عهد والده فيها، فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة جميلة، وحمل له جميع مايحتاجه، ورتّب له بعد ذلك راتباً معتبراً من طعام وحلاوة وشمع وقصيم دواب، ثم كاتب السلطان المجاهد به، فوصل كتابه إلى الولاة بتقرير راتب كفايته وزيادة، وأطلق له أشياء، وبسط أمله وأمره بالمقام فيها، إلى حين وصوله فبقي في خدمة السلطان الملك المنصور في أحسن كرامة إلى أن استدعيا إلى حمص. فتلقى ولده السلطان الملك المجاهد إلى سلمية، ولقيه المذكور، فبسط أمله وأحسن إليه، وأطلق له جملة، ورتب راتبه الذي كان له بالرحبة، وأطلقوا له أولاده كلهم على طبقاتهم، وأحسنوا في حقه إحساناً كثيراً. ونقل بيته إلى تحت ظله بحمص، ورتب جامكية تكفيه وزيادة مع الإحسان المتتابع أولاً وآخراً. وكم له مثل هذا مع من يقصده.

عدنا إلى حديث الأشرف بمصر وصاحب الجزيرة، وهم في ضمن لذتهم دخل التتر إلى البلاد، فلما تحقق الخوارزمي قَصْدَ التتر له أطلق مجير الدين بن الملك العادل الذي كان في إساره ومملوك الأشرف بكتمر الأحول، وسيّر صحبتهما رسولين من عنده، وقال له:«نفسك لك.فتعرّف أخاك الأشرف بالتتر، فما هم قليل، وهم أعداء الدين» فوصل مجير الدين وتلقاه صاحب ماردين وأحسن إليه، ثم تلقاه الحافظ إلى قرب حرّان وحمله إلى قلعته، وضاعف إليه الإحسان وإلى الأمراء الخوارزمية، ثم سار بهم قاصداً الأشرف، فأقام بدمشق أياماً، ثم طلع إلى مصر هو وأخوه تقي الدين عباس فأحسن السلطان الكامل إليهما، وأما الخوارزمي فإنه تسحّب بمن كان معه إلى آمد من خوفه من التتر، فقصد آمد وقال لصاحبها:«مانكلفك نجدة ولا إقامة، بل إن تبعنا التتر واحتجنا تكن

آمد ظهرنا» قال:« نعم وكرامة» فلما وصل التتر وأغاروا على الخوارزمي وكبسوه ليلاً، ومعه الآمدي في عدة له يحمل أثقاله وقماشه، وسار خائفاً، وتفرقت أصحابه في تلك الخطةلايهتدون على مسير. أما الخوارزمي فإنه ماعلم أي جهة أخذ وقالوا:«قتل»وقالوا:«لابل في الحياة» وتسحب خاله ومعه جماعة إلى المظفر غازي والباقون تشعبوا في الجبال لاسيما جبل ليسون. وزوجة الخوارزمي وسراريه وخدامه وقطعة كبيرة من عسكره، طلبوا أماناً من صواب. فأمّنهم ثم غدر بهم، فنهبهم هو وعسكره، وأخذوا أموالهم، وأحيط بزوجته في قلعة حرّان، وبعد ذلك استدعيت إلى دمشق أقامت بها.

وأما التتر فإنهم قصدوا الجهة التي قصدها الخوارزمي ودخلوا الجزيرة ونهبوا وقتلوا وسبوا وعاثوا في البلاد، وبلغت غوّارتهم إلى الجبال بسنجار، وقاتلوا نصيبين، وجرى لهم بسعرد من القتال والقتل والغدر ماتجاوز الحد. ومايعلم مقدار من قتلوه منها ومانهبوه، وكذلك دنيسر قتلوا أهلها وسبوهم وأحرقوا الجامع وكان قد احتمى به جماعة فحرقوهم في الجملة، وعادوا عن حمية إلى مواضعهم، وماوجدوا في الجزيرة من رد ثَمَّ لهم نشاباً، وقد ذكر أن هؤلاء الغوارة مابلغوا ألف فارس، وفعلوا في البلاد مافعلوه وأخافوا الناس وارتحلوا من الجزيرة إلى الشام، وجلا أهل رأس عين الخابور وغيرهم ودُرِّبَت دروب أكثر البلاد وامتنعوا من فتحها وكل هذا والأشرف وصاحب الجزيرة عند السلطان الكامل بمصر.

وفيها: قفزت الباطنية على أحد رسولين جاءا من الخوارزمي، أحدهما يقال له المخلص، قتلوه بدمشق، وكان له أموال، فأخذ الجميع الملك الصالح، وقالوا: إن الباطنية كان بينهم وبين والد المخلص عداوة أوجبت مافعلوه. واتفق وصول رسل التتر، واجتمع بهم السلطان الملك المجاهد بحمص، ووصلوا إلى دمشق، فخاف عز الدين بلبان الرسول

الآخر من الخوارزمي على نفسه، فهرب بجماعة معه، وتسحب إلى شاطىء فرات الرحبة، فنزل عند عرب غدروا[به] وأخذوا ماكان معه. وكان معه جماعة قطعوا الفرات وبقي هو، وسيّر الصالح بن العادل خلفه، فقبض بوالي قرقيسيا وكان السلطان الملك المنصور في الرحبة إذ ذاك، فأحسن إليه، وجُهّز إلى دمشق من الرحبة.

وفيها: وصل رسول الخليفة إلى الديار المصرية بالخلع والتقليد، بقي مدة لم يجتمع بالسلطان الكامل، وكان الغرض من تأخيره ماقد استوفيناه في تاريخنا الكبير، ثم بعد ذلك وصل السلطان الملك الكامل في البحر، وخلع عليه وقلد تقليداً لم يقلد به غيره من سائر الملوك من بيت العباس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة له والقول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصالح، ولمن عينوه، وخلعة للوزير. فقال:«مالي وزير» قيل:«هذه عادتنا معكم» فبقي أياماً. ثم أعطاها لكاتبه الفخر سليمان بن الخباز ا لدمشقي؛ لأن أباه كان خبازاً بها مشهوراً.

وفيها: خرج الملك العزيز صاحب حلب ودار في جميع بلاده، وذلك أول خروجه إلى البلاد.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها كثر الإرجاف بعود التتر إلى الجزيرة، بعد أخذهم كنجة وقتل كل من فيها، لأنهم كانوا قد تديّروا موغان وبها شتّوا، وصاروا يغيرون ويعودون إليها، واهتم الخليفة اهتماماً عظيماً، وكثرت رسله إلى الكامل والأشرف في نزولهم الشام، واستخدم الخليفة عرباناً كثيرة وغيرهم من أجناد، وبذل الأموال، وبقي في نفسه فعل التتر في بلاد الجزيرة.

ثم إن التتر عادوا إلى الجزيرة طمعاً بأهلها، فنهبوا أيضاً وقتلوا وسبوا ووصلوا إلى جسر بدّايا، ودخل بعضهم عليه، وأخافوا كل البلاد من قوتّهم وإقدامهم وتسحّبوا من بين أيديهم. فنزل الأشرف إلى الشام، وصحبته صاحب الجزيرة، وقد وعده السلطان الكامل بلحاقه، وتقدم الكاملَ نزول العساكر المصرية إلى الشام، وتجهّزوا وقدم عليهم فخر الدين عثمان أستاذ داره، فلما وصل الأشرف تلقاه إخوته والسلطان الملك المجاهد وأولاده، ووصل الملك المظفر صاحب حماة للقاء الكامل، فلما وصل الأشرف قدم له الملك المجاهد تقدمة حسنة على يد الأمير صفي الدين سودان، وفارق صاحب الجزيرة الأشرف عائداً إلى بلاده، وتحمل للبيكار. ونزل الكامل في هذا الشهر إلى الشوبك، أقام به مدة،ثم وصل إلى دمشق وتلقاه الناس، وأمر المظفر بأخذ ابنته والدخول بها في دمشق، ففعل ذلك. ووصلت ابنته أيضاً زوجة صاحب حلب الملك العزيز، وسار معها قاضي العسكر المصري وفخر الدين البانياسي، وتلقاه عسكر حلب مع بعض أهلها إلى حماة فكان عرساً عظيماً.

وفيها: استبد الملك العزيز صاحب حلب برأيه، ورفع أتابك شهاب الدين يده ولسانه، فقطع العزيز جماعة أمراء وأخذ أخبازهم.

وفيها:صالح صاحب الروم الأشكري، وأخذ أموالاً كثيرة من بلاده بسبب خروج التتر.

ووصل عسكر الكامل، وفي مقدمته ولده الملك الصالح، وكان فوّض ولاية العهد عند نزوله من مصر إلى ابنه الصغير الملك العادل، ورتب وزيره المعين ابن شيخ ا لشيوخ، ثم صارت العساكر تتبع بعضها بعضاً أولاً فأولاً، فأخذ الملك المجاهد دستوراً وتقدم إلى حمص لإتمام أشغاله. ووصل الكامل إلى سلمية. وحمل له من الإقامات حاجاته، وكذلك حمل إلى سائر الملوك. ثم سار وعيّد في الطريق، ووصل حرّان ونزل بها، ووصل عسكر حلب. هذا والتتر قد أحاطوا بقلعة خلاط ولم يبق إلا تسليمها، فرحلوا عنها يداً واحدة خوفاً من السلطان، ونزل من كان بها مثل شيرون سبع مجانين أحد الأمراء الأشرفية وقال:«لو صبروا يومين ثلاثة أخذوها، وإنما فرّج الله عنا ببركات السلطان».

وفيها:سيّر الملك الكامل عماد الدين[ابن] شيخ الشيوخ إلى الخليفة من حرّان.

وفيها: وصل مملوك فخر الدين ابن شيخ الشيوخ من مكة يخبر أن صاحبه أخذ مكة واستحلفها،فما أعجبه وقال:«نحن أمرناه بأن يصل اليَنبُع لاغير، مَن أمره بأخذ مكة؟» فما طاب له ذلك.

وفيها: بحرّان كتبوا مهر ابن سلطان الروم الذي من ابنة العادل على ابنة الأشرف.

وفيها: وصل الخبر بوصول ابن الجوزي من الخليفة، فاهتموا بلقائه. وكان الأشرف غير طيب القلب لصاحب آمد، وقد نزل الكامل على

قصده، وكان قد سير الآمدي وزيره شرف العلاء إلى الملك الكامل بتقدمة، وإلى الأشرف، فقبلها الكامل ولم يقبلها الأشرف، وضبطوا شرف العلاء عندهم بحرّان مدة مقامهم، وصاروا يهتمون بقصد آمد، وشرف العلاء يمغلط مخدومه ومايصدقه ذلك. والآمدي يواصل بالهدايا ولايحترز لنفسه، ووصل إليه رسول الرومي وطيب قلبه وقال:«لاتخف أنا أصل إليك بنفسي» فلما كان قويت عزيمتهم على قصد آمد، فسار السلطان الكامل إلى الرُّها، وأمر العساكر بالرحيل أولاً فأولاً على تعبئتها ميمنة وميسرة وقلباً. ثم أمر بتلقي رسول الخليفة ابن الجوزي، وإتيانة إلى أي موضع كان به، وهذا وقع إهانة له، فلم يجتمع به إلا على السويداء على السماط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له، وتسحب على السويداء، رحل طالباً آمد، فحينئذ تحقق الآمدي القصد له. فرتب بلده كما جرت العادة من غير أجناد ولارجّالة ولا من هو طيب قلب منه، ووصل رسوله إلى السلطان الملك المجاهد ليعمل نوبته مع السلطان الكامل، ولم يبذل إلا ذهباً، ولاطلب بعض البلاد ولا نزل عن شيء، ولوكان طلب ذلك لهان، ولم يزل في قلة عقله، إلى أن إحتاطت العساكر بها من كل مكان، وحمل شرف العلاء إلى الرها تحت الحوطة، فلما نزل عليها جاءت تقدمة المارديني ورسله، ثم وصل من عسكره ألف فارس كما ينبغي، وبذل من نفسه أشياء، وسيّر دسوس خيم معتبرة من أكسية مغربية ولباد للسلطان والأشرف والملك المجاهد والناصر بدمشق.

ثم شرع الأشرف في عمل آلات الحصار والزحف وكذلك الكامل والملك المجاهد وكل الملوك، وشرعوا في عمارة آدر للكامل والأشرف،

وفيما هم في مثل ذلك، وقع عزم السلطان الكامل على الزحف؛ ورتبوا المجانيق واتفق الزحف عليها من كل جانب بعد صلاة الظهر إلى قبل العصر، فأخذت النقّابون النقوب في الباشورة، وكشف الرماة الأسوار

بنشاب أكثر من المطر، بحيث دخل معظمه في أحجار السور، ثم شرعوا في نقب السور الكبير، فطلب أهل البلد الأمان واستغاثوا فوقعت الرحمة لهم من الكامل ومن سائر الملوك والناس، فأمنهم وطلب صاحبها الأمان فلم يجبه، ثم بعد ذلك سأل الأمان ليلاً بصاحب حماة المظفر، وشمس الدين صواب على نفسه، فأجابه إلى ذلك وأعطاه منديله. وكان الناس قد هجموا البلد، ونهبوا معظمه، فخرج المسعود صاحب آمد، ومنديل السلطان الكامل في رقبته، ومعه صاحب حماة وصواب، ووصل إلى عند الكامل فأمكنه من النزول، وتلقاه وأنزله عنده أ ولاً، وصارت الملوك يسلمون عليه عنده، ثم نقله بعد ذلك إلى الخيمة، التي كان سيّرها الماردیني للكامل بدهليزها وبيوتها وكان عنده شهاب الدين أحمد، ثم انتقل الكامل إلى البلد، ونزل في آدرها، وكذلك الأشرف وأخلى الملك المجاهد البيمارستان، والناصر والعزيز ودخل البلد من قدر على دخوله، ورتّب لصاحب آمد في الخيم مطبخه، لم يغيره ولا منع منه بعض غلمانه وجمداريته وأمير جانداره وفرس النوبة في الكرد آخُر، كما جرت عادته، وكتب به خطه وأعطى السلطان أوراقاً بعلائم قلاعه جميعها بالتسليم، ماخلا حصن كيفا فإنه قال: «ماهو لي ولا في حكمي، ولايقبل شيء في أمره» ثم بعد ذلك سيّر الكامل إلى القلاع وتسلم بعضها، وخطر له أنه يخرب معظمها ووصل أولاد صاحب ماردين إلى الخدمة، ولي عهده وأخوه، للتهنئة، فتلقاهم وأكرمهم، وأنزلهم عنده في تلك الآدر، ثم نقل الملك المسعود صاحبها إلى البلد وأنزله في طيارته التي يحبها، و[رتب] الجاووش والجاندارية والسنجق والدوشاخ (٥٥) والجمدارية كعادته. وبالغ في إكرامه، وصار له من الراتب جملة، وأطلق له جميع ذخائر القلعة، وكان فيها جملة، فحملها إلى بيته بالقصر، وأباع

نوابه جملة، وكان نازلاً في القلعة صاحب الجزيرة وصاحب حماة، ثم سير الكامل حجّارين إلى قلعة الجبابرة (٥٦) خرّبها ، وإلى أكِلّ خرّبها، واتفق

أن صاحب [الـروم]أفسد عليه قلعة كـركر، وعصت بعد أن كـان قد سيّر إليهـا مثقـال الجمـدار وابـن قيسـوم يتسلمانها، فعصـت فطلبـا[٥٧] مـن الأشرف أن يسير إليهـم مـن عنـده إلى نـائب صـاحـب الـروم بحكـم الصداقـة، فسير إلى صاحـب السويداء مـرتين، فما قبلوا منـه، وقيل: إن الرومي شراها بألفي ألـف درهم وخمسين ألف درهم. فعادوا أشاروا على السلطان الكـامل ترك بـاقي القلاع ولايخربها فتركهـا وندم على ماخـرّبه، وصـار الكامـل يشرب عند صـاحب آمـد، ويـوعده منـه إليه بكـل خير ويطيب قلبـه، وسير الصلاح الإربلي والبانيـاسي بألف فـارس إلى حصن كيفا وفـاوضهم ووعدهـم بأشيـاء يبقيها عليهم، فلـم يقبلوا، وأصروا على العصيـان، ثم سيّر صـاحب آمـد أمـه صحبة قـاضي العسكر الحسنـي، شتموهـا وما أجابـوها، وعاد قـاضي العسكر مريضـاً، وصار كلما لجّوا في العصيان، حنق الأشرف والكامل، فـاقتضت الحال التضييق على صاحب آمد والإهـانة لـه وعصره، ففعلوا به ذلـك، وعصروه وقيدوه. وهـم في هذا وصل محيي الـدين بن الجوزي من الخليفـة يهنىء بآمد ويشفـع لصاحب الموصل وإربل، فقبل الشفاعـة وحلف لهم، وطلب أبو فراس أمير الحاج العراقـي دستوراً إلى بغداد وقـال:«أريد تظهـر آثار نعمة مـولانا عليّ في العـراق» وكان قبـل ذلـك قـد عاد والـده إلى العـراق. وسلـم إليه جميـع أملاكه، فوعـده الكامل عند عوده إلى الشام يعطيـه دستوراً، وتجهز رسول الخليفة عائداً إلى بغداد والشيخ عماد الدين ببغداد مريض.

ثم إن السلطـان الكامل حنق على الـرومي لأشياء منهـا منعه التركمان من الوصـول بغنم أو غلّة ، وقضية كركـر وكرفازاك، وكان قـد عصى مع حصـن كيفا عـدة قـلاع مثـل الجديدة، والقـرشيـة، وقلعـة نجم والهيثـم وباتـاسا وغير ذلك. قـالوا:«خذوا الحصـن ونجم تسلم مـن غير قتال» فـاتفق الحال على الـرحيل عـن آمد بعـد أن رتّـب الملك الصـالح فيهـا

وصواب وتعيين من عينّه من العساكر فيها والذين يستخدمونه عليها، ويتوجه الملك الأشرف بنفسه إلى الحصن يفاوضهم، فإن سلموا فلا كلام، وإلا تركوا عسكراً ورجالة إلى الربيع. وأعطى السلطان لعسكر ماردين دستوراً قبل باقي العساكر، واتفق أن السلطان الملك المجاهد يرحل أيضاً، أما الأشرف فإنه قطع الشط سائراً إلى الحصن، وبعده إلى سنجار يشتي بها ويعود إلى الحصن، وبات عنده السلطان الكامل، وودّعه ليلة مسيره، وفي بكرة تلك [الليلة] تبعه الملك المجاهُد ودّعه، وكان قد سار هو والمظفر والحافظ وابن المغيث إلى الحصن، فلما عاد الملك المجاهد حمل ماينـاهز مائة خلعة معتبرة لأصحاب السلطان الكامل بعد إذنه له على يد بهاء الدين مروان بن قابيا، وحملها وودَّع الكامل إلى رأس عين الخابور، ومنها قصد الرحبة وأعطى دستوءاً بعد أن أطلق لهم وأحسن إليهم وسار هو وجميع أولاده إلى الرحبة. وأما السلطان الكامل فإنه كان قد قدم عليه القاضي شهاب الدين قاضي الرقة، فأحسن إليه غاية الإحسان وفاوضه في أحوال الرقة وظلم الجواد لأهلها، وأنه مابقى فيها خمسمائة نفر، فرفع يد الجواد منها وسلمها إليه، وكتب له توقيعاً بإعادة من كان نزح منها، وفاوضه في كمال الدين بن شيخ الشيوخ، وذكر أنه قد عزله لما قيل عنه من ظلم وجهل بالعمل وأخذ الأموال وغيرها، والله المطلع على صحة ذلك وسقمه. ثم سار الكامل وترك الملك الصالح مريضاً، ورتب عنده أطباء وسار إلى السويداء أبصرها، وتلقاه كمال الدين إليها بالإقامات كما جرت العادة، ثم قصد الرها نظر في أحوالها وولّى وعزل ورتب، ثم وصل حران، فقبض على كمال الدين ووكل عليه، ثم نقل بيته إلى الرها، ونقله هو إلى قلعة حران. وقبض وكيل بيت المال النجم الفقيه المغربي، أخذ منه أموالاً وقبض على السامري الذي كان أسلم على يد الملك الأشرف وأخذ منه عشرة آلاف درهم، ثم قطع يده، ثم من الجمال بن الصلاح شيخ الخوانك ومشهد الذّهبْاني، وأخذ منه ستة آلاف درهم، وغير هؤلاء، كل هذا

بسبب كمال الدين. وولى البلاد لتاج الدين بن شكر والتقي بن حمدان مستوفي البلاد.

ومات في هذه السنة فخر الدين عثمان أستاذ الدار بحران بعد مرض طويل.

ومات النجم بن الحمصي مشدّ الديوان بمصر كان ثم بآمد عند فتحها.

وابن الشها ب أحمد.

ومات والي الإسكندرية.

ومات ابن الملك المغيث بن العادل ونقل إلى دمشق.

ومات خلائق أُخر على آمد.

ومات شمس الملوك ابن ابن صلاح الدين، كان الكامل ربّاه، يحبه ويثق به.

ولما دخلت سنة ثلاثين وستمائة

كان السلطان الملك الكامل قد رتب ولده ا لصالح بها كما قد تقدم ذكر هذا، وأما الأشرف فإنه سار إلى حصن كيفا بمن ذكرناهم وتبعه الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد (٥٨) مقيداً، فلما حضر عندهم تحت الحصن قال لهم:«سلّموه إلى نواب السلطان الملك الكامل، فقد والله أحسن إلي غاية الإحسان، ووعدني وعوداً جميلة، فلا تحرموني إياها

وبقية إحسانه» فقالوا له:«أنت أحلفتنا لك ولولدك، أحضر لنا فُتْيا بأن ماتلزمنا اليمين» فأحضر لهم فتيا، فما قبلوا وهم أربعة ولاة، وأركبوا ولده في الحصن، ورفعوا السنجق على رأسه، وسلطنوه ومشوا في ركابه، ثم اختلفوا على التسليم وعدم التسليم، وفتحوا الخزانة، وأخذوا باطية ذهب من ستين ألف دينار مصرية، قطعوا منها قطعاً وتقاسموها بأمر أمّ ولده. واتفق نزول واحد من الحصن حضر عند الأشرف فأعطاه عطاء كثيراً وخلع عليه خلعة عظيمة، فسار تحت الحصن ورأوها عليه فرمى الناس أنفسهم من الحصن، وعلقوا الملك المسعود فقام قبالتهم، فأجابوا إلى التسليم وحثوا الأشرف على جمع ما للمسعود فيها من أموال وعيال وأن يرتبهم على أخبازهم، ففعل وحلفوا هم، وفتحوا الحصن وأنزلوا جميع أصاحبهم وطلع الأشرف إليها دارها. ومابات بها ليلة، وتسلمها صواب، وكذلك بقية الحصون وولّوا فيها كما جرت العادة. ووصلت كتب الأشرف إلى السلطان الكامل بذلك، فتوقف إلى أن وصل الأشرف، وطلع هو وهو إلى دمشق، فأقام يُوَيمات، ثم سار إلى مصر.

وكان قد وصل رسول من الفرنج يقال له سير ريمون على يده طير يقال سنقر قال: إنه شراه من داخل البحر بثلاثمائة أوقية ذهب بأمر الكامل، والعهدة عليه في قوله. وخبرَّ أن كسرة الأمبرطور كانت صحيحة، غير أنه مابالى بها، وأنه قوي على البابا وغيره. والبابا في طلب مراضيه.

ثم وصل الصلاح الإربلي وصحبته صاحب آمد، أقام بدمشق أياماً، وشرى الآمدي فيها داراً وبستاناً وأباع بقية تيك الباطية، وقال صاحب آمد:«والله إن السيف الآمدي رجل عالم، كان قد عزم على الوصول إلينا» فلما سار عن دمشق، عزل الأشرف السيف الآمدي و أمر بخروجه من دمشق فشفع في حقه، فبقي فيها معزولاً وسكن المزة لايدخل البلد.

وفيها: كان مانـع بن حديثة قد خاف على نفسه مـن الكامل وتسحب إلى العراق وعمل معه الخليفة من المكارمة مالا عمله مع غيره.

وفيها:كان السلطان الكـامل قد أمر الملك المظفر صـاحب حماة بأخذ بارين وهـم في آمد، فلما وصل إلى حماة اتفق نحس صاحبهـا الناصروسوء مخيلته وبخله، نفـر من سائر جماعته ونفـروا منه، وانقضوا كلهم عليـه مع أخيه المظفـر وعملوا العملة ثـم سيروا إلى المظفر فحضر ليلاً ومـا أصبح الصبـح إلا وهو محاصرهـا، ونصـب المجـانيق عليهـا، ورتـب الـرجالـة، وراسله المظفر بـالتسليم، فأبى وعصى تسعـة أيام ثم لما عايـن الظَّفر به طلب الأمـان بنفسه وهم برمي نفسـه من القلعة في هلعـه، فأمنـه المظفر وسكن روعَـه ووعده بالإقـامة فأَبى وقـال:«لابد لي من مصر» فمكنـه من أخـذ أهلـه، وسـار إلى دمشـق فما مكّنـه الأشرف مـن المقـام بها ولا رآه، وقال:«يمضي إلى السلطـان الكامل مهما رسم عملنـا بمرسومه» وقـد كان منتمياً إلى الأشرف من حيـث ملك حماة، وطلع إلى الديـار المصرية، وأقام بها ذليلاً حقيراً لايلتفت إليه ولا يلوى عليه.

وفيها:طلب الملك العـزيز بن الظاهر بحلب شيزر، فـأنعم بها الكامل عليه على لسان سيف الدين بن قلج، فجـاء إليها وحاصرها يومين ثلاثة، فلما وصل العزيـز بنفسه طلب صاحبهـا أمانه على نفسه وجميـع الأموال، فأجـابه إلى ذلك، فحلفـه ونزل منهـا بجميع الأموال وولى في قلعتهـا ابن عثمان زردك وفي بلدها ابن دينار الكردي.

وفيها: أخـذ الملك العزيـز صاحب حلـب من أتـابك شهاب الـدين طغرل تـلَّ باشر غصبـاً ورفع يده مـن القلعة وولى فيها مملـوكاً لـه، ونزل شهاب الدين إلى المدينة.

وفيها: وصـل الخبر بأن صـاحب مكـة جمع خلقاً مـن عرب وغيرهـم،

وأعانـه ابن رسول من اليمـن فأخرج ابن شيـخ الشيوخ فخر الديـن منها هارباً إلى اليَنْبُع وماكاد يسلم.

وفيهـا: مات الملـك العزيـز بن الملـك العـادل بدمشـق، وطلع ولـده الظاهر إلى عمه السلطان الكامل، فأحسن إليه وكتب له بخبر أبيه جميعه وبقي عنده مدة، ثـم طلع الملك الناصر من الكرك إلى السلطـان الكامل شاكياًفتلقاه، وودع ابن الملك العزيز.

وفيها:جدّد الأشرف داراً للحديث وهي دار قايماز النجمي.

وفيها: قبض على نواب دمشـق مثل الشرف يعقوب وعلى القضاة وجمع المتولين وأخذ منهم جملة أموال.

وفيها: عـاد مانـع من العراق وانصلـح حاله مـع الأشرف ونزل بـأهله الغوطة.

وفيها: عـاد الملك المجـاهد من الـرحبة بـأولاده إلى بلده، فمـرض بعد وصوله.

وفيها: وصـل محيي الدين بـن الجوزي من الخليفة إلى الديـار المصرية، وتلقاه الملك المنصور بحمص.

وفيها: خرّب الملـك المظفر صاحب حماة مدرسة الحنفيـة التي في سوق الأسفـل، وكذلـك المسجد المعـروف ببني نظيـف على العاصي الـذي لم يكن مثلـه في العمائر، وأمر بسد أبواب الآدر النهـرية وبنى سوراً قـدّامها وسدّ بـاب الجسر الشمالي، وحوّل بـاب الثقفي من مكـانه وبـالغ غـاية المبالغة في الحصانة.

وفيها: شرع يعمل نعلة لقلعة بارين وحسّن خندقها وحصنها.

وفيها: شرع المظفر أيضاً يعمل برجاً في الفحيم بوادي البرية من أرض حماة وحلب وسلمية،وكذلك عمل قلعة بالمعرّة لم تكن قط وفرغ منها في بقية سنة إحدى وثلاثين وستمائة.

وفيها: صالح المظفر صاحب حماة الفرنج بحصن الأكراد على نصف ماكان لهم على بارين أولاً.

وفيها: وقع الإرجاف بموت مظفر الدين صاحب إربل، وجرى في موته ماقد استوفيناه مشروحاً في تاريخنا الكبير. وعلى الجملة ففتحها عسكر الخليفة بعد عصيانها عنوة. وقتل خلقاً كثيراً، وأحرقوا ونهبوا نهباً عظيماً. وبقي فيها الشرابي وقُشْتَمِر وخواص الدولة.

وفيها: كان قد عبر الملك الصالح بن الملك العادل إلى سنجار بعسكر الأشرف ذخيرة لمن هم بآمد، فتلقاه الملك المنصور وإخوته وكان السلطان الملك المجاهد عاجزاً لمرضه عن تلقيه، ثم عاد تلقاه إلى البساتين وأطلعه إلى القلعة بحمص وقدم له أشياء ثم سار.

وفيها: ألح الأشرف بطلب السلطان الملك المجاهد إلى دمشق. فلما صلح من مرضه طلع إلى دمشق، فتلقاه وقدم كل لصاحبه أشياء وعمل له دعوتين ثلاث في القلعة وفي بستانه وخرج الأشرف إلى الصيد بالحارثية وغيرها. وكان غنّام ومانع ومنيع وجميع العربان نزولاً في الغوطة، عملوا دعوة للأشرف فخرج إليهم بقي أياماً والسلطان الملك المجاهد بدمشق في البلد، واتفق أن خفاجة وغزية نزلوا بتدمر للأذية في البلاد، فاتفق الأشرف والملك المجاهد وأمراء العرب على قصدهم ونهبهم، ففعلوا ذلك، وجهّز الملك المنصور من حمص من كان عنده بها لأنه كان مقيماً بها، ولم يكن مع أبيه بدمشق، فأخذوا ونهبوا نهباً عظيماً من جمال

وغيرها. وكان أعـاريب قد أغاروا على عـر ب الملك المجاهد مـن خالد، فاستعاد لهم أجمالهم في طلعته إلى دمشق.

وفيهـا: مات الأمير مـانـع بـالغوطـة فحملـوه ودفنـوه بسلمية واتفـق الأشرف والملك المجاهد على تأمير ابنه مُهنا وخلعا عليه.

وفيها:مات نجم الدين حسن بن الملك الحافظ وأبوه في غاية المرض.

وماتت أم الملك الصالح بن العادل.

وماتت ابنة الأمجد زوجة المغيث.

ومات ابـن الملك العـزيز الظـاهر بـدمشق، بعـد أن كان قـد خلع في العيد الكبير على جمع أصحاب أبيه مايناهز مائتين وأربعين خلعة.

وفيها: عاد ابن الجوزي من مصر، فتلقاه الملـك المجاهد وأولاده وأكابر أهل دمشق والقضاة والفقهاء وأنزلوا بدار سامة والأشرف بالجارثية.

وفيها: وردت الأخبار بتمليك الرومـي خلاط، وأمر بعمارتها ونقل إليها الفلاحين والغلال وزرعها، ومتولى هذا جميعـه حسام الدين القيمري، لأن الأشرف كان قد أحنقه لما قطعه ولابن دَلْدَرُم وخـدما لصاحب آمد، فأما ابن دلـدرم فمات. وأما القيمري، فأمـر الأشرف صاحب آمـد أن يمسكه، ثم عاد أطلقـه، فسار إلى الرومي وخبّره على مـاقد فعل وقال:« أنـا أفتح لك البـلاد» وشرع في شيء بعد شيء، وخاف النـاس بعد تمليكـه بخلاط من الطمع بغيرهـا. لأن الرومي أخذ كـركر وكُرْفَزَاك وبَـابْلُوَا [٥٩] وجميع البحيرات التـي لآمد وهـذا في غـاية القـوة، وانضـاف إلى ذلك خـلاط وعنده جماعة من العساكر الشامية وأتباع ابن كريم الدين الخلاطي.

ثم عزم السلطان الملك المجاهد على العود إلى بلده، فركب إلى الأشرف وودّعه في البرية، وقد جمع الخيول للسباق. ولما كان في وادي المضحين استهلّ هلال سنة إحدى وثلاثين وستمائة ليلة الجمعة.

وكان الأشرف بجيرود وفي عزمه لقاء رسول الخليفة بقارا، وكان الكامل والناصر بن المعظم عنده بدمشق، والمظفر غازي والملك الصالح وصواب بآمد، والملك الصالح إسماعيل بسنجار، والملك الحافظ وأخوه مجير الدين وتقيّ الدين عباس مرضى بدمشق وقد أبلّوا من مرضهم، والملك العزيز بحلب بحارم، والملك المظفر صاحب حماة بالمعرَّة لعمارة القلعة، والملك المنصور إبراهيم قد تلقّى أباه إلى النبك.

وفيها: مات الإبرنس وسيّر الملك المجاهد يعزي ولده ويهنيه.

وفيها: مات للملك المظفر بن الملك المجاهد ابنان، وكان بحمص من الوباء والموت والأمراض مالايُعبر عنه ولا سمع بمثله.

وفيها: مات أتابك شهاب الدين، طغرل أتابك حلب، وسار الملك العزيز إلى تلّ باشر يعشرها.

وفيها: مرض السلطان الملك المجاهد صاحب حمص وهو بظاهرها وأبلّ.

وفيها: كان قد وصل من السلطان الملك الكامل هدية من قماش وخيل وغيرها للملك المجاهد، فسير بعضها للملك الأشرف وقال: «هذه تصلح لطريق مصر».

وفيها: كان الملك الأشرف قد اجتمع برسول الخليفة ابن الجوزي على قارا.

وفيها: سار الملك المجاهد إلى الأشرف واجتمعا في الوادي الشرقي.

وفيها: وصل بدر الدين قابيا رسولاً من الأشرف إلى الملك المجاهد، بقي عنده أياماً بظاهر حمص ثم توجه.

فهذا جميع ماقد وقع في الاختصار من المتجددات إلى آخر هذا التاريخ وهو في ثاني عشرين صفر من سنة إحدى وثلاثين وستمائة، ومهما تجدّد فالمملوك يذيله ببقاء مولانا السلطان إن شاء الله.

وفيها: توجه الملك الأشرف إلى الديار المصرية.

وفيها: وردت الأخبار بأن ابن الكامل وصواب أغارا على بعض بلد آمد، الذي كان قد أخذه الرومي منه، بلد كركر وبابلّوا وكُرْفَزاك ونهبوا، وكذلك عسكر الرومي أغاروا على بلد الحصن وأرزن وميّافارقين، وأن الطائفة التي تأخرت من الخوارزميين عن الخوارزمي وبقوا في البلاد، جاءوا إلى خلاط أخذوا المدينة وشرعوا في حصار قلعتها. والله أعلم.

وفيها: ورد على الملك المجاهد بحمص رسول كيقباذ صاحب الروم في شهر ربيع الأول، وكان الملك المنصور في الصيد، فاستدعاه والده بهذا السبب.

وفيها: سير الملك المجاهد هدية للفرنج وللإسماعيلية في الشهر المذكور.

وفيها: وصلت رسل التتر إلى إربل والموصل، واشتروا جمالاً وأقمشة، وأقيم لهم الراتب في الموصل بإذن الخليفة لهم في ذلك.

وفيها: سلطن لؤلؤ بالموصل، لابل أمر بسنجق بعصابتين وخلع عليه.

وفيها: في شهر جمادى الآخرة وصل ابن الجوزي من بغداد وخلع على ابن بدر الدين لؤلؤ وعليه لأنه ماكان خلع عليه مع أبيه أولاً.

وفيها: استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس من الخوارزمية كما نقل الناقل.

وفيها: أمر الخليفة قُشْتَمر أوقع ببني خفاجة وشاح بن درّاح فأغار عليهم وأخذ بقية رحلهم ونقله إلى بغداد، ثم ساروا طالبين الشام، فانصلح لهم الخليفة وسير إليهم بأن قال:«نعقد لكم جسراً بين الحديثة وعانة». فخافهم بقية العربان، آل عضية وآل يسار وزُبيْد والحَرِيث، واندفعوا إلى الجزيرة وغيرها. ولقد وقعت الإغارة على أسامة بن إبراهيم أمير بني كلاب في جسر الرقة، لأنهم عقدوه لهؤلاء العربان من خوف خفاجة.

وفيها: صالح الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب الفرنج الديوية على نصف قطعة بلد شيزر، على يد سيمون كاتب الأسبتار.

وفيها: كان قد جاء لهذا العزيز بنت من ابنة السلطان الكامل، فما طاب له، وسارمن حلب يومين ثلاثة من حنقه ثم عاد.

وفيها: مات بهاء الدين مروان بن قابيا أحد أكابر أصحاب السلطان الملك المجاهد بالقاهرة.

وفيها: وصل السلطان الأشرف إلى دمشق من الديار المصرية إلى دمشق مهتما بالحركة

وفيها: خاف صاحب خرتبرت من الرومي، وسير إلى صواب بآمد يستصلحه.

وفيها: كان الصالح بن السلطان الكامل قد وصل من آمد إلى الزرّاعة بحرّان قاصداً الرقة للتفرج، فوصل كتاب السلطان الكامل أعاده وكتاب صواب، فعاد وأقام أياماً برأس عين الخابور.

ثم لما أراد التوجه إلى آمد عبر بحرّان وأخذ قماشاً كثيراً وفراء وغيرها نهباً من غير ثمن، وغلقت الأسواق وانتقل إلى الرها وفعل كذلك، وأخذ قماشاً، أخذه له الوالي بها، ثم سار إلى آمد.

انتهى التاريخ المبارك بحمد الله وله الحمد والمنة

تمّ

من

التاريخ الصالحي — لابن واصل الحموي

سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على القدس، وكان من حديث ذلك أن الفرنج لعنهم الله خرجوا إلى بلاد الإسلام في ألف ألف فيما قيل، فملكوا أنطاكية وهجموا معرة النعمان بعد حصار شديد، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تزل بأيديهم إلى سنة ست وعشرين وخمسمئة، فاستنقذها منهم أتابك الشهيد رحمه الله، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها، وكان ابتداء خروجهم سنة إحدى وتسعين، ولما ملكوا الرملة خيَّموا على بيت المقدس وقاتلوا أهله أشد قتال ثم ملكوه، وجمعوا من فيه من اليهود إلى بيعة لهم وأضرموها ناراً عليهم وقتلوا بها من المسلمين مايزيد على سبعين ألف إنسان، وأخذوا من عند الصخرة نيِّفاً وأربعين قنديلاً فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، ونيِّفاً وعشرين قنديلاً من ذهب، فما رُزِء المسلمون بأعظم من ذلك، ولم يزل القدس بأيديهم إلى أن استنقذه منهم الملك الناصر في سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة على ماسنذكره مشروحاً في موضعه إن شاء الله تعالى، فكان مدة مقامه بأيديهم إحدى وتسعين سنة.

ابتداء أمر السلطان غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي

وكان من خبر ذلك أن السلطانين محمد وسنجر، كانا أخوين لأب وأم، فلما توفي السلطان جلال الدولة كما ذكرناه، خرج محمد مع أخيه السلطان محمود، فلما اقتتل السلطانان محمد وبر كيا روق كانت أم محمد في عسكر السلطان بركياروق، فخرج محمد إلى أمه مختفيا، فأكرمه أخوه السلطان بركياروق فأقطعه كنجة وأعمالها، ولما دخل السلطان بركيا روق إلى بغداد وملكها تَوَجَّه محمد إلى كنجة عامداً إليها، فاستولى على

إقليمها، واجتمع إليه خلق عظيم، وخطب لنفسه، وطمع في السلطنة، وعظم شأنه، وخرج إليه أكثر عسكر السلطان بركياروق فصاروا معه، فلما بلغ السلطان بركياروق ذلك خرج لقتال أخيه محمد، وبعث السلطان محمد إلى بغداد رسولاً يطلب الخطبة له فخُطب له في ذي الحجة من هذه السنة، وجرت له مع أخيه السلطان بركياروق وقائع نذكرها واحدة واحدة إن شاء الله تعالى.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة قدم السلطان بركياروق بن ملكشاه بغداد، وقُطعت خطبة أخيه محمد و خُطب له بها، وحَشَدَ واجتمع إليه خلق كثير، وخرج للقاء أخيه السلطان محمد فالتقيا بمكان بقرب همذان، وكان الظفر للسلطان محمد، وانهزم السلطان بركياروق في خمسين فارساً، فقُطعت خطبة بركياروق وأعيدت خطبة السلطان محمد، وذلك في رابع عشر رجب، ثم اجتمع إلى السلطان بركياروق خلق كثير فلقيه أخوه سنجر بعسكر فانهزم سنجر وأَسَر السلطان بركياروق أم أخويه محمد وسنجر، وكان سنجر قد أسر جماعة من أصحاب بركياروق فقال بركياروق لأمّ أخويه: إنما أسرتُكِ ليطلق أخي مَن عنده من الأسارى من أصحابي فأطلق سنجر مَن كان عنده، وأطلق بركياروق أُم سنجر.

سنة أربع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة التقى بركياروق ومحمد، فانهزم محمد وأصحابه، وعاد السلطان إلى بغداد فأُعِيْدَتْ خطبتُه وقُطعتْ خطبة أخيه السلطان محمد.

وفيها تسلَّمتِ الفرنج حيفا بالسيف وأرسُوف بالأمان، وصارت بأيديهم أكثر البلاد الساحلية.

سنة خمس وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستعلي بالله صاحب مصر، وذلك سابع عشر صفر، وكانت مدة ملكه سبع سنين وأشهراً وأياماً، ولما تولى المستعلي هرب أخوه أبو المنصور نزار بن المستنصر بالله إلى الاسكندرية وواليها يومئذٍ أفتكين مملوك الأفضل أمير الجيوش فادعى نزار بالاسكندرية الإمامة وتلقَّب بالمصطفى لدين الله، وبايعه أفتكين على ذلك، فتوجّه إليه الأفضل، فحاصره إلى أن فتح الاسكندرية، وعاد نزار وأفتكين فحبسهما ولم يظهر بعد ذلك لهما خبر، وإلى نزار هذا نُسب النزارية من الإسماعيلية.

بيعة الآمر بأحكام الله

هو أبو علي المنصور بن المستعلي بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، بُويع له بالخلافة بمصر يوم توفي والده المستعلي، وعمره يومئذ خمس سنين، والقَيِّمُ بأمره ووليّه الأفضل أمير الجيوش، وإليه الحرب والأموال، وجميع الممالك.

وفي هذه السنة نازلت الفرنج طرابلس فحاصروها أشد حصار وصاحبُها يومئذ فخر الملك ابن عمار، فاستصرخ بالمسلمين، فنهض إليه عسكر دمشق مع الملك شمس الملوك دُقاق، وجناح الدولة حسين

صاحب حمص، فالتقوا بالفرنج، فكانت الغلبة للفرنج، وانهزم المسلمون أقبح هزيمة.

سنة ست وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة نازل السلطان بركياروق أخاه السلطان محمد بأصفهان وحاصره بها، وكان قد توجه إليها عقب الوقعة التي كانت بينه وبين أخيه، فاشتد عليه وعلى أصحابه الحصار، وضاقت عليهم الأمور، لقلة الميرة، فخرج السلطان محمد سراً في بعض أصحابه من بعض الأبواب، فأصبح على فراسخ من أصبهان، فبلغ السلطان بركياروق ذلك فجهز وراءه رجلاً من غلمانه يقال له إياز فلحقه وقد نزل لضعف خيله من قِلَّةِ العلوفة فذكَّرَه محمد اليمين الذي له في عنقه فتركه، ومضى السلطان محمد فحشد وجمع واستخدم ثم كانت وقعة بينه وبين أخيه السلطان بركياروق فانهزم إلى بعض بلاد أرمينية، ثم سار إلى أخلاط، واستمرت الخطبة للسلطان بركياروق ببغداد.

وفيها كان استيلاء الملك شمس الملوك دقاق على حمص، وحدث ذلك أنه كان بحمص رجل يقال له جناح الدولة حسين، وكان من أصحاب الملك فَخْرُ المُلْكِ رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب ونائباً عنه بحمص، ثم تَغيَّرَ عليه الملك رضوان فصار مع الملك دقاق وأتابك طغتكين، وانتسب إليهما، وخلع طاعة الملك رضوان، وكان مع الملك رضوان بحلب رجل من الباطنية فندب ثلاثة من أصحابه لقتل جناح الدولة، فقدموا إلى حمص في زِيِّ الصوفية، ووثبوا على جناح الدولة وقد جاء إلى الجامع لصلاة الجمعة فقتلوه ثم قُتلوا.

ولما قُتل جناح الدولة بلغ الخبر إلى أتابك طغتكين، والملك شمس

الملوك دقاق، وكاتبهما أكابر أهـل حمص بأن يُنْفِذا من يتسلم حمص قبل انتهاء خبر قَتْـل جناح الـدولة إلى الفـرنج، فسـارا من فـورهما إلى حمص، وتحصنا بقلعتهـا ووافق ذلـك وصول الفـرنج إلى الـرستن قـاصديـن أخذ حمص، فلما بلغهـم وصـول الملـك دُقـاق والملـك طغتكين إلى حمص واستقرارهما بها نكصوا على أعقابهم راجعين.

سنة سبع وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كـانت وفاة الملك شمس الملوك أبي نصر دقـاق بن تاج الدولة تتش ابن السلطان عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ن سلجـوق صاحب دمشـق، وذلك لاثنتـي عشرة ليلة بقيت مـن شهر رمضان، وكان سبب ذلك أنه حدث بـه مرض تطاول به، وقد ذكر بعض المؤرخين أن وفـاته كـانت في سنـة ثـلاث وتسعين وأن أمه زوجـة أتابـك طغتكين رَتَّبَتْ لـه جاريـة فَسَمَّتْه بعنقـود عنب معلـق في شجرتـه، ثقبته بإبـرة فيها خيط مسمـوم، وأن أمه نـدمتْ على ذلك بعـد الموت، وأومأت إلى الجاريـة أن لاتفعل، فـأشـارت إليها أنْ قـد كـان، وتهـرَّى جوفـه، فمات.

ولما تُـوفي دقـاق غَلَـبَ على المُلْك بـدمشـق وأعمالها أتـابـك طغتكين الملقَّب ظهير الدين، وقد ذكرنا ابتداء أمره وقيامه بتدبير مملكة دقاق.

وفي هذه السنة كان استيـلاء الفرنج على عكا، وكان من حـديث ذلك أنّ بادوين ملك الفرنج المتغلـب علي بيت المقدس سار في جموعه إلى ثغر عكـا ومعه الجَنَـوِيُّون مـن الفرنـج في المراكب، فـأحدقـوا بها براً وبحـراً، وكانـوا في نَيِّفٍ وتسعين مـركباً، فحاصروهـا من جميـع جهاتها وملكـوها بالسيف، وكان مُتَولِّيهـا يومئذ زهرة الدولة نبا الجيوشي مـن جهة صاحب

مصر، فخرج منها من خوفه وعجزه عن ضبطها، وهرب إلى دمشق ثم إلى مصر.

سنة ثمان وتسعين وأربعمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق صاحب العراق وبلاد العجم، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة، بعد أن عهد بالسلطنة لولده جلال الدولة ملكشاه بن بركياروق بن ملكشاه، وعمره يومئذ أربع سنين وقام إياز مملوك أبيه بتدبير ملكه.

ولما بلغ السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وفاة أخيه السلطان بركياروق، قَدِمَ غياث الدين محمد على أمور جرت بينهما، ودخل السلطان محمد إلى بغداد، واستقرت له بها السلطنة، فلما استتب أمره قبض على إياز فقتله، وَصَفَتْ له الدنيا فلم يبق له منازع، وخلع عليه أمير المؤمنين المستظهر بالله خِلَعَ السلطنة، وقلّده العهد على ماوراء بابه.

سنة احدى وخمسمئة

في هذه السنة كان استيلاء الفرنج على طرابلس بالأمان، وكانت مدة حصارهم لها سبع سنين فإنهم نازلوها في سنة خمس وتسعين، وقد ذكرناه، وذلك بعد أن فَنِيَ من فيها بالجوع والضائقة، وقُتل خلق عظيم، وكانت مدينة عظيمة مملوءة من المسلمين والعلماء.

سنة ثلاث وخمسمئة

في هذه السنة جاءت الفرنج لعنهم الله إلى رفنية، وذلك بعد أن فتحوا طرابلس، فسار الأمير ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق بعسكره إليهم، ونزل بإزائهم ثم جرت بينهم موادعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع ويُسَلَّم إليهم حصن عكار وحصن المنيطرة، وأن يكون حصن مصياف، وحصن الطوبان، وحصن الأكراد للمسلمين، ويحمل أهلها للفرنج قطيعة مبينة، وأقام الفرنج مدة على هذه الموادعة ثم نكثوا وغدروا.

وفيها تسلمت الفرنج بيروت وملكتها بعد حصار شديد، وفيها توفي قراجا صاحب حمص فملكها بعده.

سنة سبع وخمسمئة

في هذه السنة تسلمت الفرنج صيدا وزردنا واستفحل أمرهم ببلاد الشام، وصارت بأيديهم جميع السواحل، فجهز السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه لحربهم رجلاً من قواده يقال له مودود، فلما وصل إلى دمشق وثب عليه باطني بالجامع فقتله، وكان قتله في سنة سبع وخمسمئة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك فخر الدين رضوان بن الملك تاج الدولة تتش [1] بن رضوان بن تتش المعروف بالأخرس

سنة ثمان وخمسمئة

في هذه السنة قتل تاج الدولة تتش بن فخر الملك رضوان صاحب

حلب بالقلعة، فتسلم البلد والقلعة لؤلؤ خادم تاج الدولة، لكن الخطبة واسم المملكة لسلطان شاه بن رضوان بن تتش.

سنة تسع وخمسمئة

في هذه السنة سار ظهير الدين أتابك طغتكين صاحب دمشق إلى بغداد، لخدمة الخليفة المستظهر بالله والسلطان غياث الدين محمد، فأكرماه وخلعا عليه، ثم رجع إلى دمشق.

سنة عشر وخمسمئة

في هذه السنة قتل لؤلؤ صاحب حلب قريباً من بالس، وكان قد توجه من حلب مُريداً قلعة جعبر، فجلس بقلعة حلب بعده كاتب الجيش أبو المعالي ابن الملحي.

سنة احدى عشرة وخمسمئة

في هذه السنة سُلّمَت حلب إلى الأمير ايل غازي بن أرتق فأقام متملكاً لها خمس سنين.

وفي هذه السنة كانت وفاة غياث الدين محمد بن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وذلك بأصبهان في ذي الحجة، وعمره سبع وثلاثون سنة بعد أن عهد بالسلطنة لولده السلطان

أبي القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وخلّف في خزانته أحد عشر ألف ألف دينار عيناً، ومن العروض مثلها، فخطب لابنه السلطان محمود ببغداد يوم الجمعة لسبع بقين من المحرم.

سنة اثنتي عشرة وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستظهر بالله أمير المؤمنين لسبع سنين بقين من ربيع الآخر، فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وشهوراً، وكان بين وفاة السلطان محمد ووفاة الخليفة المستظهر أربعة أشهر وأربعة أيام.

سيرته: كان رضي الله عنه كريم الأخلاق، ليّن الجانب، سخي النفس، مُؤْثِراً للإحسان، محباً للعلماء، حافظاً للقرآن مُنكراً للظلم، كثير الصدقة، وله شِعْرٌ من جملته قوله:

أذابَ حَرُّ الهوى في القلب ما جمدا
يوماً مَدَدْتُ على رسم الوداع يدا
فكيف أَسْلُكُ نَهْجَ الاصطبار وقد
أرى خلائق في مهوى الهوى قَدَدَا
قد أَخْلَفَ الوعد بدرٌ قد شُغفت به
من بعد ما قد وَفَى دهري بها وَعَدا
إن كنتُ أنقضُ عهد الحب في خَلَدِي
من بعد هذا فلا عاينتُهُ أبدا

خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بن المقتدي بن الذخيرة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد يقال لها طرفة، بويع له بالخلافة يوم توفي والده المستظهر، ولما بُويع له صلى على المستظهر وعجل في دَفْنِهِ لأنه رآه في النوم كأنه يقول له:أخرجني من عندك وإلا أخذتكَ إلى عندي، فعجَّل في إخراجه.

سنة ثلاث عشرة وخمسمئة

في هذه السنة انفصل الأمير أبو الحسن علي بن المستظهر بالله من الحِلَّة، وقد هرب من بغداد إليها، فصار إلى واسط ودعا إلى نفسه بالخلافة، فتبعه جماعة كثيرة، فجهز إليه أخوه المسترشد بالله الأمير دُبَيْس ابن صَدَقَة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّة في جيش من العرب وغيرهم، فانهزم أبو الحسَن منهم وَتَاهَ في البريَّة ثم قُبض عليه بعد أن كاد يهلك من العطش وسُقي شربة من ماء، وأُتي به إلى الخليفة أخيه فحبسه في دار الخلافة، وكان أبو الحسن هذا شاعراً فاضلاً ولما حبسه أخوه المسترشد بالله[قال] يستعطفه:

فَأَشْمَتَّ أعدائي وأَوْهَنْتَ جانبي
وهِضْتَ جناحاً رَيَّشَتْهُ يَدُ الصَّبْرِ
وما كنت عندي بالمُلُوم ولا الذي
له الذَّنْبُ هذا قَدْرَ حَظِّيْ من الدَّهْرِ

ومن جملة شعر أبي الحسن بن المستظهر قولُه أيضاً:

قد جَدَّدَا الدهرُ في الوَرى محنا
وأَودَعَ الهجر في الحَشَا حَزَنَا

لــو كــان شخــصٌ يمــوتُ مــن أَسَــفٍ
على حبيــــب نَــــأَى لَكنــــتُ أَنَــــا

في هذه السنة ورد السلطان سنجر بن السلطان جلال الدين ملكشاه الريّ وملكها، وانهزم منه ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بعد حرب جرت بينهما، وكان مع السلطان سنجر خمسة ملوك على خمسة أَسِرَّةٍ منهم ملك غزنة، وكان معه من الباطنية ألف، وكان معه نحوٌ من أربعين فيلاً، ثم عاد محمد إلى عمه السلطان سنجر فأَمَّنَهُ وخدمه.

سنة أربع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة خُطب للسلطان محمود بن محمد وعمه سنجر ..بغداد وجميع الممالك وتلقب كل واحد منهما شاهان شاه.

وفيها انضم إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان جماعة كثيرة، واحتشد وأظهر الخلاف على أخيه السلطان محمود ابن محمد، ثم اقتتلا وكانت الكَرَّةُ للسلطان محمود، وانهزم السلطان مسعود إلى جبلٍ فاختفى به، ثم بَعَثَ إلى أخيه محمود يطلب منه الأمان فأمنه، ولما كان الخُلْفُ واقعاً بين السلطانين مسعود ومحمود اغتنم سيف الدولة دبيس بن سيف الدولة صدقة بن مَزْيَد صاحب الحِلَّةَ اختلافهما، فسعى في أذيَّة بغداد، وعصى ونهب وسبى وافترش أصحابُه النساء، وأفسدوا إفساداً كلياً، وجبى أموال السلطان، فلما ظهر السلطان محمود على أخيه مسعود وكَسَرَهُ، أحرق دبيس ما استولى عليه من الغلات والأَنْهَاب خوفاً من السلطان محمود، ومضى إلى بغداد قاصداً للنهب، وتهدد دار الخلافة بنهبه، ثم عاد إلى الحِلَّة، ولما بلغ السلطان محمود ذلك أقبل إلى بغداد فدخلها، وسأل الخليفة المسترشد إطلاق أخيه أبي الحسن

ابنَ المستظهر بـالله من الحبس فبذل الخليفـة ثلاثمئة ألف دينـار ليسكت عن هذا ولا يطلبه، فأجابه وسكت.

سنة خمس عشرة وخمسمئة

في هـذه السنة وثـب ثـلاثـة أنفس على الأفضـل أمير الجيـوش بمصر فقتلـوه عند الجسر، وذلـك ليلـة عيد الفطـر، وفيهـا كسر أتابـك طغتكين صاحب دمشق الفرنج، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وفيها أخربت الفرنج جرش.

سنة ست عشرة وخمسمئة

في هذه السنـة توفي الأمير نجم الـدين ايل غـازي بن أرتق، صـاحب حلب، وقـد ذكرنا تَمَلُّكَـهَ لها، فملكها بعده ابـن أخيه بدر الـدين سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق. كانت وفاة أيل غازي بمدينة ميافارقين.

سنة سبع عشرة وخمسمئة

في هـذه السنة سَلَّـمَ سليمان بـن عبد الجبـار بن أرتـق مـدينة حلـب وقلعتها إلى عمه بلك بن أرتق، فتسلمها وملكها.

وفيها وُلي وزارة مصر رجل يقـال له المأمون بن البطـائحي، وكان أول

أمره فراشاً، وشوهد في صغره وهو يرشّ الماء بين القصرين بالقاهرة.

سنة ثمان عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قُتل بلك بن أرتق على منبج، فتسلَّم حلب ابن أخيه تمرتاش بن ايلْ غازي بن أرتق، ثم مضى منها إلى ماردين، فجاء الفرنج لعنهم الله ونازلوها، وصحبتهم الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة بن مَزْيَد صاحب الحلة وأشرفوا على أخذ البلد لأنها كانت قد خَلَتْ من الرجال والميرة ولم يبق فيها غير مئتين وستين رجلاً، وأَجَّلَتْهُم الفرنج عشرة أيام، فلما كان اليوم التاسع عزم أهل حلب على الهزيمة في الليل بالنساء، فأرسل الله تعالى سيلاً عظيماً في قويق وذلك قبل العصر، فاقتلع خيم العدو وأغرق منهم خلقاً عظيماً وأتلف لهم مالاً جزيلاً، ولما كان بعد العشاء وصل آق سنقر البرسقي فكسر الفرنج في صبيحة تلك الليلة وملك البرسقي حلب واستقر له الملك، وكانت طائفة من الفرنج في هذه السنة قد نازلوا حماه، فلم يقدروا عليها ورجعوا.

فتحت الفرنج ثغر صور بعد حصار شديد وكان متوليها رجل يقال له عبد الملك من جهة المصريين فباعها للمصريين.

سنة تسع عشرة وخمسمئة

في هذه السنة قبض الآمر بأحكام الله صاحب مصر على وزيره المأمون بن البطائحي وعلى أقاربه واعتقلهم.

نزل آق سنقر البرسقي صاحب حلب على أعزاز، فرحَّلَتْهُ الفرنج عنها مكسوراً، وقتلوا جماعة من أصحابه، وفيها قُتل محمود بن علي بن قراجا صاحب حماه على أفامية في قتال عظيم جرى بينه وبين الفرنج.

سنة إحدى وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بين الخليفة المسترشد بالله، وبين السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، وجرى بينهما اقتتال كبير ونهبٌ وحروب، ثم وقع الصلح بينهما، واتفق مرض السلطان فرحل إلى بغداد.

وفيها ولّى السلطان محمود شَحَنُكِيَّةِ بغداد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر، وفيها وثب جماعة من الباطنية على آق سنقر البرسقي صاحب الموصل وحلب فقتلوه بجامع الموصل في يوم جمعة، فولي مكانه ولده مسعود بن آق سنقر، وتسلم حلب رجل يقال له خطلبا، سلمها إليه رئيس حلب فضائل بن بديع فملكها من يده، ثم تسلمها أتابك زنكي وسنذكر ذلك.

ابتداء الدولة الأتابكية

كان جد بني أتابك زنكي: آق سنقر قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وكان من أمراء الدولة السلجوقية ومقدميها، وقد ذكرنا استيلاءه على حلب في زمن السلطان جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم صيرورته مع تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ومفارقته له بعد ذلك، وأنه خطب للسلطان بركياروق وانتمى إليه، ثم ذكرنا مقتله واستيلاء تاج الدولة، ثم تَوْلِيَةُ السلطان محمود بن محمد ولده زنكي بن آق سنقر شَحنكيّة بغداد.

ولما قُتل آق سنقر البرسقي صاحب الموصل، وولي ولده مسعود، سار القاضي بهاء الدين بن الشهرزوري، ونصير الدين جقر، وصلاح الدين محمد الأغسياني إلى بغداد، وحملوا معهم خزانة مال للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ليُقِرَّ مسعود بن آق سنقر البرسقي بالموصل، فلما وصلوا ارتأوا في القِصَّة وفكروا فيها وقالوا: هذا مسعود (٢) صبي، وربما لايقوم بالملك، فاجتمعوا بزنكي بن آق سنقر، وهو يومئذ شحنة بغداد من جهة السلطان محمود، وقرروا معه أنهم يسعون له في تملك الموصل بشرط أن يكون [القضاء]بها وبأعمالها للقاضي بهاءِ الدين بن الشهرزوري، ويكون النظر في المصالح والخاصة لنصير الدين جقر، والحجبة ونظر العساكر لصلاح الدين الأغسياني، فأجابهم إلى ذلك فقرروا مع الخليفة المسترشد بالله أن يكون زنكي أميراً على ا لموصل، وأشاروا إليه بأن يطلب ذلك من السلطان،وكتب السلطان إلى الخليفة في تسليم الموصل لسيف الدولة دبيس بن صدقة بن مزيد، فأجابه الخليفة بأن دبيساً مايصلح أن يكون جاراً لنا، وأظهر له كراهة ذلك، وأنه يختار زنكي بن آق سنقر، وبذل الخليفة المسترشد بالله مئة ألف دينار للسلطان محمود على أن يولي زنكي الموصل، فأجاب السلطان إلى ذلك، ولدين له يقال لهما ألب أرسلان والخفاجي ووقَّع لهما بالأموال والبلاد، وجعل

زنكي بـن آق سنقر شحنة بغداد أتـابكاً لهما، ثم قيـل لزنكي أتابـك، ثم سـار أتابـك زنكي وولـدا السلطان وبهاء الـدين بـن الشهرزوري وجقـر وصلاح الـدين الأغسياني جميعاً إلى الموصـل في شهر رمضان، وبقـي ولدا السلطان بـالموصل مع زنكي يخطـب لهما ويُظِهر أنه قـائم بتدبير ملكهما، ثم توفيا ولم يملكا.

سنة اثنتين وعشرين وخمسمئة

في هذه السنـة كان استيلاء أتابـك زنكي على حلب، وخبر ذلـك أنَّا كنَّـا قد ذكـرنا أنـه استولى على حلـب بعد قتـل البرسقي رجـل يقال لـه خطلبا، ولما كانت هـذه السنة واستقرت قدم أتابك زنكـي بن آق سنقر بالموصـل وملكها سـار إلى حلب فسلّمـت إليه فملكهـا واجتمعت إليـه الموصـل وحلب وعظُمـت مملكتـه، واتسعت خطتـه، وقـد قيل إنَّ تملُّـك أتابك لحلب كان في سنة إحدى وعشرين، والصحيح ماذكرته.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة أتابـك طغتكين صاحب دمشـق، فملك بعده ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين.

سنة ثلاث وعشرين وخمسمئة

في هـذه السنة فتحـت الفـرنج بـانياس، وكـانـت في يد الإسماعيليـة، وذلك بعد قتال شديد، وفيها وقعـت حرب بين السلطان محمود بن محمد ابن ملكشـاه وبين سيف الدولـة دبيس بن صدقـة صاحب الحلـة، وذلك بعد فتـن وقعت بين دبيس والخليفة المسترشـد بالله، فأفسـد وحرق ونهب

وعاث، وأخرب البلاد، فقصده السلطان فهرب منه ومامر ببلد ولا قرية إلا أفسدها ونهبها، ومضى إلى البصرة ففعل ذلك، ثم مضى إلى الكوفة ففعل مثل ذلك.

سنة أربع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة قصدت الفرنج لعنهم الله دمشق، وصاحبُها يومئذ تاج الملوك بوري بن طغتكين، فخرج إليهم بعساكره وبأهل البلد وقاتلهم وكسرهم وقتل منهم زُهاء عشرة آلاف نفس ولم يُفلت منهم إلا أربعون رجلاً.

وفيها فتح أتابك زنكي بن آق سنقر مدينة حماه واستولى عليها، وفي هذه السنة كان مقتل الآمر بأحكام صاحب مصر وكان من حديث ذلك أنه وثب عليه عشرة من المماليك ومقدمُهم مملوك أرمني فقتلوه ومَلَكَ الأرمني القاهرة، وفرّق الأموال والعساكر وأراد أن يتأمّرَ عليهم فخالفوه ومضى بعضهم إلى أمير الجيوش أحمد بن الأفضل وطلبوا منه أن يقاتل الأرمني، ويملك القاهرة، وهم معه ففعل، وأتى القاهرة، وحاصر القاهرة حصاراً شديداً حتى ملكها، ونهبها ثلاثة أيام، وظفر بالأرمني فقتله، واستقر له الأمر بها وبايع بالخلافة للحافظ. وكان مقتل الأرمني في ذي القعدة فكانت مدة ملكه ثمانياً وعشرين سنة، وتسعة أشهر وأياماً.

سنة خمس وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كانت بيعة الحافظ لدين الله وهو أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، وغلب على أمره أمير الجيوش أحمد بن الأفضل، ثم قبض على الحافظ من بعد مُدَيْدَةٍ من توليته، فلم يزل في اعتقاله إلى سنة ست وعشرين.

وفي هذه السنة ضَلَّ الأمير سيف الدولة دبيس بن صدقة عن الطريق، وذلك لما انهزم من الخليفة والسلطان محمود، وكانا قد بَثَّا طائفة من العرب خلفه، فلم يزل يتنقل في حلل العرب فمنهم من يَرُدُّه ومنهم من يُجِيْرُه ويقوم معه، فلما كان قريباً من أراضي الشام ضَلَّ الطريق فقُبِضَ عليه وأُتِيَ به إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فقبض عليه تاج الملوك وباعه من أتابك زنكي بن آق سنقر صاحب حلب (٣) والموصل بخمسين ألف دينار فأكرمه أتابك زنكي وأحسن إليه، وخَوَّلَهُ المال.

وفيها كان مقتل تاج الملوك بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق، وذلك أنه قفزت جماعة من الباطنية فقتلوه، فملك من بعده ولده شمس الملوك اسماعيل بن بوري بن طغتكين.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، فقُلِّد الملك بَعدَهُ ولده السلطان داود بن محمود بن محمد وخُطب له بالجبل وأذربيجان، وجعل أتابكة الأحمديلي، ووزيره أبا القاسم الوزير، فَدَبَّرا أمره، وقاما بأحوال عساكره، ثم تجملا وحشدا لحرب السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه عم السلطان داود، ولما بلغ السلطان مسعود ذلك تقدم بقطع الجسور التي في طريقهم فقطعت.

سنة ست وعشرين وخمسمئة

في هذه السنـة وثب على أحمد بن الأفضل أمير الجيـوش بمصر صِبْيَانٌ من الخاصة فقتلـوه، وأخذوا رأسه ودخلوا به إلى القصر، وأخـرجوا الحافظ من الإعتقال، وعاد إلى ولايته واسْتَوْزَرَ يانس ولقَّبَه بألقاب أمير الجيوش.

وفي هذه ا لسنة كانت وقعة عظيمـة بين السلطان سنجر ابن السلطان جلال الدولـة ملكشاه بن ألب أرسلان، وبين أخيه السلطـان مسعود بن محمد وقراجا الساقي.

ذِكْرُ الخبر عن هذه الوقعة

قيـل وصـل السلطـان مسعــود بـن محمـد إلى بغـداد في عشرة آلاف، ووصـل قـراجا ومعـه سلجـوق شـاه بـن محمـد وكل واحـد منهما أعنـي السلطان مسعـود وأخاه سلجـوق شاه يطلـب السلطنة لنفسـه، وانحدر زنكي بن آق سنقر صاحب الموصـل وحلب ليكون مع السلطان مسعود، فلما بلغ تكـريت خَلَّـفَ قراجا سلجـوق شاه في عـدد يسير ليكون في في مقابلـة السلطان مسعود، وأسرى في يـوم وليلة إلى تكريـت فواقع أتـابك زنكي فهزمـه، وأسر جماعة كثيرة من أصحابه وعاد ثـم دخل السفراء بين الأخوين مسعود وسلجـوق شاه فاصطلحا واجتمعا وتحالفا ودخـل قراجا معهما في اليمين واستحلفا الخليفة المسترشـد بالله علي التوافق والتعـاضد، وكـان قـراجـا يتحكـم على مسعود وسلجـوق جميعـاً. ولما بلـغ السلطـان سنجر ذلـك قصد بغـداد بعساكـره فخرج مسعـود وسلجوق وقـراجا إلى لقائه، وخرج المسترشـد بالله بنفسه إلى مضارب ضُربت له بظـاهر بغداد، وقُطعـت خطبة السلطان سنجر، ثـم ساروا إلى خـانقين ووصل السلطـان سنجـر إلى همذان ومعه مئـة ألـف وستون ألفـاً، ومـع مسعود وسلجـوق

ثلاثين ألفاً، فالتقوا بموضع قريب من الدينور فاقتتلوا فقُتل من الفريقين أربعون ألفاً، وقُتل قراجا الساقي، ثم عاد السلطان سنجر إلى بلاده ثم كاتب السلطان زنكي وسيف الدولة دبيس بن صدقة في قصد بغداد وفتحها، فتجمعا وقصدا بغداد في سبعة آلاف فارس، والمسترشد بالله إذ ذاك بخانقين فعاد منها وقد شارف أتابك زنكي بغداد من غر بيّها، فَعَبَر الخليفة إلى الجانب الغربي في ألفي فارس، وضعف عن لقائهما، وانكسرت ميمنته فكشف الطرحة عن رأسه ولبس البُرْدَة، وجذب السيف وحمل في عسكره فانهزم زنكي ودبيس وقتل من أصحابهما مَقْتَلَةً عظيمة، ثم طلب أتابك زنكي من المسترشد تكريت وطلب دبيس سقي الفرات.

سنة سبع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بغداد وخُطب له بها بالسلطنة، ولابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد من بعده، وخلع عليهما الخليفة المسترشد بالله.

وفيها سار المسترشد إلى الموصل لأخذها في اثني عشر ألف فارس، فوصلها في العشرين من شهر رمضان وبها أتابك زنكي بن آق سنقر فحصرها ثمانين يوماً، ثم رحل عنها بغتةً، فقيل لأنه بلغه غَدْرُ السلطان مَسْعُوْدٌ به وأنه قد عزم على مصالحة دبيس بن صدقة، وقيل بل كان ذلك لأن أتابك زنكي بذل له الطاعة، وأن يحمل إليه ما غَرِمَهُ من الأموال.

سنة ثمان وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة مال أكثر الجند والقواد إلى السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، وتقررت قواعده، وملك همذان وغيرها، وصار أكثر العسكر معه، ولم يبق مع أخيه السلطان مسعود بن محمد إلاّ القليل، وكان السبب في ذلك أن الخليفة المسترشد بالله بعث إلى خوارزم شاه خِلَعَاً، فأشار دبيس بن صدقة على ا لسلطان محمد بن طغرل بن محمد بأن يقطع الطريق على الرسل ويأخذ منهم الخلع ويلبسها، ويُظْهِر أن الخليفة بعث إليه بها ففعل ذلك، فمال أكثر العساكر إليه ولم يبق مع السلطان مسعود إلاّ القليل، فانزعج الخليفة من ذلك وكتب إلى السلطان يستحثه في القدوم عليه ليرفع من قدره، فقدم بغداد متنكراً خوفاً من أخيه السلطان طغرل، فخلع الخليفة عليه وطوّقه وسوَّره، وَتَوَّجهُ، وبعث إليه تُحفاً بثلاثين ألف دينار، فلما بلغ السلطان طغرل ذلك أقبل إلى بغداد في جموعه فمات في الطريق وذلك في ثالث المحرم سنة تسع وعشرين.

سنة تسع وعشرين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل شمس الملوك صاحب دمشق، وكان من حديث ذلك أن والدة شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين أتابك طغتكين المُسَمَّاة بياقوت خاتون أمرت بولدها شمس الملوك فقُتل بين يديها وهو يستغيث إليها: الصنيعة الصنيعة، زنهار زنهار، ولما قضى نحبه جعلته في بساط ملفوف ثم أمرت الأمراء بالدخول عليه، فدخلوا فنظروا إليه مقتولاً، فقالت: انظروا إلى سلطانكم وما عمل به من

ظلمه للناس، ثم أحضرتْ له أخاً له صغيراً يلقّب بشهاب الدين، فَعَقَدتْ له السلطنة، وقامت بتدبير مملكته.

وفي هذه السنة سار السلطان مسعود بن محمد إلى همذان واستقر ملكه بها، ثم عزم على قصد بغداد وتملكها ونفذ مقدمته أمامه، وأظهر التغّير الكلّي، ولما بلغ الخليفة المسترشد ذلك جهز العساكر وبعث مقدمته في ألفين وخمسمئة فارس إلى المرج، وتجهز للقاء السلطان مسعود، فبعث السلطان مسعود سيف الدولة دبيس بن صدقة في خمسة آلاف فارس، فكبسوا مقدمة الخليفة وأخذوا خيلهم وأموالهم فعادوا إلى بغداد عُراة مشاة فكساهم الخليفة وأطلق لهم ثمانين ألف دينار، وقُطعت خطبة السلطان مسعود ببغداد، وخُطب لعمه السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وبعده لابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد.

ولما كان ثامن شعبان رحل الخليفة في عساكره وهم سبعة آلاف، وكاتَبه أصحاب الأطراف بالطاعة، وكان السلطان مسعود بن محمد في همذان في ألف وخمسمئة فارس فما زال يستخدم وتميل إليه العساكر حتى صار في خمسة عشر ألف فارس، وتسلل إليه من أصحاب ا لخليفة ألف فارس، فصار الخليفة في ثمانية آلاف فارس، ثم التقوا في عاشر رمضان فأسر الخليفة المسترشد بالله، وانهزم أصحابه، واستبيح ماكان معه من الأموال، ونادى السلطان في أصحابه: المال لكم والدم لي فمن قَتَل أَقَدْتُهُ، فلم يُقْتل من الصفين سوى خمسة أنفس غلطاً، ونادى السلطان في أصحاب الخليفة: من أقام بعد الوقعة ضَرَبْتُ عنقه فهرب الناس إلى رؤوس الجبال، فتخطفهم التركمان والأكراد وأُفلت منهم جماعة عراة، فتوصلوا إلى بغداد، وقد تشققت أرجُلُهم من المشي والحفا.

ولما بلغ أهل بغداد أَسْرُ الخليفة كسروا المنابر، ومنعوا الخطيب من الخطبة، وحَثُوا على رؤوسهم التراب، وضَجُّوا بالبكاء والنحيب، فسَيَّر

السلطان مسعود شحنة إلى بغداد، فجرى قتال فقُتل من العامة مئة وثلاثون ألفاً وخمسون رجلاً، ونادى في الناس: إنَّا جئنا لنُصْلِح وإن السلطان مسعود قد سار بين أيدي أمير المؤمنين وعلى كتفه الغاشية، فسكن الناس وهجعوا، وسار السلطان مسعود إلى باب مراغة طالباً ابن أخيه السلطان داود بن محمود بن محمد، والخليفة المسترشد بالله معه، وقد ضرب له دهليز خيمة أقعده فيها.

مقتل المسترشد بالله

ثم إنه ورد كتاب من السلطان سنجر بن ملكشاه إلى ابن أخيه السلطان مسعود بن محمد بأن يَرُدَّ الخليفة إلى مستقر عِزه، ويبالغ في تعظيمه ويفعل في ذلك ماجرت به عادة آبائهم في خدمة هذا البيت، وأن يُسَلِّم إلى الخليفة دبيساً ليرى رأيه فيه، فأمر السلطان مسعود فضُربت سرادق للخليفة، ونُصبت له سُدَّةٌ عالية، وأحضر إليه مركوب فركب متوجهاً إلى السرادق المضروب له والسلطان بين يديه، وعلى كتفه الغاشية، واللجام بيده، وجميع الأمراء مشاة إلى أن دخل السرادق وبين الموضعين نصف فرسخ، ثم سلم إليه دبيس وهو يتضرع ويبكي، فعفا عنه الخليفة، ثم وصلت رُسُل السلطان سنجر تَسْتَحِثُّ السلطان مسعود على إعادته إلى داره، ووصل مع الرسل عسكر كثيف ووصل صُحْبَتُهم سبعة عشر رجلاً من الباطنية، وكان ظاهر الأمر أن السلطان سنجر لم يعلم بهم، وفي الباطن كان ذلك بتدبير السلطان سنجر ومسعود، فخرج السلطان مسعود في عسكره ليلتقي رسل السلطان سنجر فهجمت الباطنية على الخليفة المسترشد بالله فقتلوه وضربوه بالسكاكين إلى أن قتلوه، وقتلوا معه جماعة من أصحابه وذلك يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيتْ من ذي القعده، وقُبض على الباطنية فقُتلوا وأظهر السلطان

مسعود القلق العظيم وجلس للعَزاء، ووقع البكاء والنحيب وذلك على باب مراغة، فغُسِّلَ وكُفِّنَ، وحُمِل إلى بغداد، وكان فيها من البكاء والنحيب والضجيج مايتجاوز الوصف. وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وكان عمره خمس وأربعين سنةوشهوراً.

سيرته: كان له همة عالية وشجاعة وافرة وإقدام زائد، وكان له شعر حسن من جملته قوله في قصيدة:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أقصى الروم جندي وتنتضى
بأقصى بلاد الصِّين بيْضُ صوارمي

خلافة الراشد بالله

أبو حَفص المنصور بن المسترشد بن المستظهر بن المهتدي بن الذخيرة ابن القائم بن القادر، وأُمُّه أُم ولد، بويع له الخلافة ببغداد في العشر الأخير من ذي القعدة من هذه السنة، وكوتب السلطان مسعود بن محمد بالبيعة له فأجاب، وأمر شحنته ببغداد بأخذ البيعة ففعل ذلك.

وفيها قَتَل السلطان مسعود سيف الدولة دبيس بن صدقه، فقيل كان السبب في ذلك أنه وَجَد له السلطان كتاباً إلى أتابك زنكي صاحب الموصل يقول فيه: لاتجيء إلى السلطان واحفظ نفسك منه.

وكان بين قتل المسترشد وبين قتله ثمانياً وعشرين يوماً.

سنة ثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان خَلْعُ الراشد بالله، وكان من حديثه أنه قَدِمَ أتابك زنكي بن آق سنقر ويرنقش الباز دار إلى بغداد واتفقا مع الراشد بالله على محاربة السلطان مسعود، واستخدم الراشد بالله أجناداً كثيرة وتهيأ هو ومن معه للقاء السلطان، ثم كاتب السلطان محمود أتابك زنكي سراً واستماله، وكذلك فعل مع يرنقش، فأشير على الراشد بالتوقف، وأقبل السلطان بجيوشه فدخل بغداد وذلك في ذي القعدة ونهب دواب الجند وأظهر العدل وشحن المحال، ومنع من النهب واستمال الرعية وجمع القضاة والشهود، فَقَدَحُوا في الراشد بأنه صدرت منه سيرة قبيحة وسفك الدماء المعصومة، وفعْل مالا يجوز، وشهدوا بذلك وحكم قاضي بغداد بخلعه فخُلع من الخلافة لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة

بحكم الحاكم، وبويع المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر وهو عم الراشد.

وأما الراشد و أتابك زنكي فإنها هربا إلى الموصل قبل دخول السلطان بغداد، وأقام الراشد بالموصل، فكتب السلطان إلى أتابك زنكي في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فامتنع أتابك زنكي من ذلك لكونه ضيفه وجَهَّزه إلى مراغة، فمضى الراشد إلى مراغة فوصل إليها وملكها وأقام بها أياماً، ثم خرج منها يطلب خراسان، فلما قَرُبَ من بلاد الباطنية جَرَّد السيف فقتل منهم جماعة، ثم عاد يطلب همذان.

ولما بلغت السلطان أخبار الراشد سار خلفه إلى همذان فاجتمع الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزبه صاحب خوزستان على قتال السلطان مسعود وحاربوه فكانت الكَرَّةُ على السلطان فقُتل من أصحابه خلق عظيم وأُسر مثلهم، ثم طُعن منكورس اتفاقاً بعد أن كان له الظفر، فانهزم أصحابه، وسار الراشد إلى أصبهان فدخل عليه جماعة من الباطنية فقتلوه وهو مريض، وقيل بل سُمَّ بها ودفن بمكان يقال له شهرستان على فرسخ من أصبهان، وقيل بل دفن في جامع أصبهان بالمدينة العتيقة التي يقال لها جي، وكانت وفاته في سنة اثنتين وثلاثين، وكانت مدة خلافته إلى أن خُلع سنة واحدة إلاّ أياماً، وكان عمره إحدى وعشرين سنة.

صفته: كان أبيض جسيماً تشوبه حُمرة، حَسَنَ الوجه.

سيرته: كان مُفَوَّهَاً فصيحاً عنده شهامة ورِجْلَةٌ وكَرَمْ، ولم يُخْلَع بعده أحد من الخلفاء إلى هذه الغاية، وذكر بعض المؤرخين شيئاً عجيباً، وهو أنه كل سادس من خلفاء الإسلام قام بأمر الناس فإنه لابُدّ وأن يُخْلَع أو يُقتل وذلك أنّه أول قائم بأمر الناس محمد رسول الله ﷺ، ثم أبو بكر،ثم

عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم كان السادس الحسن بن علي فخُلع من الخلافة، ثم ولي معاوية، ثم يزيد بن معاوية، ثم مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان ثم كان عبد الله بن الزبير السادس فخلع وقتل، ثم ولي الوليد، ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد، ثم هشام، ثم كان الوليد بن يزيد فخلع وقتل، ولم ينتظم لبني أمية أمر بعده.

وقام السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، ثم كان الأمين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المأمون، ثم المعتصم، ثم ولي الواثق ثم المتوكل، ثم المنتصر، ثم كان المستعين السادس فخلع وقتل، ثم ولي المعتز، ثم المهدي، ثم المعتضد، ثم المكتفي، ثم كان المقتدر السادس فخلع مرتين ثم قُتل،

ثم ولي القاهر، ثم الراضي، ثم المتقي، ثم المستكفي، ثم المطيع ثم كان السادس الطائع فخلع من الخلافة، ثم ولي القادر، ثم القائم، ثم المقتدي، ثم المستظهر، ثم المسترشد، ثم كان الراشد السادس فخُلع وقُتل.

ثم ولي المقتفي، ثم المستنجد، ثم المستضيء، ثم الناصر، ثم الظاهر ثم مولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله وهو السادس، فنسأل الله تعالى أن يخلد ملكه ويَخْرِقَ به العادة التي ذكرتُ، فإنه لم يكن مثله في كرمه وعدله واحسانه وقيامه بجهاد الكفرة، وذَبِّهِ عن الدين الحنيفي.

خلافة المقتفي لأمر الله

هو أ بو عبد الله محمد بن المستظهر بن المقتدي بن الذخَيْرَة بن القائم ابن القادر، وأمه أم ولد تُدعى ياغي وتُلَقَّبُ ستُّ السادة، بويع له بالخلافة يوم خُلع ابن أخيه الراشد بالله، ولُقِّب المقتفي وسبب تلقيبه ذلك أن المقتفي رأى رسول الله ﷺ في النوم قبل خلافته بستة أيام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقْتَفِ بي، فلُقب لذلك، وخطب لأمير المؤمنين المقتفي، وبعده للسلطان محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان، ونادى السلطان في الناس ببغداد بالعدل ونهى عن النهب، ثم أخذ جميع ماكان في دار الخلافة من خيل وبغال، وآلات وفضة وغيرها، ولم يترك للخليفة في الاصطبل الخاص سوى أربعة أفراس وثلاثة بغال برسم الماء، وكانت البيعة للمقتفي على ان لايكون عنده ولا له آلة فرس.

سنة إحدى وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة تزوج أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بنت السلطان محمد، أخت السلطان مسعود، ونُثرت الجواهر وتماثيل العنبر والكافور.

وفيها قدم السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه لمحاربة عمه السلطان مسعود، فخرج إليه السلطان مسعود من بغداد، وضربا مصافاً بينهما، فقُتل من أصحاب السلطان مسعود خلق عظيم، وكانت الغَلَبَة للسلطان داود ثم عاد كل فريق إلى عسكره.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنـة كسر أتابـك زنكي بن أق سنقـر [الفرنـج] على رفنية، وأخذ منهم بارين، وكان ذلك فتحاً جليلاً.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة توفي شهاب الدين بـن تاج الملوك بوري صاحب دمشق فغلب على الأمـر الأمير بهرام شاه، ثـم قدم أخوه جمال الـدين محمـد من بعلبك وتسلم دمشق وجعجع بأخيـه بهرام شاه، وجمال هذا هو والد مجير الدين ومعين الدين(٤) .

سنة أربع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنـة توفي جمال الديـن محمد صـاحب دمشق فملكهـا بعده ولده مجير الدين [وجعل] إلى أخيه معين الدين التدبير.

سنة ست وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة عظيمـة بين السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وخوارزم شاه وهو علاء الدين أتسز، ودخل خوارزم شاه مَرُوْ وَوَلِيَهَا.

وفيها كـانت الـوقعة العظيمة بين السلطـان سنجر وكـافر تـرك، وكان سببها أن السلطـان سنجر لما واقـع خوارزم شاه قتـل أخا خـوارزم شاه،

فبعث خوارزم إلى كافر ترك مستنجداً بهم، وكان سير لهم خدمه فأتوا قاصدين السلطان سنجر والتقوا بما وراء النهر فانهزم السلطان سنجر وبلغت هزيمته إلى ترمذ، وأفلت في نفر قليل، ودخل بلخ في ستة أنفس، وقتل من اصحابه مئة ألف أو يزيدون فيقال أنه ممن قتله كافر ترك أحد عشر ألف وأربعة آلاف أمير.

سنة ثمان وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه ابن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، قتله جماعة اغتالوه ولم يُعرفوا.

سنة تسع وثلاثين وخمسمئة

في هذه السنة كان فتح الرها ،وكان من حديثها أنه نازلها أتابك بن آق سنقر، وهي بيد الفرنج على حين غفلة منهم، ونصب عليها المجانيق ونقب سورها، وطرح فيها الحطب والنار فتهدم، ودخلها عنوة، فحاربهم فظفر المسلمون بهم وغنموهم، وكان فيها من أسارى المسلمين أكثر من خمسمئة فاستنقذوهم.

سنة إحدى وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل أتابك زنكي الشهيد رحمه الله، وكان من خبر ذلك أنه نازل قلعة جعبر وكان صاحبها يومئذ علي بن مالك، ولما أشرف على أخذها اتفق أنه توعَّد بعض غلمانه فخافوا منه، وكان شديد الهيبة مخوفاً فوثبوا عليه وهو نائم فقتلوه، فحمل إلى الرقة، ودفن في مشهد هناك.

سيرته: كان رحمه الله عادلاً مجاهداً في سبيل الله، حسن السيرة، شديد الاهتمام بمصالح الرعية واثر آثاراً حسنة، ووقف وقوفاً كثيرة بالموصل من المدارس والربط وغيرها، وخلف بنين أربعة هم: الملك العادل نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير أميران.

استيلاء الملك العادل نور الدين على حلب

ولما قتل أتابك زنكي الشهيد بن آق سنقر، سار ولده الملك العادل، ومعه صلاح الدين الأغسياني إلى حلب وكانا عند أتابك لما قتل، فأخذا خاتمه ومضيا إلى حلب فسلماه إلى النائب بها فعرف الخاتم، وسلم حلب إلى الملك العادل، فملكها واستولى عليها.

وأما سيف الدين غازي بن أتابك زنكي فإنه لما قُتل والده، وكان في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي، كتبوا إليه من الموصل يطلبونه لها، فركب من وقته، وسار إليها ودخلها وملكها، وكان بالموصل ألب أرسلان والخفاجي ابنا السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وقد ذكرناهما فقيل لهما: إن سيف الدين غازي قد عزم على القبض عليكما، فاجتمعا في مماليكهما واعتدا للقتال، وجرى بينهم وبين غازي وأصحابه حرب كثير، ثم اتفق رأي الجماعة على خديعة السلجوقيين وأحضروا قاضي القضاة فمضى إليهما وقال لهما: البلاد لكما، والمصلحة أن تصعدوا إلى القلعة وتوليا فيها من تريدان فلما صعدا إلى القلعة ضُبطت عليهما وقُيِّدا أياماً، وبُعثا إلى قلعة بقرب سنجار فخنقا بِوَتَرِ قَوْسٍ، وقيل بل فُعل ذلك بالخفاجي فقط (٥).

واستتب الملك بالموصل وأعمالها لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي،

وبحلب وأعمالها لأخيه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

وأما نصرة الدين أمير أميران فحبسه أخوه سيف الدين في قلعة الموصل.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة دخل ثلاثة ملوك من الفرنج إلي بيت المقدس، فصلوا فيه صلاة الموت، ثم انحدروا إلى عكا، فاجتمعوا فيها يقال في سبعمئة ألف وعزموا على قصد بلاد المسلمين، فخافهم أهل الشام خوفاً شديداً، فلما كان سادس ربيع الأول لم يشعر أهل دمشق إلا وعلى بابها ستة آلاف فارس، وستون ألف راجل فخرج إليهم المسلمون وقاتلوهم فقتل من المسلمين خلق ومن الفرنج كذلك.

فلما كان خامس يوم نزولهم وصل الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله إلى حماة نجدة للمسلمين في نحو عشرة آلاف فارس، ووصل أخوه سيف الدين غازي صاحب الموصل في قريب من ذلك، ثم أنزل الله نَصْرَهُ على المسلمين وانهزم الفرنج عن دمشق خائبين، وقُتل من الفرنج مالا يُحصى.

وكان من جملة من استشهد في هذه النوبة شاهان شاه بن نجم الدين أيوب، أخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله.

وفي هذه السنة تسلَّم الملك العادل نور الدين رحمه الله حصن أفامية من الفرنج بعد حصار شديد، وقَتَل صاحب أنطاكية، واستولى على عسكره، وفتح قلاعاً كثيرة من بلاد الفرنج.

سنة أربع وأربعين وخمسمئة

في هـذه السنة كـانت وفـاة سيف الـدين غـازي بن زنكـي صاحـب الموصل، وكـان قد قصـد حصار ماردين وهي بيـد الأمير حسام الـدين تمرتاش بن ايل غـازي بن أُرتق، وكان سبب ذلك أن أتـابك زنكي كان صديقـاً لحسام الديـن هذا، فاتفق أن حسـام الدين عمـل لأتابك يـوماً ضيافـة بقلعة ماردين واجتمعـا فيها فقال لـه أتابك: لاترجـع تصعد إلى قلعتك مثلي فإني أنصحك. فقال له حسام الدين: وأنا أنصحك لاترجع تسلّم نفسك إلى مثلي، ثم افترقا، فلما قُتل أتابـك اشتفى به حسام الدين، فبلغ ابنـه سيف الـدين ذلك فقصـده وأغار عليـه، ثم ا صطلحـا وتزوج سيف الدين غازي بنت حسام الدين، ولم يدخل بها، ثم مرض في عودته فمات في الطريق قريباً من الجزيرة، فقيل أنه سُمَّ، وقيل مات حَتْفَ أنفه.

ولما تـوفي سيف الـدين مَلَـكَ الموصل بعـد ذلـك أخوه قطـب الديـن مودود بن زنكي.

وفي هذه السنة كـانت وفاة الحافظ لـدين الله صاحب مصر، فكـانت مدة ملكه ثمان عشرة سنة وخمسة أشهر وعشرين يوماً.

بيعة الظافر بالله

هو أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ، بويع له بالخلافة في القاهرة يوم توفي والده الحافظ وقام بوزارته سليم بن مصال ويلقب بالأفضل، فخرج عليه الملك العادل أبو الحسن على بن سباسلار الملقب بالمظفر فقتله، وولي الوزارة إلى أن قتله ابن امرأته نصر بن عباس بن تميم المغربي في سادس محرم سنة ثمان وأربعين، وولي الوزارة بعده عباس بن أبي الفتوح وتلقب بالأفضل.

وفي هذه السنة استوزر الخليفة المقتفي لأمر الله الوزير يحيى بن محمد ابن هبيرة، ولقَّبَهُ عون الدين.

سنة سبع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، وذلك بباب همذان.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً بعيد الهمة، أَبِيَّ النفس، متيقظاً بصيراً بالحروب، ولما مات عقد العسكر السلطلنة لابن أخيه السلطان ملكشاه ابن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وقام بأمره خاص بك التركماني.

ولما استقر لهما الأمر قال خاص بك لملكشاه: إني أريد أن أقبض على أخيك محمد شاه وأسلمه إليك، فَطَرِيْقُهُ أن أقبض عليك وأخبره أني قد قبضت عليك لأسلمه إليك، فقال له ملكشاه: إفعل ماتريد، فقبض خاص بك على ملكشاه وكتب إلى محمد شاه يستدعيه إلى السلطنة فجاء

إلى همذان، وتلقاه خاص بك وحمل إليه جُمَلاً كثيرة من مال وخيل فقبل ذلك، وجاءه الأمراء وغيرهم يخاطبونه في حوائجهم فقال لهم: مالكم معي كلام وإنما كلامكم مع خاص بك فمهما أَشَارَ به فهو الوالد والصاحب، والكل تحت أمره. فوصل هذا الكلام إلى خاص بك فاسترسل إليه فقبض عليه محمد شاه في الوقت وقتله، واستولى على ذخائره، و«من حفر لأخيه المؤمن قَلِيْباً ألقاه الله فيه قريباً».

سنة ثمان وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت الوقعة العظيمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه وبين الغُزّ، فكُسر سنجر كسرة عظيمة، واستبيح عسكره قتلاً وأَسْرَاً، وهجموا نيسابور فقتلوا معظم من فيها من الجند والعلماء والعوام، ثم توجهوا إلى بلخ فملكوها، وكانت عُدَّتُهُم فيما ذُكر مئة ألف خركاه.

ثم أسروا سنجْر واحتاطوا به، وخطبوا له لما ملكوا بلاده، وقالوا: أنت السلطان ونحن أجنادك ولكنَّا لانأمنك فبقي في أَسْرِهِ مَحُوطاً عليه مُقيماً في أيديهم إلى أن مات.

سنة تسع وأربعين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الظافر بالله صاحب مصر، وحديث ذلك أنه وثب به عباس بن تميم وابنه نصر فقتلاه وأخفيا مكانه، وذلك في سلخ شعبان وعمره إحدى وعشرون سنة وأيام.

ولما قتله نصر وعباس أخفيا قَتْلَه وأنكراه، وأجلسا ولده أبا القاسم عيسى بن الظافر، ولقَّباه الفائز بالله، ولما بلغ أهل القصر قَتْلُ الظافر كتبوا كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان بالصعيد وأصحبوه شعور النسوان، فلبس طلائع السواد وحشد حشداً عظيماً، وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر فساعدوه، وتوجه إلى مصر قاصداً إليها.

ولما سمع عباس وابنه نصر بذلك هربا بأموالهما، وكانت عظيمة فلما وصلا إلى مَنْهَل يُعرف بمره وأم العب خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباسا ، وأسروا نصراً.

بيعة الفائز بالله

هو أبو القاسم عيسى بن الظافر بن الحافظ، بويع له بالخلافة بالقاهرة يوم قتل أبوه الظافر، ولما وصل طلائع بن رزيك إلى القاهرة أجلسه أهلها للوزارة، ولُقِّب الملك الصالح، واستقام أمره واسْتَبَدَّ بتدبير الدولة ثم بعث إلى الفرنج يطلب منهم نصر بن عباس، وبذل لهم في ذلك أموالاً جزيلة، فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وأتى به إلى القاهرة فسلمه الملك الصالح إلى النساء فَأَقَمْنَ يَضْرِبْنَه بالقباقيب الآمدية أياماً متوالية وقَطَّعن لحمه وأُطْعِمْنَهُ إياه مدة ثم شووه حتى مات ثم صلبوه بباب زويلة ثم حَرَّقُوه، وأقام الملك الصالح مدة مدبراً مملكة الفائز.

وكتب الخليفة المقتفي لأمر الله إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يأمره بالمسير إلى مصر، وأَخْذَهَا، وكتب له عهداً عليها وولاه الشام ومصر والسواحل.

وفي هـذه السنة كـان استيلاء الملـك العـادل نور الـدين على دمشـق وتملكه لها، فَعَظُمَ أمره، وقويت شوكته وتأطدت دولته.

سنة خمسين وخمسمئة

في هـذه السنـة وصـل السلطـان سليمان شاه بـن محمـد بـن ملكشـاه السلجوقي إلى بغداد ضيفاً للخليفة المقتفـي ومستجيراً به، فأكرمه ووصله وبَجَّلَهُ وبعث إليه مايبعث إلى مثله، وإنما استجار به لتغلب إخوته وعمه على البلاد وخوفه منهم.

سنة إحدى وخمسين وخمسمئة

في هذه السنـة خطب الخليفة للسلطـان سليمان شاه بن محمـد ببغداد بعد خطبتـه لعمه السلطان سنجـر بن ملكشاه بـن ألب أرسلان، وتَـوَّجَهُ وطَوَّقَهُ وَسَوَّرَهُ، وأعطاه عشرين ألف دينـار، وأَحلَفَهُ على الطاعة والمناصحة وأن لايَقْصِدَ بغداد بمكروه، وأن العراق جميعـه يكون بيد الخليفة، وأن له مايفتحـه من بلاد خـراسان، فتَوجَّهُ سليمان شـاه قاصداً البـلاد وانضاف إليه ابـن أخيه ملكشاه بـن السلطان محمـود بن محمد، واحتشـدوا فسمع بهم السلطـان محمد بـن محمود بـن محمد بـن ملكشاه بـن ألب أرسـلان فسار إليهـم فانهزمـوا بين يديه، واستبـاح السلطان محمـد شاه عسكـرهم وسلبهم، وعادوا إلى بغداد عراة، ومضى سليمان شـاه هارباً إلى بغداد عن طريق الموصل فقبـض عليه زين الدين علي كوجـك واعتقله عنده وكتب إلى السلطـان محمد شـاه يحثه على قصـد بغـداد، فقصدهـا واضطربـت

العساكر بها وبعث الخليفة إلى زين الدين على كوجك يستدعيه لنجدته فتخلف عنه.

وفي هذه السنة تسلم الملك العادل نور الدين بعلبك وأبا قبيس وملكهما.

سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة وصل زين الدين علي كوجك صاحب إربل والموصل نجدةً للسلطان محمد شاه بن محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي فنازلا بغداد وحاصراها حصارا شديدا، ونصب الخليفة عليها المجانيق والعرادات، وفرّق الجواشن، فيقال أنه فرّقَ سبعة آلاف جوشن ونصب مئتين وسبعين عَرَّادَة، ونصب السلطان محمد شاه خارج البلد أربعمئة سلم ليصعدوا على الأسوار فلم تمكّنهم أهل البلد.

وبينما هَمْ على الحصار إذ وردت الأخبار بدخول السلطان ملكشاه بن السلطان محمود همذان ونهبها، وقتل أصحاب محمد شاه، فضعف أمر محمد شاه، وأقام على الحصار مدة فلم يتحصل على غرض، فرحل طالباً بلاده ورجع زين الدين علي كوجك إلى بلاده.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وبين الفرنج على صفد، فنصره الله تعالى عليهم وبعث برؤوس القتلى وتحفاً إلى بغداد.

وفيها فتح عسكر مصر غَزَّةَ واستعادوها من الفرنج، وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حماه هدمت ثلاث عشرة مدينة: حماه،

وحلب، والمعرة، وشيزر، وكفر طاب، وأفـامية، وحمص، وتل عرن، وحصن الأكراد، وعرقة، واللاذقية، وطرابلـس، وانطاكية إلا أن تأثيرها بحماه كان أشد، فانها أقلبتها، ومعظم أهلها، ولم تُبْقِ منهم إلاّ القليل.

وفيها كانت وفـاة السلطان سنجر بن السلطان جلال الـدولة ملكشاه ابـن السلطـان عضد الـدولـة ألـب أرسـلان بـن داود بن ميكـائيـل بـن سلجوق، وكـانت مـدة جلوسـه على سرير الملـك إحدى وأربعين سنـة، وكان قبـل ذلك في عـز وسلطنة، ومَلَكَ قـريباً من عشريـن سنة، فـذلك قريـب من ستين سنة، وخُطِـبَ له على أكثر منـابر الاسلام، وصَفَـتْ له خراسان وملكها وحارب أعداءه حـروباً كثيرة إلاّ أنه في آخر أمره استأسره الغُـز، وضيقوا عليـه وأجروا عليـه راتباً لايصلـح لسـائسه، وكـان يركـب معهم بتـوكيل وحَفَظَـة، ويُسَمُّونـه بالسلطـان ويقولـون: نحن رعِيَّتُـكَ ويظهرون تعظيمه.

وكانـت وفاته لست بقين من ربيع الأول، وكـان عمره اثنتين وسبعين سنة وشهوراً وعشرة أيام، ودفن في قبة بناها لنفسه، وسماها دار الآخرة.

سيرته: كان ملكـاً عظيماً، جليل القدر، مهيباً كريماً رفيقاً بـالرعية حليماً عنهـم، وكانـت البلاد آمنـة في أيامـه. ولما توفي السلطـان سنجر قُطعـت خطبته ولم يُجلَسَ له في العزاء.

وفي هذه السنـة تسلَّمَ الملـك العادل نور الـدين بانيـاس من الفـرنج، وفيهـا تسلَّم أيضـاً شيـزر، وكانـت بيـد بني منقـذ، وصَفَـتْ له البـلاد الشاميـة بأسرهـا، ثم ملـك بعد ذلـك الموصل واستتـب أمره، ولم يبـق له بهذه البلاد كلها منازع.

وفيها نزلت الفـرنج على شيزر فحاصروها وقتلوا منهـا خلقاً عظيماً، ثم عادوا إلى بلادهم.

سنة أربع وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بباب همذان، وذلك في ذي الحجة، وكان ملكاً بعيد الهمة شجاعاً.

سنة خمس وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة أفرج الأمير زين الدين علي كوجك عن السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان معتقلاً عنده كما تقدم ذكره، وتوجه إلى همذان وملكها وخُطب له بالسلطنة، ثم توفي في ربيع الآخر من هذه السنة وهو آخر من بلغني خبره من السلاطين السلجوقية ببلاد العجم، ولاشك أنه ملك بتلك الناحية منهم جماعة بعده، ولم يتصل بي خبرهم إلاّ أني أعلم أن آخر من مَلَكَ منهم هناك السلطان طغرل الأصغر بن السلطان أرسلان شاه بن السلطان طغرل بن السلطان محمد بن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود ميكائيل بن سلجوق.

وقُتل السلطان طغرل هذا في سنة ست وتسعين وخمسمئة فكانت مدة ملك السلاطين السلجوقية من حين ظهر السلطان طغرل بك بن ميكائيل إلى أن قتل طغرل الأصغر مئة سنة وأربعاً وستين سنة.

وأما السلاطين المستولون على بلاد الروم فقد رأيت جماعة من المؤرخين أنكروا أن يكونوا من السلجوقية، وقالوا إن نسبهم إلى سلجوق غير صحيح، ورأيت جماعة منهم أثبتوا لهم في السلجوقية، منهم العماد الكاتب، وسنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً من أمورهم في مواضعه.

وفي هذه السنة كانت وفاة المقتفي لأمر الله، وذلك في مستهل ربيع

الأول فكانـت مدة خلافتـه أربعاً وعشرين سنـة وثلاثة أشهـر وستة عشر يومـاً، وكان عمـره ستاً وستين سنة إلا ثمانيـة وعشرين يـوماً، وزيـره عون الديـن يحيى بن هبيرة، وهـو الذي أقام حِشْمَةَ الـدولة العباسيـة، وقطع عنها أطماع السلاطين السلجـوقية وغيرهم من المتغلبين، مـن أيام المقتفي صارت بغداد والعراق بيد الخلفاء، ولم يبـق بها منازع، وقبل ذلك من أيام المتقي كان الحكم للمتغلبين وليس للخلفاء معهم إلا الإسم.

سيرته: كـان رضي الله عنه كريماً سَمْحَـاً، محباً لقراءة الحديـث النبوي وسماعه معتنياً بالعلم، كثير الإكرام لأهل الفضل، محباً لأهل الخير.

خلافة المستنجد بالله

هو أبـو المُظَفَّر يوسـف بن المستظهر بـن المقتدي، وأمه أم ولـد تسمى طاووس، بـويع له الخلافـة لليلتين مضتا مـن ربيع الأول بعد وفـاة والده المقتفي بيوم واحـد، وكتم موته، وكان أول مـن بايعه عمه أبو طـالب بن المستظهر، ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفـي، ثم الوزير ابن هبيرة، ثم قاضي القضاة وأرباب الدولة والعلماء، واستتب له الأمر.

وحكى الوزيـر عون الدين يحيى بـن هبيرة قال: حكى لي أمير المؤمنين المستنجد بـالله قال: رأيت رسـول الله ﷺ في النوم منـذ خمس عشرة سنة فقال لي: يبقى أبـوك في الخلافة خمس عشرة سنة، فكان كما قـال، ورأيته ﷺ قبل مـوت أبي بأربعـة أشهر فدخـل بي في باب كبير، ثـم ارتقى إلى الجبـل، فصلى بي ركعتين وألبسني قميصـاً، وقال لي: أللهـم اهدني فيمـن هديت، وذكر دعاء القنوت.

وفي هـذه السنة كـانت وفـاة الفـائز بالله صـاحب مصر وعمـره عشر سنين وشهوراً، وكانت مدة ملكه ست سنين وشهوراً.

بيعة العاضد لدين الله

هو أبـو محمد عبد الله بـن يوسف بـن الحافظ، بُويـع له يوم تـوفي ابن عمه الفائز، وأُجلس على سرير الملك وخُطب له بالديار المصرية، وزوَّجَهُ الملك الصالح طلائع بن رزيك وزيره ابنته، واستولى عليه الملك الصالح استيلاءً كلياً، وَوَلَّى الصعيد الأعلى شاور البدوي.

سنة ست وخمسين وخمسمئة

في هذه السنة كان مقتل الملك الصالح بن رزيك، وكان من حديث ذلك أنه قطع أرزاق الحاشية، فتحالفوا على قتله، فقصد القصر قاصداً الاجتماع بالعاضد فوثب عليه سبعة مماليك قبل وصوله إلى العاضد فضربوه بالسيوف، وحُمل إلى بيته حياً فمات تلك الليلة.

سيرته: كان جواداً فاضلاً غزير الأدب شاعراً مُجيداً، وأكثر أشعاره في مدح أهل البيت، ومن جملة شعره قصيدته التي يعارض فيها قول دعبل ابن علي الخزاعي:

مدارس آياتٍ خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وَحْيٍ مُقْفِرِ العَرَصَاتِ

وأول قصيدة الصالح:

أَعَاذِلُ دَعْ لَوْمي على صَبَوَاتي
فما فاتَ يمحوه الذي هو آت
وما جزعي من سيئات تقدمت
ذهاباً إذا أتبعْتُها حَسَنَاتِ
ألا إنني أقلعتُ عن كل شُبْهَةٍ
وجانَبْتُ غرقى أبحر الشبهات
شُغِلْتُ عن الدنيا بحبِّي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وآخرها:

أُعارض قولاً للخزاعيّ دعبلٍ
وإن كنتُ قد أقللتُ من مدحاتي
مدارس آيات خَلَتْ من تلاوةٍ
ومنزلُ وحيٍ مُقْفِرِ العرصات

ولما قُتل الملك الصالح ولي العاضد وزارته ولده الملك العادل رزيك ابن طلائع، وخلع عليه خِلَعَ الوزارة.

ولما ولي الملك العادل رزيك بن الملك الصالح الوزارة بسط العدل في الرعية وتمكّن من الدولة.

استيلاء شاور على مصر

ثم أُشير على الملك العادل رزيك بعزل شاور عن ولاية الصعيد، فكتب إليه يستدعيه، فأوجس في نفسه خيفة، وكتب إلى الملك العادل كتاباً أظهر فيه الطاعة واستعطفه، وذكَّره سابق خدمته لأبيه، فعزم الملك العادل على إبقائه فألح عليه أهله في عزله وقالوا: إن أبقيتَه طمع فيك. فولى الملك العادل رزيك الصعيد لنصير الدين ابن شيخ الدولة، وكتب معه كتاباً إلى شاور باستدعائه إلى القاهرة وتسليم قُوص إلى نصير الدين، فلما وصل نصير الدين إلى إخميم كتب إلى شاور كتاباً وجعل كتاب الملك العادل رُزيك في طيه، فكتب إليه شاور: أنت صاحبي فارجع من حيث جئتَّ فهو خير لك فعاد نصير الدين إلى القاهرة، وجاهر شاور بالعصيان، وجمع العرب واستحلفهم وتوجه إلى القاهرة، فانهزم العادل رزيك ثم قُبض عليه فأُتي به إلى شاور مقيداً، ودخل شاور القاهرة، وحضر بين يدي العاضد فخلع عليه وحنكه واستوزره ولقَّبه بأمير الجيوش المظفر واستحلف الناس له، وجلس شاور للناس فدخلوا عليه ثلاثاً وانشدوه شعراً، ثم حَبَسَ العادل رزيك وضَيّقَ عليه.

سنة ثمان وخمسين وخمسمئة

ذكر ابتداء الدولة الأيوبية: ثبَّتَ الله أركانها وأَطَّدَ بنيانها ونَصَرَ أعوانها وخلد سلطانها ومازالت راياتها منصورة ولمعانديها مقهورة ماكرَّ الجديدان وتعاقب النيران، آمين، وكان من حديثهم فيما بلغني أن والدهم شادي بن مروان رحمه الله كان أميراً عظيم القدر، وكان مقامه بتكريت وبها توفي، وكان له ولدان هما: أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب، فاتفق أن نجم الدين أيوب ولي قلعة تكريت مدة، ثم عُزل عنها وطُلب منه المقام بتكريت من غير ولاية فامتنع، وتجهز هو وأخوه وأصحابهما وأهل بيتهما إلى الموصل فخدموا بها امراءها.

ولما وصلت المملكة إلى العادل نورالدين محمود بن زنكي قصده نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين وأهل بيتهما، فقربهم، وأكرمهم غاية الإكرام وقدمهم على غيرهم من الأمراء، وصاروا من أكابر أصحابه وأعظم أرباب دولته.

ولما ملك نور الدين البلاد الشامية، واستولى عليها، كانوا في صحبته وملازمين له في سفره وحضره لايفارقونه في وقت من الأوقات.

وكان العادل نور الدين رحمه الله إذاحَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ في المشورة إلى نجم الدين أيوب رحمه الله وتيمن برأيه.

وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب يقوم يومئذ على رأس نور الدين رحمه الله في الخدمة مع جملة خواصه وأولاده، وكان نور الدين يعظِّمه ويكرمه، وينزله منزلة الولد، وينزل أباه وعمه منزلة الإخوة والأهل لما كان يعرفه منهم من جميل الطريقة ومحمود السيرة وطهارة الأصل وشرف المحتد، واقتبس صلاح الدين من نور الدين من مبادىء الخيرات وجميل الصفات ما اتصف بها، وزاد عليها وجاوزها.

ولما كانت هذه السنة قَدِمَ شاور وزير العاضد صاحب مصر إلى دمشق، وذلك لستٍّ مضين من ربيع الأول واجتمع بالملك العادل نور الدين رحمه الله، ووصف له الديار المصرية، وضُعْفَ أهلها، وضمن له أنه إن بعث معه عسكراً أخذها له.

وكان السبب في قصد شاور إلى الشام وإطماعه نور الدين بديار بمصر أن شاور كان لما استقَلَّ بالملك بمصر نَقَصَ أرزاق الجند وعَسَفَهُم فتعاقدوا على قتله ومن جملتهم رجل يقال له الضرغام، فبلغ شاور ذلك فخرج ليلاً طالباً الشام، فخرج الضرغام وجماعة خلفه ليقبضوا عليه فلم يدركوه، وعاد الضرغام إلى مصر فخلع عليه العاضد واستوزره ولقَّبه الملك المنصور، واستحلف له الأمراء، فَقَتَل الضرغام من الأمراء الذين كانوا مع شاور وكاتبوه مايزيد على سبعين أميراً سوى اتباعهم.

مسير أسد الدين شيركوه الأول إلى مصر

ثم إن الملك العادل نور الدين رحمه الله جهز جيشاً كثيفاً لفتح مصر وقَدَّم عليهم الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي رحمه الله، فتوجه إلى مصر وفي خدمته شاور، ولما وصلوا إلى مصر علم الضرغام أنه قد أُحيط به فأتى إلى قصر الخلافة ونادى:ياMolana يامولانا، فلم يُجَبْ، ووردت إليه رقعة مكتوب فيها خذ لنفسك وانج بها. فيَئِسَ من الحياة وخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه وقتلوا معه أخويه ملهماً والحسام، ولم يَتَأَتَّ لأسد الدين الاستيلاء على مصر في هذه السنة، وأعاد العاضد شاور إلى وزارته، فانحرف عن أسد الدين وَبَايَنَهُ، واستنصر بالفرنج عليه، فلما رأى ذلك أسد الدين كرَّ راجعاً إلى الشام.

-٩٩٥٦-

سنة تسع وخمسين وخمسمئة

في هـذه السنة كسر الملـك العـادل نور الـديـن رحمه الله الفرنـج على حارم، وتَسَلَّمها وأخذ القـومص والإبرنس أسيرين، وكان ذلـك من فتوح الإسلام الجليلة.

سنة اثنتين وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الديـن الثاني إلى مصر، وكان من حديث ذلك أن الملـك العادل نور الـدين رحمه الله جهز أسـد الدين شيركـوه بن شادي في عسكـر كثيف مـن العساكر النـوريّة إلى مصر، وذلـك في ربيع الأول فسـار إلى مصر، ونزل بـالجيـزة وأقـام محاصراً لها نيفاً وخمسين يـومـاً ومعه ابن أخيه صـلاح الدين يوسف بن أيـوب رحمه الله، فاستنجد شاور بـالفرنـج وأَذِنَ لهم في دخـول مصر لنجدتـه، فقـدموا طـالبين مصر، فلما عـرف أسد الـديـن بمجيئهـم رحل مـن بين أيـديهم إلى مـوضع يعـرف بـالبابين، فعبـأ أصحابـه وجرى بينـه وبين المصريين حرب نصر الله فيهـا أسـد الـدين وقُتـل مـن الفـرنج أُلـوف وأُسر منهـم سبعـون فارسـاً مـن بارونيتهـم، ثـم سار أسد الديـن وابن أخيه صلاح الـدين رحمهما الله تعالى إلى الاسكندرية فملكها، وولى فيهـا أسد الدين ابن أخيه صـلاح الدين، وخرج أسد الدين إلى الصعيد فأقام به يجبي الخراج.

وأقام الفرنج بالقاهـرة حتى استراشوا وجددوا آلات الحرب، ثم قصدوا الاسكندرية وبها صلاح الـدين يوسف بن أيوب فحـاصروها أربعة أشهر، وكـان أهل الاسكنـدريـة مؤثـريـن للغُـزّ كارهين للـدولـة المصرية، لميـل الاسكندرانيين إلى السُّنَّـةِ وكراهيتهم للبدعـة، فقاموا بنصرة صلاح الـدين أحسن قيام.

وسارأسد الدين من الصعيد بجموعه طالباً للفرنج، فلما قرب منهم رحلوا، ثم وقعتْ هدنة بين أسد الدين وشاور على أن ينصرف أسد الدين إلى الشام، ويحمل إليه شاور عوض ماأنفقه فبذل له خمسين ألف دينار، فأخذها ورحل بسجموعه إلى الشام.

سنة ثلاث وستين وخمسمئة

في هذه السنة أنعم الملك العادل نور الدين على أسد الدين شيركوه ابن شادي بحمص وأعمالها، فتسلمها وصار فيها.

سنة أربع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كان مسير أسد الدين الثالث إلى مصر، وخبر ذلك أن الفرنج قصدت الديار المصرية، وذلك لأنهم دخلوها مرتين، كما سبق ذكره، واطَّلَعوا على عوراتها، وعرفوا جهاتها، وطمعوا في أخذها، فجمعوا جموعاً عظيمة، وأظهروا أنهم قاصدين حمص، وكان الملك العادل مشغولاً بجهة الفرات والشمال، فتوجهوا من عسقلان في المحرم فوصلوا إلى بلبيس فحاصروها وملكوها، واستولوا على أهلها قتلاً وأسراً.

ثم نزلوا على القاهرة فحاصروها، فأحرق شاور مصر خوفاً من الفرنج، فلما ضايقوا القاهرة بعث شاور إلى ملك الفرنج مُري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها مؤجل وبعضها معجل فأجابه مُري إلى الصلح، وحلف له عليه، فحمل إليه شاور مئة ألف دينار، وماطَلَهُ بالباقي، وكتب إلى الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي يستصرخ

به، وسَـوَّد كتبه، وجعل في طيِّهـا ذوائب النساء، وواصل كتبـه إلى الملك العادل نـور الدين، وكان مقيماً بحلـب، فسار أسد الديـن من حمص إلى حلب في ليلة واحدة فجمعـا العساكر وسارا إلى دمشق وعرضـا العساكر على الفور، ثم سار أسد الدين إلى مصر في سبعين ألف فارس وراجل (٦) فلما بلغ الفرنج قدومه رحلوا عن مصر راجعين إلى الساحل.

استيلاء أسد الدين على مصر

ثـم دخل أسـد الديـن القاهـرة لثلاث عشرة مضين مـن ربيع الآخـر، وجلس في الإيـوان وخلع عليـه خلع السلطنة، ثـم ولاه العاضـد وزارته وكتب له عهداً نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليِّـه أبي عبد الله بن يوسـف، الامام العاضد لـدين الله، أمير المؤمنين، إلى السيـد الأجـلّ الملـك المنصـور سلطـان الجيـوش، ولي الأئمـة مُجير الأمّـة أسد الـديـن، كـافـل قضاة المسلمين، وهـادي دعـاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله بـه الدين، وأَمْتَعَ بطول بقـائه أمير المؤمنين وأدام قدرتـه وأعلى كلمته، سـلام عليك فـإنا نحمـد إليك الله الـذي لا اله إلا هـو ونسألـه أن يصلي على عبده محمـد خاتـم النبيين وسيـد المرسلين وعلى آلـه الطـاهـريـن والأئمـة المهـديين ويسلـم تسليماً .

ثـم اتبع ذلـك خطبتين فيهما مواعـظ ووصايـا، وأنه قـد قلده الـوزارة وفوض إليه تدبير الـدول، بألفاظ رائقة ومعان فائقة كرهنـا ذكرها مفصلة خيفةً من التطويل.

وكتب العاضد بخطه على أعلى المنشور ماصورتُهُ:

هذا عهد لم يعهد بمثله، فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بنوة النبوّة واتّخِذْهُ للفوز سبيلاً، (ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليها كفيلا (٧)).

مقتل شاور

وكان مقتله قبل أن يستوزر العاضد أسد الدين، وحديث ذلك أن أسد الدين لما دخل القاهرة قام شاور بضيافة عسكره وأكثر من التردد إلى خدمة أسد الدين، فطلب منه أسد الدين مالاً ينفقه على الأجناد فماطله شاور به، فبعث إليه الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري يقول له: إن العسكر طلبوا نفقاتهم وقد مطلتهم بها وتغيرتْ قلوبهم عليك، فإذا أتيتني فكُنْ على حذر منهم. فلم يؤثر ذلك عند شاور شيئاً وأتى أسد الدين مسترسلاً فاعترضه صلاح الدين يوسف بن أيوب وجماعة من الأمراء النورية فقبضوا عليه، فجاءهم رسول العاضد يطلب رأس شاور فقتل وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في اليوم الذي دخل فيه أسد الدين القاهرة، فقلد العاضد حينئذ أسد الدين الوزارة كما ذكرناه وولاه ماوراء بابه.

وفاة الملك المنصور أسد الدين رحمه الله

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور أسدالدين أبوالحارث شيركوه بن شادي قدس الله روحه، وذلك يوم الأحد لثمان بقين من جمادى الآخرة فكانت مدة استيلائه على الديار المصرية خمسة وستين يوماً.

استيلاء الملك الناصر صلاح الدين على مصر

ولما توفي الملك المنصور أسد الدين قلّد العاضد الوزارة بموافقة من الأمراء النورية للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ابن شادي، ولقبه الملك الناصر، وخلع عليه، وكتب له منشوراً بخط القاضي الفاضل وإنشائه، فقام الملك الناصر بالوزارة وتدبير الممالك أحسن قيام، واستمال قلوب الناس بالخلع والهبات وجهز الكتب والخلع إلى الشام، وساس الناس أحسن سياسة.

نوبة السودان وقتلهم

وكان من حديثهم أن خصياً يقال له مؤتمن الخلافة، كان زمام القصر بمصر، فاجتمع بمن في القصر وحالفهم، وكاتبوا الفرنج ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر، فظفر الملك بالكتاب ووقف عليه فأنهض إلى مؤتمن الخلافة جماعة فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوه به، فغضب السودان لذلك واجتمعوا فيما يزيد على خمسين ألفاً، فقاتلهم الملك الناصر بعساكره، فكسرهم واستباح دماءهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وهرب من سلم منهم.

وكانت لهم محلة كبيرة على باب زويلة فأمر الملك الناصر بتعفيتها فحرثها بعض الأمراء وجعلها بستاناً، وضعف أمر العاضد من حينئذٍ.

سنة خمس وستين وخمسمئة

في هذه السنة نزلت الفرنج على دمياط في مستهل صفر فحاصروها واحداً وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين.

- ٥٦١هـ -

قدوم نجم الدين رحمه الله إلى مصر

في هذه السنة قدم الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي قدس الله روحه إلى مصر، فخرج العاضد إلى لقائه بنفسه ومعه الملك الناصر صلاح الدين ومَنْ دُوْنَهُما، وكان يوماً مشهوداً، وكان ذلك لستٍّ بقين من رجب.

استيلاء الملك العادل نور الدين على سنجار والموصل

وفي هذه السنة توجه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى سنجار فحاصرها حصاراً شديداً ثم تسلمها بالأمان، ثم توجه إلى الموصل فحاصرها وقطع الميرة عن أهلها فوقع الصلح بينهم على تسليمها لنور الدين فدخل نور الدين الموصل ورتب أمورها وبنى بها الجامع النوري، ووقف عليه الوقوف الجليلة.

وفيها كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب وذلك لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال، فيقال أنه هلك بها تحت الروم خمسة عشر ألف إنسان، ذكر أنها عمت معظم البلاد حتى جاءت في سبته من بلاد المغرب.

سنة ست وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة المستنجد بالله وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وأياماً، وكان عمره ثمانياً واربعين سنة.

سيرته:

كان رضي الله عنه محباً للعلم منكراً للظلم كثير الصدقات مهيباً

مخوفاً، ذا سطوة وعزيمة، وبأس شديد، ولـه شعر جيد من جملته قوله في الشمعة:

وصفـــراءُ مثلي في القيـــاس ودَمْعُهـــا
سِجـــامٌ على الخدَّيـــن مثـــل دمـــوعـــي
تـــذوب كما في الحُبِّ ذُبْـــتُ صَبـــابـــةً
وتحوي حشـــاهـــا مـــا حَـــوَتْـــهُ ضلـــوعـــي

خلافة المستضيء بنور الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي ابن الذخيرة بـن المنذر بن القائم بـن القادر، وأمه أم ولد أرمنيـة تدعى غَضَّة، بويـع له بالخلافة يوم تـوفي والده المستنجد بالله، ومـدحه الحيص بيص بقوله:

أقـــول وقـــد تـــولى الأمـــر خَيْرٌ
وَلِيٌّ لم يـــزل بَـــرّاً تَقِيّـــا
وقـــد كُشِـــفَ الظـــلام بمستضيء
غـــدا بـــالخلـــق كلهـــم حفيـــا
وفـــاض الجود والمعـــروف حتـــى
حسبنـــاه عُبَـــابـــاً أو أَتِيّـــا
بَلَغْنـــا مـــا كنـــا نُـــرجِّـــي
هنيئـــاً يـــا بنـــي الـــدنيـــا هَنِيّـــا
ســـألنـــا الله يـــرزقُنـــا إمـــامـــاً
نُسَرُّ بـــه فـــأعطـــانـــا نَبِيّـــا

ولما استوسـق الأمر لأمير المؤمنين المستضيء، بعث رسلـه إلى الأقطار مبشرين بخلافته، ومهنئين بإيالته.

إقامة الدعوة العباسية بمصر

في هذه السنة خطب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر لأمير المؤمنين المستضيء بنور الله رضي الله عنه في أول جمعة من المحرم والعاضد حي، ثم كانت وفاة العاضد لدين الله في يوم عاشوراء بعد إقامة الخطبة بأيام قلائل، وهو آخر خلفاء مصر.

فلما كانت الجمعة الثانية خطب بالقاهرة للمستضيء ورجعت الدعوة العباسية بمصر بعد أن كانت قطعت بها أكثر من مئتي سنة (٨)، وتسلم الملك الناصر قصر الخلافة بالديار المصرية، واستولى على ماكان به من الأموال والذخائر، وكانت عظيمة الوصف، جليلة القدر، وقبض على أولاد العاضد وأهل بيته واعتقلهم في مكان واحد بالقصر، واحتاط عليهم وأجرى عليهم مايمونهم، وعفا آثارهم وقمع مواليهم وسائر أسبابهم.

قلتُ: وكانت هذه الفعلة من أشرف أفعال الملك الناصر رحمه الله، وأقربها إلى الله تعالى، فلنعم مافعل فإن هؤلاء القوم كانوا باطنية زنادقة (٩) دعوا إلى مذهب التناسخ واعتقاد حلول الجزء الإلهي في أشباحهم.

وقد ذكرنا ان الحاكم قال لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً يعتقدون أنك إله. وقد مدح بعضُ الشعراء بعضَهم، وأظن الممدوح الحاكم (١٠)، حكم الله عليه بالنقمة بقصيدة أولها:

ماشئتَ لا ماشاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فلعَنَ الله المادح والممدوح وليس هذا في القبح إلا كقول فرعون: (أنا ربكم الأعلى) (١١)

وقال بعض شعرائهم يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون، الذي هو في الحقيقة مُضِلُّهُم وقائدهم إلى النار برقادة [١٢] من عمل القيروان:

حَــلَّ رَقَّـــادَةَ المسيـــحُ حَــلَّ آدمٌ ونـــوح
حَـلَّ بها الله في عُــلاهُ وما ســوى الله فهـو ريـح

وهذا أعظم كفراً من النصارى بكثير، لأن النصارى يزعمون أن الجزء الإلهي حل بناسوت ابن مريم فقط، وهؤلاء يعتقدون حلوله في جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع الأئمة فلعن الله قائل هذه المقالة لعنة لاتفارقه إلى يوم الدين.

هذا اعتقادهم، فأما نسبهم فَأَئِمَّةُ النسب يجمعون على أنهم ليسوا من ولد علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، ولا من قريش أصلاً، وقد ذكرنا فيما مضى أن القادر بالله كتب محضراً يتضمن القَدْحَ في أنسابهم ومذاهبهم، وأنه شهد في ذلك المحضر خلق من الأكابر منهم الشريفان الرضي والمرتضى وأبو حامد الاسفرائيني، وأبو جعفر القدوري وغيرهم.

وكان عمارة الشاعر اليمني متوالياً لهم، فلما زالت دولتهم قال يرثيهم بقصيدة أولها:

رَمَيْـتَ يـادهــر كــف المجــد بالشلــل
وَجِيْــدَهُ بعـــد حُسْـــنِ الحلى بـــالعَطَـــلِ
سعيـــتَ في منهـــج الـــرأي العَثُــور فـــإنْ
قَـدِرتَ مـن عثـرات الـدهـر الجَلْي فـاسْتَقِـلِ
جَـدَعْـتَ مـارنـك الأقنـى فَـأَنْفُـكَ لا
يَنْفَــكُّ مـــا بين أمــر الشَّيْـــنِ والخجـــل
هَـدَمْـتَ قـاعـدة المعـروف عَـنْ عَجَـلِ
سُقَيْـــتَ مُهْـــلاً أمـــا تمشي على مَهَـــلِ
لهفـــي ولهف بنـــي الآمـــال قـــاطبـــةً
على فجيعتهـــا في أكـــرم الـــدُّوَل

قـــدمـــت مصر فـــأولاني خـــلائفهـــا
مـــن المكـــارم مـــا أربـــى على أَمَلي
قـــومٌ عـــرفـــتُ بهم كَسْـبُ الأُلُـــوف ومَـــنْ
كَمَالِهَا أنَّها جـــاءت ولم أسَـــلِ
يـــا عـــاذلي في هـــوى أبنـــاء فـــاطمـــةٍ
لـــك الملامـــة إن قصَّرْتُ في عَـــذَلِ
بـــالله زُرْ ســـاحـــة القصريـــن وَابْـــكِ معـــي
عليهما لاعلى صِّفيْنَ والجمـــل
وَقُـــلْ لأهليهما والله مـــا الْتَحَمَـــتْ
فيكـــم جـــراحـــي ومـــا قَـــرْحـــي بمنـــدمـــل
مـــاذا تـــرى كـــانـــت الافـــرنـــج فـــاعلـــةً
في نســـل آل أمير المؤمنين علي
وقـــد حصلتـــم عليهـــا واســـم جَـــدِّكُـــمُ
محمـــدٌ وأبـــوكُـــمْ خَيْرُ مُنْتَعِـــلِ
مـــررتُ بـــالقصر والأركـــان خـــاليـــةٌ
مـــن الـــوفـــود وكـــانـــت قِبْلَـــةُ القُبَـــلِ
فَمِلْـــتُ عنهـــا بـــوجهـــي غير مُنْتَقَـــد
مـــن الأعـــادي وَوَجْـــهُ الـــودِّ لم يَمُـــلِ
أسبلـــتُ مـــن أسفـــي دمعـــي غـــداة خَلَـــتْ
رحـــابكـــم وَغَـــدَتْ مهجـــورة السُّبُـــلِ
والله لا فـــاز يـــوم الحشر مبغضكـــم
ولا نجـــا مـــن عـــذاب النـــار غَيْرُ ولي
ولا سقـــى الماء مـــن حَـــرٍّ ومـــن ظمـــأٍ
مـــن كـــفِّ خير البرايـــا خـــاتـــم الـــرسل
أَئِمَّتِـــي وهُـــداتي والـــذخيرة لي
إذا ارتهنـــتُ بما قَـــدَّمْـــتُ مـــن عملي
بـــالله لم أُوْفِهِـــمْ في المدح حَقَّهُـــمُ
لأن فَضْلَهُـــم كـــالْـــوا بـــل الهطِـــلِ

وإن تضاعفت الأقوال واستبقت
ماكنت فيهم بحمد الله بالخجل
بان النجاة فهم دُنْيا وآخرةٌ
وحُبُّهمْ فهو أصل الدين والعمل
أئِمَّةٌ خلقوا نوراً فَنُورُهُمُ
من نور خالص نور الله لم يُفلِ
نور الهدى ومصابيح الدجى ومَحَـ
ـلُ الغيث إنْ وَنَتِ الأنواء في المَحَلِ
والله لو زلت عن حبي لهم أبداً
ما أخرَّ الله لي في مُدَّةِ الأَجَلِ

سنة ثمان وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن شادي رحمه الله، وذلك بمصر في سابع عشر من ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه الملك المنصورقدس الله روحهما، وأدام النعمة على خلفهما، ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فَدُفِنَا بها قريباً من الحجرة النبوية.

سنة تسع وستين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك العادل نور الدين رحمه الله ورضي عنه، وذلك بمدينة دمشق في شهر شوال بعد أن عهد بالسلطنة إلى ولده الملك الصالح اسماعيل بن محمود زنكي.

سيرته:

كـان رحمه الله ملكـاً عـابـداً زاهـداً ورعـاً مجاهـداً في سبيـل الله، كثير الصـدقات والبر والاحسـان، بنـى الجوامع والبيمارستـانـات في أكثر بـلاد الشام والموصـل، وبنى الربـاطات للصـوفية والفنادق في المنـازل، وأَثَّرَ في الاسلام آثـاراً لم يَسْبِقه أحـد من الملـوك إليها، وكـان سخياً كـريماً صالحاً معـدوداً مـن الأبدال، وانتـزع مـن الكفـار نَيِّفَاً وخمسين مـدينـة رحمه الله، ورضي عنه.

ولما تـوفي أجلس في الملـك بَعْـدَهُ ولدُه الملـك الصـالـح اسماعيل بـن محمود، ثم مضى بجموعه إلى حلـب ومعه الأمير كمشتكين وسابق الدين عثمان واسماعيل الخازن، واستخلـف بدمشـق الأمير شمس الـدين محمـد ابن المقدم.

سنة سبعين وخمسمئة

في هذه السنة كـان استيلاء الملك الناصر على دمشق، وحـديث ذلك أن الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بن أيوب رحمه الله سار من الديار المصريـة بجموعـه إلى دمشق، فـوصـل إليها وتسلمهـا بغير قتال، وكـان ذلك بوضـع من شمس الدين ابـن المقدم وبطانته، ثم خـرج منها الملك الناصرمتـوجهاً إلى حمص فَعَصَتْ عليـه قلعتها، فتوجـه إلى حماه، وملكها في مستهل جمادى الآخـرة، ثم سار إلى حلب حـاصرها جميع هـذا الشهر، واشتـد على الملـك الصالـح وأصحـابـه الحصار فـاستغـاثـوا بالبـاطنيـة وواعـدوهم بـالأمـوال، فجاء نفـر منهـم فعـرفهم الأمير نـاصـح الديـن خمارتكين صاحب أبي قبيس فقتلوه وقُتلوا عن آخرهم.

ثم عاد السلطـان الملك الناصر إلى قلعة حمص فحاصرهـا بقية رجب، وتسلمهـا بالأمـان في شعبـان بعـد قتال شـديـد، ثـم تَوجَّـه إلى بعلبـك فتسلمها في شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

كسرة المواصلة على القرون:

ثم اجتمع الحلبيون والمواصلة، وتوجهوا إلى حماه فحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها والتقى الفريقان بقرني حماه فكانت الكَرَّة للسلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، وانهزم المواصلة أقبح هزيمة فحقن السلطان دماءهم ونَهْبَ أموالهم، ثم تقدم إلى قرا حصار من عمل حلب، ثم وقَعَ الصلح بين السلطان والمَوَاصِلَةَ والحلبيين على أن يكون له مابيده من الشام إلى آخر بلدحماه والمعرة وكفر طاب، مضافة إليه، وحلفوا له على ذلك وعاد فنزل على حماه ووصلته رسل أمير المؤمنين المستضيء رحمه الله بالتهنئة والتحف الجليلة والتشريفات، ثم تجهز السلطان إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد وأقطع حماه خاله شرف الدين محمود، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ثم توجه إلى دمشق.

سنة إحدى وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على تل السلطان، وحديث ذلك ان المواصلة نكثوا عهدهم وحنثوا في يمينهم التي حلفوها للسلطان الملك الناصروو افوا من الموصل في جموع كثيرة فخرج إليهم السلطان الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان يوم الخميس العاشر من شوال، فكسر المواصلة فولوا مدبرين لايلوون على شيء واستولى عليهم السلطان أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على خيمهم وأمتعتهم، ثم أحضر الأمراء الذين أسرهم، فخلع عليهم وأطلقهم، ثم صار إلى بزاعه فتسلمها، ثم إلى منبج ففتحها واستولى عليها، ثم سار إلى حصار عزاز.

سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

في هذه السنة حاصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين حلب مدة، ثم وقع الصلح بينه وبين الحلبيين، وأبقى على الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل نور الدين، ورد عليه حصن عزاز، وعاد السلطان إلى مصياف بلد الباطنية، فنصب عليه المجانيق وأباح قتلهم وتخريب بلادهم فتضرعوا إلى شهاب الدين صاحب حماه خال السلطان فسأل فيهم فرحل عنهم إلى دمشق، ثم توجه إلى مصر، فأمر ببناء السور الأعظم المحيط بالقاهرة ومصر، وبإنشاء القلعة بجبل المقطّم، فشرع فيه، ثم توجه إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي فكان يتردد إليه الخميس والسبت، ثم عاد إلى مصر وبنى تربة الشافعي رضي الله عنه، ثم خرج إلى الفاقوس فخيَّم بها إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين (١٣) .

سنة ثلاث وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة الرملة وكان من حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله خرج من القاهرة لثلاث مضين من جمادى الأولى لجهاد العدو، وخيَّم ببلبيس، ثم سار إلى عسقلان فسبى وغنم وأسر من الفرنج جماعة، وضرب أعناقهم، ثم مضى إلى الرملة فاعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت أثقال عساكر المسلمين في العبور عليه، وبينما هم كذلك وإذا الفرنج قد أشرفت على المسلمين بأطلابها، وحملوا على المسلمين فانهزموا وتفرقوا وثبت السلطان الملك الناصر وابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وأبليا بلاء حسناً واستشهد من المسلمين جماعة منهم شهاب الدين أحمد ولد الملك المظفر رحمه الله، ثم جاء الليل وقد احتوت الفرنج على أثقال المسلمين، فلم

يبـق لهم قدرة على مـاء ولا زاد ودليـل، وتعسفوا في تلـك الـرمال حتـى وصلـوا إلى مصر، وقـد هلـك خلـق من النـاس والـدواب، وضَـلَّ خَلْـقٌ فأخذهم الفرنج أسرى، وجملة الأمر أنها كانت نوبة صعبة على المسلمين.

في هذه السنـة نزلت الفـرنج على حماه، وهـي يومئذ بيـد الأمير شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطـان، وكان مريضاً مجهوداً، وكان الأمير سيف الـدين المشطـوب قريباً مـن حماه فدخلهـا واجتمعت إليـه رجال، وزحفت الفرنـج إلى حماه فقاتلهـم المسلمون قتـالاً شديدا مدة أربعـة أيام ثـم رحلـوا عنهـا، فنـزلـوا على حارم ونصبـوا عليهـا المجـانيـق والسـلالم وحاصروها حصاراً شديداً مدة أربعة أشهر، ثم رحلوا عنها إلى بلادهم.

ولما عاد السلطـان من الرملـة إلى مصر بمن معه أقـام بها إلى السادس والعشرين مـن شعبان ثـم خرج منهـا بعد أن استخلـف على مصر أخاه الملك العـادل، فأقـام مخيماً على البركة بقيـة شعبان وجميـع شهر رمضـان حتى تكاملت عنده العساكر وَعَيَّدَ بالبركة عيد الفطر.

وكـان قـد بلغـه نـزول الفــرنـج على حماه، فـأسرع في السير رجـاء أن يُدركهم فيُوقِـع بهم، وكان وصوله إلى دمشق لِستٍّ بقين مـن شوال فأقام بها إذ تحقق رحيل الفرنج عن حماه.

وفي هذه السنـة عصى الأمير شمس الديـن محمد بن المقـدم ببعلبك، وامتنع مـن الحضور عند السلطان، فكـاتبه السلطان ورَفَقَ بـه فلم يُجب، ولم يَزَلْ على امتناعه إلى أن دخلتْ سنة أربع وسبعين وخمسمئة.

وفي هذه السنـة سار السلطان الملـك الناصر صلاح الـدين إلى حمص ليكـون في مقابلـة الفرنـج لأنـه بلغه أنهم اجتمعـوا تحت حصن الأكـراد وعزمـوا على الغارة، ولما أَمِنَ مِـنْ غارتهم سار إلى بعلبـك ونزل بظاهـرها

على رأس العين التي بها، فأقام عليها أشهراً يُراوِدُ شمس الدين على الرجوع إلى طاعته، وهو يأبى عليه، ولايزداد إلا عصياناً ولجاجاً، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن دخل شهر رمضان، فأجاب شمس الدين بن المقدم لتسليم بعلبك إلى السلطان على عَوَضٍ طَلَبَهُ، فتسلمها السلطان، وأَنْعَمَ بها على أخيه الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب.

ثم سار السلطان إلى دمشق في شهر شوال، ثم رَغَّبَ السلطان أخاه الملك المعظم في إقطاع أَقْطَعَه إياه بالديار المصرية، فمضى إلى مصر وتسلم السلطان بعلبك وذلك في ذي القعدة.

وفي هذه السنة أنعم السلطان الملك الناصر على ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهان شاه بن أيوب بحماه، والمعرة، وأفامية، ومنبج، وقلعة نجم، فتسلمها، وبعث نوابه إليها، وذلك بعد أن توفي شهاب الدين خال السلطان.

سنة خمس وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وقعة مرج العيون، ومن حديثها أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان نازلاً بتل بانياس، يبعث سراياه إلى الفرنج، ولما كان ثاني شهر المحرم ركب السلطان في جمع يسير ووقف في بعض الطرق، فرأى راعي أغنام وأبقار قد جفلتْ، فسأله السلطان عن الفرنج فأخبره بقربهم، فعاد السلطان إلى مخيمه، وأمر ا لعسكر بالركوب فركبوا، وسار بهم السلطان إلى أن أشرف على الفرنج وهم ألف قنطارية، وعشرة آلاف مقاتل مابين فارس وراجل وفيهم بارزان وابنه بادين وأود مقدم الداويَّة، وجماعة فحملوا حملة عظيمة على المسلمين فثبتوا لهم، ثم حمل المسلمون عليهم فولوا الأدبار

منهـزمين، وركب المسلمـون أكتافهـم فقتل آكثـرهم، ونجـا منهم الأقـل وأُسر منهم مئتان ونيّف وسبعون أسيراً، منهم بـادين بن بارزان، وأود ابن القومصيـة وأَخَوَا صاحـب جبيل، فحملـوا إلى قلعة دمشق فـاعتقلوا بها، فأما ابن بارزان فاستَفَكَّ نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير من المسلمين، واستفك ابن القومصية نفسه أيضا بجملة، ومات أود في السجن.

وفي هذه السنـة كانـت وفاة المستضيء بنـور الله، وذلك لليلتين مضتـا من ذي القعدة، وكانت خلافته تسع سنين وأشهراً.

سيرته: كان رضي الله عنه عادلاً جـواداً، مؤثراً للخير بعيداً، عن الشرّ، كثير الصدقات والمعروف، متكثراً من العلماء محبـاً لهم، وخُطب له بالديار المصرية واليمـن، وكانت الـدعوة العباسيـة منقطعة بها من زمـن المطيع، وقد ذكرنا ذلك.

ولما ولي المستضيء بـالخلافة أظهـر من العـدل والكرم ببغـداد مالم يُـرَ مثلُه في السنين المتطاولـة، ونادى برفع المكوس والمظـالم، وردَّ أملاكاً كثيرة كانـت غُصِبت من مُـلاَّكها إليهم، وفَـرَّقَ أموالاً جـزيلة على بني هـاشم والفقهاء والصوفية وغيرهم.

خلافة الناصر لدين الله أمير المؤمنين

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر، وأمه أم ولد يقال لها[زمرد خاتون] بويع له بالخلافة ببغداد يوم توفي والده المستضيء وكان عمره يوم بويع له ثلاثا وعشرين سنة وشهوراً.

ولما بويع مدحه أمين الدولة أبوالفتح[سبط] ابن التعاويذي بقصيدة أولها:

طاف يسعى بها على الجُلاَّسِ
كقضيب الأراكة الميَّاس
ورأى الغانيات شيبي فأعْرَضْـ
ـن وقُلْنَ الشباب خير الناس
كيف لا يفضُلُ السواد وقد أضحـ
ـحى شعاراً على بني العباس
أمناء الله الكرام وأهل الجـ
ـود والحلم والتقى والباس
ولقد زُيِّنَتِ الخلافة منهم
بإمام الهدى أبي العباس
مَلِكٌ جَلَّ قُدسُهُ عن مثالٍ
وتعالتْ آلاؤُهُ عن قياس
يا لها بيعةً أَجَدَّتْ من الاسـ
ـلام بالي رسومه الأدراس
وَلِيَ اللهُ أمرَهَا فَلَهُ المنَّـ
ـةُ فيها عليه لا للناس (١٤)

سنة ست وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة بسط الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين العدل، وأَمَرَ بإراقة الخمور، وكَسْرِ الملاهي وإزالة المكوس والضرائب، فعمرت البلاد، وكثُرت الأرزاق، وقصد الناس بغداد من أقطار الأرض، وتَيَمَّنَ الناس بخلافته وتبركوا بإيالته.

وفيها تَوَجَّه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله إلى بلاد الأرمن فنزل على حصن المناقير ففتحه وهدمه، وكان صاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بين السلطان وابن لاون على خمسمئة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، ثم عاد السلطان إلى حمص فنزلها، وأتته رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين بالتقليد والتشريف له بالسلطنة والزعامة، وركب السلطان في الخلعة، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار السلطان إلى الديار المصرية.

سنة سبع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنة كانت وفاة الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب، فوصل إلى حلب ابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل، واستولى على خزائنها، ثم علم أن الأمر بها لايتم له مع وجود السلطان الملك الناصر، فطلب من أخيه عماد الدين زنكي ابن مودود بن زنكي صاحب سنجار أن يعطيه سنجار ويعوضه عنها حلب ففعل، وأقام عماد الدين زنكي بحلب، ومضى عز الدين إلى سنجار فتسلمها.

وفي هـذه السنـة بعـث السلطـان أخاه ظهير الـديـن سيـف الإسـلام طغتكين بن أيوب إلى ا ليمن، فملكها واستولى على بلادها.

سنة تسع وسبعين وخمسمئة

في هذه السنـة توجه السلطان الملـك الناصر من مصر إلى دمشـق، ثم خرج إلى بيسـان وطبرية غازيـاً، وجرى بينه وبين الفـرنج قتال، ثـم سار السلطان إلى البيرة وقطع منها الفرات، وسار إلى الـرَّها ففتحها، ثم مضى إلى الـرقة ففتحهـا ثـم إلى نصيبين ففتحها، ثـم سـار إلى الموصل فنـازلها وصاحبهـا عز الدين مسعـود بن مودود بن زنكـي ، فاستشفع عز الـدين بـالخليفة النـاصر لـدين الله فشفـع فيـه فرحـل عنـه السلطان ونـزل على سنجار فحاصرها، ثم تسلمها وأسقط عنهم المكوس.

ثـم عادالسلطـان إلى حران فـأقام بها، ثـم توجـه إلى حرزم وكتـب إلى الخليفـة يطلب منـه تقليداً شريفـاً بآمـد، فوصلـه التقليد في ذي الحجـة، فسار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذي الحجة.

سنة ثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة فتح السلطان آمـد، وذلك بالأمـان في العشر الأُوَل من المحرم وسلمها إلى نور الدين محمد بـن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، لأنه كـان وعده بها، وكتـب له بها وبأعمالها تقليـداً، فتسلمهابما فيهـا من الذخائر.

وفي هذه السنة توفي عز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب ابن أخي السلطان، فاشتد حزن السلطان عليه وكان نائبه بدمشق، ففوض السلطان نيابته بها إلى شمس الدين محمد بن المقدم.

استيلاء الملك الناصر على حلب

ولما فتح السلطان آمد ووهبها لنور الدين محمد سار إلى حلب فحاصرها أشد حصار، ثم وقع الصلح بين صاحبها عماد الدين زنكي والسلطان على أن يُعَوِّضَهُ السلطان عن حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وتسلم السلطان رحمه الله حلب في ثاني عشر صفر من هذه السنة، فامتدحه القاضي محيي الدين بن القاضي زكي الدين قاضي القضاة بدمشق بقصيدة منها:

وَفَتْحُكُم حلباً بالسيف في صفرٍ
مُبَشِّرٌ بفتوح القدس في رجب

فتفاءل السلطان بذلك، واتفق وقوع الأمر على ما أخبر، فإن القدس فتح في سنة ثلاث وثمانين في شهر رجب كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولما فتح حلب واستولى على معاقلها جميعها، ولم يبق منها معقلٌ غير حارم مع أحد المماليك النورية، فسار إليها السلطان وتسملها، ثم أنعم السلطان بحلب على أخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب.

ثم جمع السلطان وسار إلى الكرك فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ثم وردت الأخبار إلى السلطان باجتماع الفرنج فترك الكرك وسار إليهم بعد أن كان قد أشرف على أخذه فخالفوه الطريق إلى الكرك، وأتوا إليه بجموعهم ففات على الناس أمر الكرك فسار إلى نابلس ثم إلى الفوار، ثم دخل دمشق.

سنة إحدى وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قاصداً الموصل، ولما قارب حلب تلقاه صاحبها أخوه الملك العادل سيف الدين رحمهما الله، ثم توجه إلى حَرَّان وكان صاحبها الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين على كوجك قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران تكون برسم النفقات، ولما وصل السلطان وأقام أياماً لم ير لذلك أثراً، فغضب على مظفر الدين واعتقله ثم عفا عنه بعد أن تسلم منه قلعتي الرُّهَا وحَرَّان، ثم أعادهما إليه في آخر السنة.

ثم صار السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، ثم وردت الأخبار على السلطان بوفاة شاه أرمن صاحب أخلاط، ووفاة نور الدين محمد بن أرسلان، فَتَقَسَّمَ فكر السلطان فيما يفعله، واختلفتْ آراء أصحابه اختلافاً كثيرا، فمنهم من أشار عليه بالمقام على حصار الموصل ومنهم من أشار عليه بقصد تلك البلاد.

وبيناهم على ذلك إذ وصلت إلى السلطان رُسُل أمراء أخلاط وأكابر دولتها بتعجيل السير إليهم، فرحل قاصداً أخلاط وقَدَّمَ في مقدمته ابن عمه ناصر الدين بن محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادي، ومظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، فمضى الأميران ناصر الدين ومظفر الدين إلى أخلاط فوجدا بكتمر أحد مماليك شاه أرمن قد دخل إلى أخلاط وملكها وعصى بها.

ووصل شمس الدين البهلوان محمد بن ايلدكز في عساكر أذربيجان وغيرهم قاصداً أخلاط فنزل قريباً منها، وكان الوزير مجد الدين بن الموفق بن رشيق بأخلاط فجعل يكاتب البهلوان مرة والملك الناصر مرة

أخرى، ولماوصل السلطان إلى ميافارقين نازلها وكتب إلى مظفر الدين وناصر الدين يأمرهما بالعود إليه فعادا إليه، واجتمعوا على منازلة ميافارقين،ثم تسلمها بالأمان وسلمها إلى مملوكه سنقر الخلاطي وذلك في أول جمادى الأولى، ثم رحل عنها السلطان فنزل على القرمان، وأتته رسل البهلوان بما فيه من الصلاح، وأن يرجع السلطان عن أخلاط، فأجاب السلطان على أن يرحل البهلوان عن أخلاط إلى بلاده.

ثم رحل السلطان إلى الموصل فحاصرها وضايقها، فخرج إليه جماعة من النساء الأتابكيات فخضعن له وسألنه الصلح فأنزلهن في خيمة وأكرمهّن وقَبِلَ شفاعتهن، واستقر الأمر على أن يكون في المتوسط عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، فتوسط بين السلطان والمَوَاصِلَةُ على أن تكون بلاد شهْرَزُوْر وحصونها وضياعها والبوازيج والرستاق للسلطان، وضربت السكة في الموصل باسمه وخُطب له بها وأقرّ الموصل على صاحبها، ثم رحل إلى حران فأقام بها مريضاً إلى آخر السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، فأنعم السلطان بحمص وبلادها بعده على ولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد، وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة أو ثلاث عشرة سنة يقيناً.

سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر رحمه الله بحرّان، وقد صح مزاجه فرحل منها ومعه أخوه السلطان الملك العادل رحمه الله، والملك الظاهر، والملك العزيز ولدا السلطان، فتوجهوا إلى دمشق.

استيلاء الملك الظاهر على حلب

وكنا قد ذكـرنا أن السلطان الملك الناصر لما فتـح حلب أنعم بها على أخيه الملك العادل، ولما كانت هذه السنة وصل السلطان إلى دمشق ومعه الملـك العادل، نـزل الملك العـادل عـن حلب وبـذلها لأحد أولاد أخيـه السلطان الملك النـاصر، فشكره السلطان على ذلك وسلمهـا وبلادها إلى ولده السلطان الملك الظـاهر غياث الدين ايلغازي بن يـوسف بن أيوب رحمه الله.

ثم خـرج السلطان إلىٰ نواحي البلقـاء فخيم بالزرقاء، وذلك في جمادى الآخر، ثم سيَّر أخاه الملك العادل رحمه الله إلى مصر لتدبير أموالها والقيام بأحـوالها، ثم عـاد السلطان إلى دمشـق فأقـام بها متهيئاً لجهـاد الفرنـج، مستعداً لقتالهم إلى أن خرجت السنة.

سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة

في هـذه السنة كتـب السلطـان الملك النـاصر إلى الأقطـار يستدعـي الأجناد إلى الجهاد، وخـرج من دمشق في مستهل المحـرم وخيَّم على قصر سـلامة مـن بُصرى مـرتقبـا وصـول الحاج خـوفاً عليهـم مـن الفرنـج، فـوصلوا بُصرى في أول صفـر فـأمر السلطـان ولـده الملـك الأفضل نـور الدين رحمه الله بالنزول على رأس الماء لتجتمع العسـاكر عنده، فتوجه إليه ونزل به.

ومضى السلطان إلى الكرك والشوبك فأحرق كرومهما وضياعهما، وأقام هنـاك شهريـن، واجتمعت الأمـراء بـرأس الماء عند الملـك الأفضل نـور الديـن، فجهز السرايـا والغارة علىٰ طبريـة، وقَدَّم على العسـاكر الشرقيـة مظفر الـدين كـوك بوري بـن زين الـدين علي كـوجك، ثـم على عسكر

حلب الأمير بدر الدين دُلـدرم، وعلى عسكر دمشق قايماز النجمي،فسروا مدلجين حتى صَبَّحُوا صفورية.

وعلمـت الفـرنـج خبرهـم فخـرجـوا إليهـم والتقـوا فنصر الله تعـالى المسلمين وقتلوا منهم مقتلـة عظيمة منهم: [مقدم] الاسبتـار، وأُسر منهم خلق، ثـم سار السلطـان من الكـرك مُجِدّاً حتى خيَّـم بعشترا، واجتمعت إليه بها العسـاكر جميعها فعـرض العسكر وبـذل فيهم، ثم سـار بهم وَقَدْ ملأ الفضـاء حتى أتـوا الأردن، فنزل على ثغر الأقحـوانة، وقـد اصطفت الفرنج بصفـورية فرتَّب السلطان جُمْلَـةً من العساكر في قبـالتهم، ومضى إلى طبرية فتسلمهـا عنوة، ولما علمـت الفرنـج تَسَلُّمهُ لها تهيـأوا لقصده، فعلم السلطان ماقد أجمعوا عليه، فسـار بجموعه إليهم، ورتَّبَ أطلابه في مقابلتهم ثم صابحهم وبايتهم وضيَّق عليهم فآووا إلى جبل حَطِّين.

وقعة حطين

فأحاط المسلمون بهم من كل جانب وصاروا في قبضتهم، وهربـ القومـص لعنه ا لله لما أيقـن بالهلكـة، واسْتَمرَّتِ الحرب فكـانت الـدائرة علي الفـرنج، فـأخذوا أخـذاً باليـد، وحصل في الأسر الملـك كي وأخـوه جَفـري، وصاحـب جبيل، وهنفـري والإبرنـس أرناط صـاحب الكـرك ، فقتـل السلطان ارنـاط صـاحب الكـرك بيده، ثـم كُبِّـل جميع الاسـارى وحملوا الى الحصون الاسلامية ، والحبوس السلطانية ، واخذ السلطان من الفرنـج يومئذٍ صليـب الصلبوت ، وهي الخشبـة التي تزعـم النصارى ان المسيح عليه السلام صُلب عليها .

وكانـت هذه الموقعة يوم السبـت نصف شهر ربيع الآخـر ، ولم يُفْلِت من الفرنج فيها إلا آحادٌ ، وكانت من أعظم فتوح الاسلام وأشرفها .

ثم بعث السلطان من تسلم حصن طبرية وكان بيد امرأة فأُومنت على مالها ورجالها وتُسُلِّم الحصن منها .

فتح عكا : ثم رحل السلطان رحمه الله الى عكا فوصلها يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر فتسلمها بالأمان وملكها .

ولما نصر الله تعالى السلطان على الفرنج كتب الى اخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر وهو بمصر بالبشرى فخرج من مصر بجنوده قاصداً السطان، فاجتاز بمجدل يابا ويافا ففتحهما عنوة، وغنم من الأموال مايعظم قدره، ثم فتح الله سبحانه الناصرة وصفورية على يد مظفرالدين بن زين الدين عنوة، وقيسارية على يد الأمير بدر الدين دُلدرم والأمير غرس الدين قلج عنوة، ونابلس على يد الأمير حسام الدين لاجين بالأمان بعد قتال كثير، ثم فتح حصن الفولة بالأمان، ثم نازل السلطان تبنين ففتحها، وفتح صيدا ثم بيروت ثم جبيل.

فتح عسقلان

ثم سار السلطان الى عسقلان فحاصرها حصارا شديدا ونصب عليها المجانيق ثم فتحها بالأمان.

ذكر الفتح القدسي

ثم سار السلطان رحمه الله إلى البيت المقدس فنزل غَرْبِيَّه، وذلك يوم الأحد لخمس عشرة ليلة مضت من رجب، وكان في القدس يومئذ ستون ألف مقاتل فقاتلهم المسلمون أشد قتال، ثم انتقل السلطان إلى الجانب الشمالي من القدس وخَيَّم هناك ونصب المجانيق، وطلب الفرنج الأمان فأُومنوا بعد امتناع كان من السلطان، وقرر على كل رجل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير، وعلى كل صغير دينارين، وشرط عليهم أن من عجز عما وجب عليه بعد أربعين يوماً ضُرب عليه الرِّق، فأجابت الفرنج إلى ماقُرِّر عليهم.

وتسلم السلطان البيت المقدس، وذلك لثلاث ليال بقين من رجب، وكانت مدة مقامه بيد الفرنج إحدى وتسعين سنة.

ولما كان يوم الجمعة لأربع مضين من شعبان أُقيمت الجمعة بالمسجد الأقصى، وخطب بالناس القاضي محيي الدين بن زكي الدين، ثم شرع السلطان في إصلاح المسجد الأقصى والصخرة حتى أعادهما على ماكانا عليه قبل استيلاء الفرنج عليهما، وأزال ماكان فيهما من آثارهم.

ثم تنافست ملوك بني أيوب فيما يؤثر عنهم من المآثر الحسنة، ففعل السلطان الملك العادل كل فعل جميل وصنع جليل، وأتى الملك المظفر تقي الدين عمر بما عَمَّ به العُرْف، وعَمر فبنى ونهى وأمر .

وفعل الملك الأفضل كل فِعْلٍ مُفَضَّل، وفعل أخوه الملك العزيز من المآثر الحسنة ما استنطق به أَلْسِنَةَ الشُّكْر وَحَازَ بِهِ جميل الأَجْر، رحمهم الله أجمعين، وقَدَّس أرواحهم.

منازلة صُوْر

ثم تَـوجَّه السلطـان إلى صور فنـازلها ونصب المجـانيق عليهـا، وذلك لاثنتي عشرة ليلـة مضت مـن شهر رمضـان، وكان قـد اجتمع في صـور خلق لايحصون من الفرنج، فقاتلهـم السلطان قتالاً شديداً، وبقي محاصرا لها إلى أن انقضت السنة.

وفي هذه السنة فُتحت هونين على يد الأمير بدر الدين دلدرم بالأمان.

سنة أربع وثمانين وخمسمئة

في هذه السنـة رحل السلطـان الملك النـاصر عن صـور، وذلك لأنـه تعذر عليه فتحها لكثرة من فيها وقـوة شوكتهم، فنزل على حصن كوكب، وذلك في العُشْر الأوسط مـن المحرم، فوجده حصناً لايُرام، فَـرتَّبَ قايماز النجمي في خمسمئـة فارس، ثم رحل السلطـان إلى دمشق فدخلهـا وأقام بها مُدَيْـدَةً يسيرة، ثم رحـل منها إلى بعلبك فـرتب أمـورها، ثـم سار إلى الزراعة، فوصـل الخبر أن عماد الدين زنكي بن مودود بـن زنكي صاحب سنجار قـد وصل إلى بحيرة قدس قـاصداً خـدمةالسلطان لأجـل الغَزَاةِ، فسار السلطان ملتقيـاً له وعانقه، ثم نـزل ببحيرة قدس وخيما عليهما، ثم سار السلطان بـالعساكر حتى نزل البقيعة تحت حصـن الأكراد وذلك في أول ربيع الآخر، وبـث العساكر في تخريب بـلاد الفرنج وقطع أشجـارهم ونهب أموالهم، ثـم رحل السلطـان إلى طرطوس ففتحهـا عنوة وقتـل من ظفر به فيها.

فتح جبلة واللاذقية

ثم مضى السلطان إلى جبلة فتسلمها بالأمان وذلك لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ثم رحل منها إلى اللاذقية فحاصرها حصاراً شديداً إلى أن طلب أهلها الأمان فأمنهم وذلك لخمس بقين من جمادى الأولى.ثم رحل منها إلى صهيون ففتحها بالأمان على قطيعة قررها عليهم، ثم توجه إلى الثغر فتسلمه بالأمان،ثم تسلم أيضاً بكاس وسلمها إلى الأمير غرس الدين قلج الساقي والد الأميرين سيف الدين وعماد الدين، ثم سيَّر السلطان ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب قلعة سرمانة فهدمها وقرر على أهلها قطيعة أخذها منهم.

ثم سار السلطان لست بقين من جمادى الآخرة فخيَّم على حصن برزيّة وضربه بالمجانيق، فطلب أهله الأمان، فأمنهم وسلَّم هذا الحصن إلى الأمير عز الدين بن شمس الدين بن المقدم، ثم رحل السلطان إلى دربساك فتسلمها، ثم رحل إلى حصن بغراس فَتَسَلَّمَهُ أيضاً، ثم عزم على قصد أنطاكية فرغب الإبرنس صاحبها في الهدنة فهادنه السلطان، ثم رحل السلطان لثلاث مضين من شعبان على سمت حلب فودعه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وعساكر الشرق، وعادوا إلى بلادهم.

ودخل السلطان إلى حلب فأقام بقلعتها أياماً، ثم سار إلى حماه فأقام بها يوماً، ثم سار إلى دمشق فأقام بها أياماً، ثم خرج منها في أوائل شهر رمضان طالباً للغزاة.

وفي هذه السنة كان فتح الكرك والشوبك، وكان من حديث ذلك أن السلطان الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب كان مقيما بتبنين في عساكره متحرزاً على البلاد من غائلة العدو، وكان صهره كمشبه الأسدي

موكلاً بحصار الكرك، فضاقت الميرة عليهم ويئسوا من نجدة تأتيهم، فتوسلوا إلى الملك العادل وتضرعوا إليه، ومازالت الرسائل تتردد بينهم وبينه حتى دخلوا تحت حكمه، وخرجوا من الحصن وسلموه إلى المسلمين، ووردت البشائر بفتحه على السلطان الملك الناصر وقد برز من دمشق، ثم تسلم أيضاً الشوبك.

فتح صفد

ثم سار السلطان إلى صفد فنازلها، ووصل إليه أخوه الملك العادل واجتمعا على حصارها ودار الحصار والقتال إلى ثامن شوال، فطلبوا الأمان فأُمِّنوا ودخلها المسلمون وتسلموها.

فتح كوكب

ولما فتح السلطان صفد سار إلى حصن كوكب، ونازله ونصب عليه المجانيق، فطلب أهل الحصن الأمان، وتَسَلَّمَ الحصن منهم، وذلك في منتصف ذي القعدة.

ثم سار السلطان ومعه أخوه الملك العادل قاصداً بيت المقدس، فوصله في ثامن ذي الحجة فَعَيَّدَ به، ثم سار إلى عسقلان فرتب أمورها وجهز أخاه الملك العادل إلى مصر، ثم رحل صوب عكا فوصلها في آخر ذي الحجة.

وفي هذه السنة كان مقتل شمس الدين محمد بن المقدم غَلَطاً في فتنة وقعت بينه وبين أمير الحاج العراقي بالموسم، وكان سببها أن شمس الدين أراد تقديم طبوله على طبول الخليفة الناصر لدين الله، فَمُنِعَ من ذلك، وجرى ماذكرناه.

سنة خمس وثمانين وخمسمئة

في هذه السنة صار السلطان الملك الناصر رحمه الله من عكا متوجهاً إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر، ثم رحل منها لثلاث مضين من ربيع الأول متوجهاً إلى شقيف أرنون فأقام بمرج برغوث حتى اجتمعت إليه عساكره، ثم رحل حتى أتى مرج عيون وذلك لاحدى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، فخيم بمرج عيون على قرب من شقيف أرنون، وهو يومئذٍ بيد أرناط صاحب صيدا، فنزل إلى خدمة السلطان وأظهر الطاعة وسأل أن يُمهل ثلاثة أشهر ليتمكن فيها مَنْ بِصُوْر من أهله، فأجابه السلطان إلى ذلك، وخلع عليه وأكرمه، فشرع أرناط في إصلاح الحصن وترميمه، والمسلمون في غفلة عنه، فلما بلغ السلطان ماهو بصدده من عمارة الحصن وتقويته انتقل من المرج إلى سطح الجبل ليلاحظ أرناط ويطلع على حاله، وأظهر إنما هو انتقل لأن المرج وَخِيْمٌ، فعلم أرناط بذلك فنزل إلى السلطان طائعاً متذللاً متضرعاً فكَذَّبَ السلطان ماقيل عنه، ثم دَنَتْ المدة فسأل السلطان أن يزيده في مدة الإمهال، فعلم السطان غَدْرَهُ وَنَكْثَهُ فقبض عليه وسيره إلى دمشق فحبس بها، ووكل بالحصن يحاصره صيفاً وشتاء.

ثم بلغ السلطان أن الفرنج قد حشدوا وجمعوا وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى، فرحل السلطان إليهم فكانت بينهم وبينه وقعة كانت الكرة فيها للفرنج، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم كَرَّ المسلمون عليهم فَرَدُّوهُم حتى ازدحموا على جسر هناك، فغرق مبهم مئتا رجل، ثم سار السلطان إلى تبنين فرتب أمورها، ثم سار منها إلى عكا ورتبها، ثم عاد إلى معسكره فأقام به.

- ٩٩٨٧ -

نزول الفرنج على عكا

وفي هذه السنة قصدت الفرنج عكا، ونازلتها فرحل السلطان الملك الناصر رحمه الله حتى نزل قبالتهم بمكان يقال له الخروبة، ثم وقعت الحرب بينهم وبينه إلى أن انقضت السنة، وكان فيها وقعات بين المسلمين والفرنج يطول الكلام بذكر تفصيلها ويخرج الكتاب عن حَدِّهِ.

سنة ست وثمانين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والفرنج يحدقون بعكا محاصرون لها، والقتال مستمر بين الفريقين فتارةً يظهر المسلمون وتارة يظهر الفرنج.

وفي هذه السنة قَدِمَتْ العساكر من جميع الأقطار مدداً للسلطان الملك الناصر رحمه الله، فكان أول واصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص، والأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر، والأمير عز الدين بن المقدم وغيرهم، فكثرت العساكر واشتدت الحرب بين الفريقين، ثم وصل مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ثم عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار، ومعز الدين سنجر شاه بن غازي، ثم علاء الدين خُرَّ مشاه بن مسعود في عساكر الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب إربل في جنود كثيرة، واشتدت الحرب، وضايَقَتِ الفرنج عكا، وجاءتهم الأمداد من البحر.

وفي هذه السنة توفي زين الدين يوسف بن علي كوجك، ففوض السلطان مملكة إربل إلى أخيه الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين.

سنة سبع وثمانين وخمسمئة:

دخلت هذه السنة وقد اشتدت مضايقة العدو خذله الله لعكا، والقتال بينهم وبين السلطان الملك الناصر رحمه الله مستمر،وأمداد الفرنج من البحر متواصلة،ولما اشتد الحصار على أهل البلد واحيط بهم ولم يبق الا تسلّمهُ، وضعفت قوة المسلمين به وقلت منعتهم، ونقبت بدنه من الباشورة، ويئس الناس من بقاء البلد، خرج الامير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري الى ملك الفرنج وطلب منه الامان فأبى ملك الفرنج الا النزول على حكمه، فقال له المشطوب: نحن لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ورجع عنهم مغاضباً.

ولما كان يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الاخرة زحف الفرنج الى عكا زحفا شديدا، واشرفوا على الاستيلاء عليها فطلب المسلمون منهم الامان على ان يسلموا اليهم البلد، ويعطوهم: مئتي الف دينار، ومئة أسير من المعروفين، وخمسمئة أسير من المجهولين وصليب الصلبوت وعشرة آلاف دينار للمركيس واربعة آلاف لحجابه، فأجابهم الفرنج الى ذلك وتسلموا البلد واحتاطوا على من كان بها رهينة على القطيعة المقررة.

فلما كان ثامن من رجب جاءت رسل الفرنج الى السلطان لأخذ القطيعة، فأحضر السلطان مئة ألف دينار وصليب الصلبوت والأسارى المطلوبين، وشرط عليهم أن يطلقوا جميع من أخذوا من المسلمين وأن يأخذوا على بقية المال رهائن، فأبوا الا الجميع ومازال الأمر يختلف بينهم ويتردد تتمة شهر، ثم حضرت رسل الفرنج فوجدوا المال موقورا، ووجدوا صليب الصلبوت، وقد كانوا ظنوا أن السلطان قد سيره الى الخليفة ولاوجود له عنده، فخروا له سجدا حين رأوه، ثم ظهر للسلطان مكرهم وغدرهم فتوقف في اعطاء المقرر، وكان من جملة مابان له من غدرهم ان

ملك الانكتير ركب بالفرنج الى البحر، فركب السلطان قبالتهم فأحضر الفرنج جماعة من أسارى المسلمين وحملوا عليهم فقتلوهم أجمعين، فحمل المسلمون عليهم فأزالوهم عن مواقعهم وقتلوا منهم جماعة، واستشهد من المسلمين جماعة، ثم تصرف السلطان في ذلك المال المقرر.

ولما دخل شهر شعبان رحلت الفرانج بخيلهم ورجلهم، فعرف السلطان ان مقصدهم عسقلان فرحل بالمسلمين في قبالتهم، ومازال يترك المسلمين يقاتلونهم مرحلة مرحلة، ثم كانت وقعة بنيهم وبين السلطان بنهر القصب واستشهد من المسلمين في هذه الوقعة إياز الطويل، وكان شجاعاً مقداماً.

ثم كانت وقعة بأرسوف كانت الكرة فيها على الفرنج ووصل السلطان عسقلان فشرع في هدمها وذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان، ثم رحل السلطان الى يبنى، فأمر بتخريب حصنها، وتخريب لُدّ، ثم مضى جريدة الى القدس فزاره ثم عاد.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المظفر تقي الدين أبي الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب رحمه الله، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية.

سيرته: كان ملكاً شجاعاً عادلاً كريماً بطلاً كمياً ضرغاماً، ولما توفي فوض السلطان الملك الناصر عمه الملك بحماه، والمعرة، وسلمية، ومنبج، وقلعة نجم، الى ولده الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب وبعث اليه منشوراً بذلك فتسلم هذه البلاد وملكها.

وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين لاجين وهو ابن أخت السلطان، وكانت وفاته لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان، وهو اليوم الذي توفي فيه الملك المظفر، فأصيب في يوم واحد بابن أخيه وابن

اخته، وكـان هذا حسام الـدين أميرا عظيم الشأن عـاقلاً عادلاً شجـاعاً، وهو الذي تـولى فتح نابلس من الفرنـج فأقطعه السلطان إياهـا، فكانت في يده الى أن مات.

سنة ثمان وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنـة قسم السلطان الملـك الناصر رحمه الله عمارة سـور بيت المقدس على أخيـه واجناده واولاده، ولم يزل رضي الله عنه جـادا مجتهدا في عمارتها حتى علت وارتفعت، شكر الله سعيه وأحسن جزاءه.

وفيها كان خلاص الأمير سيف الديـن المشطوب من أسر الفرنج على مال قرره لهم، فـأقطعه السلطان نابلـس، ثم عاش سيف الـدين الى آخر شوال من هذه السنـة ثم توفي فعين السلطان ثلث نابلـس لمصالح البيت المقـدس، وابقى بـاقيهـا على الأمير عماد الديـن احمد بـن سيـف الديـن المشطوب.

وفيها قصـد الفرنج قلعـة الداروم فحاصروها ثـم فتحوها عنـوة، وقتلوا من أهلها جماعـة، وأسروا جماعة، وذلك في شهر جمادى الأول، ثـم كانت في هـذه السنــة وقعـات بينهــم وبين المسلمين في كلهـا يكـون الظفـر للمسلمين إلا وقعـة واحدة كـان مقدم المسلمين فيهـا فلك الـدين أخـا السلطان [العـادل] فإن الفرنـج دهموهم على غـرة فهزموهـم واحتووا على أثقالهم.

وفيها نزل السلطان على يافا ففتحها عنوة ونهبها وقتل جماعة منهم بها، وامتنعت عليـه قلعتها فطلب أهلهـا الأمان أن ينزلـوا تحت حكم الأسر، ويسلموا جميع الأموال والذخائر على أن يطلـق كل واحد منهم بأسير من المسلمين فأجيبـوا الى ذلك، وخـرجوا آحـادا وعشرات، وطولـوا ساعـات الانتقال، حتى دخل الليل، فاستمهلـوا الى الصباح ومازالوا في التسويف

حتى وصل اليهم ملك الانكتير ليلا من جانب البحر، ودخل القلعة فنادوا بشعار الغدر، فاكتفى المسلمون منهم بمن حصل في أسرهم، ورحل السلطان الى الرملة.

ذكر الهدنة: ثم وقعت الهدنة بين السلطان والفرنج مدة ثلاث سنين وثمانية اشهر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية الى عكا الى صور، وأدخلوا في الصلح طرابلس وانطاكية، واستعاد منهم الداروم.

ثم رحل السلطان رحمه الله الى البيت المقدس فأقام به منشغلاً باتمام أسواره، ثم رحل الى دمشق فدخلها في أول ذي القعدة.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهو من السلاطين السلجوقية على ماذكره العماد الكاتب، وكان أولاده غالبين عليه، وليس له معهم الا مجرد الاسم، فلما مات ملك ولده غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان.

-٩٩٩٢-

سنة تسع وثمانين وخمسمئة:

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شادي، رحمه الله، وقدس روحه، وذلك بكرة يوم الاربعاء لثلاث بقين من صفر، فكانت مدة عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً فمات بموته الرجال، وفات بوفاته الافضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، وانقطعت الارزاق، وادلهمت الآفاق وخاب الراجون، وغاب اللاجون، وخاف الآمن، وخاب الآمل، وطردت الضيوف، ونكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزيء الاسلام بمشيِّد أركانه.

سيرته رضي الله عنه: كان رضي الله عنه خائفاً من ربه تعالى، شديد التمسك بالشريعة، محباً للعلم والعلماء، مواظباً على الجهاد في سبيل الله، مقبلاً على تحصيل مايقربه من الله زلفى، مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن السيئات،كريماً لين الجانب متواضعاً،حسن الاخلاق طيب الاعراق، ضحوكا بمهابة، مخوفا بجلالة، يغضب للكبائر، ولايسامح بالصغائر، غزير البذل كثير العطاء، وأقل شاهد على صحة ذلك أنه كان جامعاً بين مملكة الشام واليمن وديار مصر وبلاد المشرق، ومات وليس في خزائنه درهم ولادينار، ومات دفن بالقلعة المحروسة في داره وأظلم الدهر بعد ضياء أنواره، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه.

خبر أولاده وأهل بيته بعد وفاته رحمه الله:

ولما توفي السلطان الملك الناصر رحمه الله استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن أيوب، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن يوسف ابن أيوب وبحلب وأعمالها ولده الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي ابن يوسف بن أيوب. وكانت حران والرها وكل ماهو شرقي الفرات من الولايات بيد السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وحماه والمعرة وسلمية ومنبج وقلعة نجم بيد الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، وبعلبك وأعمالها بيد الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب. وحمص وأعمالها بيد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شاذي.

وكان السلطان الملك العادل رحمه الله حين بلغه وفاة أخيه الملك الناصر بالكرك وهي حصنه ومستقرة، فقدم الى دمشق وأقام بها العزاء، ثم توجه الى قلعة جعبر حذراً على البلاد الشرقية من غائلة العدو، فأقام بقلعة جعبر، وبعث النواب الى حران، والرها، وميافارقين، وحاني، وسميساط، ورتب امورها.

ولما بلغ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة السلطان الملك الناصر خرج بالعساكر الكثيرة الى نصيبين وبها أخوه عماد الدين زنكي، واجمعوا على حرب الملك العادل واخراجه من البلاد، وكان الأمير بكتمر صاحب أخلاط قد ضرب البشائر حين بلغه موت السلطان ، وعظم سروره بذلك، وتسمى بالملك الناصر، وكاتب صاحب الموصل وصاحب سنجار، وصاحب ماردين، لينجدوه على حرب الملك العادل، فبينما هو في تيهه وطغيانه وقد حدثته نفسه بما لم يظفره القدر به اذ وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وكفى الله السلطان الملك

العادل شره، وكان هذا عنوان السعادة ودليلها، وكان مقتله لست عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى.

وكتب الملك العادل الى بني أخيه: الملك الافضل، والملك العزيز والملك الظاهر يستصرخ بهم، فأنجدوه بالأمداد والعساكر، وجاءته عساكر: بعلبك ، وحمص، ودمشق، مع الملك الظافر خضر بن الملك الناصر.

وأما المواصلة فإنهم وصلوا الى رأس عين، ومضى الملك العادل الى حران وخيم بها، فاتفق مرض عز الدين مسعود صاحب الموصل فحمل اليها في محفة، وعاد عماد الدين صاحب سنجار راجعاً، وراسل صاحب ماردين الملك العادل في الصلح فرضي عنه.

ثم أمر الملك العادل ابن أخيه الملك الظافر بمنازلة سروج، وكانت لعماد الدين صاحب سنجار، فنازلها وجهز اليه الملك العادل مددا الملك المنصور صاحب حماه، والأمير عز الدين ابراهيم بن المقدم، فنازلوها وفتحوها لثلاث مضين من رجب، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله في منتصف رجب الى الرقة فحاصرها وتسلمها في العشرين منه، ثم رحل الى الخابور فملكة، ثم رحل الى نصيبين فنزل بظاهرها، وأتته رسل صاحب سنجار في طلب الصلح.

واتفقت وفاة عز الدين صاحب الموصل في هذا الشهر، فملك بعده ولده نور الدين رسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي، وجرى الصلح بينهم وبين الملك العادل، ثم قصد السلطان العادل أخلاط، فخاف من البرد إن نازلها فأخر أمرها الى الربيع وعاد الى الرها وحران.

ذكر ابتداء الوحشة بين الاخوين الملك الافضل والملك العزيز:

كان للملك الافضل وزير من أهل الجزيرةغاش، فأشار عليه بإبعاد أمراء أبيه وأكابر أهل دولته، وحمله على ان يستجد أمراء وأصحابا من مماليكه المستجدين، واخبره ان أمراء أبيه يشتطون عليه ولايرضون منه إلا بالكثير، وأعمال دمشق لاتسعهم، وانما تسعهم أعمال مصر، وان الغرباء والمستجدين من مماليكه يرضون منه بالقليل وأي شيء أعطاهم استكثروه، فاغتر الملك الأفضل بقوله، وكان ذلك من الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء، فأبعد أمراء أبيه والعظماء من أتباعه حتى أبعد القاضي الفاضل مع جلالة قدره وغزارة فضله، والعماد الكاتب مع فصاحته وبراعته واستخدم أمراء مجهولين ومماليكا خاملين.

وأشار عليه ايضا باخلاء البيت المقدس، وتسليمه الى نواب اخيه الملك العزيز، وأخبره أنه يحتاج الى مؤن عظيمة وكلف كثيرة ففعل ذلك الملك الافضل، وكاتب أخاه في تسلم القدس فقبله الملك العزيز وسربه وشكره على فعله، وكان السلطان الملك الناصر رحمه الله قد جعل ثلث ارتفاع نابلس وقفا على عمارة القدس ومصالحه، فخان الولاة بنابلس وأكلوا، ولما بلغهم عزم الملك الافضل على تسليم القدس الى الملك العزيز خافوا منه أن يحاققهم ويحاسبهم ويصرفهم عن ولاياتهم، فكاتبوا الملك الأفضل يبذلون له القيام بسائر مصالح القدس من وقفه، وأنهم لايحوجون الى بذل شيء آخر من ماله.

فأجابهم الملك الأفضل الى ملتمسهم، وبدا له فيما كان كاتب الملك العزيز به، فتألم الملك العزيز من ذلك واستوحش بسببه.

وكان الملك الافضل كلما أبعد أميراً وكبيراً من أصحاب أبيه، أدناه الملك العزيز، وقربه، وفسح أمله، وأجزل عطاءه، وأقطعه الاقطاعات

الكثيرة، وأحسن الى أمراء أبيه وأصحابه المعتبرين، وحفظ عهودهم القديمة فأحبوه ولاذوا بكنفه وعاضدوه فتمكنت دولته وتشيدت مملكته، وكانت سيرته بالعكس من سيرة اخيه.

وكان من جملة الأمراء الذين صاروا الى الملك العزيز، وفارقوا أخاه الملك الأفضل الأمير فخر الدين جهاركس، فجعله الملك العزيز استاذ داره، وقدمه على أمرائه، والأمير فارس الدين ميمون القصري، والأمير شمس الدين سنقر الكبير، وهؤلاء الثلاثة من عظماء الدولة وأكابرها.

وقويت الوحشة بين السلطانيين الافضل والعزيز، واجتمعت كلمة الامراء الصلاحية على أن يكون الأمر مجتمعا للملك العزيز إذْ هو محيي سنة والده وسالك طريقته، فاختلت امور الملك الأفضل واضطربت أحواله، ولو كان مع تقدير الله سبحانه، سلك طريق الرأي والحزم لكان الأمر بخلاف ماوقع، لكن لكل مقدر سبب.

سنة تسعين وخمسمئة:

في هذه السنة خرج السلطان الملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر الى البقاع وخيم بها، فقيل للسلطان الملك العزيز: ان توانيت ذهبت بلادك، فبرز الى البركة وبذل الاموال وقصدته الرجال وعظم أمره، وسار في الارض ذكره، فخاف الملك الافضل لما بلغه ذاك، واستشعر ونزل برأس الماء، واستشار أصحابه فاختلفت آراؤهم واضطربت، وفارقه الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وصار الى الملك العزيز، فجعله من أكبر امرائه، فكاتب الأفضل اخاه الظاهر صاحب حلب وحالفه على الاتفاق والمعاضدة، وكاتب عمه السلطان الملك العادل يستنجده ويستصرخه.

حصار دمشق: وقدم الملك العزيز في جحافله فلما وصل الى الفوار ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها، خالطت مقدمته ساقة عسكر دمشق، فولوا منهزمين لايلوون على شيء، ودخل الملك الأفضل دمشق على أقبح صورة، ونزل الملك العزيز بالكسوة، وذلك لست مضين من جمادى الآخرة، ثم نزل في سابع جمادى على دمشق محاصرها، والأفضل يدافع ويمانع الى أن وصل عمه السلطان الملك العادل رحمه الله، وكتب الى ابن اخيه الملك العزيز يسأله الاجتماع به فاجتمعا راكبين بصحراء المزة، وسأله الاقلاع عن قتال اخيه، وان يكف عنه، فأجاب الى ذلك وامتثل أمره.

وقوع الاتفاق بين الملوك: ثم تأخر الملك العزيز مرحلة الى صوب داريا والاعوج، وكان بدمشق عند الملك الأفضل الملك المنصور صاحب حماه، والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك الامجد بهرام شاه صاحب بعلبك.

ثم وصل الملك الظاهر بن الملك الناصر صاحب حلب الى دمشق، ووقع الاتفاق على عقد الصلح بين الجميع، ورحل الملك العزيز الى مرج الصفر فنزل به، وكتبت نسخة يمين مضمونها: أنه يكون كل واحد من الملك الأفضل والملك العزيز، والملك الظاهر، والملك العادل ببلاده وأجناده آمناً من أن يقصده صاحبه، وان الملك المجاهد أسد الدين، والملك الامجد يكونان مع الملك الأفضل مؤازرين له، وأن الملك المنصور صاحب حماه يكون مع الملك الظاهر مؤازرا له.

وحلف الملك العزيز بمقتضى هذه النسخة وزال الخلاف وسكنت الدهماء، وخطب الملك العزيز ابنة عمه الملك [العادل] فأجيب الى ذلك، وعقد عقد النكاح وكان متوليه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي القضاة بدمشق، وحلفت الملوك، ورجع الملك العزيز الى

مصر بعـد ان خرج النـاس من دمشـق لـوداعه، وذلـك في شهر شعبـان ورجع كل ملك الى بلده.

ورجع السلطـان الملك العادل الى البـلاد الشرقية، وأقبـل الأفضل على الشرب واللهـو وأعرض عـن الاشتغال بمصـالـح الرعيـة، والامور كلهـا معذوقـة بوزيـره الجزري، وكان الجزري هـذا سيء الرأي، فـاسد التـدبير، رديء السيرة، فتشعثـت بسببه الأمـور، وفسـدت المملكـة، ففارق الملـك الأفضل الأمير عز الديـن سامة، وشمس الدين ابراهيـم بن السلار، ومن الأعيان جمال الدين بـن الحسين، والقاضي محيي الدين بن زكـي الدين لما شـاهدوه مـن الأحوال الفـاسدة، وحـرض الأمير عز الـدين سـامة وابـن السـلار الملـك العـزيـز على محاربـة الملـك الأفضـل، والمسير الى الشـام واستحثاه استحثاثاً شديداً، وكذلـك فعل غيرهما من أكابر الأمراء والملك الأفضل مـع ذلك غافل عـن صلاح حاله مستهتر بلهـوه، وبينما هو على ذلك إذ اصبـح ذات يوم مظهرا للتـوبة، مـن غير سبب، ونادى بـذلك، وأراق الخمور، ولازم الاعتكـاف والصلوات والعبادات والصدقـات ولبس القطـن والكتـان، ونهى عن المنكـر، وأمـر بـالمعـروف، وجالـس الفقـراء، وآكلهم وبالغ في التقشف الى ان صار يصوم النهار ويقوم الليل.

سنة احدى وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنـة وردت الاخبار الى دمشق بعـزم السلطان الملك العـزيز عماد الـدين عثمان صـاحب مصر على قصـد دمشـق وحصارهـا، فأشـار العقـلاء على الملك الأفضـل بمـراسلة اخيـه الملك العـزيـز واستعطافـه وملاطفتـه، وأشار عليه وزيره الجزري بـأن يتوجه الى عمه الملـك العادل، ويستنصر به ويستنجـده على أخيه الملك العزيـز، فأصغى إليـه ومال الى قـوله، ورحـل من دمشـق لأربع عشرة ليلـة مضت مـن جمادى الأولى في خواصـه متوجها الى الـرقة، فتلقـاه عمه السلطان الملـك العادل رحمه الله

بصفين، فسأله الملك الأفضل المعاضدة والمساعدة، وان يصير معه الى دمشق ليمتنع أخوه من قصده، فأجابه الملك العادل الى ذلك، وسار من صفين متوجها الى دمشق، وكان دخوله اليها لليلة بقيت من جمادى الآخرة ومضى الملك الأفضل الى حلب مستنصرا بأخيه الملك الظاهر، فتحالفا على الاتفاق والمساعدة.

ثم توجه الملك الأفضل الى حماه فأضافه صاحبها الملك المنصور وتحالفا، ثم صار الى دمشق فدخلها وأقام بها هو وعمه الملك العادل رحمه الله، متوافقين متعاضدين.

ورأى السلطان الملك العادل من قبح سيرة الملك الأفضل، وسوء تدبيره مااشتدت كراهيته له، وكان ينهاه عن أفاعيله فلاينتهي، ويعظه فلايتعظ. ولم يأل الملك العادل رحمه الله جهده في الذب عنه، ودفع مايقال فيه، فلم يجد ذلك كله ولاأثر شيئاً.

ولما تطاول ذلك وكثر تغير عليه رحمه الله وتنكر، وظهر ذلك عليه، وكتم الملك الأفضل سببه، وصار الملك الأفضل تحت يد الملك العادل وتحكمه، متصرف فيه أمره ونهيه، فنفذت فيه سهام الملك العادل، وعلم أن ملكه صائر إليه لامحالة، فكاتب الأمراء ولاطفهم واستمالهم.

وكانت الأمراء الأسدية مائلة الى عثار الأمراء الصلاحية، مؤثرة بوارها وهلاكها، وكان السبب في ذلك تقدم الصلاحية عليهم عند الملك العزيز، فاستمالهم الملك العادل، وكاتبهم سرا، وكاتب الملك العزيز بالتخويف والتحذير منهم، وكانوا إذا ركبوا الى خدمة الملك العزيز رأى التنكر في وجوههم منه، ورأوا منه مثل ذلك، فتنافرت القلوب، وتم للملك العادل في تدبيره ماأراد.

ولما اطلعت الأمراء الأسدية على نفرة الملك العزيز منها خافوه،

وحسنوا للأكراد مخالفته، وكان أميرهم المقدم عليهم أبا الهيجاء السمين، فوافقوه سراً على المصير الى الملك العادل، والملك الأفضل، وأن يقاتلوا معهما الملك العزيز ويحاربوه، وخوفوه إن لم يفعل ذلك أن تفسد الصلاحية عليه قلب الملك العزيز، ويكون ذلك مؤديا الى هلاكه، فحالفهم هو ومن تبعه من الأكراد على ذلك.

ولما عيد الملك العزيز عيد الفطر بمصر توجه يريد الشام لحصار دمشق وتملكها، فحين بعد عن الديار المصرية فارقه أبو الهيجاء السمين والأكراد والمهرانية والأسدية، ولحقوا بالملك العادل، وذلك ليلا لأربع خلون من شوال، وأصبح الملك العزيز في قلة من العدد فرجع الى مصر على طريق اللجون والرملة، وخاف من بقية الأسدية الذين معه الاقتداء بمن فارقه وأن يكونوا عينا لهم، وكان من الأمور المولدة للاضطراب أن الملك الظاهر صاحب حلب كان لما صالح عمه السلطان الملك العادل وأخويه الأفضل والعزيز، شرط أن يكون الملك المنصور صاحب حماه والأمير عز الدين بن المقدم صاحب بارين، والأمير بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر ومن معه من الياروقية في خدمته، ووقع الحلف على ذلك.

وكان الملك الظاهر قد اعتقل بدر الدين دلدرم بذنب نسبه اليه، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ومضى الى تل باشر فحاصرها فلم يقدر عليها، فلما اجتمع الملك العادل بالملك الظاهر شفع في دلدرم وأهل بيته، وضمن له أنهم يكونون في خدمته، فشفع الملك الظاهر عمه فيهم وأفرج عنهم، وعاد من حصار تل باشر، واستصحبهم الملك العادل ليكونو ا في نجدته.

فلما صار الملك العادل بدمشق وجرى ماذكرناه من استمالته أمراء

مصر ومكاتبتهم استخدم بدر الدين دلدرم وأصحابه لنفسه، واقتطعهم عن الملك الظاهر.

وكان الملك المنصور صاحب حماه، قد حلف لابن عمه الملك الظاهر على البلاد التي في يده، وهي :حماة، والمعرة، وسلمية، ومنبج ، وقلعة نجم، وزاده الملك الظاهر جبلة واللاذقية وبلاطنس، وبكسرائيل، وصهيون، وحلف له على ذلك كله، وأنه يستخلص هذه البلاد التي وهبها للملك المنصور ممن هي في يده، وان احتاجت الى حصار حاصر، فلما جرى من اضطراب الحال بين الملك العزيز والملك الافضل وعمهما الملك العادل ماوصفناه، خاف الملك المنصور، والامير عز الدين بن المقدم من اجتماع الملك الأفضل والملك العادل، فوصلت كتبهما الى الملك العادل بالاعتصام به، والتمسك بخدمته، وفارقا الملك الظاهر، فوافقهما الملك العادل وتحالفوا على ذلك.

ولما رأى الملك الظاهر أن عمه الملك قد استجلب اليه من كان في خدمته، كاتب أخاه الملك العزيز يستحثه على الخروج الى الشام، ومقابلة الملك العادل والملك الأفضل، فخرج من مصر كما ذكرناه، وفارقته الأسدية والمهرانية وغيرهم وصاروا الى الملك العادل، وعاد العزيز الى مصر كما سبق ذكره لقلة عدده، وحرض ابو الهيجاء السمين والأسدية الملك العادل على قصد مصر وأخذها، وهو نوا عليه أمر الملك العزيز.

قصد الملك العادل والملك الأفضل مصر: فتحالف الملك الأفضل وعمه الملك العادل على قصد مصر وتملكها، وان يكون للافضل الثلثان وللملك العادل الثلث، وكان ذلك سراً، ولم يصح ولم يتثبت وانما حدس وظن.

ثم رحل السلطانان العادل والأفضل بجموعهما قاصدين الديار المصرية، واستخلف الملك الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى،

وحرصت الأسدية على أن تسبق الملك العـزيز الى الديار المصرية ليمنعوه منها فلم يقدروا على ذلك، واجتهدوا فلم يدركوه.

وسر السلطان الملك العـادل بوصول العزيـز واستقراره بمصر، لأنه في الباطن لم يكـن من رأيه محاصرة الملك العزيـز ولاأخذ مصر، وإنما قصده خوفـا من شولـة(١٥) الأمر ان لم يـوافقهم على قصده وحـربه أن يصيروا الى الملك العزيز ويستولوا على الديـار المصرية، ولايبقى للعزيز معهم إلا مجرد الاسم، لحداثة الملك العـزيزوصغر سنه، وعدم تجربته لـلأمور، فكان يصعب انتزاع مصر من أيديهم، فأجـابهم الى قصدهم وقال في نفسه: إن غلـب القـوم الملـك العـزيـز فمصر لي وللملـك الأفضـل، وإلا فهـي للملك العزيز على مـانؤثره، فكان هذا رأيه، غير أنـه أبطنه وكتمه، فسار بجمـوعه الى مصر، ونـزلوا على بلبيـس محاصرين لها، وكـان بهامن الأجناد الصلاحية والعزيزية خلق كثير.

وكان نزول الملك العادل والملك الأفضـل عليها في وقت زيادة النيل، وكانـت الأسعار غاليـة، والعلف معدوم، ومنعـت الزيادة مـن نقل المؤن والعلوفات إليهـم، فغلت الأسعار، وارتفعت أثمانها، وبذل الملـك العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد.

وقوع الاتفاق بين الملك العادل وابني أخيه العزيز والأفضل: ثم ندم الملك العادل على مافعل، وكذلـك الأسدية، وأخذوا في إصلاح الأمر وتـلافيه، وبعـث السلطان الملـك العادل الى القـاضي الفاضـل رحمه الله يستدعيـه ليستشيره، فامتنع حتـى أذن له السلطـان الملك العزيـز، فخرج الى الملـك العادل فـاحترمـه غايـة الاحترام واستشـاره فيما يفعـل، فأشـار بصلاح ذات البين فـاصطلحوا ووقـع الاتفاق، وعفـا الملك العـزيز عـن الأمراء الأسـدية وطيب قلـوبهم وردّ اليهم اقطـاعاتهم وأجازهـم وحلف لهم وحلفـوا له، وحلـف كل مـن الملوك الثـلاثة: الملـك العادل والملـك

الافضل والملك العزيز لصاحبه، وتوثقوا بالايمان، وعادت الأسدية الى خدمة الملك العزيز، وعاد الملك الأفضل الى دمشق ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين، وكان قد ولاه بيت المقدس.

وأقام السلطان الملك العادل بمصر، واستوطن القصر، وأخذ في اصلاح الديار المصرية جندها وأرباعها وضياعها، وأظهر من محبته لابن اخيه الملك العزيز وشفقته شيئا كثيرا، وقام بأموره كلها صغيرها وكبيرها.

سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة:

في هذه السنة وصل السلطان الملك الأفضل علي ابن الملك الناصر الى دمشق، وكان دخوله اليها في غرة المحرم. وفي هذه السنة خرج السلطانان الملك العادل والملك العزيز متوجهين من الديار المصرية الى دمشق لأخذها من الملك الأفضل، وكان السبب في ذلك انه اتصل بالملك العادل أخبار الجزري وزير الملك الأفضل، وفساد دولة الملك الأفضل بسوء تدبيره وكثر شاكوه، وقل شاكروه، واختلت الامور بذلك غاية الاختلال، وتخوف الملك العادل اضطراب المملكة بسبب ذلك، وأداء ذلك الى مايكره، فحملته الحمية على الخروج لتمهيد البلاد، وضبط الأمور وإزالة ماعرض من المفاسد، فسار الملك العادل والملك العزيز من مصر، وقد امتلأ الفضاء بعساكرهما كثرة، وصارا الى الدواروم وغزة فنزلا بها.

وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد بعث أخاه الملك الزاهر محيي الدين داود بن الملك الناصر الى مصر لإصلاح أحوالهم، وبعث أيضا قاضي القضاة بهاء الدين يوسف بن شداد رحمه الله، ولما رجعا من مصر اجتازا بدمشق وأخبرا الملك الأفضل بعزم الملك العادل والملك العزيز

على قصده، فضاق بـذلك ذرعا، وأشار عليـه عقلاء أهل دولته بمـلاطفة أخيـه وعمه ومكـاتبتهما، إلا وزيره الجزري فـإنه بجهلـه أشار بمقـابلتهما ومقاومتهما، وقـال له: إن دمشـق حصينة لاتـرام وأهلها يحبـونه، وكـذلك أشار عليه أخـوه الملك الظافر خضر ابن الملك النـاصر وقال له: لاتحزن فالبادىء أظلم والمسلم الى الله اسلم.

وتولى الملك الظـافر تهئية أسباب الحصار واستكثر مـن العدد والعدة، ووافت رسـل الملك الظاهـر الى اخيه الملـك الافضل بالصبر والمصـابرة، ووعده بـالمؤازرة والمظاهـرة والنجدة والمسـاعدة، وبعـث الملك الأفضـل الأمير فلك الديـن أخا الملك العادل رسـولا الى السلطانين الملـك العزيز والملك العادل يدعوهما الى الصلح فأجابا بشروط التمساها.

وعاد فلـك الديـن الى دمشق مسرورا بـالتئام الشمـل واذا الجواب قد عاد بأن الملك الأفضل امتنع مـن الصلح وأنه لايجيب الى ماشترط، وانه قد سـور بلده وخنـدقه، فعجب الملـك العادل والملك العـزيز وتـألما له، وسارا من منزلتهما الى دمشق.

منازلة الملك العادل والملك العزيز دمشق: فـوصلا اليهـا ونازلاها. وأقـاما شهـرا لم يحدثـا قتـالا ولا احراقـا ولا افسـادا، رجـاء وقوع الألفـة وانتظام الشمـل، وأكابـر الدولـة يشيرون على الملك الأفضـل بالخروج الى عمه وأخيـه واستعطافهما، فيأبـى ذلك ويعمـل برأي وزيره وأخيـه الملك الظافر، فلما رأى الأكـابر ذلك فسدت نيـاتهم وكاتبوا الملك العـزيز سرا واصلحوا أمـورهم معهما، ووصلـت كتبهم اليهما بتعجيـل القتال وانتهـاز الفرصة.

استيلاء الملك العزيز على دمشق: فركب الملك العادل والملك العزيز، وضرب البوق، وقصدا دمشـق وذلك لأربع بقين من رجـب فما ردهم راد

ولاصدهم صاد الا الملك الظافر خضر بن الملك الناصر فإنه قاتلهم فهزموه.

ووصل الملك العزيز الى الميدان الأخضر، ووصل الملك العادل الى باب توما ففتحه له أمير كان عليه، فدخل الملك العادل وأصحابه منه ومن باب شرقي، ودخل الملك العزيز من باب الفرج وبات عند عمته الحسامية، وبات الملك العادل في دار عمه أسد الدين.

ولما دخل الملك العزيز خرج اليه أخوه الملك الأفضل فتلقاه، وأقام الملك العزيز بمخيمه في الميدان الأخضر الى أن انتقل الملك الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، ونزل بمسجد خاتون ومايجاوره من الدور، ومعه وزيره الجزري خائفا على نفسه.

ووقعت واقعة عجيبة لو أحسن فيها الملك الأفضل التدبير لحمد العاقبة لكنه فرَّط فجنى ثمرة تفريطه، وهي أنه كان استقر من الملك العادل والملك العزيز أن الملك العزيز يقيم بدمشق ويكون الملك العادل نائبا عنه بمصر، فلما فتحت دمشق ندم الملك العزيز على ماقرر وخاف من استيلاء الملك العادل على الديار المصرية، فبعث الى الملك الافضل سرا يعتذر اليه ويشير عليه بما هو عين المصلحة، وهو أنه إذا طالبناك فامتنع ولاترض الا بالسكة والخطبة لك، فإني أجيبك اليهما ولأمنعك منهما وأعطيك ماتريده، ويكون امتناعك لي عذرا لي عند عمي، فأظهر الملك الأفضل هذا السر لأصحابه وأفشاه، وقالوا: لاتخدع بهذا القول واطلع عمك الملك العادل عليه فإنه كأبيك في الشفقة، فأرسل الملك الأفضل الى عمه فعرفه بذلك فقامت قيامته، وعتب بسببه على الملك العزيز، وقال له: أنا أبني وأنت تهدم فأنكر ذلك الملك العزيز، وحلف على بطلانه.

وبعث الملك العزيز الى الملك الأفضل فأزعجه بالعتب والخصومة

وأخرجه من دمشق الى صرخد فسكنها بعائلته، وكانت بصرى بيد الملك الظافر فأخذها منه أخوه الملك العزيز مقابلة له على مافعله من المقاتلة والمحاربة، فسار الى أخيه الملك الظاهر فأكرمه.

استيلاء السلطان الملك العادل رحمه الله على دمشق: ولما ملك السلطان الملك العزيز دمشق جلس في دار العدل، فكشف المظالم، وأبطل المكوس، فظن الناس أنه يقيم بدمشق ويستوطنها فلم يشعروا به إلا وقد أزمع الرحيل فبرز الى مسجد القدم، ثم الى الكسوة، وقرر عمه الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب رحمه الله في دمشق وبلادها، وسلمها اليه، فملكها السلطان الملك العادل رحمه الله، وأحسن القيام فيها، وكان أحق بها وأهلها، لما كان رحمه الله مختصا به من حسن السياسة وصواب التدبير، فابتهجت به الممالك الشامية، وأشرق نورها واستبشرت بتملكه الرعايا، وتضاعف سرورها، لازالت الرحمة مضاعفة له من الرحيم الغفور، ولابرحت ذريته ملوك هذه الأمة الى يوم البعث والنشور آمين.

ثم سافر السلطان الملك العزيز متوجهاً الى الديار المصرية وودعه عمه السلطان الملك العادل وذلك لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان وكانت مدة ملكه لدمشق عشرين يوما.

ولما عاد السلطان الملك العادل الى دمشق بعد وداعه لابن أخيه السلطان الملك العزيز، قرأ منشوره على رؤوس الاشهاد، وأبقى الخطبة والسكة للملك العزيز، وأظهر أنه نائبه.

سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة:

في هـذه السنـة وردت الأخبـار بعـزم الفـرنـج خـذلهم الله على قصـد بيروت، فخرج السلطـان الملك العـادل رحمه الله من دمشـق في عساكـره، فخيم قـريبا من صـور، وبعث الى بيروت مـن تولى اخراب مـدينتها دون قلعتها ليكفي المسلمون عـاقبة أمرها، فخربت المدينـة حتى بقيت كأن لم تكن، وأمر بتحصين قلعتها فتـولى ذلك الأمير عز الدين سامـة، وبالغ في تحصينها، وترك فيها جماعة من مماليكه وأصحابه.

استيلاء الفرنج على بيروت: ولما انفصل عز الدين سامة عـن بيروت، خافـت الجند المرتبـون بها من الفرنـج، فخرجـوا منها منهـزمين، ووصلت الفرنـج فملكوهـا، واستولـوا عليها، وعـزموا على قصـد جبلة والـلاذقية، فبعث السلطان الملك العادل الى ابن أخيه الملـك الظاهر صاحب حلب يعلمـه بما عزمـت الفرنـج عليه، فـوصلـت كتبه بـأنه قـد جمع خلقاً مـن التركمان، وبرز لحفظ البـلاد الساحلية، وطلب من عمـه نجدة ليقوى بهم على العدو.

وأما الفـرنج فـإنهم رحلوا مـن بيروت الى صيدا، فنـزلوا عليهـا، ونزل بعضهـم على تبنين فحـاصروهـا وضـايقـوها مضـايقـة شـديـدة، فسـار السلطان الملـك العادل الى تبنين، وأقام بها في مقـابلة الفرنـج، وكتب الى ابن اخيـه السلطان الملك العزيـز يخبره بذلك، فبرز من مصر وجهـز من عساكره مقـدمة، وسار في إثرها بجحـافله، ثم رحلت الفـرنج خذلهم الله عن تبنين، ورجع الملك العزيز الى مصر.

سنة أربع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة سار السلطان الملك العادل رحمه الله الى الشرق، ونازل حصن ماردين وصاحبها يومئذ أرتق بن ارسلان بن ايل غازي بن أرتق، فملك السلطان العادل الربض بعد حصار شديد وقتال كثير، ثم شرع في حصار القلعة وذلك في العشر الاوسط من ذي الحجة، ولم يزل محاصرا لها الى ان خرجت السنة.

وفي هذه السنة كانت وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب بن شادي صاحب اليمن رحمه الله، وكان ملكا جليلا عظيم القدر، فقام بالملك باليمن بعده ولده الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بن ايوب.

سنة خمس وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والسلطان الملك العادل رحمه الله محاصر قلعة ماردين ومضايقها وقد اشرف على اخذها.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله،وحديث ذلك انه عزم على المضي الى الاسكندرية للاشراف على احوالها ثم المضي منها الى دمياط، وكان ذلك في شهر ذي الحجة من السنة الماضية، فاتفق انه خرج من مخيمه عازما على التصيّد في الفيوم ثم العودة الى مخيمه، والرحيل بعد ذلك الى الاسكندرية فتوجه الى الفيوم فوصله في مستهل المحرم من هذه السنة ونزل بقرية يقال لها ذات الصفا، فاقام بها متصيدا الى سابع المحرم فرحل منها وهو يتصيد في طريقه فاتفق ان ذئبا خرج فركض في اثره فعثر به فرسه فسقط، ثم ركب وهو محموم، فعاد الى مخيمه وقد قويت

حماه، ودخل القاهرة في عاشر المحرم فبقي مريضا الى ليلة الحادي والعشرين من المحرم فانتقل فيها الى رحمة الله ورضوانه.

سيرته رحمه الله

كان رحمه الله ملكا كريما رحيما حسن الأخلاق طيب الأعراق، شجاعاً، حسن العقيدة جميل الطوية، شديد الخوف من الله تعالى، محباً للعلماء، متكثراً بالفضلاء، كثير الاحسان اليهم والاستحضار لهم الى مجالسته، واستماع كلامهم، والعمل بما يشيرون به، سريع الانقياد الى الخير، كثير البذل مفرط السخاء تغمده الله برحمته، واسكنه الفردوس من جنته.

ولما توفي اجلس في السلطنة بمصر ولده الملك المنصور محمد بن عثمان بن يوسف بن أيوب، واجتمعت عليه كلمة الأمراء، وامتنع عماه الملك المؤيد، والملك المعز من الحلف إلا بشرط أن يكون الملك المؤيد أتابكه.

وعزم الملك المؤيد على المخالفة، واشترى اسلحة في الباطن فعقدت الأمراء مجلسا وحضر فيه: الملك المؤيد، والملك المعز، والملك الظافر، ثم طولب الملك المؤيد بالحلف، فامتنع فأغلظ له أخوه الملك الظافر وتهدده، فحلف كارهاً، وحلف أخوه الملك المعز، واستتب الأمر، واجتمعت الكلمة على أن يكون مدبر الأمر الأمير بهاء الدين قراقوش الى أن يصل السلطان الملك العادل فيفعل مايراه.

استيلاء الملك الأفضل على الديار المصرية

ثم إن الأمراء كاتبوا الملك الأفضل نور الدين علي ابن الملك الناصر صلاح الدين ليصل اليهم، ويرتِّب أتابكا لابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز. فساق الملك الأفضل من صلخد الى مصر سَوْقاً حثيثاً، ودخل القاهرة لسبع مضين من ربيع الأول، فحلفت له الأمراء، ولم يبق لولد الملك العزيز معه إلاّ الإسم، ومعنى السلطنة له.

ولما استقرت قدم الملك الأفضل بالديار المصرية كتب الى عمه السلطان الملك العادل، وهو على محاصرة قلعة ماردين يعزيه بالملك العزيز ويخبره أنه قد صار الى مصر، واستقل بتدبير أحوالها حفظا لدولة ولد الملك العزيز.

قصد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق وحصارهما لها

ثم إن الملك الأفضل والأمراء اتفقوا على قصد دمشق وأخذها لغيبة الملك العادل عنها، وكاتبوا الملك الظاهر بذلك، فوافقهم وصار معهم، وأيضا الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، والملك المنصور صاحب حماه.

وتوجه الملك الأفضل من مصر بعساكره طالباً دمشق، ووصلت الأخبار بذلك الى السلطان الملك العادل رحمه الله، وهو على محاصرة قلعة ماردين، فرتَّب على حصارها ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد، وسار الى دمشق مجدا ليسبق الملك الأفضل إليها، فوصلها لإحدى عشرة

ليلة مضت من شعبان، وذلك قبل وصول الملك الأفضل اليها بيوم واحد.

ونازلها الملك الأفضل في ثالث عشر شعبان وفي رابع عشر زحف اليها، وكانت الغلبة له أولاً، وكاد أن يملك البلد، وفتح له باب السلامة مخامرة من الأمير الذي كان يتولاه، فدخل جماعة من أصحاب الملك الأفضل المدينة من جملتهم الفقيه مجد الدين أخو الفقيه عيسى، ثم خرجوا من باب الفراديس ولم يحصل غرضهم، والسعادة إذا كانت مقبلة لم يضر صاحبها شيء، ولو اتفق أهل الأرض قاطبة عليه.

وفي شعبان وصل الملك الظاهر من حلب، واتفق مع أخيه الملك الأفضل على حصاردمشق، ثم وصل المجاهد صاحب حمص وعسكر من عند الملك المنصور صاحب حماه نجدة للملك الأفضل، ونازل الملك المنصور في شهر رمضان حصن بارين وصاحبه الأمير عز الدين ابراهيم ابن شمس الدين بن المقدم، وكان في خدمة الملك العادل ومن أصحابه، فنصب عليه المجانيق، وحاصره بقية شهر رمضان وشوال وذي القعدة، وفتحه لليلة بقيت من ذي القعدة، بعد أن جرح الملك المنصور جراحة مثخنة.

سنة ست وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملك الأفضل نور الدين وأخوه الملك الظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها عمهما السلطان الملك العادل رحمه الله، ولما كان اليوم العاشر من شهر ربيع الأول وصل السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل بمن معه من العساكر الى دمشق، فاستظهر به أبوه السلطان الملك العادل، وضعف بذلك قلب الملك الأفضل والملك الظاهر، ثم تأخرا عن دمشق .. رحلة، ثم رحل

الملك الظاهر جريدة الى حلب في البريَّة، وذلك لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، لشغب واختلاف وقع بينه وبين أخيه.

ولما رحل الملك الظاهر رتب السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبا بها، وأعاد ولده الملك الكامل في عساكره إلى حران، ثم رحل السلطان الملك العادل رحمه الله متَّبعاً لابن أخيه الملك الأفضل، فكان كلما رحل الملك الأفضل من منزلة، نزلها السلطان الملك العادل.

كسرة الملك الأفضل بالسايح

ثم التقى العسكران عسكر الملك العادل وعسكر الملك الأفضل بموضع يقال له السايح، وكانت أكثر العساكر الأفضلية مخامرين على صاحبهم في الباطن، فلما وقع القتال انهزموا وولوا الأدبار، وركب الملك العادل أقفيتهم الى أن وصل البركة فنزل بها مخيما ثمانية أيام، والرسل تتردد بينه وبين ابن أخيه الأفضل.

استيلاء الملك العادل على مصر

وآخر الأمر أنه تقرر أن السلطان الملك العادل يملك مصر، وينعم على الملك الأفضل بميافارقين وحاني وجبل جور وغيرها.

ثم دخل السلطان الملك العادل القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر، واستتب له الأمر، وصفت له المملكة بالديار المصرية

ودمشـق وأعمالها، وتـوجه الملـك الأفضـل بـأهلـه الى صرخد، فـأقـام بها وبعـث نـوابه ليتسلمـوا ديـار بكـر فتسلمـوا مـاوقع الاتفـاق عليـه، إلا ميافارقين، فإن الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل لم يوافق على تسليمهـا إليه، وظـن الملـك الأفضل أن ذلـك بمـواطـأة من عمـه، فتوجه الى حلب مستصرخا بأخيه الملك الظاهر.

ولما ملـك السلطـان الملك العـادل مصر. كـرهـت الأمراء الصـلاحيـة ذلك، وشـق عليهم خـروج الأمر عن ولـد الملك النـاصر صلاح الـدين، فكاتبوا الملك الأفضل سراً، ووعدوه القيام معه وبذل الجهد في نصرته.

وكان الأمير عز الـدين سامة أميراً على ج في تلـك السنة، فلما عاد اجتمع به الملك الأفضل وأخبره بمكاتبـة الامراء له، واستحلفه فحلف له كرهـاً، وكتب الى الملك العـادل يخبره بموافقـه الأمراء الصلاحيـة للملك الأفضل ومكاتبتهم له، فشكره العادل على ذلك

سنة سبع وتسعين وخمسمئة

دخلـت هـذه السنـة والملـك العادل بـالـديـار المصريـة متملـك لها، وبـدمشق ولـده الملـك المعظم شرف الـديـن عيسى نـائبـا عنه، والملـك الأفضل بحلـب عند أخيه الملك الظـاهر مستنصراً به على عمـه العادل، ووصلتهما كتب الأمراء الصـلاحية يستحثونهما على قصد دمشـق، وأخذها ويعدونهما بالنصرة والمعاضدة، ومن جملتهـم الأمير فخر الدين جهاركس، والأمير زيـن الديـن قراجـا، والأمير عماد الـدين ابـن المشطوب وميمـون القصري، وغيرهـم، وتحالـف هـؤلاء الامـراء سراً على رد الأمـر الى أولاد الملـك الناصر وتمليكهـم ماأخـذ منهـم وشاركهـم في سرّهم الأمير عـز

الديـن سامة وأوهمهـم أنه من جملتهم، وجعـل يكاتب السلطـان الملك العادل بأسرارهم ومايتجدد لهم.

ثم سار الملك الظاهر الى منبج وصاحبهـا شمس الدين عبد الملك بن شمس الدين بـن المقدم، وكان في خدمة الملك العـادل، فتسلمها وقبض على صاحبهـا شمس الـدين، ثـم سار الى قلعـة نجم، وكـانت لشمـس الديـن أيضاً فتسلمها، وراسل الملـك المنصور صاحب حماه، وطلـب منه أن يكون معـه فلم يجبـه الملك المنصـور الى ماطلـب، وأبى إلا الانتماء الى السلطان الملـك العادل، والاستمـرار على طاعتـه ومتابعتـه، فسار الملـك الظـاهر الى المعـرة واستـولى على ماكـان بها مـن الحواصـل ثم مضـى الى كفرطاب فنزل بها وسيرَّ الى نائب شمس الديـن بن المقدم بأفاميه يتهدده ويتواعـده إن لم يسلم إليـه الحصن فلـم يفعل، فسـار الملك الظـاهر إلى أفاميـة فنزلها واستحضر شمس الـدين بـن المقدم، وأمر بـه فضرب ضرباً مبرحاً بمرأى من أهـل الحصن ليسلم نوابه الحصن، فلـم يجد ذلك شيئا، فرتـب على حصارها عماد الـدين بـن المشطوب، ثم سـار الى حماه فنازلها مدة، ثم وقعت بينه وبين صاحبها الملك المنصور هدنة على شيء بذله له الملك المنصـور، أنَّ الملك الظـاهر والملك الأفضـل إذا أخذا دمشـق كان الملك المنصور في خدمتهما.

منازلة الملك الظاهر والملك الأفضل دمشق

ثم رحل الملك الظـاهر ومعه أخوه الملك الأفضل الى دمشـق فنازلاها، وبلغ ذلك السلطـان الملك العادل وهو بـالديار المصرية، فسـار منها الى نابلس فأقام بها.

وبينما الملك الظاهـر والملك الأفضل محاصران لدمشـق إذ قفز الأميران

فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وكانا في عسكر الملك الظاهر الى الملك العادل، فتناقصت عند ذلك أمور الملك الظاهر والافضل.

وكاتب الملك العادل في السر أكابر الأمراء الذين معهما، فوعدهم السلطان الملك العادل، وسوفهم، واصلح قلوبهم له وأفسدها على الملك الظاهر والملك الأفضل.

سنة ثمان وتسعين وخمسمئة

دخلت هذه السنة والملكان الأفضل والظاهر محاصران مدينة دمشق، وبها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، ووالده العادل نازل بنابلس، وقد تخذل أصحاب الظاهر والأفضل وضعفت شوكتهما،وكلَّ حدهما، ووقع الخلفُ بينهما، وذلك أن الملك الظاهر قال سراً: إن أخذت دمشق أخذتها لنفسي ولا أعطيها لأخي الملك الأفضل، فراسل الملك الأفضل عمه السلطان الملك العادل ماكان عينه له من البلاد الشرقية، وان يعطيه في كل سنة مئة الف دينار، نصفها عينا، ونصفها عروضا، فتحالفا على ذلك سراً، وشاع في العسكر أمر الصلح من غير وقوف على حقيقة تفصيله فتخاذلوا وضعف أمرهم.

ثم رحل الملك الظاهر لما رأى اضطراب الأحوال وذلك في أول محرم ومعه فارس الدين ميمون القصري، وعماد الدين بن المشطوب، وسراسنقر. ورحل الملك الأفضل الى الشرق، ودخل السلطان الملك العادل رحمه الله دمشق، وكان يوما مشهودا. وكان الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل قد تسلم منبج في غيبة الملك الظاهر، فتسلمها الملك الظاهر لما عاد، واقطعها لعماد الدين بن المشطوب، وتسلم أفاميه من نواب شمس الدين بن المقدم على عوض اقطاعها.

- ١٠٠١٦ -

سنة تسع وتسعين وخمسمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله من دمشق الى حماه فنزلها، وجرت بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر مراسلات آخرها أنه وقع الصلح بينهما وتحالفا على أن يكون للسلطان الملك العادل دمشق والسواحل وأعمال البيت المقدس، والديار المصرية، ومابيده، وبيد أولاده من بلاد الشرق، وأن يكون للملك الظاهر مدينة حلب وأعمالها، وللملك المنصور حماه والمعرة ، وسلمية، وبارين، وللملك المجاهد أسد الدين حمص والرحبة وتدمر، وللملك الأمجد بعلبك وأعمالها.

ولما وقع الاتفاق على ذلك عاد السلطان الملك العادل الى حمص ونزل على بحيرة قدس وعين لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى حرَّان والرَّها، ولولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين، ولولده الملك المعظم شرف الدين عيسى السواحل وأعمال البيت المقدس، ولولده السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد الديار المصرية.

وكان في اليمين المقترحة على الملك الظاهر ان يقطع خبز عماد الدين ابن المشطوب ولايستخدمه، فقطع الملك الظاهر خبزه، فصار الى السلطان الملك العادل فلم يستخدمه، وقال تخدم بعض أولادي، فقصد الملك الأوحد فلم يستخدمه واستخدمه الملك الأشرف وحلف له على أربعمائة فارس وخبزها من بلاد ماردين إذا فتحها، فقصدها عماد الدين، واستحضروا الملك الأفضل نور الدين وأخذوا رأس عين من صاحب ماردين، وسلمها ابن عمه الأشرف إليه، وساروا الى ماردين، فبعث صاحب ماردين الى الملك الأشرف خمسين الف دينار ليرحل عنه، وعاد الى حران وأعطى الملك الأفضل جمليں، ثم أخذ منه كل موضع وقع التقرير عليه، ولم يترك له غير سميساط، فأقام بها الى أن مات.

وفي هـذه السنة كـان مقتل الملـك المعـز إسماعيل بـن سيف الاسـلام طغتكين بن أيـوب بن شادي صـاحب اليمـن، وكان قد ادعـى الخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين، وزعـم أن نسبه ينتهي الى بني أمية، وجـرى له مع مماليـك أبيه خبط كثير، وتحزبـوا عليه، وآخر الأمـر أنه وثب عليـه جماعة مـن الجند، فحمـل عليـه أحـدهم، وكـان راكبـاً على بغلـة وعليه ثيـاب الخلافة طول الكمِّ قريباً من عشريـن شبراً وسعته قريب من ستة، فنفرت البغلة ورمته فتخبط في ثيابه وأكمامه، فنـزلوا إليه فقتلوه، ورفعوا رأسه على رمح وداروا بـه في بلاد اليمن وملكـوا عليهم سيـف الدين سنقـر، مملوك سيف الاسـلام، فجند الجنود وحشـد الرجال وقصد مـن خالفه، فـأعطي النصر عليه، وتمهدت له بلاد اليمن وقتل جماعة كبيرة من الأمراء.

وكان الملـك المعز قـد خلف ولـداً صغيراً، فلقبه سيـف الديـن سنقر الملك الناصر، وخطب له بالسلطنة في بـلاد اليمن، وتزوج أمه، وأظهر أنه أتابكه وحافظ دولته، فبقي كذلـك مدة اربع سنين، ثم توفي سيف الدين سنقر، وخلف ولداً صغيراً من أم الملك النـاصر بن الملك المعز، فتزوج بها بعد وفاة سيـف الدين غازي بن جبريـل أحد امراء تلك الـدولة، وغلب على البلاد.

وبقي الملك الناصر مدة، ثم سمَّ في كوز فقاع، فمات وبقي غازي ابن جبريل مدة بعـد ذلك، ثم قتلته حمير وخولان وجماعة مـن العرب، وذلك لأنهم اتهموه بـأنه هو الـذي قتل الملك النـاصر، فقتلوه به، وبقيـت بلاد اليمن بغير سلطان.

وكانت أم الملك الناصر حاكمـة على زبيد، فقصدها الشريف عبد الله ابـن عبد الله الحسنـي، وكان متغلبـاً على بعـض تلك البـلاد، فلم يظفـر بطائل، ورجـع الى بلاده، واتفق أنه قـدم الحاج وفي جملتهم الأمير سليمان شاه بن سعـد الدين شاهـان شاه بن الملك المظفـر تقي الدين عمـر بن

شاهان شاه بن أيوب بزي الفقراء، فأعلمت به أم الملك الناصر فخلعت عليه وتزوجته، وسلمت اليه البلاد فملأها ظلماً وجوراً وفسقاً وتجبراً.

وكتب الى السلطان الملك العادل رحمه الله كتاباً يقول في أول: (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)(١٦).

واهتم السلطان الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بأمره، فسيرَّ الى اليمن ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمئة بعسكر، ففتح بلاد اليمن، وقبض على سليمان شاه وبعث به الى مصر تحت الحوطة فاعتقل بها، ثم أفرج عنه بعد مدة.

ودوخ الملك المسعود بلاد اليمن حتى أطاعه أهلها، وكان شجاعا أبي النفس عالي الهمة، واعلم ان هذه الحوادث وإن وقع اكثرها بعد هذه السنة أعني سنة تسع وتسعين فإنما قصد سياقة الحديث دعانا الى ذكرها كراهة أن يتبتر.

سنة ستمئة

في هذه السنة كانت كسرة المواصلة على يد السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن السلطان الملك العادل رحمهما الله، وحديث ذلك أنه خرج نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل الى قتال الملك الأشرف، ولما بلغ الملك الأشرف ذلك كتب الى والده الملك العادل، وكان نازلاً بخربة اللصوص يستشيره فيما يفعله، فكتب اليه يشير عليه بأن لايضرب مع صاحب الموصل مصافاً وحذَّره من ذلك غاية التحذير، وسار السلطان الملك الأشرف رحمه الله

الى دارا، فنزل بها واستدعى اخاه الملك الأوحد من ميافارقين، وصاحب آمد وصاحب الجزيرة، ورحلوا قاصدين باشزى[١٧] ووصل نور الدين الى باشزى بجموعة قبلهم، وبعث إلى السلطان الملك الأشرف رسولاً يطلب منه المصاف.

ثم وقع القتال فحملت المواصلة على عساكر الملك الأشرف فزحزحتها قليلاً، وحملت عساكر الملك الأشرف بعد ذلك عليهم فكانت الهزيمة، وأباح الله تعالى الملك الأشرف أكتافهم فاستولوا عليهم قتلاً وأسراً ، ودخل نور الدين الموصل هزيماً، ثم جرت بينه وبين الملك الأشرف مصالحات واتفاقات.

وقد كان الملك الأشرف رحمه الله مقرونة براياته السعادة أين توجه، وكانت هذه الوقعة أول سعاداته وعنوانها.

سنة ثلاث وستمئة

في هذه السنة نزل السلطان الملك العادل رحمه الله على البحيرة بظاهر مدينة حمص، واستدعى ابن اخيه الملك المنصور صاحب حماه، وابن أخيه الملك الأمجد صاحب بعلبك، ووصل عسكر آمد وسنجار وحلب، ودخل الساحل فأخرب القليعات وأحرق ونهب للفرنج شيئاً كثيراً.

سنة أربع وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل الى دمشق، فأقام بها وأمر

بتجديد عمارة قلعتها، ووظف على كل ملك من ملوك أهل بيته وأكابر أمرائه برجاً، فعمروها بأموالهم خدمة له.

سنة ست وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك العادل رحمه الله الى سنجار، ومعه ملوك أهل بيته بعساكرهم فأقام محاصراً لها مدة طويلة ثم عاد عنها ولم يظفرمنها بشيء، ودخر الله تعالى فتحها لولده الملك الأشرف، فإنه فتحها سنة سبع عشرة وستمئة، وبعد رحيل السلطان عنها سيرَّ ولده الملك الأشرف، وفي خدمته ابن عمه الملك المنصور صاحب حماه الى نصيبين ففتحها، واستولى عليها، وكانت لصاحب الموصل.

سنة سبع وستمئة

في هذه السنة قبض السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل على الأمير عز الدين سامة واعتقله بحصن الكرك، ونازل حصْنَيه عجلون وكوكب، وكان قبل ذلك قد طلبهما منه على أن يُعَوَّض عنهما الفيوم من أعمال مصر فامتنع ففتح الملك المعظم حصنيه واستولى عليهما.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل بأخلاط، وكان قد استولى عليها وعلى حصونها ومعاقلها.

استيلاء الملك الأشرف على أخلاط

وكان الملك الأوحد رحمه الله لما احتضر كاتب أخاه السلطان الملك الأشرف ليحضر عنده، فمضى اليه وأقام عنده مدة، فاتفق أن الملك الأوحد تعافى من مرضه، وتكامل بُرْؤُهُ. فودَّعه الملك الأشرف عازماً على العود، فأخبره منجم أخلاطي، كان عند الملك الأوحد بأن الملك الأوحد يموت لامحالة ونهاه عن المضي، فأقام اسبوعاً فمات الملك الأوحد في ذلك الاسبوع، فاستتب الملك بأخلاط للسلطان للملك الأشرف شاه أرمن موسى بن الملك العادل، وأقبلت السعادة له من كل جانب.

سنة عشر وستمئة

في هذه السنة ولد السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وأمه خاتون ابنة السلطان الملك العادل.

سنة ثلاث عشرة وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك الظَّاهر غياث الدين ايل غازي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قدس الله روحه، وذلك لعشر بقين من جمادى الآخرة وعمره أربع وأربعون سنة وشهورا، وكانت مدة ملكه بحلب احدى وثلاثين سنة.

سيرته:

كان رحمه الله ملكا جليل القدر، حسن السيرة، عادلاً في رعيته، كثير الاحسان إليهم والمحبة واستجلاب قلوبهم، والتكثر بأماثلهم وأكابرهم،

حتى أنه كان إذا مرض أحد من أكابر أهل بلدة ومعمميهم عاده بنفسه وافتقده بالنفقات، ومتى عوفي من المرض خلع عليه.

وكان له سماط في شهر رمضان يحضره غالب فقهاء البلد، وكان في الأعياد يجلس في الهناء، ويسمع من الشعراء مدائحهم، ويمد سماطاً عظيماً، يحضره غالب الناس، ويخلع على الأعيان والأمراء وأرباب البيوتات.

ولما توفي الملك الظاهر رحمه الله عقد الملك بحلب لولده السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد بن الملك الظاهر، وعمره يومئذ سنتان وكسر بوصية أبيه إليه في ذلك، وترتَّبَ أتابكاً له الأمير شهاب الدين طغريل خادم أبيه، فضبط المملكة، ونشر العدل، وأكثر من الاحسان الى الرعايا، وقام بحفظ مملكة الملك العزيز أحسن قيام.

ذكر بدء ظهور التتر لعنهم الله

كان السلطان خوارزم شاه محمد بن السلطان خوارزم شاه تكش قد تملك ماوراء النهر، وكان هؤلاء الطائفة المعروفون بالتتر مقيمين بصحراء متاخمة بلاد الصين، يقال لها جين ماجين، فاتفق أنهم ملكوا من : بلاساغون،مدينتي طمغاج وكاشغر، فقويت شوكتهم بذلك، وكانت هذه البلاد متاخمة لسمرقند وهي يومئذ بيد خوارزم شاه، فوقعت الحرب بينهم وبين خوارزم شاه مدة قبل هذه السنة، فقلت عندهم المؤن والنفقات ومنع خوارزم شاه من نقل شيء منها إليهم، فبعث ملك التتر واسمه جنكيزخان رسلاً ثلاثة، وصحبهم تجار منهم على خوارزم شاه، وبعث الى خوارزم شاه فأعلمه بهم، فبعث خوارزم شاه من قتلهُم سوى رجل واحد، وأظهر خوارزم شاه أن ذلك وقع بغير أمره. ونهب متوليّ أطرار ماكان مع أولئك التجار، وكانوا أربعين تاجراً ومعهم مئة وخمسون فرساً عليها فضة نقرة ليبتاعون بها مايحتاجون اليه من السلع والبضائع.

ولما بلغ ذلك ملك التتر بعث الى خوارزم شاه ينكر عليه هذا الفعل ويتهدده إن لم يبعث اليه بأولئك الرسل والتجار أحياء، فقطع خوارزم شاه أطراف رسله، وقال: مالكم عندي إلا هذا الفعل. فاجتمعت التتر في عالم لايحصى، وقصدوا بلاد الاسلام وهؤلاء القوم كفار يعبدون الشمس، ولايعتقدون صحة شيء من الشرائع، وقد ذكر أن عدة جمعهم كان يومئذ أربعمئة الف مقاتل، وافترقوا ثلاث فرق، فخرج خوارزم شاه في سبعين ألفاً فضرب مع ملك كاشغر، وهو احد ملوكهم مصافاً وكان عدة من معه أربعين ألفاً، فهزم أصحاب ملك كاشغر وأسره خوارزم شاه وقتله.

ثم طلب خوارزم شاه من ابن ملك التتر جنكيزخان أن يضرب معه مصافاً فامتنع وقال: مامعي أمر من والدي بذلك، فألحَّ عليه خوارزم

شاه فاندفع ابن كشلو خان قدامه مسيرة ثلاثة أيام، ثم ردت التتر على خوارزم وأصحابه فهزموهم أقبح هزيمة، وطمعت التتر عند ذلك في البلاد الاسلامية، فبعثوا الى بخارى عشرة آلاف فارس فنازلوها وحاصروها حصاراً شديداً ثم فتحوها بعد ثلاثة أيام وبذلوا السيف في أهلها فأبادوهم وعصت القلعة عليهم خمسة أيام ثم فتحوها وقتلوا من كان بها وهدموها، وكان ببخارى من العلماء والأكابر مالايحصى كثرةً، فذهب أكثرهم تحت السيف، ثم مضوا الى سمرقند فأخذوها بالسيف وقتلوا جميع اجنادها وعوامها وفقهائها، وهذه مدينة لم يكن بها وراء النهر مدينة أعظم منها.

وأما خوارزم شاه فإنه صار الى ترمذ، فاختلفت أصحابه، وتحالفوا على قتله لما رأوا من استيلاء الكفار عليه وغفلته عنهم، وعزموا على تمليك شخص منهم يقوم بذب الكفار عن حوزة المسلمين، فاطلع خوارزم شاه على ماأجمعوا عليه، فانهزم الى نيسابور واتبعه أجناده يطلبون قتله، ثم انهزم الى همذان وهم في اثره، ثم انهزم منها وساق سوقاً حثيثاً في البرية فأدركته منيته على شاطىء البحر فدفن هناك لاأحسن الله عن الاسلام جزاءه، فلقد كان هلاك معظم بلاد الاسلام على يديه وبسببه، وقصد ولده جلال الدين منكبرتي بن محمد مدينة خوارزم فلم يفتح له بابها، فعاد الى نشاوور، وأقام بها أياماً فالتقاه التتر فكسروه كسرة قبيحة، وأخذوا ماكان معه، وانهزم الى هراة وهم في أثره فمضى الى غزنة فلقيه رجل من أهل بلخ فسأل جلال الدين أن يعطيه العسكر ليصافّ بهم التتر فأعطاه إياه، فصاف البلخي التتر فهزمهم، فحسده جلال الدين على ذلك فقتله، فسلط الله تعالى الكفار على جلال الدين فهزموه الى ماوراء السند، واستولى الكفار على بلاد العجم، واستباحوا أهلها قتلاً وأسراً، فهذا مابلغني من ذكر ابتداء أمرهم.

ثم إن جلال الدين بعد ذلك عاد الى بلاد العجم وجمع خلقاً عظيماً،

ثم إنـه قصد أخلاط وملكهـا على ماسنـذكره إن شاء الله تعـالى، فقصده السلطان الملك الأشرف وكسره وفَلَّ جمعه، ثم كـانت بعد ذلك بينه وبين التتر حروب كـان الظفر فيهـا للتتر، وانهزم منهم جلال الـدين نحـو آمد، ودياربكر، فقيض الله مـن اغتاله وأراح المسلمين منه، فإنه وأبـاه كانا على النـاس شراً مـن التتر لما كـان يبـدو منهما من الظلـم الفـاحـش وسفـك الدماء، وانتهاك الحرمات وإخراب البلاد واهلاك الحرث والنسل.

ولم تـزل شـوكة التتر تعظـم وأمـرهـم يتفـاقم الى أن ملكـوا أصبهـان، وكانت قـد امتنعت عليهم مدة طـويلة، فقتلوا من أهلهـا مقتلة عظيمة، ثم قصـدوا إربل فحاصروهـا، ثم ملكوها وقتلـوا جميع أهلها، ثـم قصدوا العـراق فقـام الخليفـة الامـام المستنصر بـالله أمير المؤمنين أعـز الله نصره بقتالهم، وتشمـر لحربهم والأمر على ذلك الى وقتنـا هذا، فنسـأل الله تعالى أن يعجل دمارهم وهلاكهـم، وينزل جنود النصر على مولانا أمير المؤمنين وأن يحسم بطول بقائه مادة الكافرين آمين.

ولولا خشيـة خروج هـذا المختصر عن حَدِّهِ لـذكرنـا أمورهـم جميعها، لكنَّا كرهنا ذلك لطولها، ولأنها أيضاً معلومة لقرب العهد بها.

سنة خمس عشرة وستمئة

في هذه السنة خرج سلطان الروم عز الـدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلـج أرسلان بن مسعـود بن قلج أرسـلان طالبا بـلاد الشام ليملكهـا، واظهر أنـه إنما خرج نجـدة للملك الأفضـل نور الـدين ابـن الملك الناصر صلاح الـدين، فوصل الى تل باشر، وكـانت بيد الأمير بدر الـدين دلـدرم اليـاروقـي فنازلها وفتحهـا وتسلمهـا لنفسـه، وكان الملـك الأفضـل يعتقد أنـه كلما استولى سلطـان الروم على بلـد سلمه اليـه، فلما

تسلم تـل باشر لنفسه اعتـذر إلى الأفضل بأن تـل باشر ليست مـن بلاد الظاهر ولامن بلاد إخوته.

ولما بلغ شهاب الدين أتابك الملك العـزيز صاحب حلب أمر سلطان الروم، بعـث الى السلطان الأشرف موسـى ابن الملك العـادل يستنصر به، وكـان يومئـذ بظاهـر مـدينة حمص في مقـابلـة الفرنـج، فتوجـه رحمه الله بعساكره للقاء سلطان الروم، فانهزم منه سلطان الروم طالباً بلاده.

وساق السلطان الملك الأشرف تبعاً له الى أن أخـرجه من بلاد الشا م، وتسلَّم تل باشر، ورعبـان، وسلمها الى شهاب الدين أتابـك، وكانت هذه النوبة مـن سعادات الملك الأشرف العجيبة ووقعـاته الغريبة، فـإن الملك الأشرف يومئذ كان في جمع قليل، وكـان سلطان الروم في جموع كثيرة العدد غـزيـرة المدد، ولم يكن في ظـن أحـد أنـه يَفُـلُّ حـدَّهُم بهذا الجمـع بـل ولابأضعافه.

وفي هذه السنـة كانت وفـاة السلطان الملـك العادل سيف الـدين أبي بكر بـن أيوب قدس الله روحه بمخيمـه بخربة اللصوص، وذلـك بعقب خروج الفـرنج خـذلهم الله تعالى ووصـولهم الى الغور قـاصديـن الاستيلاء على البيت المقدس واسترداد ماأخذ منهم من البلاد الساحلية.

ولما توفي السلطـان الملك العـادل كُتم مـوته إلى أن أدخـل في محفة الى قلعـة دمشق، ودفـن بها، ثـم أُظهـر موتـه، وجلـس ولـده الملك المعظـم للعزاء، وكانت مـدة عمره ثلاثاً وسبعين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه من حين ملـك مصر واستتب له الأمـر ثمان عشرة سنة وشهوراً، وكـانت وفاته في جمادى الآخرة.

سيرته رضي الله عنه:

كان رضي الله عنه جميل السيرة، حسن الطويّة، وافر العقل حازم الرأي، كثير التجارب، ذا معرفة بدقائق الأمور، مواظباً على أداء المفترضات والنوافل، محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأوامر الشرع المطهرّ منزجراً بزواجره، حسن العقيدة محباً للدين وأهله، متبعاً للسنة كارهاً للبدعة، مبالغاً في إطفاء نارها وإخفاء منارها، كثير التلاوة والصيام والقيام على كبر سنه، مجاهداً في سبيل الله عز وجل، ذاباً عن دينه، مائلاً الى العلماء وأهل الخرق، وكان مع ذلك مسعوداً في جميع أموره مظفراً على من ناوأه منجحاً في كل أمر قصده ونواه.

ومن جملة سعادته أنه خلَّفَ أولاداً لم يخلف أحد من الملوك مثلهم في بسالتهم وإقدامهم، وعظم شأنهم، وجلالة قدرهم وبعد صيتهم، وعلو هممهم، وهيبة أهل الأرض قاطبة لهم، كل منهم إذا جُرِدَ النظر إليه ظُنَّ أنه أفضل أهل دهره، وأنه لاشبه له في عصره:

من تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدهم
مثل النجوم التي يَسْرِي بها السَّاري

ولما توفي السلطان الملك العادل استقر في السلطنة بعده ولده السلطان الكبير الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب، فخطب له إخوته وهم أهل بيته، في بلادهم، وضربوا السكة باسمه.

وأما الذي كان يختص به من البلاد عند موت والده فالديار المصرية، وبلاد اليمن، ونائبه بها ولده السلطان الملك المسعود وقد ذكرناه.

واستقر في الملك بدمشق وأعمالها السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى، وببلاد الشرق السلطان الملك الأشرف مظفر الدين شاه أرمن موسى.

ـ ١٠٠٢٨ ـ

نزول الفرنج على دمياط

وفي هـذه السنة نـزلت الفـرنج على دميـاط، وزحفوا إليهـا براً وبحـراً فخرج السلطان الملك الكامل رحمه الله لقتـالهم فنزل في دمياط المقابل لها الى بورة[١٨]،ونزل الفرنج في الجانب الآخر والنيل بين الفريقين.

وكـان نزول الفـرنج على دميـاط لثلاث مضين مـن شهر ربيـع الأول، وذلك قبل وفاة السلطان الملك العادل بثلاثة أشهر وأربعة أيام.

واشتد زحف الفـرنج على دمياط ومحاصرتهم لها، وكـانت أكثر عساكر المسلمين قد جهـزوا خيولهم الى الـربيع، وبقـي اكثرهـم رجالـةً فضعفت نفوسهم بسبب ذلك، وخافوا من عـدوهم، وجرت أمور مع ذلك أوجبت خروج السلطان ومن معه من المخيـم ليلاً إلى أشمون، ولما أصبح الصباح دخل الفرنج مخيم المسلمين واستولوا عليه، واحتاطوا بدمياط وأحدقوا بها براً وبحراً، فعظم البلاء واشتدت الرزيَّة.

وأما السلطان رحمه الله فإنه لما وصـل إلى أشمون أخرج الأموال وأنفقها في الناس، وعـوضهم عما ذهـب منهم، ثـم وصل أخـوه السلطان الملـك المعظـم صاحـب دمشـق بعسكر كثير مـن فـارس وراجـل، فاجتمعـت العساكـر الاسلامية، وعـادت الخيول مـن الربيع فعـاد السلطان رحمه الله فنازل الفرنج، والفرنج منازلون دمياط.

ونشب القتال بين الفـريقين، وحفر الفرنج عليهـم خنادق يمتنعون بها من السلطان، وجدوا في حصار البلد ومضايقته الى أن خرجت السنة.

سنة ست عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والمسلمون محدقون بـالفرنج محاربون لهم، والفـرنج محاصرون لدميـاط، وقد اشتدت مضايقتهـم لها، فَقَلَّتِ الأقوات بـدمياط حتى هلك أكثر أهلها، وضعفوا ووقع فيهم الوباء والفناء.

استيـلاء الفرنـج على دميـاط: ولما طالـت مـدة الحصار على دميـاط، وعدمت عندهـم الميرة، وكثر الوباء عندهم حتى هلـك أكثر مقاتليهم لم يبق لأهـل البلد منعـة، ولابمصابـرة العدو طـاقة، وزحـف الفرنـج اليها فملكوهـا واستولـوا عليها، واسترقّـوا من وجـدوه بها وذلك يـوم الثلاثـاء لخمس بقين مـن شعبان فكانت مـدة حصار الفرنج لها ستـة عشر شهراً واثنين وعشـريـن يومـا.

ولما ملـك الفـرنـج دميـاط تـأخـر السلطـان رحمه الله بـالمسلمين الى جوجر[١٩]فنزل هنـاك وبنى بها دوراً وأمـر الناس بـالبناء فصـارت هناك مـدينـة عظيمة وسماهـا المنصـورة، وأعطـى أخـاه الملك المعظـم دستـوراً بالمضي الى الشام، وبجمع العساكر لجهاد العدو.

سنة سبع عشرة وستمئة

دخلت هـذه السنة والفرنج خـذلهم الله متملكون لدميـاط، والسلطان رحمه الله بمنزلته المسماة بالمنصورة.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك المنصـور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقـي الديـن صاحـب حماه، وذلك لثـلاث بقين من ذي القعـدة، فكانت مدة عمره خمسين سنة وشهوراً، وكـانت مدة ملكه تسعاً وعشرين

سنة وشهوراً، فعُقد الملك بحماه بعده لولده الملك الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب، ولم تكن الوصية بالملك إليه، وإنما كانت لأخيه الملك المظفر تقي الدين محمود الذي هو ملكها اليوم، لكنه كان عند وفاة أبيه بمصر عند خاله السلطان الملك الكامل رحمه الله، وكان الملك الناصر قلج أرسلان بدمشق، فاستحضره زين الدين وزير صاحب حماه، واستحلف الناس له، وملكه على بلاد أبيه وهي حماه والمعرة وسلمية وبارين.

سنة ثمان عشرة وستمئة

في هذه السنة توجه السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق الى أخيه السلطان الملك الأشرف مظفر الدين رحمهما الله مستنجداً به على الفرنج خذلهم الله، فجمع السلطان الملك الأشرف العساكر، وجاءتها نجدة صاحب ماردين، ثم سار الى حمص مخيماً على البحيرة، ووصلهم عسكر حلب، والملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماه والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ثم توجهوا قاصدين الديار المصرية نجدة للسلطان رحمه الله.

وأما الفرنج فإنهم خرجوا من دمياط ونازلوا السلطان في المنصورة وبينهم وبينه بحر أشمون، واستمر القتال بين الفريقين براً وبحراً.

فتح دمياط

ولما وصل السلطان الملك الأشرف والملك المعظم بمن معهما من

العساكر، بعث السلطان في بحر المحلة أسطولاً فدخلوا الى بحر دمياط ليمنع الميرة عن الفرنج، وأمر السلطان فبنيت الجسور عبر عليها المسلمون الى جزيرة شر مساح التي الفرنج مخيمون عليها.

وكان الفرنج قد عزموا على الرحيل في الليل، فأحاطت بهم العساكر وقد دخلوا أرض السرمون، ودارت الحرب بينهم وبين المسلمين، ووقع أسطول المسلمين من كل جانب على أسطول الفرنج خذلهم الله وشوانيهم، وقُتل منهم خلق عظيم حتى لم يبق لهم سبيل الى الهرب بوجه من الوجوه، وأيقنوا بالهلكة فراسلوا السلطان الملك الكامل رحمه الله يبذلون له النزول عن دمياط على أن يؤمنهم، فأجابهم الى ذلك وشرط عليهم اطلاق من في أيديهم من أسرى المسلمين، وأخذ منهم رهائن ملوكهم على تسليم البلد وتقرر بينهم صلح عام مدة ثمان سنين.

وتسلم السلطان دمياط لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب، فكانت مدة تملك الفرنج لها سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وكان هذا الفتح أعظم الفتوح وأجَلّها، فإنهم لو استمر تملكهم لها لكان ذلك سبباً لاستيلائهم على أكثر البلاد الاسلامية، لكن أبى الله تعالى إلا إعزاز هذه الملة ونصرها، وجعل ذلك على يد أهل البيت الأيوبي الذين استنقذ الله تعالى بسلفهم بيته المقدس من أهل الطغيان، وترجو أن يقُر بفتحه على أيدي خَلَفِهم عيون أهل الإيمان آمين.

ولما تسلم السلطان رحمه الله دمياط دخلها المسلمون وأقيمت الجمعة بها يوم الجمعة لسبع بقين من رجب، فَضَجَّ المسلمون بالبكاء من فرحهم، وأكثروا من الثناء على الله سبحانه شكراً على ماأولاهم من هذه النعمة التي يعجزون عن بلوغ شكرها، وتكلُّ ألسنتهم عن وصف كُنْهِ قدرها.

سنة تسع عشرة وستمئة

في هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حماه، فأغلق صاحبها الملك الناصر أبوابها وحفظ أسوار بلده بالمقاتلة.

وكان الملك المعظم قد أظهر أنه لم يأت للمحاربة وإنما أتى طلباً للمجاهد إقبال، وهو أمير من أمراء السلطان الملك الكامل كان قد هرب منه، وتقدم الى أخيه الملك المعظم بطلبه.

ولمّا جرى ماذكرناه من احتفاظ الناصر صاحب حماه بالأسوار، وغلقه الأبواب في وجه خاله الملك المعظم، اتخذ ذلك الملك المعظم حجة وسيلة الى الاستيلاء على بلاده، فمضى الى سلمية وشحنها، ثم مضى الى المعرةوقبض ماكان بها من الحواصل وشحنها أيضاً، ثم مضى إلى سلمية فأقام بها الى أن خرجت السنة.

سنة عشرين وستمئة

في هذه السنة وصلت كتب السلطان الملك الكامل والملك الأشرف إلى أخيهما الملك المعظم، وهو بسلمية، ينكران عليه مافعل من قصده صاحب حماه وتشحينه على بلاده، فاعتذر إليهما، ثم عاد الى دمشق وفي قلبه أثر من ذلك، فكاتب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب ميافارقين، وكان نائب أخيه الملك الأشرف بأخلاط يدعوه الى مخالفة الملك الأشرف والعصيان عليه، وكاتب أيضاً مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك أيضاً واستماله إليه.

سنة إحدى وعشرين وستمئة

في هـذه السنة عصى الملك المظفر شهاب الدين غازي على أخيه السلطان الملك الأشرف بأخلاط، وجمع عسكراً كثيفاً فقصده الملك الأشرف، وخرج السلطان الملك المعظم في عساكره الى العطنة[٢٠] فنزل بها طالباً أن يمنع الملك الأشرف من قصد أخيه شهاب الدين غازي فلم يقدر على ذلك، والتقى الملك الأشرف وأخوه شهاب الدين غازي فكسره الملك الأشرف رحمه الله تعالى كسرة قبيحة وتسلَّم أخلاط، وعفا عن أخيه الملك المظفر شهاب الدين وأبقى عليه ميافارقين، ثم عاد السلطان الملك المعظم الى دمشق وسيرَّ ولده الملك الناصر صلاح الدين داود الى إربل، وتحالف هو وصاحبها مظفر الدين بن زين الدين واتفقا.

وفي هذه السنة كانت وفاة الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن علي ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله بسميساط رحمه الله، مولده في سنة أربع وستين وخمسمئة فكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة.

كان عنده رحمه الله فضل وأدب، غير أنه كان فاقداً للسعادة، ناقص الحظ، وله أشعار حسنة جيدة من جملتها قوله يخاطب الخليفة الإمام الناصر لدين الله في أول كتاب كتبه إليه يشكو إليه فيه عمه السلطان الملك العادل، وأخاه الملك العزيز عثمان حيث أخذا منه دمشق.

مولاي إنَّ أبا بكر وصاحبَهُ ... عثمان قد أخذا بالسيْفِ إرث علي

فانظر الى حَظِّ هذا الاسم كيف لقي ... من الأواخر ما لاقى من الأولِ

فأجابه الخليفة الإمام الناصر عن كتابه بكتاب كتب في أوله:

وافى كتابك يابن يوسف معلناً
بالصدق يُخبر أنَّ أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن
بعد النبي له بيثرب ناصر
فاصبر فإن غداً عليه حسابهم
وابشر فناصرك الإمام الناصر

وللملك الأفضل رحمه الله في هذا المعنى:

أما آن للسعد الذي أنا طالب
لإدراكه يوماً يَدِيْ وهو طالبي
تُرى يريني الدهر أيدي شيعتي
تمكّنُ يوماً من نواصي النواصب

سنة اثنتين وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة الإمام الناصر لدين الله، وذلك في ليلة عيد الفطر، وكانت خلافته ستاً وأربعين سنة وأحد عشر شهراً إلا يومين، وكان عمره نحواً من سبعين سنة.

سيرته: كان صاحب رأي وتدبير وسياسية، وكان فاضلاً متميزاً أديباً جيد الفكرة حاضر البديهة، فيروى أن وزيره نصير الدين العجمي لمَّاحبسه في داره ومنع من الوصول اليه، وأجرى عليه مايقُوتُه كتب إلى الخليفة كتاباً يقول في أوله:

ألَقَني في لظى فإن غَيَّرتْني
فتيقَّنْ أنْ لَسْتُ بالياقوت

عـرَفَ النَّسْـجُ كـلُّ مـن حـاكَ لكـ
ـنَّ نَسْـجُ داودَ لَيْـسَ بـالعنكبـوت

فأجابه الخليفة بخطه:

نَسْـجُ داودَ لم يفـدْ صـاحـبَ الغَـ
ـارِ وكـان الفخـار للعنكبـوت
وبقـاء السَّمَنـدِ في لهب النَّـ
ـارِ مـزيـلٌ فضيلـة اليـاقـوت

خلافة الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين

هو أبو محمد بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي وأمه أم ولد، بويع له يوم توفي والده الإمام الناصر، وكان والده قد خطب له بولاية عهده في سائر المنابر الإسلامية، ثم نقم عليه بعد ذلك لشيء بلغه عنه فأسقط اسمه من ولاية العهد وحبسه وضيق عليه تضييقاً شديداً، ومال الى ولده الأصغر علي وعزم على الخطبة له ونقش السكة باسمه، فاتفقت وفاة الأمير علي في حياة أبيه وخلّف أولاداً أطفالاً فبعث بهم الإمام الناصر الى سينيز(٢١) فأقاموا بها، ثم رضي الخليفة عن ولده الظاهر فَعَهد إليه وبايع له الناس، وكتب الى سائر الآفاق بإعادة الخطبة له إلا أنه لم يُخرجه من محبسه خوفاً منه، فإنه كان أَيْداً شديد القوة عالي الهمة.

ولما توفي الناصر لدين الله أخرج الظاهر بأمر الله من محبسه، وبويع له بالخلافة البيعة الخاصة، ثم بويع له البيعة العامة لليلتين مضتا من شوال من هذه السنة فأظهر العدل ونشره، وأزال الظلم ودحضه وردَّ على الناس أموالاً جزيلة كانت قد أخذت منهم، وأزال مكوساً كثيرة كانت قد جُددَتْ عليهم.

وفي هذه السنة قصد السلطان الملك المعظم صاحب دمشق حمص، ونزل عليها فشعث بلدها، واستغل منه جملة، فجاء الملك الأشرف إليه وسأله أن يرحل عنها ،فرحل عنها راجعاً الى دمشق ومعه أخوه الملك الأشرف رحمها الله، فأقام عنده مدة بدمشق ثم رجع الى بلاده.

- ١٠٠٣٧ -

سنة ثلاث وعشرين وستمئة

في هذه السنة كـانت وفاة الإمام الظـاهر بأمر الله، وذلـك لأربع عشرة ليلة مضـت من شهـر رجب، وكـانت مـدة خلافتـه تسعة أشهـر وأربعة عشر يوماً، وكان عمر نيفاً وخمسين سنة.

وقد رويَ أنه لما بُويـع قال: كيف يَليق أن يفتح دكانـا بعد العصر من قد نيف على الخمسين سنة وتقلَّد الخلافة(٢٢).

سيرته: كان رحمه الله عادلاً حسن السيرة، كارهـاً للظلم، وكان شجاعاً بعيد الهمـة ذا رغبة في الخير، عقد على دجلـة ببغداد جسراً عظيماً، فـأنفق عليـه أموالاً عظيمـة، فصار لبغـداد جسران، ولم يكن لها قبـل ذلك مـن مئتي سنة وكسور غير جسر واحد.

ويـروى أنه كتـب اليه بعـض أصحاب الأخبـار بحادثـة وقعت فيهـا سعاية ببعض أرباب الدولة، فكتب بظـاهرها الى الوزير: إن عاد صاحب خبر كتب مطالعة ضربت عنقه، فامتنع المفسدون من السعايات، ولم يزل رحمه الله متمسكا بالعدل، سالكاً طريق الخير إلى أن توفي.

- ١٠٠٣٨ -

خلافة الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين

خليفة الوقت وإمام العصر خَلَّدَ الله دولتـه وأعلى كلمته هو أبو جعفر المستنصر، بن الظـاهر بـأمر الله أبي نصر محمد، بـن الناصر لـدين الله أبي العباس أحمد، بن المستضيء بنور الله أبي محمد الحسـن، بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسـف، بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمـد، بن المستظهر بـالله أبي العباس أحمد، بـن المقتدي بـأمـر الله أبي القاسـم عبد الله، بـن. ذخيرة الدنيا والدين أبي عبد الله محمد، بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله، بن القـادر بالله أبي العبـاس أحمد، بن اسحـاق، بن المقتـدر بالله أبي الفضل جعفر، بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد، بن الموفق بالله أبي احمد طلحـة، بـن المتوكـل على الله أبي الفضـل جعفـر، بن المعتصـم بـالله أبي اسحـاق محمد، بـن الرشيـد أبي جعفـر هارون، بـن المهدي أبي عبـد الله محمـد، بـن المنصـور أبي جعفـر عبد الله ، بـن محمـد الإمـام، بـن علي السجاد بن عبد الله الحبر، بن العباس عـم النبي صلى الله عليه وسلم، بن عبد المطلب، بن هـاشم، بن عبد مناف، بن قصي بن كـلاب، بن مرة بن كعب، بـن لؤي بن غالـب، بن فهر - وهـو قريش في قول الأكثـر - بن مالك، بن النضْر، بن كنانة، بن خـزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، ابن نـزار، بن معـد، بن عدنـان.بويـع أعز الله أنصاره بـالخلافة يـوم توفي والده الإمـام الظاهـر بأمر الله أمير المؤمنين وعمـره يومئـذ عشرون سنة أو إحدى وعشرون سنة، وأول كلمة سمعت منه لما ولي: «نستمد المعونة بالله تعالى» فأظهـر من حسن السيرة والعدل أضعاف ماأظهـره والده، وأفاض من الصدقـات، وأجزل من العطاء والأنعـام مافاق به على مـن سبقه من الخلفاء الراشديـن والأئمة المهديين، فلاتجد أحداً ممن ورد بغـداد في أيامه إلا ناشراً لفضلـه، شاكـراً لبرّه، داعياً الى الله تعـالى في تخليد دولتـه وتشييد مملكتـه راغبـاً إليـه في أن يمتع المسلمين بطـول بقـائه، وأن يجعـل النصر والتأييد من قرنائه آمين.

سنة أربع وعشرين وستمئة

في هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وذلك يوم الجمعة بدمشق سلخ ذي القعدة، فكان عمره تسعاً وأربعين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه لدمشق تسع سنين وشهوراً.

سيرته: كان رحمه الله شجاعاً عالي الهمة أبي النفس غزير الفضل عالماً. ولما توفي استقر في الملك بعده بدمشق وأعمالها ولده السلطان الملك صلاح الدين أبو المظفر داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب.

وكان عمه الملك العزيز قد قصد بعلبك ليأخذها من صاحبها، فمنعه من ذلك الملك الناصر، وبعث إليه يتهدده إن لم يرحل عنها فَتَوَغَّر قلبه بسبب ذلك، واستوحش منه وفارقه وصار الى أخيه السلطان الملك الكامل.

سنة خمس وعشرين وستمئة

في هذه السنة خرج السلطان الكبير الشهيد الملك الكامل قدس الله روحه من الديار المصرية في عساكره، فوصل الى نابلس ونزل بها، ووصل إليه أخوه السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل صاحب بانياس رحمه الله متلقياً له، فأكرمه غاية الإكرام وأحسن إليه.

وكان ملك الألمان المعروف بالانبرطور قد وصل مدينة عكا في جمع من الفرنجية طالباً بلاد الاسلام، قاصداً الاستيلاء عليها، ولما صار السلطان الملك الكامل بنابلس خاف الملك الناصر ابن الملك المعظم منه، فبعث

إلى عمه السلطان الملك الأشرف يستنجد به ، ويسأله المصير إليه، فوصل السلطان الملك الأشرف إلى دمشق، ودخلها في العشر الأخير من شهر رمضان، فاجتمع بالملك الناصر، وقال له: لايمكنني مقابلة السلطان وإنما أنا أتوجه اليه وأصلح الحال معه، فتوجه إليه واتفق رحيل السلطان من نابلس الى تل العجول ليكون في مقابلة الفرنج، وأما الانبرطور فإنه نزل بجموعه إلى يافا، والرسل تتردد بينه وبين السلطان.

وصل السلطان الملك الأشرف إلى أخيه السلطان الملك الكامل، ثم وصل بعده الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص، ووصل الملك الناصر داود الى نابلس فنزل بها وجرى بينه وبين عز الدين أيدمر مملوك أبيه أموراً أوجبت أن عز الدين فارقه وصار الى السلطان فاستخدمه، وأحسن إليه، وأقطعه اقطاعاً كثيراً.

سنة ست وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان بتل العجول والملك الناصر داود بنابلس والرسل تتردد بين السلطان والفرنج في أمر الهدنة والصلح.

ذكر الهدنة

واقتضى الحال أن الأمر انبرم بين السلطان رحمه الله والفرنج على أن يُسَلَّم اليهم البيت المقدس داخل الخندق فقط، ولا يكون لهم من بلده إلا قريات معدودة، وإنما فعل ذلك لأن الفرنج كانوا في كثرة من العدد وأمدادهم متواصلة إليهم من البحر، وخاف على البلاد من غائلة العدو، فرأى تسليمه إليهم إلى أن تقوى كلمة الإسلام ويحصل الاتفاق بينهم، وكان ذلك من المصلحة فإن الإمام يجوز له تسليم بلد من البلاد

الإسلامية الى الكفار إذا رأى في ترك التسليم إليهم ضرراً ظاهراً لايمكن تلافيه.

منازلة السلطانين الأشرف والكامل دمشق

ثم إنه استقر الحال بين السلطان الملك الكامل والسلطان الملك الأشرف على أن يؤخذ من الملك الناصر دمشق وأعمالها، ويعوض عنها: حران، والرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، وغيرها، وأن تكون دمشق ومايتصل بها من الأعمال الى عقبة فيق للملك الأشرف، وأن يكون للسلطان الملك الكامل من فيق الى العريش، وأن تؤخذ حماه من صاحبها قلج أرسلان ابن الملك المنصور، وتعطى للملك المظفر تقي الدين ابن الملك المنصور، إذ هو وصيُّ أبيه، والمعهود إليه بالسلطنة، وأن تؤخذ بعلبك من صاحبها الملك الأمجد وتعطى للملك العزيز عثمان ابن الملك العادل صاحب بانياس، وأن يعطى الملك المجاهد أسد الدين سلمية، فإنها كانت اقطاعاً لأبيه ناصر الدين.

ولما وقع الاتفاق على ذلك توجَّه السلطان الملك الأشرف، ومعه الملك المجاهد نحو الملك الناصر فاجتمعا به بالقصر وخاطباه فيما وقع الاتفاق عليه، وأخبراه أن السلطان غير قانع منه إلا بتسليم مافي يده، وأخذ مابذل له عوضاً عن ذلك، فحمله أمراؤه وأصحابه على المخالفة، وأن لايجيب الى ماطلب منه، وحملوه على الرحيل الى دمشق والتحصن بها، فرحل في أصحابه الى دمشق وساق إليها سوقاً حثيثاً.

ورحل السلطان الملك الأشرف في إثره، وفارق الملك الناصر عمه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل صاحب بصرى وابن عمه الملك المغيث شهاب الدين ابن الملك المغيث ابن الملك العادل، وصارا

مع الملـك الأشرف، ودخل الملـك الناصر دمشـق فستر أسوارهـا، وحفظ أبـوابها، واستحصن بها، ونـزل الملك الأشرف بمـرج الصفـر، فبعث اليـه السلطان رحمه الله الأمير فخـر الدين عثمان في ألـف فارس، ثم بعـث مع الملك المظفر تقي الـدين ابن الملك المنصور ألف فـارس أخرى، فوصلوا الى الملـك الأشرف، وقـد نـزل بجسر الخشب، وتـواصلـت إليـه الأمـداد بعضها يتلو بعضاً، ثم سار السلطان الى خربة اللصوص فنزل بها، ثم إن السلطان الملـك الأشرف بعث الى أخيه السلطـان الملك الكامـل يستحثه على القدوم فبعث اليه يقول له: تعلمُ أن الكـرك والشوبك وهي من جملة البلاد التي تعينَّتْ لي حصينة فإن تعسَّرَ أخذها كيف يكون الحال؟ فاتفق الحال بينهما على أنـه إن تعذَّر أخـذهما بعـد فتـح دمشق كـان للسلطـان الملك الكامل البلاد التي كانت عينت للملك الناصر عوضا عن دمشق، فرضي السلطان بـذلك وقدم الى دمشق، واتفق هـو وأخوه الملك الأشرف على محاصرتها، وضـايقوهـا مضايقـة شـديدة، وآخـر الأمر أنهما تسلماهـا صلحاً في مستهل شعبان.

استيلاء السلطان الملك الأشرف على دمشق: ولما ملـك السلطـان الملك الكامـل رحمه الله دمشق سلمها إلى أخيه السلطـان الملك الأشرف، وأخذ منه عـوضاً عنها من بـلاد الشرق: حران ، والرقة، والـرها، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر، وأبقى على ابـن أخيه الملـك الناصر صـلاح الـديـن داود ابن الملـك المعظـم: الكـرك، والبلقـاء، ونابلـس، والأغـوار، وأعمال القدس، وبيت جبريل، والصلت.

وتسلـم السلطان الكـامل رحمه الله البـلاد الساحليـة جميعها: طبريـه، وكوكب، والخليل، والشوبك، ثم بـرز السلطان الملك الكامل الى القابون، متوجهـاً نحو البـلاد الشرقية، فسـار الى سلمية ونـزل بها، وسيرَّ السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور خلَّد الله ملكه الى حماه في شعبان ليأخذهـا من أخيه الملك الناصر، فسار اليها ومعـه خاله الملك

العزيـز عماد الديـن عثمان بن الملك العـادل، والملك المجـاهد صـاحب حمص، فنازلها مستهل شهر رمضان، ونصبوا عليها المجانيق.

ولما كـان اليوم السـادس عشر من شهـر رمضان، نـزل الملك النـاصر صاحـب حماه بنفسه جريـدة، ومضى إلى خالـه السلطان الملك الكـامل وهو بسلميـة، وبذل له مـالاً عينةُ ليبقـي عليه حماه، فلم يجبـه الى ذلك، فسأله أن لايعطي حماه لأخيـه الملك المظفر بل يأخذهـا السلطان لنفسه، فأظهر له الإجـابة الى ذلك، وبعث السلطان نوابه ليتسلمـوا البلد فامتنع النواب بحماه من ذلك، ونصبوا الملك المعـزّ ابن الملك المنصور للسلطنة، وقالوا: لانسلّم البلد لغير أولاد الملك المنصور.

ولما رأى السلطـان ذلــك رحـل الى الشرق واستصحـب معــه الملـك النـاصر قلـج أرسـلان تحت الحوطة مضيقـاً عليـه، إذْ ظـنَّ السلطـان أن امتناع النواب من التسليم بمواطـأة منه، وأذن السلطان للملك المظفر في تسلم البلـد إذ هو المعهود اليـه بالسلطنة من أبيـه، فراسل الملـك المظفر النواب في ذلـك، فأجـابوه وسلموا البلـد إليه، وكان أحـق به مـن أخيه، وأولى إذ هو أكبر أولاد أبيه سناً وقدراً، ووصي أبيه بالملك دونهم.

وكان تسلمـه لحماه لليلتين بقيتا من شهر رمضـان، ثم توجـه السلطان الملك الكامل رحمه الله الى الشرق، فرتَّبَ أمورها ثم عاد الى مصر.

ولما فتحت حماه رحـل العسكر الـذي كان مرتبـاً لحصارهـا الى بعلبك فنازلوها، وأقاموا على حصارها إلى أن تسلموها.

ـ ١٠٠٤٤ ـ

سنة سبع وعشرين وستمئة

دخلت هذه السنة والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محاصر قلعة بعلبك، وكان قد استقر أن الملك الأشرف يأخذها لنفسه، وكنا قد ذكرنا مسير عسكر السلطان الملك الكامل إليها، ونزولهم عليها، وتسلمهم لها، ولم يبق إلا القلعةفنزل العسكر المصري إلى الديار المصرية، وتولى الملك الصالح محاصرة القلعة بمن معه من عساكر السلطان الملك الأشرف، ولم يزل مضايقاً للقلعة محاصراً لها إلى أن تسلمها صلحاً، وعوّض صاحبها الملك الأمجد بهرام شاه خيراً من عمل دمشق، وسلم إليه كل مافي القلعة وتسلم ذلك، ومضى الى دمشق، ودخل نواب السلطان الملك الأشرف الى القلعة واستولوا عليها.

منازلة خوارزم شاه أخلاط وأخذه لها

وفي هذه السنة نزل خوارزم شاه منكبرتي بن خوارزم شاه تكش على أخلاط، وحاصرها وضايقها مضايقة شديدة، وشتا عليها، وحديث ذلك أن خوارزم شاه بعد أن هزمته التتر، وكان من أمره ماقد ذكرناه في موضعه عاد الى بلاد العجم وجمع جمعاً عظيماً، وقوي أمره، وطمع في الاستيلاء على بلاد العراق، وقصدهُ سنة اثنتين وعشرين وستمئة قبل وفاة الإمام الناصر، ولما علم الخليفة به خاف منه فبعث أبقاراً كثيرة فحرثت المراعي التي في طريقه وقلبت الزراعات، ولما وصل خوارزم شاه الى أطراف العراق لم يجد مرعى، فتوجه الى دقوقا فنهب وسفك وأفسد، ثم مضى الى مرج شهرزور فصالحه الملك المعظم مظفر الدين كوك بوري بن زين الدين علي كوجك، ووصلت إليه كتب الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق يظهر فيها الميل إليه والانتماء إلى طاعته، واستحثاثه على أخذ البلاد من الملك الأشرف.

وكان سبب ذلك ماكنا ذكرناه من الوحشة التي وقعت بينه وبين أخويه: الملك الأشرف والملك الكامل، فراسل خوارزم شاه الملك المعظم ومال إليه، وبعث إليه خلعة فلبسها وركب بها.

ولما توفي الملك المعظم، وجرى من تفاصيل الأمور ماذكرناه قصد خوارزم شاه أخلاط ونازلها، وكان نائب الملك الاشرف بها عز الدين أيبك مملوكه، وكان بها أيضاً أخو الملك الأشرف الملك المعز مجير الدين يعقوب، وتقي الدين عباس ابنا الملك العادل.

وطالت مدة الحصار بأخلاط وقلّت بها الأقوات حتى أكل أهلها لحم الكلاب، وبلغ الرطل الشامي من الخبز بها ديناراً مصرياً، وكان بأخلاط

جماعة من اللاوية، فأخذوا سناجق خوارزم شاه ورفعوها على الأسوار على حين غفلة من أهلها، فخذل الناس عند رؤيتها وانهزموا يقتل بعضهم بعضاً، ودخل جلال الدين المدينة وملكها، وقتل من أهلها مقتلة عظيمة، ثم حاصر القلعة حتى تسلمها بالأمان، واحتاط على أخوي السلطان الملك الأشرف، وعز الدين أيبك.

كسرة الخوارزمي جلال الدين

ولما طارت الأخبار الى السلطان الملك الأشرف باستيلاء خوارزم شاه على أخلاط، وتملكه لها، توجه الى بلاد الروم مستنصراً بصاحبها السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، فاجتمع به بإبلستين(٢٣)، ثم خرج هو والسلطان علاء الدين بجموعهما إلى آق شهر فنزلا بها.

وكان لعلاء الدين عشرة آلاف فارس في ارزنكان، فبعث إليهم يستدعيهم، فوقعوا على ألف فارس كان خوارزم شاه قد جهزهم للغارة وقاتلوهم، فقتل من عسكر الروم أربعة آلاف فارس، وامتلأت الأدوية والجبال منهم، ثم تقدم خوارزم شاه في عساكره ووقعت الحرب بين الفريقين في يوم الجمعة، واستمرت الحرب الى أن حجز بينهم الليل، وباتوا على تعبئتهم، والتقوا يوم السبت فأنزل الله تعالى نصره على السلطان علاء الدين صاحب الروم والملك الأشرف، وانهزم خوارزم شاه أقبح هزيمة وقتل من أصحابه مالايحصى كثرة وأسر مثلهم، وتوجه خوارزم شاه هزيماً إلى خوي، وبعث تقي الدين عباساً أخا السلطان الملك الأشرف الى الخليفة مقيداً هدية، فأكرمه الخليفة وخلع عليه، وبعث به إلى أخيه، ثم اطلق خوارزم شاه مجير الدين بعد ذلك، وأما عز الدين ايبك فقتله.

ثـم قصدت التتر بعـد هذه الكسرة جـلال الـدين طمعاً فيـه فكسروه، وقدم الى دياربكر هـارباً، وهم في إثره الى أن اغتاله بعـض الأكراد، وكان من أمره ماذكرناه، وكان مقتله في سنة ثمان وعشرين او تسع وعشرين.

سنة ثمان وعشرين وستمئة

في هذه السنة وثب على الملك الأمجد بهرام شاه بـن عز الدين فرخشاه ابن شـاهان شاه بـن أيوب صاحـب بعلبك، كـان بعض مماليكـه فقتله، وذلك في داره بدمشق، وكان عالماً فاضـلاً أديباً شاعراً، وله ديوان مشهور في أيدي الناس كثير.

سنة تسع وعشرين وستمئة

في هـذه السنـة خرج السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله من الـديـار المصرية متوجهاً الى الشرق لأخـذ آمد من صاحبها، فإنـه كان ظالماً سيء السيرة كثير العسف للـرعايـا، فوصـل اليها السلطـان رحمه الله، ونازلها في شهر ذي الحجة، وزحف اليهـا فأخذها في يوم واحد، ووقفـت على رسالة لبعض الفضلاء تتضمن كيفية أخذها فكتبت المقصود منها وهو:

«فان السلطان أعـز الله أنصاره لم يقصده إلا غضباً لله، لما انتهكـه من محارمه، وإقامة لمنار العدل الـذي شرع في هدم معالمه، وشفقة على خلق الله الذين بسط عليهم، منـذ وليهم، أيدي مظالمه، ولما أبى إلا التمادي في الطغيـان، والإيغال في مهـالـك العصيـان، وظنَّ ان الثلـوج تنجـده، وأن السلطان يفي له بوعده، وطال ماأخلف مـن يعدهُ، وأغر بأصحابه الذين

وقعوا معه بذنوبهم، أمر السلطان أعز الله أنصاره، أبطاله بالزحف فتقدمت وزحفت، وعساكره بالتحرك فتزلزلت الأرض لحركتهم، ورجفت، ودنا الجيش المنصور من السور فدنا وتدلى، ورأى الخصم عين القصم فعبس وتولى، وأطلق الجاليش عقائل التراكيش فكسفت السور وهتكت حجابه، وأماط الزراقون لثامه، وسفر النقابون نقابه، وأرسلت عليهم الحنايا رسل المنايا، وخرجت لهم خبايا البلايا من الزوايا، وأوردتهم الرماح السرع مسارع الحتوف، وتفرقت منهم الصفوف لما سلت عليهم السيوف، وطلعت على الأسوار المنيفة من الأعلام الشريفة كل راية صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين».

سنة ثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنة والسلطان رحمه الله ببلاد الشرق، وقد استولى على آمد وبلادها، ومعه ملوك أهل بيته وهم: السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى، والملك الناصر داود، والملك المظفر تقي الدين صاحب حماه، والملك العزيز عثمان، وأخوه الملك الصالح اسماعيل، والملك المجاهد صاحب حمص وغيرهم، ثم توجه السلطان راجعاً الى الديار المصرية، ورجع كل ملك الى بلاده.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل، وذلك في شهر رمضان، وكان ملكاً شجاعاً كريماً كثير البر والاحسان والصدقات.

ولما توفي أقر السلطان بلاده على ولده الملك الظاهر نجم الدين أيوب، ثم توفي بعد والده بمدة يسيره، فعين السلطان الصبيبة (٢٤) قلعته لأخيه الملك السعيد بن الملك العزيز، وهي بيده الآن.

سنة إحدى وثلاثين وستمئة

في هـذه السنة خـرج السلطـان الملك الكـامـل قـدَّس الله روحه مـن الديـار المصرية، متوجهـا الى دمشق، فـوصلها واجتمعت إليـه بها الملوك والعساكـر، ثم بـرز منها طـالباً لبلاد الـروم لقتال السلطـان علاء الـدين والاستيلاء على بلاده.

وكان سبب ذلك تعدِّي علاء الـدين باستيلائه على أخلاط، وتملكه لها فعـزم السلطـان أولاً على دخـول بـلاده من جهـة الـذربنـدات، فقطـع بعضهـا ثم رأى أن في ذلـك خطـراً لاتؤمـن غـائلته، فـرجـع منها ونـزل بـالسويـداء، ونزل صـاحب خـرتبرت الى خـدمته، وسـأله أن يُسيِّرَ معـه عسكراً إلى خـرتبرت ليمنعوا صـاحب الروم مـن أخذهـا، فسيَّر السلطان الملك المظفر صاحب حماه، وشمس الـدين صواب في جماعة من الأمراء، فدهمهـم عسكر علاء الـدين في عـالم لايحصى، فثبت لهم الملـك المظفر، وقاتـل قتالاً شديـداً غير أنه كان في قلـة من العـدد، وذلك بالقـرب من خرتبرت، فأسر أكثـر أصحابه وقتل منهم جماعة، وصعـد الملك المظفر في بقية مـن معه الى قلعة خرتبرت في حميـة، وحاصره سلطان الروم مـدة، ثم طلب الملك المظفر الأمان فأمنه وأصحابه، وتوجه راجعاً الى السلطان.

سنة اثنتين وثلاثين وستمئة

في هـذه السنـة رجـع السلطـان الملـك الكـامـل رحمه الله الى الـديـار المصرية، وذلك لأنـه دخل الشتاء، وحال الثلج بينـه وبين بلاد الروم وفي هذه السنـة جهز سلطـان الروم عسـاكره الى الشرق، فنـازلوا قلعـة الرهـا ونصبـوا عليها المجـانيق وضـايقوهـا مضـايقة شـديدة حتـى فتحوهـا، وأخذوا ماكـان بها للسلطان الكامل من الذخـائر والاموال، وسيروا ذلك

الى سلطـان الـروم، وفتحـوا أيضاً قلعـة حـران، وولـوا عليهما وحفظـوهما بالرجال والعدد.

ولما بلغ السلطان ذلـك خرج من مصر في عساكـره، فقدم الى دمشق، ثم خرج منهـا هو وأخوه السلطان الملـك الأشرف رحمهما الله متوجهين الى المشرق، ولما بلغ عسـاكر الروم قـدوم السلطان كروا راجعين الى بـلادهم، ومضى السلطان الى الشرق، ونازل قلعتي حران والرها.

سنة ثلاث وثلاثين وستمئة

في هذه السنة فتح السلطان رحمه الله قلعتي الرها، وحران، وقبض على من كـان بها من أصحاب سلطـان الروم، فبعـث بهم مقيدين الى الـديار المصرية، ثم رجع السلطان رحمه الله الى دمشق فأقام بها.

وفي هـذه السنة سير سلطـان الروم عسكـراً كثيفـاً إلى آمد فنـازلوهـا، وصاحبها مـولانا السلطان مالك الـرق الملك الصالح نجم الـدين أيوب ابـن السلطان الملـك الكامـل خلـد الله ملكه، فلـم يظفروا منهـا بشيء، وقاتلهم السلطان الملك الصالح، فأنكى فيهم نكاية عظيمة.

ولما بلغ ذلك السلطـان الكامل رحمه الله خرج من دمشـق في عساكره، ودخل الشتاء فرجعت عساكر الروم الى بلادهم.

سنة أربع وثلاثين وستمئة

في هذه السنـة رجع السلطان رحمه الله الى دمشـق، وكان قد بعُـدَ عنها

مقدار ثلاث مراحل، ثم خرج من دمشق متوجهاً الى الديار المصرية.

وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان الملك العزيز عماد الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر غياث الدين ايل غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، وذلك لعشر مضين من ربيع الأول، فكانت مدة عمره ثلاثاً وعشرين سنة وشهوراً، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وشهوراً.

سيرته: كان عادلاً كريماً حسن الاعتقاد، لين الجانب، كارهاً للظلم، متجنباً لسفك الدماء، مائلاً إلى الخير وأهله رحمه الله ورضي عنه.

ولما توفي أُجلس في الملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن ايل غازي بن يوسف بن أيوب، وقام بتدبير ملكه وحفظ دولته جدته خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب رحمه الله تعالى.

وفي هذه السنة وقعت وحشة بين السلطانين: الملك الكامل والملك الأشرف رحمهما الله لأشياء باطنة كانت بينهما، لم تقع الاحاطة بتفصيلها، فأدى الأمر في ذلك إلى أن اتفق مع السلطان الملك الأشرف الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص واستمالا الملك الناصر داود صاحب الكرك فمال اليهما أولاً وكاتبهما، ثم فارقهما وتوجه الى السلطان الكامل فالتقاه وأكرمه.

واستمال السلطان الملك الأشرف الملك المظفر صاحب حماه، والحلبيين، وعلاء الدين صاحب الروم، والأمير عز الدين ايبك المعظمي صاحب صرخد، فاتفق هؤلاء كلهم وتحالفوا، وتوجهت الى مصر رسل الملك الأشرف، والملك المجاهد، والملك المظفر، والحلبيين، فاجتمعوا بالسلطان الملك الكامل وأنهوا إليه رسالة مضمونها أنهم في خدمته،

وتحت طاعته مـا أقام بالديار المصرية، ولم يخرج الى الشـام لفتح شيء من البلاد.

ثم اتفقـت وفاة عـلاء الديـن سلطان الـروم في شهر شـوال من هـذه السنة، فقام بالملك بعده ولده السلطـان غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابـن كيخسرو بن قلـج أرسلان بـن مسعـود بن قلـج أرسلان، فسير اليـه السلطان الملك الأشرف القـاضي شمس الدين الخوئي رسـولاً، وسير اليه الملـك المظفـر صـاحـب حماه أيضـاً رسـولاً، وكـذلـك الملـك المجـاهـد والحلبيون، وتوجه هؤلاء الرسل الى الروم جملة، ومضمون رسالتهم واحدة، وهي: التعزيـة بأبيه، والتهنئة بملكـه، وتجديد ماكان قـد تقرر بينهم وبين أبيه، مع الاتفاق عنهم، والحلف لهم.

وفي هذه السنة مـرض السلطان الملك الأشرف ولم يزل مرضـه في تَزَيُّد الى [أن] خرجت السنة.

سنة خمس وثلاثين وستمئة

دخلت هذه السنـة والسلطان الملك الأشرف مريض مثقـل في مرضه، وقد عهد بالملك بعده إلى أخيه الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل، واستحلف لـه الملك المجـاهد أسد الـدين صاحـب حمص، وعز الـدين ايبك المعظمـي، وكانا يـومئذ بدمشق واستحلـف له أيضاً الملـك المظفر صاحب حماه والحلبيين، ثـم كانت وفاة السلطـان الملك الأشرف رحمه الله مظفر الـدين أبي الفتـح موسى بـن السلطان الملـك العادل أبي بكـر بن أيوب، وذلـك بكرة يوم الخميـس لأربع خلون مـن المحرم، فكانـت مدة ملكه لـدمشق ثمان عشرة سنة وخمسة أشهـر وأربعة أيام، ومدة ملكـه من حين مات أبوه تسع عشرة سنة وشهوراً.

سيرته رحمه الله: كان رحمه الله جواداً مفرط السخاء غزير البذل، كثير الصدقات والبر والاحسان لاسيما في آخر عمره، فإنه أوقف بدمشق وقوفاً جليلة وأثر آثاراً حسنة، ولو لم يكن إلا الجامع الذي أسسه بالعقيبة لكان عظيماً قدره، نبيلاً أمره، فإنه رحمه الله عمد إلى خان يعرف بخان ابن الزنجاري تشرب فيه الخمور، وتؤجر فيه القيان، فهو من أشهر المواضع بالفسق والفساد وانتهاك الحرمات، فهدمه وصيرهُ جامعاً تقام فيه الصلوات في أوقاتها، ويواظب فيه بقراءة القرآن، وتقام فيه الجمعة، وصار يُعرف بجامع التوبة، ووقف أيضاً داراً لسماع الحديث النبوي، وأوقف عليها، وعلى جامعه وقوفاً عظيمة، الى غير ذلك من الآثار الحسنة.

ولما مرض مرض وفاته لم يزل ذاكراً الله تعالى بلسانه وقلبه، مستغفراً لما سلف من ذنبه، تائباً متضرعاً مكثراً من تلاوة القرآن الى أن توفاه الله الى رضوانه، ونقله الى ماأعده له من جنانه.

ولنشرع في ذكر الحوادث الكائنة بعد وفاة السلطان الملك الأشرف معتمدين في ذلك على مانقلناه من رسالة ألفها الفقيه الفاضل العالم عفيف الدين عبد العزيز بن علي بن جعفر الموصلي الحنفي، فإني لم أكن حاضراً بدمشق يومئذ.

لما توفي السلطان الملك الأشرف تقرر في الملك بعده أخوه الملك الصالح اسماعيل، وتواترت الأخبار بعزم السلطان الملك الكامل قدس الله روحه على التوجه من الديار المصرية الى الشام، فأخذ الملك الصالح في تحضير دمشق وتهيئة أسباب الحصار، وتوجه الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص الى بلده، والتزم بإنفاذ الأموال والرجال، ونزل بدمشق ولده الملك المنصور ابراهيم، وتوجه نجم الدين خليل قاضي العسكر رسولاً من الملك الصالح الى الروم لطلب النجدة والمساعدة،

وتوجه عزالدين أيبك المعظمي إلى صرخد لتدبير أمورها ويعود.

وتزايدت الأخبار بوصول السلطان رحمه الله أن تحقق نزوله بعجلون، فجدَّ الملك الصالح في تحصين البلد وقطع الأخشاب وعمل الستائر.

وكان قد وصل من حلب ستة من أمرائها نجدة للملك الصالح، منهم الناصح الفارسي، وأما الملك المظفر صاحب حماه فإنه راسل السلطان الملك الكامل ورجع الى طاعته، ووردت إليه كتب السلطان يتطبيب قلبه ووعده فيها كل وعد جميل.

ولما كان مستهل ربيع الأول تقدم الملك الصالح بأن لايبقى أحد من الأجناد بظاهر دمشق، وتقدم بأخذ دور كل من هو من أصحاب الملك الكامل، ودور جماعة أيتام وغيرهم، ونودي بأن لايبقى أحد بالعقيبة ولاقصر حجاج وتهددوهم بالنهب، فلقي الناس من ذلك شدة، ثم أمر الملك الصالح بأن يُعمل في كل مكان سد وأمامه خندق، واستخدم رجالة كثيرة، وفرَّق السلاح ورتب الأجناد والأمراء على الأسوار.

منازلة السلطان الملك الكامل دمشق وتملكه لها

ثم وصل السلطان رحمه الله الى دمشق ونازلها لعشر بقين من ربيع الأول، وعمل اليزك عند مسجد القدم، وشرعت اللاوية في النهب والخراب، ووصل عز الدين أيبك المعظمي من صرخد، ودخل البلد في تلك الأيام، وكان دخوله في يوم شديد على الناس، قال عفيف الدين المقدم ذكره: فلقد رأيته يوم دخوله من باب الفراديس وهو قائم حائر لايستطيع العبور من الزحمة وشدة الغلبة وأقمشة الناس بعضها على بعض والخيل تدوسها، ولايستطيع أصحابها منعهم من ذلك.

ودخل عـز الديـن وحده بعد الشـدة ولم يقدر الجمـدار الذي لـه من الدخول معه لفرط الزحمة، وضاقت لـذلك صدور الناس وأيقنوا بالحصار الشديـد، ولزُّوا في الدخول إلى المدينـة وشرعوا في اخراب الخانات بظـاهر البلد.

وبقي الأمـر على ذلك أيامـاً، ثم ضرب البـوق وخرج العسكر فـالتقوا عند ميـدان الحصا وأخذ مـن كل واحد مـن الفريقين جماعة، وخـرج من الرجالة خلق، ثـم بعث الملك الصالح يستدعى الملك المجـاهد صاحب حمص فاعتـذر بأنـه خائف على بلاده مـن صاحـب حماه ولم يأت، وسيرَّ مئتي رجـل نجدة فـأخذ بعضهم في البسـاتين، وسيروا الى الملك الكـامل فشنق منهـم في يوم واحـد نحواً من خمسين رجـلاً، ووصل بعضهـم وهـم مجروحـون، واستمر الخراب والقتـال بظاهـر دمشق مـن الدور والخانـات والجواسق والقنى، وقطع الأشجار، وصار كل مـن له غرض مع أحد وهو غائب، خرج الى داره فأخربها وربما حرقها.

ثم ضرب البوق وخـرجت المفاردة فالتقـوا عند الميدان من بعـد الظهر الى صلاة المغـرب، وأخذ مملـوكان من ممـاليك السلطـان وشيخ يقـال له الشخوصي، واصبـح الناس يخربـون وينهبون، ثـم ضرب البوق بعـد أيام وخرج جميـع العسكر الى قصر حجاج والتقـوا، فكانت الغلبـة للدمشقين وأخذوا مـن العسكر المصري خمسة عشر فارسـاً من جملتهم سيف الـدين ابن الغـول، صورة أخـذهم أنهم دخلوا خـاناً ليأخـذوا جمالاً كانـت فيه، فغُلـقَ عليهم البـاب وأخذوا وعُـرُّوا، وعُـرضوا على الملـك الصالـح، ولما عرضـوا عليه ابـن الغول كـان عريـاناً مكشـوف الرأس في أقبـح صورة، أنشد:

لاتـــزدرينـــي بـــأن تـــرى خلقـــي
فـــإنما الـــدُّرر داخـــل الصـــدف

فضحك منه الملك الصالح وأمر بحبسه، ثم أمر جماعة فضمنوه وأخرجه وأنعم عليه بعد ذلك بخلعه وعشرة دنانير وثلث، وأعجب شيء جرى لابن الغول هذا أنه لما أغلق عليه وعلى من معه الخان، كان معه كيس فيه دراهم فَحلَّهُ من وسطه ودفنهُ في الخان، فلما خرج من الحبس وضمنه الجماعة ذهب ونبشه وأخذه.

ولما كان السادس والعشرون من ربيع الآخر ضرب البوق وقت صلاة المغرب الى الصبح، وفُتحت الأبواب، وخرج العسكر فالتقوا في الميدان الى ارتفاع النهار.

وفي ذلك اليوم قتل سيف الدين بن شجاع الدين جلدك من أمراء ديار مصر، وجاؤوا به الى القلعة وبه رمق يسير، فكلمه الملك الصالح فلم يقدر على رد الجواب، ومات في تلك الليلة فغسِّل وكُفِّن، ثم سُيِّر الى العسكر فدفن هناك رحمه الله، وأحرقت في ذلك اليوم مدرسة عز الدين أيبك الوَّراقه وتلك الأماكن كلها.

ولما كان مستهل جمادى الأولى ضرب البوق، وزحف الملك الناصر داود صاحب الكرك من العقيبة الى أن قارب باب الفراديس، وزحف الأمير ركن الدين اليحياوي من جهة باب توما، ووصلوا الى جسر الباب بحيث كان النشاب يقع في المدينة، وربما قتل بعض العامة في المدينة، ولم يشك أحد في أن المدينة تهجم.

واستمر القتال الى الليل، وفي وسط الليل بعث السلطان الكامل فرحل الملك الناصر من العقيبة، ولما أصبح الصباح خرج الملك الصالح بالحجارين والزَّارقين والحرافشة فحرقوا ونهبوا وخربوا وردموا: العقيبة، وقصر حجاج، والشاغور، وباب توما، وباب السلام، واضطرب الناس في

المدينة اضطراباً شديداً خوفاً من أخذها بالسيف، وكان أشد ماعلى الناس بدمشق الطحين فإن الانسان كان يشتري غرارة القمح بخمسة وعشرين درهما ويطحنها بثلاثين درهماً، فمنَّ الله سبحانه بالرحمة ودخل محيي الدين بن الجوزي وكلم الملك الصالح في الصلح فأجاب الى ذلك، وعوَّضهُ عن السلطان رحمه الله بعلبك وأعمالها، مضافاً الى ماكان بيده من بصرى وأعمالها، وجمع الله الكلمة، وتم الصلح يوم الثلاثاء لتسع مضين من جمادى الأولى، ودخل السلطان رحمه الله الى القلعة في الساعة السادسة من يوم الاثنين منتصف جمادى الأولى، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً مارأى الراؤون مثله في عظمته وجلالته.

ثم تقدم السلطان الى عسكر حلب بأن لايقيموا بدمشق غير ثلاثة أيام، وعفا عمن خامر عليه، ودخل الى دمشق.

ولما ملك السلطان الكامل دمشق بعث الى الملك المظفر صاحب حماه منشوراً بسلمية، وكانت للملك المجاهد، وأمره بالتبريز إلى جهة حمص لتصل إليه العساكر ويجتمعوا على أخذها، فبرز إلى الرستن ونزل به وبعث نوابه الى سلمية فتسلموها، وأمر السلطان الملك الكامل عساكره بالنزول في ظاهر حماه، فنزلوا بالقابون، وبعث الملك المجاهد أهله الى دمشق يلتمس الصلح وبذل جملة عظيمة من المال فنزل أهله بالقصر، ولم يؤذن لهم في الدخول الى دمشق، وكان المتولي لأمرهم والساعي في الصلح بينهم الأمير سيف الدين بن قلج.

وجهز السلطان رحمه الله في تلك الأيام العساكر الى خدمة مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين خلَّد الله ملكه، نجدةً له على حرب التتر، وجعل المقدم عليهم الملك المظفر تقي الدين بن الملك الأمجد صاحب بعلبك وأخاه الملك السعيد.

وفاة السلطان الملك الكامل رحمه الله

واتفق مرض السلطان الملك الكامل قدس الله روحه، وتمادى به المرض واشتد إلى أن اختار الله له ماعنده، وقبضه إليه، وتوفاه، وكانت وفاته يوم الأربعاء آخر النهار، ودفن في غده يوم الخميس في الساعة الثانية منه، وذلك لتسع بقين من شهر رجب ولإحدى عشرة ليلة مضت من آذار، ولست عشرة ليلة مضت من برمهات، وكانت مدة ملكه لدمشق شهرين وإحدى عشرة ليلة، ومدة ملكه من حين توفي أبوه عشرين سنة وشهراً، وكان بين موته، وموت أخيه الملك الأشرف رحمهما الله ستة أشهر وستة عشر يوماً، وكانت مدة ملك الملك الصالح اسماعيل من هذه المدة أربعة أشهر وخمسة أيام، ومن العجب أنه ملك دمشق في هذه المدة أربعة ملوك أولهم الملك الأشرف، وآخرهم الملك الجواد بن مودود.

سيرته رحمه الله:

كان السلطان الشهيد الملك الكامل رحمه الله ملكاً عظيماً، حسن التدبير جيد السياسة، فاضلاً عالماً محباً لأهل العلم مائلاً إليهم، وكانت له هيبة عظيمة في قلوب أعدائه، وكانت السبل في أيامه آمنة لكثرة قمعه المفسدين، وردعه لهم ومعاقبتهم بأشد العقوبة بحيث كان المتوجه إلى الديار المصرية والخارج منها يمر في تلك الرمال المقفرة والبراري الموحشة مع بعدها عن العمارة من غير حاجة إلى أنيس أو خفير، ويحمل معه من الذهب والفضة ماأراد فلايتعرض له أحد من قطاع الطريق، ولايخاف إلا الله تعالى، وليس سبب ذلك إلا حُسْنُ سياسة السلطان وجودة ضبطه للأمور، وآتاه الله مالم يؤت أحداً من ملوك أهل زمانه، وخافته ملوك الأرض قاطبة، ثم زال ذلك كأن لم يكن فسبحان الباقي في ملكه الدائم في سلطانه.

ولو خَلَّدَا المُلكُ العقيم حُلاحلاً
حوى الملك وانقادت الى أمره الأمم
لَخَلَّدَ فينا الكامل الملك الذي
له خضعت غُلْبُ الممالك والقمْ
وحسن قضاء الله ماعنه معْدلٌ
ولا موجل مما به الله قد حكم
فمن بعده حار الدليل وأظلمت
مسالك آمال العزائم والهمم
ونادى لسان الحال جهراً وقد دجى
صباح المعالي وانقضت دولة الكرم
فمن لبني الآمال بعد محمد
فقلت لهم أيوب قالوا: نَعَمْ نَعَمْ
صدقت وأبدوا فرحةً ومسرَّةً
وعادوا الى ماعُوِّدُوْهُ من النِّعم
وما كان إلا الشمس غابت وقد بدا
لنا بعده بدرٌ جَلاَ الشكَّ والظلم
فَحُسْنٌ وحُزنٌ ترحةٌ قبل فرحة
بذا الملكُ الباقي وذاك الذي انصرم
فلابَرِحَ الباقي سعيداً مُخَلَّداً
وجاء ثرى الماضي حَيَاهاطِلَ الدِّيَمْ

فرحم الله السلطان الملك الكامل وقدس روحه، فلقد رزىء الاسلام بمماته، وفات الأمن بوفاته، وأبقى ولده مولانا السلطان العالم العادل مالك الرق الملك الصالح نجم الدنيا والدين، ما اختلف العصران، وتعاقب الجديدان، مظفراً على أعاديه، وأضداده، فائزاً بمنتهى أربه، وغاية مراده.

ذكر الحوادث الكائنة بعد السلطان الملك الكامل قدس الله روحه

ولما توفي السلطان الملك الكامل رحمه الله كان ولده مولانا السلطان الملك الصالح نجم الدين أبو الفضل أيوب أعز الله أنصاره بالبلاد الشرقية، وهي البلاد التي كانت بيده في حياة والده، وكان ولده الملك العادل سيف الدين أبو بكر بالديار المصرية، وكان بدمشق ابنا أخيه الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل، والملك الناصر، فاجتمعت كلمة الأمراء على أن يقرر الملك الجواد بدمشق نائبا عن الملك العادل وقائماً مقامه بالبلاد الشامية، فدخل القلعة وأحضر الامراء واستحلفهم قاطبة للملك العادل، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وكان الملك الناصر بداره المعروفة بعز الدين سامة، فخرج منها إلى قصره بالقابون، فأقام به مديدة، ثم توجَّه إلى بلاده، وسيَّر الملك الجواد الحلقة وأكثر الأمراء إلى الديار المصرية، وترك بقية العسكر عنده مع عسكر دمشق.

واتفق أن الملك الناصر نزل الى البلاد الساحلية، ووضع يده على غلاتها وشحنها، وجمع العساكر واستخدم وانضمت إليه طائفة عظيمة من العربان واللاَّوية، وعزم على قصد دمشق وتملكها، ونزل بغزة.

ولما بلغ ذلك الجواد خرج من دمشق فيمن كان عنده من العساكر المصرية والدمشقية، وأمده الملك الصالح صاحب بعلبك بعسكر، ونزل إليه عز الدين أيبك بنفسه، ومضى الملك الجواد اليه الى عين جالوت فنزل بها، فقصده الملك الناصر في جمع قليل من أصحابه، وأكثر عسكره متفرقون في أخبازهم، فأوقع بهم عسكر دمشق على غرة قريباً من سبسطية في العشر الأوسط من ذي الحجة، فهزموهم وأخذوا جميع ماكان معهم من الأثقال والأموال.

ووصل الملك الجواد الى نابلس فنزل بها مخيماً وشحن عليها، ولم يزل مقيماً بها الى آخر السنة، وفارقته العساكر المصرية وتوجهوا الى الملك العادل.

وأما الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور صاحب حماه أبقاه الله فإنه بلغه وفاة خاله السلطان الملك الكامل قدس الله روحه، وهو مقيم بالرستن في مقابلة الملك المجاهد صاحب حمص، فرجع الى حماه وأقام بها العزاء بالجامع الأعلى، وظهر عليه من الحزن والأسف مايتجاوز الوصف والحدّ، إذ كان الملك المظفر للسلطان رحمه الله بمنزله الولد حنواً عليه واشفاقاً به ومحبة له.

ولما بلغ الملك المجاهد وفاة السلطان رحمه الله، بعث ولاته إلى سلمية فوضعوا أيديهم عليها، وشرع في الإغارة على بلد حماه واخراب ضياعها، واراد قطع النهر العاصي عنها فلم يتمكن إلا من قطع بعضه مدة ثلاثة أيام، ثم رجع قسراً بعد أن خرب لصاحب حمص مواضع كثيرة من أراضيه وضياعه.

ولما بلغ الحلبيين وفاة السلطان رحمه الله وصل عسكرهم الى المعرة، فاستولوا عليها، وأخذوا ماوجدوه بها من الحواصل، وإنما فعلوا ذلك لميل الملك المظفر عنهم الى السلطان رحمه الله، ونصرته له، وانتمائه اليه، ثم نازلوا قلعة المعرة وحاصروها حصاراً شديداً وضربوها بالمجانيق ثم فتحوها بالعشر الأخير من شهر شعبان بعد أن قتل من الحلبيين عليها جماعة كثيرة.

وقبيل فتحهم لها أوقع أصحاب الملك المظفر بجماعة من عسكرييهم المقيمين بشيزر بين شيزر وكفر طاب وقعة عظيمة، أخذ فيها منهم جماعة كبيرة أسرى، وأدخلوا إلى حماه في أقبح صورة، وقد أثخنت فيهم الجراحات، وانهزم الباقون الى شيزر، وقد كاد الرعب أن يقضي عليهم.

ولما دخل شهر رمضان اجتمعت العساكر الحلبيون كلهم بشيزر، وأخذوا في الإغارة على بلد حماه، وإخراب ضياعها ونهب زراعاتها، وفي كل مرة يقتل منهم الملك المظفر قتلاً عظيماً، ويهزمهم أقبح هزيمة، ثم يشن الغارات على بلادهم ورساتيقهم فينال منهم أضعاف مانالوا منه.

ولم يزل الأمر مستمراً على ذلك الى آخر شهر رمضان، ولما دخل شهر شوال جاء العسكر الحلبي الى حماه فنزلوا قريبا منها من جهة الشمال، واستمر القتال بينهم وبين الملك المظفر، وفي كل وقعة ينتصف منهم ويظهر عليهم هذا مع ضعف جنده، وقلة عددهم وقوة عدوه، وكثرة مددهم، ولو كان معه مثل ربعهم لم يثبتوا قط في مقابلته.

واستمرت الحرب والمقاتلة بين الفريقين الى آخر السنة، ثم رجعوا عنه الى بلادهم وقد يئسوا من بلوغ مرادهم وأما الجواد (٢٥)...لكائنة بالشرق في هذه السنة، فإن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قصد سنجار مريداً حصارها، وبها مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلد الله ملكه، فنازلها عسكر الموصل وزحف إليها.

وبينما هم في ذلك وقد حدثتهم أنفسهم بما لم يظفرهم القدر به إذ أتت إليهم عساكر مولانا السلطان المعروفون بالخوارزمية، وهم عالم لايحصى ولايعد ولايحصر ولايحد، فرحل عسكر الموصل خائبين وولوا على الأعقاب منهزمين، واستأذنت الخوارزمية مولانا السلطان في قصدهم ومقابلتهم ومفاجأتهم بالمحاربة ومناجزتهم، فأذن لهم فأوقعوا بهم وقعة طبق آفاق الدنيا ذكرها، وطاب خبرها للأسماع، كما راق الأخبار بصرها، فاستولوا على جميع ماكان معهم من الأثقال ونفائس الذخائر والأموال.

ثم جرت بين المواصلة وبين مولانا السلطان مراسلات آخرها أنهم انقادوا لأوامره ومراسمه تابعين، ودخلوا في الطاعة فظلت أعناقهم لها

خاضعين، وكانت هذه الوقعة من الوقائع الغريبة، بل من أقوى الدلائل على سعادات مولانا العجيبة، وكانت نفوس أوليائه أعز الله نصره متحققة من لطف الله أنه ولابد وأن سينصره، ومستشهدةً بما سلف لهم من معجزات سعده الباهر أنه على أعدائه انه سيظهره، لكنهم أحبوا تعجيله ليجتمع لهم مع رؤية القلب رؤية البصر فإن الاعتقاد وإن كان يقيناً، لكنه ليس كالنظر.

سنة ست وثلاثين وستمئة

في هذه السنة ورد الأمر من مصر الى الملك الجواد بالرحيل عن نابلس [فقام] بالرحيل عنها متوجها الى دمشق، ورجعت إلى نابلس ولاة صاحبها الملك الناصر داود، ووصل الملك الجواد الى دمشق في مستهل صفر.

كسرة الروم

وفي هذه السنة خرجت عساكر سلطان [الروم] في عالم عظيم مُديلين بزعمهم الإيقاع بالخوارزمية ليمنعوهم من إنجاد الملك المظفر صاحب حماه، فأوقعت بهم الخوارزمية وقعة عظيمة، أقرّ الله بها عيون أولياء مولانا السلطان بما منحه فيها من الظفر والفتح، وشرح قلوباً من أوليائه استعجم عليها الأمر، فاحتاجت إلى الشرح، وأوضح للراسخين في العلم بسعادة مولانا الفراسة ونسج آمال الأضداد فنسوها فاعجب لقلوب تنسيها الدراسة.

وفي هذه السنة قدم الأمير عماد الدين ابن شيخ الشيوخ من مصر

رسولاً الى الملك الجواد، فأنزل بالقلعة بدار المسرة، وكان مضمون رسالته فيما شاع على الألسنة طلب تسليم دمشق الى نواب الملك العادل على أن يعوض الملك الجواد خبزاً بمصر، وأن يخرج الملك المجاهد صاحب حمص من دمشق وكان بها، وأن يُطالبَ بحمل ماكانَ بذَلهُ للسلطان الملك الكامل قدس الله روحه، فلم تقع الإجابة إلى ماطلب.

وكاتب الملك الجواد ابن عمه مولانا السلطان مالك الرق الملك الصالح خلَّد الله ملكه، وسأله سرعة القدوم، فسار إليها خلَّد الله ملكه، والتقاه الملك المظفر صاحب حماه في عسكره، وسار في خدمته الى دمشق، وذلك في العُشر الأخير من جمادى الأولى.

وفي يوم الثلاثاء لأربع بقين من جمادى الأولى وثب على الأمير عماد الدين بن الشيخ ثلاث نَفرٍ، وقد خرج من دار المَسَرَّة يريد التنزه بظاهر البلد فقتله أحدهم غيلة، ثم قُبض عليهم بعد أن جُرح القاتل جراحةً مثخنةً، واعتقلوا وذلك وقت العصر من اليوم المذكور.

وفي غُدوة هذا اليوم، توجه صاحب حمص الى بلده وكانت مدة مقامه بها قريباً من ستة أشهر، ولما كان يوم الجمعة لليلة بقيت من الشهر وهو السابع من كانون الثاني أقيمت الخطبة بدمشق لمولانا السلطان الملك الصالح مالك الرق خلد الله ملكه، ونثر نثاراً كثيراً، فتزينت بذكره المنابر وانجلت بملكه ظلمات الظلم، وشمس العدل تجلت.

استيلاء مولانا السلطان الملك الصالح العالم العادل مالك الرق خلَّد الله ملكه على دمشق

ولما كان يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة وصل السلطان الملك

الصالـح الى دمشق ودخلها في الساعـة الخامسة من النهـار في أكمل زي وترتيب، وزينت البلدة لقدومه بكل نفيس من الزينة وغريب، فالحمد لله على مامنَّ به من هذه الدولـة التي شيِّد بها منار الكرم والعدل ونفقت في زمنها بضائع الأدب والفضل.

وكان يوم دخـوله الى القلعة يوماً مشهـوداً، أقرَّ الأعين، وأبهجها وشرح الصدور وأثلجها، فيـالهُ من يوم ماكـان أحسن موقعه مـن قلوب الأولياء وأشدَّه إرغـاما لمعـاطس الأعـداء، فتشرفت بملكـه أعز الله نصره الممالـك وزاد بهاؤها وتشربت به السلطنة وأشرق ضياؤها.

ذكر بعض مناقب مولانا السلطان الملك الصالح خلد الله ملكه، وفضائله

إن الله تعالى وَلـهُ المنةُ، قـد جمع لمولانا السلطان الملـك الصالـح العالم العـادل نجم الـدنيـا والـدين أعـز الله أنصـاره، وضـاعـف اقتـداره، مـن الصفات الجليلة، والأفعال الجميلة، وكـرم الاخلاق، وطيبة الأعراق، وفرط السخاء، والبـذل، وحسن السيـاسة والعـدل، وصحة الطـويَّة، وخـلاص النيـة، والشجاعـة التي تضرب بها الأمثـال، وتفـرقُ لها في حومـة الوغـى الأبطال، مافاق به سائر ملـوك العصر، بل جمع من سلف من الملوك على تقادم الدهر فهو أحق بقول السلامي:

يـــزور نـــائلـــك العـــافي وصـــارمـــك الـــ
عـــاصي فتحـــويهما أيـــدٍ وأعنـــاق

في كـــل يـــوم لبيـــت المجـــد منـــك غنـــىً
وثـــروة ولبيـــت المال إمـــلاق

كـــم خُفـــت مـــن لجة للنقـــع زاجـــرة
مـــاءُ المنـــون بها حـــاشـــاك دفـــاق

في فتيــة مــن ليــوث الحرب قــد حفظــت
بــا المرهفــات لهم في الــروع أرمــاق،
مــن كــل بعــل حيــاة ولا يعــاقــدهــا
إلا على أنـــــه في الحرب مطــــلاق
إمــامُ كــل خميــس يــوم كــل وَغَــى
كــأنــه في سطــور الخيــل إلحاق
رُم أيــن شئــت مــن الــدنيــا تنلــهُ فما
للبر عـــرض ولا للبحـــر أعماق
مــن شــك أنــك مخلــوق لتملكــه
كمثــل مــن شــك ان الله خــلاق
فللسمـــاء سمـــاء من عــلاك ولــلآفـ
ـاق مــن ذكــرك المحبــوب آفــاق

فأما الكرم فقد جدَّده بعد أن درس معناه واعتقد أنه لفظٌ لم يخرج الى الوجود قط معناه، فأفاض عليه الدَّعة منذ وليهم سيب نواله، وعمَّهمُ بمترادف برده وجزيل أفضاله، وأما الشجاعة فقد بلغ منها أعز الله نصرة غاية لايبلغُ قط مداها ولايدرك أبد الدهر منتهاها.

وأما العدل فقد أنسي به كسرى صاحب الايوان، وأما حسن السياسة فقد نسخ بها ماسطر في الكتب عن ملوك الزمان، فهو خلد الله ملكه إذا كان غيره من الملوك مستغرقاً في القيان والمعازف كان مشغولاً بالعلوم والمعارف، وإن أفنوا أوقاتهم بالخمر والقمر، أنهى أوقاته بالنهى والأمر.
مليــكٌ إذا ألهى الملــوك عــن النهــى
خمار وخمر هــاجــر الــدلّ والــدّنــا
ولم تنســه الأوتــار أوتــار فتنــة
إذا مــا دعــاه السيـف لم يــدعــه المثنـى
ولــو جــاد بــالــدنيــا وعــاد بضعفهــا
لظــن مــن استصغــارهــا أنــه ضنــا

ولاعيب في أنعامه غير أنه
إذا من لم يتبع مواهبه منّا
ولاعيب في إقدامه غير أنه
لبوس إلى أعدائه الضرب والطعنا

ولو لم يكن من صفاته الحسنة الحميدة ومآثره الرضية السديدة إلا مواظبته على الصلوات المفترضات ومحافظته على آدابها في جميع الحالات، وتجنبه لارتكاب الفواحش المحرمات، وعفته التي توجب له عند خالقة تعالى أسنى الرتب وأرفع الدرجات، لكفى بذلك سؤددا، ونبلا وشرفاً وفضلاً، فلقد حدثني لخير واحد ممن أثق به أنه خلد الله ملكه ماترك صلاة مفترضة ولاأخرها عن وقتها، ولو كان في مجلس لهوه، ولاارتكب فاحشة مذ نشأ إلى يومنا هذا، فأوجب لي هذا والله لما سمعته طربا، وقضيت لما حكي لي عجبا، إذ لم أسمع بمثل ذلك عن ملك شاب من الملوك الماضين، ولاأحد من السلاطين المتقدمين، فلله هو ماأشرف هذه الحالة الرضية، وماأشد صفاء هذه النفس الزكية، واعلم إنَّا إن رمنا استقصاء مآثر مولانا السلطان خلد الله ملكه لكنا قد رمنا حصر مالانهاية لعدده ولامطمع في بلوغ غاية أمده، فليكن هذا آخر ما أردنا اثباته في هذا إلكتاب، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم

وكان الفراغ من....

حواشي وفيات الأعيان

١- أي كيس للذهب او الفضة

٢- ديوان ابن عنين - ط. دار صادر بيروت ص ٣ - ٨

٣ - توفي أنر قبل استيلاء نور الدين على دمشق.

٤- ديوان البحتري - ط. دار صادر - بيروت ج ١ ص ٤٣٥

٥- اديم مقروظ : دبغ او صبغ بالقرظ، وهو ثمر السنطـ أو ورق السلم القاموس

٦- مشهورة قصة مؤامرة الخوارج لاغتيال كل من الامام علي كرم الله وجهه، ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص، وفي الموعد المحدد لاغتيال عمرو لم يخرج الى المسجد وناب عنه القاضي خارجه، فتعرض للاغتيال، وحين واجه الخارجي عمرو بن العاص، وعرف ما حدث قال : اردت عمراً ، واراد الله خارجة.

٧ - ليست في ديوانه المطبوع

٨ - ديوان سبط ابن التعاويذي - ط . دار صادر بيروت ص ٤٧١ - ٤٧٣

٩—ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

١٠— ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٢ - ٢٣ .

١١— ديوان النابغة الذبياني - ط . دار صادر بيروت ص ١١ .

١٢—ديوان بهاء الدين زهير - ط . دار صادر بيروت ص ١٩٠ ,

١٣— ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٣ .

١٤—ديوان بشار بن برد - ط. بيروت ١٩٩٣ ص ٦١٢ .

١٥—ديوان المتنبي - ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٣ .

١٦—ديوان ابن عبدون - ط . بيروت ١٩٨٨ ص ١٣٩ - ١٤٤ هذا وشرح قصيدة ابن عبدون أكثر من شارح، ولعل أهم الشروح وأوفاها، ماقام به ابن الأثير الحلبي، وحمل شرح ابن الأثير عنوان « عبرة أولي الأبصار في ملوك الأمصار» وجرى تحقيق هذا الشرح في رسالة ماجستير قدمت باشرا في في كلية الآداب في جامعة دمشق عام ١٩٩٢ .

حواشي تاريخ المنصوري

١—المرجح عدم التقاء ابن تومرت بالغزالي.

٢—تفاصيل ذلك لدى ابن القلانسي ص ٣٥١—٣٥١ .

٣—سونج بن بوري اعتقله زنكي ثم أطلقه مقابل تسليمه دبيس بن صدقة. ابن القلانسي ص٣٦٦—٣٦٧ .

٤—كذا وهو وهم، فنور الدين بدأ نشاطه بعد مقتل أبيه في العام التالي.

٥—كذا وهو وهم، حيث أسر سنجر من قبل كافر ترك سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م في خراسان، وبقي في الأسر ثلاث سنوات، هرب بعدها، ووصل إلى مرو حيث توفي بعد وقت قصير. انظر زبدة التواريخ لأبي الحسن على بن ناصر الحسني—ط لاهور ١٩٣٣ م، ص٨٤—٩٦ .

٦—بويع المستنجد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

٧—أي التراب والغبار.

٨—بركة الجب خارج القاهرة في الجبهة البحرية منها.

٩— أي على ماردين لمتابعة حصارها.

١٠—حصن منيع في اليمن هو ومدينة دملوه خرائب وأطلال. معجم المدن والقبائل اليمنية.ط.صنعاء, ١٩٨٥

١١—حب حصن من أمنع معاقل اليمن وأصعبها مرتقى. معجم المدن والقبائل.

١٢—مدينة تهامية كانت قائمة بالشرق من الزبيرية على شط ميزاب وادي سردد، وكانت تعد قديماً عاصمة تهامة الشمالية. معجم المدن والقبائل اليمانية.

١٣—بلدة وناحية دون زبيد. معجم البلدان.

١٤—كذا بالأصل، وفي معجم ياقوت«الجنابذ ناحية من نواحي نيسابور» ولعل الاسم تصحيف «الجنات»وهي بلدة في جبل الصلو شمال الدملوه. معجم المدن والقبائل اليمنية.

١٥—لم أقف على معنى هذه الكلمة، ولعلها بعض الأشياء المصنعة من الجلد.

١٦—باشزا بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

١٧— هي نيسابور الايرانية.

١٨—هي عند ياقوت «اندخوذ» بين بلخ ومرو.

١٩—السلامية أكبر قرى الموصل ينسب إليها أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أحمد السلامي المعروف بضياء الدين ابن شيخ السلامية، ولد بها بسنة ٥٤٦ أو٥٤٥، ونشأ بالموصل وتفقه بها وحفظ القرآن، عمل وزيراً لصاحب آمد، وكان حيا سنة ٦٢١ . معجم البلدان.

٢٠—بلد بين الساحل وحمص. معجم البلدان.

٢١—كانت قلعة رباح من أعمال طليطلة. معجم البلدان.

٢٢—هي تستر، أكبر مدن خوزستان. معجم البلدان.

٢٣—هي في أطراف شمال الصين.

٢٤—عند النسوي في سيرة جلال الدين منكبرتي ص ٣٩«الترجمي» هو اسم قبيلة جنكيز خان، ويتضح من سياق رواية المؤلف بعض التداخل في الأسماء.

٢٥—الجتر كلمة فارسية تعني المظلة، وكانت تشبه القبة من الحرير الأصفر المزركش على رأسها طائر من الفضة طلي بالذهب، وهي شعار السلطنة. النسوي ص ٥٤ .

٢٦— فراغ بالأصل، استدرك من سياق ماتقدم من أخبار سنة سبع عشرة وستمائة.

٢٧—كذا بالأصل وهو تصحيف صوابه«الهنتاني». انظر الحلل الموشية ص١٦٠ .

٢٨—البشنوني هو بيدرو الثاني ملك أراغون. والنبري هو سانجو السابع. وولد الرنك هو ألفونسو هينر بكيز ملك البرتغال، والبابوج هو ألفونسو التاسع ملك ليون.

٢٩—من أنواع الياقوت الفاخر.

٣٠—فخر الدين بن تيمية، له ترجمة في وفيات الأعيان لابن خلكان.

٣١—الأشكري هنا هو الامبراطور البيزنطي.

٣٢—قلعة شرقي حلب، وهي الكختا.

٣٣—من الملك المعظم والملك الأشرف.

٣٤—الامبراطور فردريك الثاني.

٣٥—كذا بالأصل وهو وهم لأن جلال الدين حسن توفي سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م وخلفه علاء الدين محمد[٦١٨—٦٥٣/ ١٢٢١—١٢٥٥].

٣٦— لعلها سكما ناباذ التي ذكر النسوي في سيرة جلال الدين ص٢٦٠ وصول الحاجب علي إليها.

٣٧—من قلاع أرمينية. معجم البلدان.

٣٨—خوي من أعمال أذربيجان. معجم البلدان.

٣٩—وظيفته أمير جاندار تشبه وظيفة الحاجب فهو الذي كان يستأذن للأمراء بالدخول على السلطان.

٤٠—أرزنجان بلدة قريبة من خلاط. معجم البلدان.

٤١—هو يوهان دي أبلين.

٤٢—بلدة من أعمال خلاط.

٤٣—الدويدار هو حامل الدواة وحافظها لدى السلطان أو الخليفة أو الملك.

٤٤—حماسة أبي تمام.ط. القاهرة ١٣٢٩ ج١ ص١٠ .

٤٥— قلعة حصينة في أذربيجان.معجم البلدان.

٤٦—قلعة قطور قرب تبريز.

٤٧—رخت كلمة فارسية معناها المتاع.

٤٨—بلدة بالجزيرة. معجم البلدان.

٤٩—ديوان المتنبي.ط. بيروت ١٩٥٨ ص٣٣٣ .

٥٠—احدى قرى حلب. معجم البلدان.

٥١—أي الذي يضرب له الطبل، أي القيادة له.

٥٢—التلاكش فارسية معناها الجعاب.

٥٣—بلد من نواحي خلاط. معجم البلدان.

٥٤—هي عند النسوي في سيرة جلال الدين ص٢٧٥«نوشهر» أي المدينة الجديدة، والمقصود بها نيسابور.

٥٥—الدوشاخ قائد قطعة عسكرية.

٥٦—قلعة قرب آمد.

٥٧—طمس بالأصل والقراءة تقديرية.

٥٨—في هامش الأصل:«وكان الملك الكامل قد عزم على اخراب ا لحصون التي تسلمها لآمد، فخرب قلعة الجبابرة وأكل، فلما اتفق قضية كركر مع الرومي، رأى ترك الحصون إلى وقت آخر، وصوب الناس رأيه في ذلك. صح».

٥٩—بابلوا من القلاع التابعة لآمد.

حواشي التاريخ الصالحي

١ - كذا والمعروف ان الذي خلف رضوان هو ابنه ألب أرسلان المعروف بالأخرس.

٢ - المرجع أن مسعودا كان قد توفي وأنهما ذهبا للسعي بتثبيت جاولي

٣ - بالأصل «حلب» وهو خطأ صوابه الذي أثبتناه.

٤ - المراد بمعين الدين هو «أنر» الذي دبر أمور دمشق، وليس هناك مايؤكد وجود أخوة بينه وبين مجير الدين.

٥ - هذا هو الصحيح، لأن ألب أرسلان، كان قد قتل إثر فتكه بجقر أيام زنكي.

٦ - كذا بالأصل، وهو رقم خيالي، ولعل العدد لم يتجاوز السبعة آلاف.

٧ - سورة النحل - الآية: ٩١.

٨ - في هامش الأصل: قال الناظر في هذا الكتاب كانت دولة خلفاء بني فاطمة بالمغرب ومصر مائتي سنة وست وستين سنة، بمصر مائتي سنة وثماني سنين.

٩ - في هامش الأصل: كذبت في لحيتك ياكافر يافاسق آل بيت الرسول زنادقة؟! لا والله مافعل خير في حق أهل البيت، ولكن الله هو الفاعل المختار، والله أعلم.

١٠ - الممدوح هو الخليفة المعز لدين الفاطمي، والمادح هو ابن هانيء الأندلسي. انظر ص١٤٦ من ديوانه - ط . دار صادر بيروت.

١١ - سورة النازعات - الآية: ٢٤.

١٢ -تبعد بقايا رقاد عن القيروان قرابة العشرة أميال.

١٣ - طمست جل مواد هذه الصفحة بالأصل المخطوط.

١٤ - ديوان سبط ابن التعاويذي ص٢٣٦ - ٢٣٩.

١٥ - أي تفرق الكلمة وذهاب العز. القاموس.

١٦ - سورة النمل - الآية: ٣٠.

١٧ - باشزى: بليدة من كورة بقعاء الموصل، قرب برقعيد، بين جزيرة ابن عمر ونصيبين. معجم البلدان.

١٨ - كانت بورة حصنا على ساحل البحر من عمل دمياط، اسمها الآن كفر البطيخ. معجم البلدان. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية لمحمد رمزي - ط. القاهرة ١٩٩٤ ج٢ ق٢ ص٧٨ - ٧٩.

١٩ - بليدة بمصر من جهة دمياط. معجم البلدان. رمزي ج٢ ق٢ ص٨٦.

٢٠ - كذا بالأصل، وفي مفرج الكروب ج٤ ص١٣٨ «قطنه» وفي كل من ذيل الروضتين ص١٣٣، ومرآه الزمان ج٢ ص٦٢٥ «ضمير» وهذا أقرب الى الصواب، وعندهما كان ذلك سنة ٦٢٠.

٢١ - سينيز: بلد على ساحل بحر فارس أقرب الى البصرة من سيراف، وتقرب من جنابة. معجم البلدان.

٢٢ - في مرآة الزمان ج٢ ص٦٣٦: «أفضت الخلافة إليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهوراً، فقيل ألا تفتتح [أي تتزوج]؟ فقال: قد فات الزرع، فقيل له: يبارك الله، فقال: من فتح دكانا بعد العصر إيش يكسب».

٢٣ - إبلستين: مدينة مشهورةببلاد الروم (سلاجقة الروم) معجم البلدان.

٢٤ - هي قعلة بانياس الداخل، ويطلق عليها الآن اسم «قلعة النمرود»

٢٥ - سقط - كما يبدو - من الأصل مالايقل عن ورقة. انظر مفرج الكروب ج٥ ص١٧٤ - ١٨٧.

المحتوى

٢٩٦ـ سنة ٤٩٤
٢٩٧ـ سنة ٤٩٥
٢٩٧ـ سنة ٤٩٦
٢٩٧ـ سنة ٤٩٨
٢٩٧ـ سنة ٤٩٩
٢٩٧ـ سنة ٥٠٠
٢٩٧ـ سنة ٥٠١
٢٩٨ـ سنة ٥٠٢
٢٩٨ـ سنة ٥٠٣
٢٩٨ـ سنة ٥٠٤
٢٩٨ـ سنة ٥٠٥
٢٩٨ـ سنة ٥٠٦
٢٩٨ـ سنة ٥٠٧
٢٩٩ـ سنة ٥٠٨
٢٩٩ـ سنة ٥٠٩
٢٩٩ـ سنة ٥١٠
٢٩٩ـ سنة ٥١١
٢٩٩ـ سنة ٥١٢
٢٩٩ـ سنة ٥١٣
٢٩٩ـ سنة ٥١٤
٣٠٠ـ سنة ٥١٥
٣٠٠ـ سنة ٥١٦
٣٠٠ـ سنة ٥١٧
٣٠٠ـ سنة ٥١٨
٣٠١ـ سنة ٥١٩
٣٠١ـ سنة ٥٢٠
٣٠١ـ سنة ٥٢١
٣٠١ـ سنة ٥٢٢
٣٠١ـ سنة ٥٢٣
٣٠٢ـ سنة ٥٢٤
٣٠٢ـ سنة ٥٢٥
٣٠٢ـ سنة ٥٢٦
٣٠٢ـ سنة ٥٢٧
٣٠٢ـ سنة ٥٢٨
٣٠٢ـ سنة ٥٢٩
٣٠٣ـ سنة ٥٣٠
٣٠٣ـ سنة ٥٣١
٣٠٣ـ سنة ٥٣٢
٣٠٣ـ سنة ٥٣٣
٣٠٤ـ سنة ٥٣٤
٣٠٤ـ سنة ٥٣٥

-٣٠٤	سنة ٥٣٦
-٣٠٤	سنة ٥٣٧
-٣٠٥	سنة ٥٣٨
-٣٠٥	سنة ٥٣٩
-٣٠٥	سنة ٥٤٠
-٣٠٥	سنة ٥٤١
-٣٠٥	سنة ٥٤٢
-٣٠٥	سنة ٥٤٣
-٣٠٦	سنة ٥٤٤
-٣٠٦	سنة ٥٤٥
-٣٠٦	سنة ٥٤٦
-٣٠٦	سنة ٥٤٧
-٣٠٦	سنة ٥٤٨
-٣٠٧	سنة ٥٤٩
-٣٠٧	سنة ٥٥٠
-٣٠٧	سنة ٥٥١
-٣٠٧	سنة ٥٥٢
-٣٠٧	سنة ٥٥٣
-٣٠٨	سنة ٥٥٤
-٣٠٨	سنة ٥٥٥
-٣٠٨	سنة ٥٥٦
-٣٠٨	سنة ٥٥٧
-٣٠٨	سنة ٥٥٨
-٣٠٩	سنة ٥٥٩
-٣٠٩	سنة ٥٦٠
-٣١٠	سنة ٥٦١
-٣١٠	سنة ٥٦٢
-٣١٠	سنة ٥٦٣
-٣١١	سنة ٥٦٤
-٣١١	سنة ٥٦٥
-٣١١	سنة ٥٦٦
-٣١٢	سنة ٥٦٧
-٣١٢	سنة ٥٦٨
-٣١٢	سنة ٥٦٩
-٣١٣	سنة ٥٧٠
-٣١٣	سنة ٥٧١
-٣١٤	سنة ٥٧٢
-٣١٤	سنة ٥٧٣
-٣١٥	سنة ٥٧٤
-٣١٥	سنة ٥٧٥